

ولاء كمال
كوشكو
رواية



الدار المصرية اللبنانية

كمال، ولاء.

كوش كو: رواية / ولاء كمال. - ط 1. -

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2024.

440 ص؛ 20 سم.

تدمك: 8 - 435 - 795 - 977 - 978

1- القصص العربية.

أ - العنوان. 813

رقم الإيداع: 26594 / 2023



الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 202 23910250 +

فاكس: 202 23909618 + ص.ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2024م.

تصميم الغلاف الفنان: آدم عبد الغفار

تعبير الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصليل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويله أو الاقتباس منه، أو تحويله

«وهذا الخادم الفريد من نوعه يتجسد فيه كل ما أتمناه لمصر المستقبل. بنقاء سريرته وحسن سجيته، ولطف طباعه وسلامة فطرته التي يملئها نقاء قلبه، وميله النهم المذهل للمعرفة، وذكائه المتقدم، وحسن فضوله واستيعابه وسعة اطلاعه، وابتسامته الهادئة وسكون نفسه، ونظافته المبهرة وتفانيه في عمله وإيمانه بخطورة دوره مهما صغر. وهو لا يدرك كنه ذلك كله فلا يصيبه بفضله غرور أو اعتداد مذموم بالنفس. وجميعها صفات أتمناها لكل مصري ومصرية، وإن وُجدت فيهم لصارت بلائنا في شأن جديد ولقامت دون أن يقف دون قيامتها حائل».

مذكرات سعد زغلول

الجزء الثالث عشر

مدخل

مَن كان كوش كو؟

(1889-1948)

وُلد كوش كو عام 1889، بعد سبعة أعوام من دخول الإنجليز مصر، لتصبح بذلك محتلةً من الأوروبي العتيد، وتعاني من احتلال مزدوج جعل المصريين ثالث القاطنين درجةً بعد الأتراك.. ونوبييهم رابعهم.

ولد كوش كو إذًا في العام 89، وكان ذلك في بيت طيني بمدينة النوبة على ضفاف النيل تحت حكم حضرة صاحب السدة الخديوية توفيق ابن إسماعيل. كانت ولادةً سهلةً على أمه، التي بلغت في ذلك الوقت، بدون توثيق حقيقي يؤكد صحة هذا السن، 25 عامًا.

قد يكون مفيدًا لنا أن نعرف المزيد حول كوش كو، كيف كانت هيئته وشخصيته. ولكن دعنا لا نتوقف عند هذا الأمر كثيرًا، فسوف نرى في هذه السيرة الكثير مما عاشه ورآه، وسنعرف لماذا كانت حياته تستحق أن تُحكى في رواية كهذه. يكفي أن نقول إنه، شأنه شأن كل البشر الذين يأتون ويغادرون هذا العالم في كل لحظة، كان طفلًا، ثم شابًا، فكهلًا. كان أكثر سمرة من بقية المصريين بحكم نوبيته الأصلية، ولكنه أقل دكنة من غيره من الأفارقة. قد تكون هذه معلومة غير مهمة اليوم، أو غير مقبولة حتى أن نناقشها، ولكنها في الحقيقة تداخلت في حياته وشكلتها في منعطفات مصيرية، وشكلت تساؤلًا وجوديًا شغل كوش حتى آخر أيام حياته، ولذلك

فلا يستقيم أن نحاول معرفة كنه الحياة التي عاشها كوش دون أن نغير هذه النقطة. لكنه كان على كل حال، وفي كافة أطوار حياته، وسيقا، جميلاً، معتدل الجسم، أميل إلى الطول والنحافة، كامل الأسنان حتى قارب الخمسين، نشيطاً، متقد الذهن، بعينين واسعتين تنضحان ذكاءً وتتسعان دهشةً، وابتسامة هادئة لا تغادر فكّه المتسق.

وستظل الدهشة، طوال حياته، هي أكثر ما ميّز كوش كو. الدهشة التي تصاحبه وتلازمه أينما ذهب. لم يكن يدرك أبدًا مدى غنى حياته، ولا الأحداث والوقائع التي مرّ بها، وكان يتعامل معها جميعًا بقدر من عدم التيقن يجعله لا يفتن إلى فداحة تلك الأحداث وخطورتها على الأمة، ومكانتها التاريخية. وربما كان جهله هذا بخطورة الحوادث التي بات جزءًا منها هو ما جعله يمر بغمار تلك الوقائع بذلك القدر من البساطة الفطرية.

ماذا نحتاج أن نعرف أكثر عن كو قبل أن نبدأ في سرد رحلته العجيبة؟ آه، اسمه بالطبع! يبدو الاسم غريبًا، ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة لمن سقّوه. سقّي كوش تيمناً باسم المملكة القديمة التي قامت إثر تفكك أسرة المملكة الفرعونية الحديثة، فتمكنوا من أن يصبحوا ملوك أسرة فرعونية حكمت مصر بأكملها من أعالي النوبة، فهو إذًا لقب أسلافه الذين سكنوا أعالي النيل لآلاف السنين، أما كو فتعني «الأسد» في النوبية، وهو ليس اسم أبيه ولكنه ملحق باسمه الأول. أسد كوش هو إذًا، حفيد ملوك وملكات كوش، وسليل الإلهة ساتت والملك بعنخي. كثيرًا ما ناداه الأجنبي بالاسم الأسهل: كو، وهناك آخرون أحبوا الوقع الموسيقي لاسمه الكامل فكانوا ينطقونه

لفظًا متصلًا، كوشكو، كما كانت تفعل أجاثا، أما هو، كما كانت عاداته دائمة، فلم يكن لديه أي تفضيل بالمرّة.

حياة كوش وإن كانت ستخبرنا بشيء واحد فقط، وهو ما نشك فيه إذ ستخبرنا بأشياء وأشياء، فإنه سيكون أن العالم، والحياة، وتلك البقعة العجائبية من الدنيا المسماة مصر، أكبر من أن يستوعبها منطق الواقع وسؤال المعنى ورغبة الفهم. فالحياة خلقت لتعاش وليس لثفهم كما قال صديقنا الأسطوري كوش كو ابن أحد نجوع قرية أبريم بأرض النوبة العليا خلف الجندل الثاني بأسوان العتيقة.

القسم الأول

شبرد

الفصل الأول

من النوبة إلى الفندق العظيم

(1889-1901)

عاش كوش كو منذ مولده وحتى سن الثانية عشرة بأحد نجوع قرية إبريم فوق جزيرة صغيرة تطل عليها القلعة التي تحوطها المقابر الفرعونية المخيفة خلف جندل أسوان الثاني. تربى بين ست أخوات هو آخرهم على يد أمه، فقد مات أبوه قبل ولادته بشهرين وهو يدعو أن يرزقه الله بالولد، ولذلك لم يكن قدومه في أسعد الأوقات، بل خرج من رحم حزين استمر وصال حبله السري من الحزن غير المنقطع طوال حياته، ففرض عليه العزلة والهدوء خاصة خلال تلك السنوات الأولى لطفولته، فتعود الجلوس وحيداً يلعب بالأحجار التي يشكّلها كيفما شاء، ويخبطها بعضها ببعض على ضفة النهر، أو يسبح فيه فيتخيل التماسيح تراقبه بعيونها الكسالى، ويحدث نفسه بلسانه الفديجي المختلط بالعربية فيخبرها بكافة خيالاته الطفولية الواهمة.

تولى مسؤولية الأم وأبنائها السبعة خاله الذي لم يره كثيراً في تلك السنين سوى خلال زيارات الخال المتباعدة حين كان يعود من الغياهب فيظهر فجأةً ويختفي فجأةً. الخال الساكت، الذي سيكبر كو ليشبهه في كثير من سماته الشكلية دون أن يشاركه كثيراً من صفاته. الخال دائم التجهّم، قليل الكلام، ويحمل عبء الدنيا على كتفيه. لم يكن كو في تلك السن الصغيرة يدرك ماهية ما يفعله الخال ليكسب رزقه، ولكنه يعلم أنه يعيش بعيداً جداً في عالم غير عالمهم،

وأنه يعمل في خدمة الأجانب، تاركًا زوجته وأولاده في البيت المجاور لبيتهم الطيني الصغير.

قبل بلوغ كوش سن الثانية عشرة، وحين كان يعبت وحيثًا كعادته على ضفة النهر، أتاه صوت الخال الهادر معلنًا وصوله الجديد وسط نهار يوم صيفي قائف. وصل لتوه محملاً بالأواني الزجاجية وألواح الكاكو الصلبة المغلفة بالورق البراق ونقوش من أحرف عجيبة. ركض خلفه كو إلى الداخل فوجد أمه تتربع الأرض دامعة العينين. وضع الخال يده العملاقة على كتف الولد الصغير: «بعد يومين نشد الرحال إلى مصر.. ستعمل تحت إمرتي صبيًا معاونًا في الفندق». أوما كو برأسه في رعب دون أن يقول شيئًا. نظر إلى أمه فوجدها تطرق غارقة في همٍّ بعيد ولا تزال دموعها لم تجف. «إشبع من أمك وأخواتك ثم ودّعهم. لن تراهم بعد الآن حتى يأذن ربك والسيد ستيفنسون».

لحظتها كما سيذكر كوش فيما بعد، باغته شعور غصّ بالإثارة والخوف معًا. لا يعرف ما هي مصر. أليست النوبة مصر؟ ربما هي ولكن أصغر أو أبعد قليلًا، ربما مصر التي يقصدها الخال هي تلك البلاد البعيدة، الصاخبة والعجيبة، التي يأتي منها بتلك البضائع المبهرة والحلوى اللذيذة. لو كان كل من يعيشون بها بتلك الرهبة المظلمة التي يثيرها الخال في نفسه فإنها حتمًا بلادٌ مخيفة. ولكنه يرجو أن تكون أكثر إثارة من ذلك الصمت الذي يحوطه في كل مكان. بات كوش كو ليلته يحلم بذلك الذي سيأتي، هل سيجد أناسًا يتكلم معهم، ويلعب، وربما يعرف شيئًا جديدًا يبذل ذلك الصمت الطويل الذي يغرق فيه؟

لذا بات ليلته الأخيرة مستيقظًا يحلم وهو مفتوح العينين. ظلت أمه تدخل عليه بين الفينة والأخرى، تتحرك بيسر وخفة بين أجساد أخواته الراقصات بجانبه على الحصير. تحتضنه وتبكي. توصيه بأن يحفظ الله، ويحفظ نفسه، وألا يخالف كلمة خاله أبدًا. هو الآن رجل. ولكنّ كو لم يكن رجلًا بعد: سيدرك ذلك بعدها بسنوات حين تداعبه دغدغة خفيفة أول ما تقع عيناه على سيدة تلقم ثديها لطفلها في حديقة الأزبكية وهو برفقة صديقه. غلبه النوم أخيرًا في حضن أمه، ثم استيقظ في ظلام الفجر، حقمته وهو يرتعد وألبسته جلبابًا نظيفًا. وضعت في يده خبز الدوكا بالعسل الذي يحبه. وضعت راحتها على رأسه في رفق وقرأت القرآن. تفلت في طرف جلبابه الأبيض واسع الكُمّين وغطت رأسه بعمامة بيضاء صغيرة تناسب رأسه، وضعت صندوقًا من القصب المنسوج في قدميه وقبّلتها ووجنتيه ثم هرعت إلى الداخل دون الالتفات إليه مرة أخرى أبدًا.

صعدا فوق المركب التي ستقلهما إلى مصر رفقة رجال عرف بعضهم الخال فحيوه في احترام بالغ. طوال الرحلة التي دامت لأيام لم يقل شيئًا. قلما تحدّث في جلسات السمر التي يعقدها المرتحلون في المساء لتسكين وحشة النهر المظلم. طوال النهار يجلس في عين الشمس. يطيل النظر إلى ضفاف النهر بينما تسير المركب في تودة ووجهه يعلوه الصمت وكأنما يرتحل إلى الموت. عبارة واحدة فقط يكررها بينما يتهاذى جسداهما فوق النهر وهو يراقب وجه كوش الذي تتساءل عيناه الواسعتان متى يرى أمّه مرة أخرى: «الرحم يموت بالمغادرة». لم يسأله كوش عن معنى ما يقوله. فقد تعود الصمت في حضرة الخال.

في سبتمبر من العام الأول للقرن الجديد، استقبلته القاهرة الرجال العظيمة بصخب صم أذنيه. هذا الكم من البشر لم ير كو مثله في حياته، ولم تعد أذناه كل هذا الضجيج والصراخ، فأصابه دعر مفاجئ ما أن حظت المركب على شاطئ روض الفرج. جذبه خاله من يده دون أن يمنحه فرصة للاستيعاب ليسيرا بمحاذاة النيل الذي ليس كنيل الوطن، هنا هو أضيّق وأقل زرقة وشفاء. عبرا الطريق متفاديين الباعة الجائلين والمركبات والعربات التي تجرّها الخيول والحمير والبغال، ولكن الرعب الحقيقي كان حين وقعت عيناه على عملاق حديديّ كاد يدهسه لولا البوق الذي أثار في نفسه رعباً أكثر مما كان يتخيل، بدخان وكركرة وضجيج هائل من محركه والبوق الذي لم يسمع مثله قط. سارا بمحاذاة البنايات التي لم ير كو مثلها أبداً، بنايات ضخمة ترتفع عدة أدوار وبواجهات منقوش عليها تماثيل مخيفة أثارت في داخله رهبة لم يفهمها من الجمال وحضرة المعمار الطاعي. توقفا فجأة خارج إحدى تلك الأبنية الساحرة. مبنى مستطيل بواجهة عريضة تجمع عدة بنايات معاً، يطل على حديقة كبيرة سيعرف كوش فيما بعد أنها تسمى بحديقة الأزبكية، كبرى حدائق مصر الغناء، يتوسطها مبنى فخم لمسرح يحمل نفس الاسم، وهي الحديقة التي سيقابل فيها المتسكع الراقد على الدكة بعد وصوله بسنوات. على درجات المدخل استقبلهم شخص بدا في سن الخال وفي سمارٍ بغير درجة أهل كو، من هيئته عرف الصغير على الفور أنه من الكنوز. رداؤه أيضاً بدا مختلفاً، جلباب مقلّم مناسب لمقاسه وأكثر التصاقاً بجسده بأكامٍ ضيقة، وفوقه عباءة مقلمة

بخطوط لمعت في شمس العصر، وحول وسطه حزام عريض، وبدلاً من العمامة استقرت فوق رأسه قبعة مستطالة داكنة الحمرة في مثل لون الحزام. تحدثا بالكنزية ففهم كو بصعوبة ما يقولانه: سبب كل هذه الجلبة في الشارع جنازة رسمية تمر من أمامهم بعد قليل. سلّم عليه الرجل بابتسامة واسعة كشفت عن أسنان لامعة. لكزه خاله ليقبل يد الرجل: «هذا خولي، صديقي ومعلمك». «أهلاً بك يا ولد في فندق شبرد العظيم!» قال الرجل بصوت هادر. وقف كو فاتحاً فمه وسكت خشيةً وأراد الاختباء داخل ثوب خاله. فجأة أتى صوت خطوات جماعية هادرة فسكت الجميع وانتحوا جانب الطريق. طالع كوش المشهد المهيّب في صمت مثل الجمع حوله، خلع معظمهم طربوشه، بينما مرّ عسكريون بملابس رسمية كحلية وشوارب هائلة، وخلفهم عربة تجرها الجياد وتحمل نعشاً مغلقاً في علم الخديوية الأحمر بهلاله ونجمته. خولي، صديق الخال المرح، مال على كو وهمس في أذنه: «اقرأ الفاتحة للحامولي أفندي، أجمل من صدح صوته في المحروسة!».

منذ الساعة الأولى لوصول كوش تركه الخال ليبلغ عودته إلى السيد ستيفنسون مدير الفندق وتركه في عهدة مساعده خولي الذي سيثبت مع مرور الأيام أنه النقيض التام من الخال: متكلم، خفيف الدم، ذو وجه تلقائي وابتسامة محبة تبادله إياها كافة الأعراق التي تمر بالفندق الذي لا ينام. تولى خولي رعاية كو وتعليمه أصول مهنة الخدمة في شبرد. في أيامه الأولى ظل كوش يستوعب في اندهاش كبير ما يراه في جنبات ذلك العالم الضخم. وفي خضم ذلك

المحيط الذي يرى كل شيء فيه ضخماً كان خولي رفيقه ومرشده، وسيفتح عينيه على الكثير مما خفي عنه من هذا العالم الجديد. في اليوم الأول أراه خولي الأطراف المترامية لهذا الصرح العجيب: البهو الكبير، بهو المشربية، مطعم الإفطار والشواء والمطعم الفرنسي، التراس، غرف النزلاء، المغسلة، المطبخ، البار الشهير الذي لا ينقطع رواده كل ليلة، قاعة الرقص وغرفة الموسيقى والقراءة، وجناح إقامة العاملين بدءاً من مدير الفندق وصولاً إلى كوش نفسه.

على الرغم من واجهته الخارجية الكلاسيكية، والتي لم تكن تنبئ عما بداخله من فخامة، يعج شبرد بالتفاصيل المبهرة، بدءاً من البهو الرئيسي الضخم المصمم على الطراز الفرعوني، والمزين بأعمدة ضخمة وضخمة على هيئة زهرة اللوتس، والسقف الملون الذي يشابه أسقف المقابر الفرعونية بقنا والأقصر، بنجوم محاطة بآلهة مجنحة، لتصبح نسخة من معابد فيلة والكرنك، في أسفل السلم الرئيسي المؤدي إلى الغرف كان هناك تماثلان عاريان بالحجم الطبيعي لسيدتين فرعونيتين تحملان مصابيح ضخمة. تؤدي الممرات المتفرعة عن البهو إلى غرف الرسم والموسيقى والقراءة، والمفروشة بالسجاد الفارسي اليدوي، إلى جانب المطعم المصمم مثل بيضة فابريجييه بأسقف وأعمدة ملونة مرصعة بالزمرد الأخضر، ومصابيح متعددة الألوان. أما قاعة الطعام فكانت مصممة على طراز عصر النهضة، وغرفة الشواء تتمتع بتراس يطل على الحدائق. أصناف الطعام تنتمي إلى المطبخ الفرنسي الراقى، ماعدا غرفة الشواء التي تقدم الطعام الإنجليزي.

ممرات الفندق والغرف الكبيرة تسع مركبة تجرها أربعة جياد، وكلها

مزيّنة بلوحات مائية رسمها الرحالة الذين جابوا مصر شرقًا وغربًا مصورين سحرها الخلاب، من صحارى شراير إلى جمال وبائعي سجاد جيروم.

مع مرور الوقت والحديث مع خولي عرف كوش أن الفندق العظيم الذي بني منذ أكثر من 70 عامًا على يد رجل إنجليزي اسمه الخواجة شبرد يتكون من 340 غرفة و240 حمامًا، «وهو رقم سخي مقارنةً بحمام واحد لكل طابق في الفنادق الأوروبية» كما قال خولي، وزينت غرف النوم بأسرة نحاسية عريضة، وآرائك من شعر الخيول، وأحواض للاغتسال من الخشب المشغول. ومع التوسعات وعمليات التحديث التي شهدتها الفندق قبل وصول كوش إليه بعشر سنوات، أصبح لكل غرفة جرس كهربائي يمكن للضيوف دقه حين يحتاجون المساعدة من عمال الخدمة.

يتمتع الفندق فائق الروعة بنظام خاص لتنقية المياه، ومحطة كهرباء خصوصية، و120 جهاز تهوية، ومكتب بريد مفتوح على مدار الساعة تغادر منه رسائل المقيمين إلى مختلف دول العالم مختومة بطابع شبرد، إلى جانب متجر لبيع الآثار القديمة والتحف بالسور الخارجي، ومكتب لشركة سفريات توماس كوك بمبنى ملحق بحرم بالفندق يديره السيد كوك الصغير بنفسه، أما غرفة الغسيل بالبخار التي عمل بها كوش بعد ذلك فتضم وحدها 80 عاملًا.

وقف كوش أمام لوحة الأخبار والإعلانات المثبتة ببهو المشربية الذي تحده المشربيات الخشبية من كل جانب وتعزف فيه أوركسترا الفندق الموسيقى وقت الوجبات، وأخذ يطالع رسومها الزاهية والأوراق الملونة المعلقة عليها دون أن يستطيع قراءة كلمة واحدة

منها. أخبروه أنها محطة هامة يتعرف منها الزوار على مواعيد الحفلات الراقصة والعروض المسرحية القادمة، وبرنامج حفلات الأوبرا الخديوية، والشقق المعروضة للإيجار بمحيط الأزيكية والأحياء الراقية، ومواعيد انطلاق مراكب الرحلات النيلية، بينما يتناولون القهوة ويستمعون إلى ألحان الأوركسترا.

أخبره خولي أنه في حال كان المسافرون سيعودون إلى غرفهم مرة أخرى، وهو ما يحدث كثيرًا حينما يغادرون إلى الإسكندرية أو الأقصر لأيام وسط رحلتهم القاهرية الطويلة، يمكنهم الاحتفاظ بحقائبهم في غرفة التخزين بقبو الفندق مقابل قروش بسيطة كل شهر. أصبح ترتيب تلك الغرفة هو أول مهمة أوكلت لكوش الصغير.

في اليوم الأول أيضًا قابل كوش رفيقه في الغرفة. سليمان الأبله. لم يفهم كوش إن كان هذا اسمه أم صفته، ولكنه عرف فيما بعد أنه لقب استحققه. نظر له سليمان بفضول ومن فمه يتساقط خط رفيع من اللعاب كان ينسى ابتلاعه سوى على فترات متباعدة. أخبره خولي بصوت مرتفع أن كوش سيكون رفيقه في الغرفة ولكنه لم يبد أي ردة فعل. فقط نظر نحوه مطولًا ثم فتح فمه وتكلم ببطء شديد: «هل تعلم أن في اليوم أربع ست ساعات؟ وأن كل ساعتين منهما تتكرران بالضبط؟»

«ماذا؟»

«إذا أكلت في الثانية ظهرًا، بعد ست ساعات تأتي العقارب على الثامنة ويكون الوقت ليلاً. إذا عدت ست ساعات أخرى تصبح الثانية ليلاً! وبعدها بست ساعات أخرى تصبح الثامنة صباحًا.

هل تتصور هذا؟ أراهن أنك لم تكن تعرف». يقول سليمان ببطء وابتسامة تنم عن اكتشاف مذهل.

ينظر كوش لخولي دون أن يفهم شيئًا. سليمان يكبره ببضع سنوات. ربما في السابعة عشرة. شاب من إحدى قرى الفلاحين والقروي الوحيد الذي يعمل في خدمة الفندق. يبقونه دائمًا بعيدًا عن الزوار في مهمات خفية، وسيظل يتحف كوش بمثل تلك الاكتشافات العجيبة طوال الوقت، خاصةً قبل خلوده إلى النوم وهو يرقد على السرير المجاور لسريره.

في اليوم الأول أيضًا خرج به خولي إلى تراس شبرد الشهير. تطل شرفة الفندق على الشارع مباشرة، أو في قلب الشارع بمعنى أصح، حيث يمكن الوصول إليه عبر ثماني سلّمات فقط تبدأ من رصيف شارع كمال باشا. شبرد لا يتمتع ببوابة خارجية يحتاج الزائر إلى عبورها والسير على الأقدام أو متهاديًا داخل حنطور حتى يصل إلى حرم الفندق. والشرفة جزء من واجهة الفندق والشارع لا تنفصل عنه، ما يسمونه بالتراس، وهي نافذة الزوار إلى عالم القاهرة الشاسع. جلوس رواد الفندق فيها يعني اختلاطهم بالرائح والغادي، والتفاعل مع الباعة وفحص بضاعتهم وما يقدمونه من حاجيات عجيبة، والفرجة على السحرة والفجر، ومواكب الجمال التي تعبر نحو قصر النيل. حيث تنشغل سيدات المجتمع الراقى من لندن وباريس بالتحدث مع الباعة الجائلين الذين يمرون تحت السور المنخفض للشرفة، عارضين بضائعهم على الجالسات: العقود والحلي الخشبية والخرزية الملونة، وبذور الكتان وفصائل الأشجار والنخيل النادرة، والفواكه، وتماسيح محنطة تصلح لتفاخر الرجال المدخنين

للسيجار. وإذا ما أحبط البائع الجوال من بيعك تمساحه الميت، عرض عليك التقاط صورة معه مقابل بضع شلنات صغيرة. وإذا كنت تملّ الحيوانات المحنطة يأتونك بصيدهم الحي في أقفاص زجاجية: الخنازير والقروود والفهود الوليدة. أيضًا لا يتوقف إلحاح المصورين الجواله الذين يمنحونك فرصة التقاط صورتك بشرفة الأوتيل مقابل قروش قليلة. وحتى باعة الأثاث الذين يحملون فوق ظهورهم طاولات ودواليب وسجاجيد مجدولة باليد ويقفون في صبر على الرصيف المقابل للفندق في انتظار لفت نظرك.

جرت المقولة على الألسنة؛ إنك إن جلست في تراس شبرد فسوف يمر العالم كله أمامك... ولم يدرك كوش يومها أن هذا التراس سيشهد لحظات فارقة في حياته خلال السنوات القادمة.

ما قاله له خولي في يومه الأول بينما يطلون على الشارع من وراء سور التراس المنخفض لم ينسه كوش طوال سنوات خدمته: «شبرد هو دزة التاج، والمبتغى لمن هم مثلنا، ونهاية الطريق الطويل والشاق في سلك الخدمة. هذا الفندق الذي أنعم الله علينا بالخدمة فيه يعج بكافة صنوف البشر. يرتاده الزوار من كافة أنحاء العالم ومن مختلف مناحي الحياة. العجائز الهاربات من برد أوروبا القارس. الضباط الإنجليز القادمون من الصحراء والذاهبون إلى مناطق خدمتهم فيها. كافة العابرين إلى أفريقيا سواء في رحلات صيد أو تجارة أو بحثًا عن الثروة. المحتلون لبلاد الفقراء، والمستغلون والجشعون الباحثون عن امتصاص المزيد من الدماء. الجواسيس. المنقبون عن الآثار المدفونة لآلاف السنين في الرمال. السياسيون ونجوم السينما.

ممثلو المسرح الذين يأتون في زيارات لمسارح عماد الدين ليقدّموا عليها عروضهم. عازفو الفرق الموسيقية التي تقدّم عروضها في الأوبرا الخديوية. محبو اللهو والمرح والرقص. الفتيات الصغيرات الباحثات عن الزواج. الضباط والموظفون الشبان الباحثون عن زوجات. الملوك والأمراء والكونتيسات. هنا ثحاك المؤامرات وتشتعل الحروب وتنتهي. رجال الدين والباحثون عن اللذات المشرقية وسحر ألف ليلة وليلة يخلب لُبهم. الهاربون من أحكام في بلادهم والنصابون الذين أتوا سعيًا وراء إيقاع عجوز ثرية أو بدء حياة جديدة ومسار طازج من الاحتيال في بلاد خُبلَى بالفرص. أيّا ما يكون، كل ما يجب أن تبقى حلقه في أذنك لا تخلعها أبدًا هو أن زائر الشبرد هو أهم شخص في العالم، وينتظر منك معاملته بذلك القدر، فأياك والتقصير في هذا الشأن. كما هم كرماء ويعطون بقشيشًا لنحصل مثله في أعوام في فندق آخر، فإنهم قد ينقلبون في لحظة إلى شياطين يجعلونك تنسى أنك كانت لك يومًا كرامة. الخطأ هنا غير وارد والسهو غير مقبول».

حكى له خولي أيضًا بينما يريه غرفة الغسيل التي سيقضي فيها كوش قدرًا كبيرًا من فترة تدريبه الأولى عن تاريخ بناء الفندق الذي تأسس منذ 50 عامًا. رغم زعم الأسطورة نجاة السيد صمويل شبرد من غرق سفينة فوجد نفسه بعد سباحة طويلة وشاقة على أحد الشطآن وحين سأل المارة أين هو أخبروه أنها الإسكندرية، فإن الحقيقة هي أنه كان قد قاد تمرّدًا على ظهر السفينة التي استقلها من إنجلترا هربًا من تدريبه كصبي خباز، وما إن رست للتزود بالمؤن في السويس حتى ألقوا به من سطحها بدلًا من إعدامه. مارس السيد

شبرد أعمالاً دونية في عدد من الفنادق البريطانية الصغيرة بالحي
الإفرنجي بالقاهرة منذ وصوله عام 1842، وظل يترقى في عمله
لمدة سبعة أعوام. وحين تقابل مع الخديوي عباس في رحلة صيد؛
هوايتهما المشتركة، أعجب به الخديوي ومنحه قطعة أرض محترمة
ليبنى عليها فندقه الذي صار أهم وأكبر فنادق زمانه وغد وقتها
علامةً فارقةً في الخدمة والراحة في بر مصر وأفريقيا كلها، ولا
يزال.

في نهاية اليوم الأول لوصوله والذي بدا أنه لن ينتهي أبدًا، طلب
الخال أن يأتي كوش إليه في المطبخ. فهم كوش من خولي أن
خاله هو كبير خدم الأوتيل، وأن كل من يعملون في طاقم الخدمة
بمختلف أقسامه بمن فيهم خولي نفسه يخضعون لإمرة الخال
المهيّب. نظر له الخال في عينيه نظرةً حادة صامتًا لبرهة ثم حدّثه
بكلمات ربما تكون الأطول التي سمعها منه كوش طوال حياته:
«ما يصرفونه لك أرسله كلّه لأمك مع أي من المسافرين، طعامك
ومشربك هنا بلا مقابل، أيّ بقشيش يناوله إياك الأجانب تأتيني به
نهاية اليوم أرسل بعضًا منه لهم وأدخر الباقي لك». أخبره خاله بينما
يريه الغرفة ذات السريرين التي سيبيت بها مع الأبله. «تخلّص من
ضرتك، لا حاجة لك بها، سوف يأتيك خولي برداءين للعمل ومثلهما
للمبيت. ترتدي أحدهما بينما تغسل الثاني، تتركه ليحف صباح كل
يوم قبل مزاولة عملك. تستيقظ في الرابعة فجراً وتنام في الثامنة
مساءً (وهو ما لن ينفذه كوش حينما يتعلم القراءة ويظل ساهراً
طوال الليل يطالع الكتب الساحرة). تفتح عينيك وأذنيك وتغلق

فمك، وتحفظ كل كلمة يقولها لك عمك خولي وتنقذها دونما تفكير أو إضافة أو تقصير. إذا ما شاهدت بقعة على ملابسك أو شممث لك رائحة أو اشتكى أحد منك أعيدك في التو إلى الشلال».

وسط كل هذا كان كوش يقف فاغرا فاه فاتحا عينيه من ذهول الدهشة. ما أروعها من حياة تنتظره. كم هو محظوظ ذلك الصبي الصغير بتفتح زهرة عمره البضة من بين شقوق أرضية شبرد المفعمة بآلاف أقواس قزح، ذلك الفندق الذي سيغرس بداخله، بغنى زواره وأحداثه المفعمة بالصخب والجنون، بذرة الدهشة التي لن تتوقف عن النمو أبدًا حتى مماته.

تنوعت مهام كوش في شهوره الأولى ما بين ملء أحواض الغرف بالماء الساخن، ترتيب المخازن، غسيل بياضات الأسرة وأردية العاملين في الفندق، توصيل التلغرافات، وتلميع التماثيل الرخامية. تنقله بين مختلف الأقسام ضروري حتى يدرك كيف يعمل كل قسم، ويفهم أصول مهنة الخدمة، ويعرف كيف يُدار الفندق، وأسرار المطبخ؛ مكن السر الفندقى ومفتاح نجاح أو سقوط أي فندق -إلى جانب نظافة أطقم الأسرة- ويفهم كيفية التعامل مع مختلف نوعيات الزوار. كان يتم إعداد كوش ليصبح خادماً نموذجياً، مثل هؤلاء الآلاف الذين أتوا قبله وسيأتون بعده، حتى وإن لم يكونوا شمرًا كما كان هو.

في تلك الأثناء يحمه خولي على المأبرة في التقاط الكلمات الإنجليزية التي يلقيه إياها أو يسمعها عرّضا من الضيوف لأنها لا

غنى عنها إن كان يريد التعامل مع الزوار في أقصر وقت ولا يكتفى بالجلوس في المطبخ وغرفة الغسيل والمخازن الخلفية. أما لغة كوش العربية فقد تحسنت وخفّت لكنتها بسرعة كبيرة مع الممارسة اليومية.

في منتصف نهار كل يوم يتوجب على كوش التوجه إلى مكتب السيد توماس كوك الصغير ليرى إن كان يحتاج إلى فنجان من القهوة أو إيصال الطرود إلى مكتب البريد. (حقق السيد كوك الصغير ثروة كبيرة مع والده حين أتيا في عهد الخديوي إسماعيل للاستقرار في مصر وأسسا شركة سياحية باسم الأب وتفتق ذهنهما عن فكرة جهنمية بإعداد الرحلات إلى مصر، والتي أنقذتهما من الإفلاس ووفّرت ملاذًا آمنًا لآلاف الأجانب من برد أوروبا القارس). في مكتب سياحة كوك في أغلب الأحيان سيجد كوش السيد ستيفنسون مدير الفندق جالسًا يتجاذب أطراف الحديث مع السيد كوك. يقف كوش على الباب منتبهًا في صمت ينتظر أن يحيل ستيفنسون النظر ناحيته فيلحظ وجوده، وساعتها يطلب منه بتهذيب شديد أن يشتري له السجائر إذا ما نفذ نوعه المفضل من متجر الفندق، أو يذهب إلى صديق له يعمل بالأوبرا أو تياترو حديقة الأزبكية ليتسلّم تذاكر حفل قريب، أو إلى مكتب البريد ليرسل برقية إلى إحدى السفن النيلية، وربما يطلب منه استلام دفاتر غير مسطرة وأقلام فحم من إحدى محال الأدوات المكتبية في شارع قصر النيل، فالسيد ستيفنسون مولع بالرسم، وخاصةً رسم الخيول والسيدات في فساتينهن الدانتيل المنفوشة. أدرك كوش على مر هذه المشاوير التي يجريها للسيد جغرافية المكان من حوله خاصة شارع كمال

باشا الذي يبدأ من محطة القطار ويمتد حتى شبرد وفندق جراند كونتيننتال المنافس لهم، ثم يستمر منتهيًا بالميدان المقابل للأوبرا الخديوية وصولًا إلى بوابات قصر عابدين. في بعض الأحيان يعود الولد الصغير بالنوع الخطأ من السجائر، ويسأله ستيفنسون إن كان قد قرأ اسم الماركة قبل أن يستلمها من البقال، ولكن كوش يبتسم في خجل ويجيب بالعربية أنه لا يحسن القراءة. وهنا تتبدل نظرة المدير-الذي يحسن العربية كأهلها- ويصرف كوش بيده بينما يشير نحوه وهو يتحدث لصديقه كوك بالإنجليزية في عصبية.

بعد نحو نصف عام من الخدمة في الغرف الخلفية خرج كوش إلى صالة الاستقبال الكبرى، وبدأ يحمل الحقائب للزبائن، يدفع بها التروولي النحاسي الضخم الذي تعود الغناء على صرير عجلاته وقوائمه. بالطبع لم يكن يستطيع حمل كل شيء لجسده الضئيل، ولكنه سرعان ما تعود توزيع الحقائب وترتيبها فوق التروولي بحيث لا يحتاج إلى الاستعانة بصديقه الأبله. مع بدء التعامل مع الزوار تزداد تعليمات الخال الصارمة وضوحًا وتكرارًا كل يوم: كل الرجال تتم مناداتهم باسم السيد، والنساء، كبرن أم صفرن، بالسيدة. كل الرجال مستر والنساء مس إن كانوا، وهم في الأغلب سيكونون، أجنب. إذا احتار في كنه من يقابله فإنه يستخدم اللفظ العربي أولًا. ويفضل ألا يتحدث أبدًا إلى أي أحد، فقط إن بدؤوا هم بتوجيه الكلام له. «ولا ترفع نظرك في أحد، عينك دائمًا شاخصتان إلى الأرض. ليست الأرض بالضرورة وإلا اعتبرت هذه إهانة، ولكن إلى خط مستقيم في منتصف المسافة بينك وبين من يحادثك. ولا تجعلها في منطقة محرجة، فيبدو لمن يحادثك أنك تصوب نظرك

صوب الصدر أو أسفل البطن. نظرتك المحايدة تنحرف قليلاً نحو اليمين أو اليسار وكأنك تبحث عن قطعة تختبئ خلفه».

خلال استقبال الوفود الجديدة كان يرى الأطفال الصغار، من هم في سنه، يأتون مع أسرهم ويلعبون ويمرحون في إجازتهم الصيفية، ولكنه ليس مثلهم. أدرك منذ وقت مبكر أنه ليس مثلهم. إنه ليس هنا ليمرح، هو ليس أبيض ليمرح، وليس معوج اللسان وبشعر منسدل النعومة كي يمرح. إنه هنا ليعمل، يعيل أسرته، ويستكمل حمل راية شرف الخدمة التي حملها جده وخاله وعائلة أمه بأكملها.

الفصل الثاني

الصوت والصدى

(1902-1905)

بعد مرور ستة أشهر على وصول كوش الصغير إلى شبرد، سافر خولي إلى المنيا لحضور زفاف أخت زوجته الذي استمر ثلاثة أيام. على هامش الزفاف جلس ليتسامر مع ابن عم لها يعرفه. شيخ أزهرى بسيط الحال. تحدثا حول أكواب الشربات والماء المعطر بالورد. سأله الشيخ عن أحوال مصر وسأله خولي عن أولاده التسعة. أخبره الشيخ بمزيج من الفخر والأسى عن ابنه الضرير الذي سافر إلى مصر ليلتحق بالأزهر رفقة أخيه الأكبر. «ولكن الولد يعاني يا خولي، أخوه لا يريد تحمل مسؤوليته ويتضرر من اصطحابه وقضاء حوائجه، ليت بي مقدرة لعينت له مرافقًا ولكن ما باليد حيلة». وهنا جاءت خولي فكرة ستعين الفتى الضرير وتغير حياة كوش الصغير إلى الأبد.

عاد خولي إلى القاهرة وفاتح الخال في الموضوع. استدعيا كوش وأجلساه. أخبره الخال بنبرته الآمرة: «السيد ستيفنسون متضرر من جهلك بالقراءة والكتابة، وتوسط لك عمك خولي لتخرج كل يوم ساعة في باكر الصباح وأخرى قبل صلاة العصر. ستصطحب غلامًا في مثل عمرك يدرس بالأزهر كفاه الله نور البصر. سوف تقضي له حوائجه وتضمن ذهابه وعودته للمنزل في جوار الحسين بأمان. ستذهب إليه يوم إجازتك أيضًا وتقضيه معه بالكامل. وفي المقابل سيعلمك هو القراءة وبعضًا من القرآن. فتح الله بك وعليك. قبل يد عمك واشكره».

رَبَّتْ خُولِي كَتَفَ الْوَلَدِ وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ إِنْ كَشَفَ عَنْ ذِكَاثِهِ الَّذِي يُمَقُّ بِوُجُودِهِ سَوْفَ يَطْلُبُ لَهُ يَوْمًا إِضَافِيًّا لِلْإِجَازَةِ حَتَّى يَحْضُلَ أَكْبَرَ قَدَرٍ مُمْكِنٍ مِنَ الْعِلْمِ فِي أَقْصَرِ وَقْتٍ قَبْلَ عَوْدَةِ الْغَلَامِ إِلَى بَلَدَتِهِ أَوْ حِينَ يُحَسِّنُ الْاعْتِمَادَ عَلَى نَفْسِهِ.

وهكذا، قضى كوش أكثر من ثلاثة أعوام رفقة الغلام الضرير الفقير، وكانت هذه السنوات من أجمل ما يذكره كوش.

في تمام السادسة والنصف صباحًا وقف أمام باب البيت المتهالك بحارة الوطاويط، مَرَّ عَلَيْهِ شَابَانُ جَادَانٍ فِي نَزُولِهِمَا وَسَلَّمَا عَلَيْهِ. «اغْتَسَلْ طَهْ وَصَلَّى الْفَجْرَ وَيجلس بانتظارك». فهم كوش بعد ذلك أن أحد الشابين هو أخو طه الأكبر. أخذه من يده وأشار إلى الميدان الذي أتى منه كوش لتوّه: «هذه هي المفارق الأربعة، إن مضيت عن يمينك فالى السكة الجديدة ثم الموسكي ثم العتبة الخضراء، وإن مضيت عن شمالك فهي الدَّرَاسَة، ولكنكما ستمضيان قدمًا فتسلكان شارع حوانيت الكتب، وما إن يلوح لك مسجد الأزهر حتى تتوجه به إلى باب المزينين فتتركه هناك وسيعرف طريقه إلى الداخل». غادره بينما عاد كوش وصعد الدرجات حتى غرفة الدور الأخير. وجد غلامًا قمحيًا مغمض العينين يجلس القرفصاء على الأرض وقد ارتدى جلبابًا متسخًا وعمامة غير محكمة. «أنا كوش» قال، فوقف الغلام على الفور وحيّاه بابتسامة تقفز منها السعادة. «أنا أخوك طه. من اليوم ستكون أنت عيني اللتين أبصر بهما النور، وأنا سأكون النور الذي ينير لك الحياة بالحرف والكلمة». مَدَّ الْغَلَامُ يَدَهُ إِلَى كُوشِ الَّذِي

أخذها في تعجبه الصامت بينما يتأمل وجه الولد، وبدأ سيرهما في الطريق.

في رحلتها اليومية مشيا للأزهر عارجين على مسجد الحسين وحوانيت الكتب بشارع الحلوجي ذهابًا وعودة، حكى طه لكوش عن إخوته وسخريتهم من بصره الكفيف، وشعوره أنه ثقيل، وععبء. وحين سأله كوش عما يفعله طه في الأزهر، حكى له الغلام عن الشيوخ الذين لا يفهمونه، وكتاب التحرير للكمال بن الهمام وشرح الخريدة للإمام الدردير وسنن ابن ماجه وكل ما يتدارس في الأزهر، والمواد التي يتخصص كل شيخ في مادة منها فلا يدرّس غيرها. كلما استمع كوش إلى أسماء تلك الكتب وعناوين الدروس انتابه فضولٌ حارقٌ ليعرف ما يدور فيها، ويسأل في براءته التي ستلازمه طوال العمر عن كل ما لا يفهمه. وكلما سأل كلما عرف أكثر. ولم يكن طه يبخل بالإجابة - وإن حملت إجاباته تفاخرًا طفوليًا بالمعرفة أمام سائل جاهل. لم يكن كوش يطيق انتظار البدء في تعلم القراءة. بعد قضاء بعض الوقت في الفندق شعر بفطرته بالعار أن يكون في الثالثة عشرة ولا يعرف كيف يقرأ. ولكنه تساءل كيف يمكن لطفل كفيف لم ير الحروف قط أن يعلمه؟ سأل طه عن هذا الأمر أيضًا وأمور أخرى كثيرة. هكذا وجد أن السؤال دون خجل يريحه بالإجابة، دون انتقاء لوقت أو مكان. فقط كلما أراد المعرفة سأل. وكلما عرف أكثر ارتاح أكثر، وشعر أنه أكثر انتشاءً، ووجودًا. كان طه أول من أخبره بأن ما لديه يُسمّى بالفضول. وأن الفضول عَرَضُ الرغبة في المعرفة. وأن المعرفة هي أساس الوجود الإنساني. كان

طه أكثر فضولاً من كوش وأكثر معرفة، لذا كان كالكوب الذي ينضح في إناء فارغ مستعداً أيما استعداد للامتلاء، ولكنه لم يكن ليمتلئ أو يكتفي أبداً.

حين خرج كوش إلى شوارع القاهرة كل يوم رفقة طه عرف أن الأشهر القليلة التي قضاها منذ قدومه إلى هنا لم تكن تعني بالضرورة أنه أتى إلى مصر. فمصر أكبر وأكثر جنوناً وصخباً وازدحاماً وإدهاشاً مما تدركه مخيلته الصغيرة في عمر كامل. اكتشف كوش منذ اليوم الأول لزيارته لطه القاهرة تختلف تمامًا عن تلك التي عرفها منذ قدومه. كان قد خرج من الفندق عدة مرات لقضاء مشاوير يرسله إليها مستر ستيفنسون أو خولي، ولكنه ظل في محيطه وبالتالي لم ير سوى القاهرة التي ظن أنه لا يوجد سواها: الأجانب يسرون في أعداد لا تقل عن المصريين. الشوارع النظيفة والواسعة. المباني غربية الطراز. الهدوء والفراغ. الروائح العطرة والنسيم العليل. الأوتوموبيلات التي باتت رؤيتها أمراً معتاداً له اليوم تلو الآخر، المياه المتدفقة من الصنابير والتي يتم تسخينها في الشتاء والحفاظ على برودتها في الصيف. المباني الضخمة والمبهرة بدءاً من حديقة الأزبكية التي يطل عليها الفندق وصولاً إلى قصر عابدين المجاور ومروّراً بالأوبرا الخديوية. كانت هذه حدود القاهرة كما عرفها كوش في شهوره الأولى، ولكن كل هذا تغير بعد بدء مغامراته مع طه، كما ستتغير الكثير من الأشياء.

وصف كوش لطه كل شيء يراه بعينه المذهولتين وكأنما يصفه لنفسه كي يصدق. عيناه الواسعتان وُسْعًا بحجم الكون كانتا وكأنما

خُلقتا لتكفيه هو وصاحبه المغمض دوّمًا. يسير صاحب كوش بتؤدة، يتكلم بتؤدة، ويبتسم طوال الوقت لا إرادياً كعادة كل المغمضين. أما كوش فكانت عيناه تتسعان بالدهشة مما تريانه اليوم تلو الآخر. في القاهرة القديمة، في شوارع الحسين والبغالة وبين القصرين والغورية، رأى ووصف الجالسين على القهوة يدخلون الجوزة ويلعبون الطاولة. السيدات يشتريّن اللحم من القصاب، العربية يضربون ظهور بغالهم، الشحاذون، الأولياء والمجذوبون، ورش النحاسين والنجارين والحدادين، خشب المشربيات المعشق في نوافذ البيوت القديمة، مئذنة ابن طولون وقباب مسجد السلطان حسن، المراجيح الخشبية الدوارة يوم العيد يمرح فوقها الأطفال الخُفاة. أردية العساكر والخفراء والضباط. كل ما تقع عليه عيناه كان يصفه كوش لظه بصوتٍ مثقّد الحماس.

مهمة كوش الأولى كما فهم في أول صحبته لذلك الصبي هي منح تلك الأصوات والروائح المتداخلة التي تداهم أذني وأنف طه الكفيف من كل صوب وحذب صورةً تفسرها وتطمئنه لها وتقلل من زعره تجاهها. يمنحها معنى يهدئ من روع الغلام الصغير. أصوات الرجال يتنادون في عنف ويتحدثون في رفق، وأصوات الأثقال تُحط وتُعتل، وصوت السقاء يتغنى ببيع الماء، وصوت الحوذي يزجر حماره أو بغلته أو فرسه، وصوت العربة تنز عجلاتها أزا، وربما شقّ هذا السحاب من الأصوات نهيق حمار أو صهيل فرس.

أتى ذلك الاحتياج للانتباه التام كي يتمكن من الوصف لظه أن يدرك كوش أن النظر للأمور بعين دقيقة تلحظ التفاصيل يختلف تمامًا عن رؤيتها بشكل كلي. هاجمت تلك القاهرة التي لا يعرفها

حواسه بكل عنفوانها فاقترحت روحه. الروائح الكريهة التي لم يشم مثلها من قبل. ضجيج الباعة ونداء السقائين. مشارف شارع وش البركة سيئ الشمعة الذي لم يجرؤا على دخوله، صخب الموالد، مواكب الخيول وسوق الجمال، مواكب العساكر الإنجليز، وغيرها من آلاف المشاهدات التي يحاول كوش استيعابها بنفس سرعة تعلمه. حكي كل ذلك ووصفه لطفه. صار وجه كوش في تلك السن مليحاً، كامل الاستدارة، في شمرة رائقة وصوت عذب يضج بالصفاء. سيزداد كوش بعد ذلك سمرّة كلما كبرت سنه وزادت معرفته وعرك الحياة. أما الآن فإن كل ما يراه هو بالنسبة له كل الكون على اتساعه.

سرعان ما بدأت دروس القراءة بين الغلامين. وكما تفتحت عينا كوش على ما تريانه أمامها كذلك استنار عقله بنور التعليم. كاد كوش يصرخ من الفرحة حينما أصبحت الحروف التي تتشكل أمامه تحمل معاني كان يجهلها. ويصبح لكل رسم صوت ومنطق. لطفه أسلوبه الواضح الذي أتى ثماره مع كوش، بعد طلب كوش من خولي أن يرسم له حروف الأبجدية على لوح كبير حمله معه أينما ذهب، بدأ طه يجعله يحفظ كل حرف وصوته، وما هي إلا أيام حتى بدأ يحثه على كتابة الكلمات البسيطة من ثلاثة حروف. وما إن بدأ يقرأ الكلمات ويتمكن من تكوين الجمل -وهو ما استغرق شهوياً بسيطة نظراً لألمعية كوش وإصرار طه الذي لا يفتر- حتى ألزمه صاحبه بقراءة الجرائد. بدأ بعناوين أخبار الأهرام وموضوعات المقتطف والهلل ثم رويداً بدأ يقرأ عليه متن الأخبار والمقالات. كان قلب كوش يخفق مع كل كلمة يقرأها ويشرح له طه معناها. ولكن هذا

الأتون التام من المعرفة الذي انفتح في وجهه استتبع شيئًا آخر: الاستفهام الدائم والملح عما يقرؤه. الآن هو يعرف كيف يقرأ كلمة الخديوي، ولكن من هو الخديوي؟ ماذا يعمل؟ أين يسكن؟ ماذا يأكل؟ كم يبلغ عدد حجرات قصر عابدين؟ من هو الملك مينوس؟ ما البحر؟ أين لبنان وسوريا؟ نابليون وفيكتوريا؟ لم يعكس ذكاء طه سوى نهم كوش للمعرفة. استعاض كوش بذلك الشره المعرفي عن عادية مخه. ظل طه مزاجيًا. وحين يسمح مزاجه، يقضي يوم إجازته بالكامل مع كوش يحكي له ويجيبه عن كل شيء.

كان كما وعده الضياء الذي ينير له الطريق.

مساء يوم إجازته عاد كوش مرهقًا بعد يومٍ طويل مع طه. دخل الفندق وهو يتأفف من البرد في ذلك الشتاء القارس لعام 1902. مرّ على المطبخ فوجد خاله وخولي يدخان السجائر وهما يرتديان حلة الخروج. قلما يراهما في مثل تلك الملابس التي يكوها كوش ويحفظها منشأة ومعلقة دائمًا وفقًا لأوامر خولي. فور دخوله نظر النوبيان لبعضهما نظرة ذات مغزى. بعينه قال الخال شيئًا لخولي الذي اشتهر بفهمه لنظرة رئيسه وصديقه دون حاجة لكلام. «إذهب وارْتِدْ جلبابك النظيف وقفطانك الصوفي، ستخرج معنا. هيا» قال خولي بلهجة حازمة قلما سمعها منه كوش.

فعل كما أمر وانضم إليهما. خرج ثلاثتهم وساروا بمحاذاة الأزبكية حتى ميدان الإسماعيلية، ومن هناك استقلوا عربةً جلسوا بداخلها صامتين بينما تقطع تكتكات حوافر الخيل صمت الشارع الخالي.

طالع كوش وجه خاله الذي انعكس عليه ضوء القمر ومصابيح
الطرقات فبدا كتلة من التساؤل والأسى تتلاشى في الليل. يريد أن
يسألها إلى أين يذهبان ولكنه لا يجرؤ. وصلوا إلى وجهتهم ناحية
القاهرة الشرقية بشارع الملك الناصر.

نزلوا ببطء ومزّ تيار بارد مرقّ ضلوع الغلام الصغير. دخلوا بناية
صغيرة وصعدوا الدرجات المتكسرة. خبّط الخال على الباب ففتح
له شابّ بشاربٍ مدبب. «الباشا موجود؟ أتينا لتبرك بتهنئته على
الرجوع سالمًا». أشار لهم بالدخول دون أن يقول شيئًا. بدا مرهقًا
وملولًا.

ارتاب كوش من الإضاءة الخافتة والأجواء الكثيبة للبيت المقبض،
ولكنه ارتاح للدفع المفاجئ. دلفوا إلى حجرة تناثر بها عددٌ من
الجالسين افترشوا الأرض. أريكة وحيدة فقط تستند إلى إحدى
حوائطها، وعليها جلس عجوزٌ أسمر ممتلئ في استدارةٍ بلحية
بيضاء تتوهج في ضوء الحجرة الخافت.

دخل الخال ملقيًا السلام، وما إن وقعت عيناه على العجوز حتى
تدفقت الدموع من مقلتيه وارتمى في حجره في اندفاعٍ مباغت.
يتعالى نحيبه فجأة كما الطفل الصغير. بكى كوش هو الآخر مرتاعًا
من ذلك التحول المفاجئ للخال. نظر له الرجل العجوز مأخوذًا وكأنه
لا يعرفه، ولكنه على الرغم من ذلك احتضنه بأبوية عارمة وتشبث به
بشدة ريمًا أنهى الخال انفجار مشاعره. طوال الوقت يتمتم بكلماتٍ
غير مفهومة وكأنما يهذي.

أطرق الجمع المتكى على الوسادات متحاشين النظر تجاه المشهد

المخرج الذي ينتحب فيه رجل يقارب الخمسين. تشبث كوش بملابس خولي. بعد برهة دفع الرجل الخال برفق بعيداً عنه ونظر نحوه بعينين زائغتين دون أن يقول شيئاً. «خذلناك» قال الخال فجأةً وسط أنفاسه المتلاحقة. «خذلناك وأضعنا كل شيء» وانخرط مرةً أخرى في بكاءٍ مرير. ربت الرجل كتفه في حنوٍ بالغ. «استعد بالله من الشيطان الرجيم يا بني. مرحباً بك. تشرب بعضاً من الشاي؟» قال الرجل بلهجةٍ مدهوشة وعينين خاليتين من أي تعبير. نظر له الخال في ذهول ثم التفت لخولي بنظرة ضياع مقيت. اقترب خولي منه وساعده على القيام. «أقدر لكم مجيئكم. بارك الله فيكم وكتب لكم الخير. تفضلوا بالجلوس. أتودون شرب بعض من الشاي؟» كرر العجوز في صوته العجيب. تنقلت عينا كوش بينه وبين خاله بينما يمسح دموعه الصامتة بكم جلبابه النظيف. اتكأ الخال على صديقه وابن أخته وبدا وكأنه شاخ ألف عام. ذهب إلى ركنٍ بعيد وجلس إلى الأرض فأفسح الجالسون له مكاناً. ظل ينظر بعينين زائغتين للعجوز الذي استكمل حديثه الفكه عن العجائب التي رآها في سفرته الطويلة.

ترجع كوش على الأرض بجانب خاله الذي جلس بنظرته الزائغة يردد لنفسه في خفوت: «يموت الرحم بالمغادرة».

في أحد الأيام وقف كوش على السلم وهو يجزّ طه من يده ليصعد به إلى غرفته. خلف باب إحدى الغرف صدح صوت طائر مغرد في إزعاج، توقف طه بمنتصف السلم. «صفه لي، فلولاها لما عرفت أنني قد قاربت وجهتي ما إن أنحرف نحو اليمين، صف لي صديقي

ومرشدي الرقيق». استرق كوش النظر من فتحة باب الغرفة في حذر، فوجد ببغاء ملونة في قفص قذر تنقر الهواء بتكرار عنيد. انبهر به كوش: «ألوانه جميلة يا طه. ومنقاره مستدير وحاد. ينظر نحونا بعين واحدة. ريشه الطويل مخلوط بالأصفر والأحمر والأزرق، ومخالبه تتشبث بعمود خشبي. إنه يحاول الطيران ولكنه لا يملك الذهاب إلى أي مكان وسط قفصه الضيق فيعود لفوره فوق عموده الأثير». استمع طه إلى صوت صديقه سارحا بخياله، أما كوش فقد غاب تمامًا في تلك اللحظة.. وشعر برابط خفي لا يفهمه مع ذلك الببغاء الحزين. قطع شرود كليهما ظهور رجل ضخم من وراء الباب أخذ يصرخ فيهما بالفارسية، فهرعا هاربين بأقصى سرعة إلى الغرفة العلوية وهما يصرخان في مرح.

لم يقصر كوش أبدًا في حق طه. دائمًا ما فكر كيف يرعاه ويخدمه بذات الالتزام المقدس الذي غرسه بداخله خولي تجاه رواد الفندق. ينفخ له في الرغبة فيبرد. ويطعمه بالمعلقة دون إسقاط قطرة واحدة تخرج صاحبه. يمسك بيده ليعبر الطريق ويتعارك مع العرجية إن لم يتمهلوا لدى عبورهما. يصحبه بعد كل يوم دراسي ليأكلا، يضع مليمات نفحه إياها خاله أو أخفاها عنه من بقشيش رواد الفندق، الحلوى والسميط والجبن من أمام عربة الحاج فيروز.

الحاج فيروز رجل أسود فاحم طويل قليل الكلام، فإذا تكلم لم يكذب. هو ذو شأن خطير في حي البساتين حيث يسكن طه. يصنع ألد سندوتشات فول أكلها كوش في حياته، كما يفطر عنده كل طلبة الأزهر الذين يحتلون الحي إفتارًا ثقيلاً آمليين أن يقيم أودهم

في يوم الدراسة الطويل، ولكن النتيجة أنهم يداهمهم النوم أثناء درس الظهر. وفي المساء يبيعهم الجبن والزيتون والطحينة والعسل، وربما باع للمترفين منهم علب التونة والسردين. قال له طه بينما يلكزه في جنبه بكوعه: «يقولون إنه يبيع الطلاب أشياء لا تسقى ولا تؤكل، ويتحدثون عنها همسا ويتنافسون فيها تنافسا شديداً». في أيام الجمعة بعد الإفطار يذهبان لصلاة الجمعة في مسجد عمرو بن العاص. ثم ينطلقان إلى أي حديقة ليجلسا ويبدأ درس القراءة. فور الانتهاء من الدرس الذي يطول لساعات في بعض الأحيان، ينطلقان في أرجاء العاصمة يستكشفان شوارعها ودروبها، ويذوقان من أطايب الطعام ما تسمح به ميزانيتهما الصغيرة: التين المرطب وشرب نقيعه في أثناء الصيف، والبسبوسة وما تبعته من الحرارة في الأجواف أثناء الشتاء. وربما وقفا عند بعض الباعة من السوريين فذاقا ألوانا من الطعام، منها الحار ومنها البارد، ومنها الحلو ومنها ذو الملح، وجد طه في ذوقها لذة لا تقدر.

استمرت قراءة الجرائد والمجلات شهوذاً وشهوذاً، وهي عادة سيظل كوش متعلقاً بها إلى حد الهوس بقية حياته، وهكذا ظل أفقه يتسع اليوم تلو الآخر فينفتح خزان الظلام ويتسلل منه الضوء الذي ظل يتسع شيئاً فشيئاً. وانتقلت القراءة من مجرد العناوين إلى أخبار كاملة بحجم ثلاثة أسطر. ثم المقالات. كان طه صبوراً كفاية، فيشرح لكوش كل كلمة ومعناها، ثم يشرح له الفكرة العامة وراء ما يقرؤه، ثم يذهب أبعد من ذلك فيشرح له الظروف المحيطة والسياق الكامل لما هو مذكور في المقال. لم تكن مسألة تعلم القراءة فحسب بل

كانت تشكيلاً كاملاً لوعي كوش البض. من أمثلة ذلك حين قرأ خطبة قديمة لمصطفى كامل في جريدة اللواء كان قد ألقاها بالإسكندرية عام 1897، والتي عانى كوش في قراءتها كثيرًا، واستغرقت من طه الكثير من الشرح ليُفهمه ماهية الاستعمار، ومن هو مصطفى كامل، والكفاح الوطني من أجل الاستقلال، وتبعية مصر للخلافة العثمانية الإسلامية. ما بدأ كدروس للقراءة استحال إلى دروس لا تنتهي من التاريخ والجغرافيا والهوية الوطنية. كاد كوش يشعر بالجنون من كل ما يسمعه ويعيه. «أريد أن أصبح مثلك يا طه. أريد معرفة ما تعرفه. أريد معرفة كل شيء». كان كوش مستعجلًا. هذا طه من عنفوان صاحبه الأسمر: «العلم بحر لا ساحل له، والخير كل الخير للرجل الذكي الذي يغرق فيه». ابتسم طه ناصحًا إياه بالصبر والمثابرة: «من يقول إنك لن تقدر على السباحة في خضم ذلك البحر الغمام؟ ولكن المجالات لن تكفيك، عليك بالكتب، ولكن ليس الآن».

طوال السنوات الثلاث لم يكن الكلام يتوقف بينهما أبدًا. وكلما طال الحكي بينهما عرف كوش أكثر عن طه. يحكي له ما مر به خلال يومه المظلم سواء في الليلة السابقة أو ما قبله من شيوخه في الأزهر. حكى له أيضًا عن المنيا. وكيف أنه ختم حفظ القرآن وهو في التاسعة من عمره. وكيف انتظر من العالم الاحتفاء به، وأصبح الكل يناديه بلقب الشيخ وهو بعد طفل صغير يضرب الحديد بالحديد كيفما اتفق من باب اللهو. وحكى له عن كرهه للأكل أمام الناس إلا مضطرًا. وعن سخرية إخوته منه حين يسقط الطعام على ثيابه. تلطيخ ملابسه كان أكثر ما يكرهه. حكى له عن خوفه من الملاعق

والحساء، وحين حاول كوش حثّه على تناول حساء الكوارع أصابت الشيخ طه الصغير نوبة غضب وزعيق أخرجت كوش ودفعته إلى البكاء في الشارع. عاد بعدها طه معتذراً وحكى له عن كرهه لشعور الإشفاق أو التندر الذي قد يثيره داخل الرائح والغادي. حكى له عن شيخ الكتاب الذي أتم عليه حفظ القرآن نظير أوانٍ متصلة من السكر المذاب وعمّة وقفطان وزوج من الأحذية الجلدية الفخمة. حكى له أيضاً عن الخيالات التي تثيره طوال الوقت بينما هو يقبع في ظلام دامس. وشرح له، إجابةً عن سؤال كوش حول معنى أن يكون الإنسان مغمضاً طوال الوقت، كيف تعود التقاط كل ما في هذا العالم عبر أذنيه، ثم أنفه، وأخيراً لمسات يديه. حكى له عن الوحدة والعزلة. وهي مشاعر اختبرها كوش ولكنه لم يكن يدرك أنها موجودة. أبى عقلاهما الصغيران استيعاب مرارة خلق الإنسان في الكون وحيداً. لم يشعر كوش أنه عانى من هذا أبداً. ذكرى اللعب وحيداً وسط الرمال في الصحراء المترامية والتفافز فوق حافة الشلال باتت تبعد عن ذاكرته رويداً رويداً وازدادت بهتاناً يمحوها صخب القاهرة والفندق الذي لا ينام. أدرك كوش أنه لا يصير وحيداً أبداً حتى حين ينام. وأنه حين يغمض عينيه تكون تلك هي أسعد لحظات يومه. كيف تصبح لحظات سعادة شخص جحيم آخر؟ «إنها الديمومة يا صاحبي. الديمومة». يقول طه كلما تعجب كوش أمامه دون أن يفهم معنى الكلمة.

في بعض الأيام كان كوش يذهب بعد صلاة العصر إلى الأزهر فيجد طه جالساً على الرصيف أو في صحن الجامع ودموعاً جافة

على وجهه. «لقد طردني الشيخ من الدرس لأنني جادلته في مسألة ما». وكانت نتيجة ذلك جلوس الطفل المسكين في مكانه لساعات دون تمكنه من الذهاب للمنزل أو حتى دخول دورة المياه في انتظار مرافقه الأثير حتى يأتي ويصطحبه إلى المنزل. في مثل تلك الأيام السوداء ذاب قلب كوش شفقة على صاحبه، فأخذ يبذل قصارى جهده في الترويح عنه ومعالجة مزاجه المعتل، حتى إن مزا اليوم لم يترك طه سوى والابتسامة تملأ وجهه من الأذن للأذن، حتى لو كان ثمن ذلك تأخره وتهديد الخال له بأنه لن يغادر الفندق مرة أخرى.

طه دائم الشكوى من قسوة شيوخه بالأزهر وتحجر فكرهم. الكثير من آرائه الناقدة لما يتلقاه على أيدي الشيوخ غالبًا ما تمر من فوق رأس كوش فلا يفهمها. إذ يحدثه صاحبه دائمًا عن خلافاته معهم حول قضايا فكرية معقدة لا يعيها عقل كوش الغارق في ظلام الأمية. دائمًا ما يتحدث طه عن الماضي والحاضر، وعن الغد الذي ينتظر مصر وإرثها الفكري الذي يشذها إلى الوراء، وعن الأمس الذي لا يزالون يغطون فيه بنوم عميق. حاول طه تبسيط الأمر بمثال خط الترام الذي كانا يعبرانه قفزًا كل يوم. أخبره بلغته العربية السليمة ومخارج حروفه المفخمة: «القاهرة يا كوش تنقسم إلى بلدين. تلك الأوروبية غرب الترام، حيث يقع فندقك وقصر عابدين والأحياء الفخمة التي تحيطه، بشوارعها النظيفة والحناطير والمارة ذوو الملابس الفاخرة، والقاهرة الشرقية التي أسكن بحاراتها ودروبها الضيقة. كلتا القاهرتين تندمجان معًا لتنتجا روحًا متفردة هي روح مصر الممزقة بين حاضرين؛ حاضر أصيل ولكن يمر عليه الزمن متناسيًا إياه، وآخر أقل أصالة ولكنه ينحو تجاه المستقبل دون تردد.

جل هَمي هو الأزهر الذي أتلقى فيه العلم ولا يزال متشبعًا بمكانه القديم ولا يريد الترحل، بينما ترنو نفسي إلى تلك القاهرة السبّاقة التي تعيش أنت فيها، ولكني أريدها تتولد في البشر لا الحجر فقط.

بدا الكلام مبهرًا لكوش، ولكنه لم يفهم منه حرفًا أيضًا. ستظل هذه لعنة تطارده طوال حياته. شعوره أنه دائمًا في مواجهة شيء هام وخطير ولكنه لا يعي خطورته. ففي داخل دماغ كوش كانت متعة الاندهاش والرغبة في الاستكشاف هي كل ما يشغله ويشعل فؤاده بجذوة لا تخبو. لم يكن يدرك مثل تلك الجزئيات. بالنسبة له لم تكن توجد قاهرتان كما يقول طه، بل كلها شوارع كبيرة وواسعة ومزدحمة ومليئة بالضجيج، كلها شوارع تنتظره ليجوبها على قدميه ويستكشف خباياها وينبهر بما فيها. سواء كان شارع قصر النيل النظيف والواسع أم حارة العطوف وجوار ضريح السيدة زينب، كلها «العالم» بالنسبة له وهذا يكفي. أما ربط ما قاله رفيقه الصغير بمعنى أكبر، فكرة التشبيه تلك، فلم تكن تشغل باله اليافع أبدًا. قبل أن يغادرا طلب منه طه قراءة مقالٍ عن أبي العلاء المعري في باب «أشهر الحوادث وأعظم الرجال» بمجلة الهلال، والذي استمع إليه طه بتركيز شديد وظل صامتًا بعده مدةً طويلة.

ولكن لم يكن طه مخطئًا في تشبيهه، على الأقل في وصفه للقاهرة. فهذه المدينة المتفجرة تمر في تلك الومضة من الزمن بحالة ولادة شبه يومية وفي حالة ديمومة لا تنتهي. مدينة تستكشف وتعيد استكشاف نفسها مع إشراقة شمس كل يوم. مساحة جغرافية شاسعة تتكون بداخل رحمها طبقات وطبقات من تاريخ البلاد فوق

بعضها البعض فتكوّن في كل مرحلة طبقة جديدة. القاهرة جديدة. في حين لا يزال السقاؤون يحملون قرب المياه على ظهورهم ويملؤون منها القلال والأوعية في شرق العاصمة، تتمتع أحياء القاهرة المستعمرة بشبكة حديثة من المياه والصرف تضمن وصول الماء الفاتر بفضل المضخة البخارية التي تموضعت بجوار النيل. وفي حين يغرق شارع المعز وجنابات حي الحسين في الظلام بعد غروب الشمس تضيء لمبات الغاز فندق شبرد والشوارع المحيطة به منذ الغسق وحتى ساعات الصباح الأولى. تلك الساحات الخضراء والحدائق الفرنسية التي تحيط بالقصور والفيلات تصدّ بعضًا من الأتربة الواردة من حي القلعة وهضاب المقطم المرتفعة، على الرغم من تماشهم المكاني. التوسع الذي تشهده بعض أنحاء القاهرة الآن لم تشهد له مغيلاً منذ زمن الناصر ابن قلاوون في القرن الرابع عشر. مئات السنوات الزمنية تفصل كلتا القاهرتين عن بعضهما البعض. واحدة لا تزال ترزح تحت إرث مملوكي وعثماني جبار، وأخرى يضع على جنباتها الرجل الأبيض لمسائه ويحوّلها إلى مدنية تطيب له وتحضر يليق به، تاركاً القاهرة التراثية لرعا المصريين.

كان مرض كوش بالاندهاش عَرَضًا لمرض تفتح الوعي الذي أصاب الأمة المصرية بأكملها في ذلك العصر. كان الاندهاش هو سمة الزمان وعنوانه. لم يكن مكان ما على وجه البسيطة مستعدًا لاستقبال فضائل القرن الجديد والتخلص من خبائث الماضي كما كانت مصر في ذلك الوقت. بلد تستفيق على حش غصّ بالوطنية ورفض وجود المحتل الأجنبي، مدركة فجأة ما حدث من اغتصاب مفاجئ كانت قد استسلمت له رويدًا رويدًا دون أن تدري، ودون أن

تدري لِمَ لا تدري. ولم يكن ذلك التحول الذي طرأ على القاهرة من قبيل المصادفة. فقد مرّ أكثر من عشرين عامًا على وجود الإنجليز في مصر. وبات ممثلو حكومة جلالة الملكة فيكتوريا موجودين داخل الحكومة المصرية بشكل مباشر. وشغلوا مختلف المناصب، وتضاعفت أعداد الأوروبيين القاطنين بالبلاد، وباتت مصر ملعبهم المفضل لتجريب كل جديد، وأصبحت خريطةها لوح الرسم الذي يخطون ملامحه كما يحلمون، واستحالت معالفا صلبًا طيغًا يشكلونه كيفما يشاؤون، خاصةً وأنهم لم يجدوا من طبقتها الحاكمة أو شعبها مقاومةً تذكر.. على الأقل في البداية.

بعد مرور العامين الأولين من تلك الضربة، لاحظ الجميع في الفندق ألمعية الغلام الذي بدأ يكبر شيئًا فشيئًا الآن. وبدؤوا يلحظون قدرته المفوّهة على الحديث. وصياغته الأكثر نضجًا للجمل. ومطالعة الدائمة للجرائد والمجلات قبل أن يورّعها بالبهو الرئيسي أو على الغرف، والمعلومات التي بات يُلقّيها بتلقائية شديدة وسذاجة دونما استعراض كلما سنحت الفرصة لذلك. «هل تعلم أن الغزال يعيش في الأرض الرملية المنبسطة أكثر من الغابات؟» يقول كوش فجأة حين يشكو سليمان مرتعبًا من رأس غزال طلب صياد أمريكي حملها إلى غرفته. «هل تدرك أن السلطان العثماني يعتزم اعتماد حزمة جديدة من الإصلاحات التقشفية لمحاربة إفلاس البلاد» وذلك حين يذكرهم الخال بقدوم وفد من التجار العثمانيين قريبًا.

باتت قراءة الجرائد أمرًا اعتياديًا بالنسبة لكوش. وأصبحت

الكتب هي الجوهرة المسحورة التي يسعى إلى الاقتراب منها وفك مكنوناتها. بدأ طه بتمرير الكتب التي يعرفها منتقياً الأبسط منها أملاً في التدرج مع كوش رويداً رويداً. فجعله يقرأ عليه ألف ليلة وليلة، والإمتاع والمؤانسة للتوحيدي، ومقالات الأفغاني ومحمد عبده في العروة الوثقى، وأصبح شرح ما خفي منها من معاني لكوش بمثابة مراجعة وتذكير له.

على الرغم من قدرة طه المذهلة على الاستيعاب إلا أنه لم يكن يخفي إعجابه بقدرة كوش التي لم تكن تقل عنه رغم أنه لا يزال حديث عهد بالقراءة. فليده ذاكرة حديدية وقدرة على استرجاع المعلومات وتذكر معاني الألفاظ، كما تمتع بالصبر والإصرار الكافيين رغم حماسه المندفع لاستكشاف كل شيء جديد. «لو حافظت على ذلك النهم المعرفي بداخلك، فستصبح شخصاً أكبر بكثير من مجرد خادم في فندق يا صديقي». كان طه يقول له دائماً وكأنما يقول ذلك لنفسه.

كانت المنفعة متبادلةً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. لم يكن هناك ما يمكنه تعكير صفو علاقتهما، أو يجعل أحدهما يشعر بالاستغلال من الآخر. أصبحت تلك العلاقة الخالية من أي بغضاء نقطة كمالٍ وسط بحر من الجنون يعم البلاد. وعلى الرغم من جنون كوش الوليد بالمعرفة وحبّه لكل نقطة نور تصله عبر كلمات الكتب وشروحات طه، إلا أن كتب التراث أصابته بالإحباط من فرط صعوبتها. يصّر طه على تلقينه ما تعلّمه ولكن بطريقة أكثر ابتكاراً من تلك التي يشكو منها في الأزهر، ولكنه لا يعرف غير تلك الكتب. في بعض الأحيان من باب الترويح عن طه كان يتركه يقرأ له قصصاً من

باب «الفكاهات» من مجلة الضياء.

حتى كان ذلك اليوم الذي أتى فيه كوش بكتابٍ لطفه وهو فرح. «لقد نسيه أحد الرواد في الفندق وأظنه يسير القراءة. فلنقرأه معًا». هرعاً إلى حديقة الأزبكية. وعلى الحشائش ووسط صراخ الأطفال الذين يلهون مع أسرهم والمحبين المتنزهين، طالع زواجر الحديقة الغناء غلامين على بعد خطوات صغيرة من سن الشباب، أحدهما مستلقٍ وقد صنع من عباءته وسادةً أراح عليها رأسه، بينما جلس الثاني مربعًا يحمل كتابًا في حجره يقرأ منه لصاحبه بصوت ما بين المسموع والخافت الذي لا يُزعج. وهكذا فتح كوش كو القادم من بلاد النوبة الترجمة العربية لرواية يوهان جوته «أحزان فترتر» وبدأ يقرأها على مسامع طه، والذي كان يستوقفه كل بضعة أسطر ليشرح له ما يقرأ.

ومع كل حرفٍ قرأه، عرف كوش أن هناك الكثير والكثير الذي لا يدركه في هذا العالم.

في ذلك اليوم تبدلت حياتاهما للأبد، فقد اكتشفا شيئًا لم يكن كلاهما، على فارق التعليم بينهما، يعرف عنه شيئًا: الأدب المستجد! أو ما يسمونه في الغرب بالرواية. لم تجعل هذه الرواية المأساوية قلب كوش يمرض بالحب المطلق دون وجود محبوبةٍ فحسب، ولكنها أدخلت عليه شعورًا لم يختبره من قبل أبدًا، وهو اليأس. شعر بأنه يريد لقاء ذات مصير الراوي المشؤوم فترتر، وأن ما يشعر به لا يمكن أن يكون غير حقيقي. وسط دموعه التي تدفقت من عينه المغمضة، تكلم طه بصعوبة: «كيف يتمكن بشر من نقل حالة شعورية إلى الوجدان بمثل ذلك الصدق؟». مثل هذا الكتاب الذي

لن ينساه كلاهما طوال حياته نقلة هائلة في وعيهما. بالطبع كان طه على دراية بالأدب العربي القديم وإن عانى من احتقار شيوخه له وعزوفهم عن تدريسه، ولكن ذلك اليوم الذي نسيا فيه الوقت والموجودات كافة جعله يدرك أن مبتغاه نحو التغيير أكبر بكثير مما يتخيل، وأن في الأدب -وإن خلا من المعرفة المباشرة- ما يستحق أن يُدرّس. أما كوش فلم تكن تطارده سوى فكرة واحدة: أنه يريد معايشة المزيد من الحكايات مثل هذه.

بعد إتمامه الرابعة عشرة بقليل، ولم يكن يدرك أنه أتمها، انتابت كوش مشاعر غريبة ومضطربة حين جلس مع طه في حديقة الأزبكية يقرأ عليه الجزء الأول من مغامرات روكا مبول، ورأى سيدة في ملأئتها تميل لتمسح أنف ابنها الصغير ثم تلقفه ثديها. شعر كوش بالدماء تسري في جسده وكأنه يرى امرأة لأول مرة في حياته. أرادت الكلمات الجريان على لسانه دونما تفكير كما اعتادت ليصف لظه ما يراه، ولكن انتابه شعور لم يعرف كيف يسقيه؛ شعور منعه من قول شيء. استحى كوش، واستعرت بداخله نار مؤججة لم يعرف من أين أتت.. وكأن الحشائش من تحته قد استحالت بركانًا يموج بالحمم. صمت كوش ولم يتكلم. وعلى مَرَّ الشهور التالية حين بدأ صوته يتبدل، وحين بدأ يلحظ تبدل صوت طه هو الآخر، واختلاف عظامهما وبروز صدريهما على نحولتهما، لم يقل كوش شيئًا أيضًا. وكذلك فعل صاحبه.

وحين أتم عامه السادس عشر في العام الخامس من عمر القرن الجديد، وبعد انتهائه من قراءة ألفية ابن مالك على طه، وأتم أيضًا مجلدات ألف ليلة، عاد مقتولًا من التعب وغط في نوم عميق. أيقظه خاله في منتصف الليل. فتح عينيه ليجد وجه الخال وقد زاد طولًا وأسى.. «ماتت أمك».

صاحبه الخال وعاد به إلى النوبة. هذه المرة لم يكن كوش يحمل أيًا من الهدايا والأقمشة الملونة التي حملها لأمه في الزيارة اليتيمة التي زارها لها منذ عامين. ذهب خالي الوفاض والقلب. ركب نفس القطار ونفس العربات وربما ذات المركب التي أقلته في قلب النهر إلى القاهرة. بكى طوال الطريق حتى وصل. كانت أمه قد دُفنت، لم يكن من الإسلام ولا الأخلاق تركها كل هذا الوقت في عراء يوليو القاتل. وجد فقط حجرين فوق تبة ضئيلة من التراب. وقف أمامها بجوار خاله الذي يقرأ الفاتحة ويدعو وهو يتساءل: إن كان لن يودع أمه ويشم رائحتها مرة أخيرة فلم أتى؟ أراد إخبار خاله برغبته في العودة إلى صخب الفندق. فجأة ظل هذا الهدوء الذي يخيم على الأجواء وأصوات الريح العاصفة تضرب صمت اللاشيء من حولهم يرنّ في أذنيه ونفسه بإيلاٍ بلا معنى. «ربما لو لم آت لظلمت أفتقدها افتقاد المسافر، ولكن الآن استقرت في قلبي وحشة الموت». قال لنفسه وليس للخال كما تمنى.

حين عاد إلى القاهرة، هرع لزيارة طه في منزل حارة الوطاويط فلم يجده. سأل الحاج فيروز فأخبره أنه عاد مع أخيه للمنيا لزيارة ذويه ولا يدري متى يرجع، فقد لا يعود للأزهر. انقبض قلب كوش، ولكنه ظل يقنع نفسه أن طه لا بد له من العودة لمواصلة تعليمه..

وسيرسل في طلبه ما إن يعود من سفرته.. وهو ما لم يحدث قط.

الفصل الثالث

تشوسر في شرفة شبرد

(1907)

بحلول صيف عام 1906، كانت السيدة كلارا ميلر تعاني من عدة أمراض دفعة واحدة: التهاب الزائدة الدودية، نظيرة التيفية، وحصوات المرارة. على الرغم من خبرة الأم الطبية التي اكتسبتها من طول المرض، إلا أنها لم تستطع معالجة نفسها، وفقدت الأمل في كافة الأطباء الذين تزورهم. تمت مناقشة إجراء عمليات جراحية عدة مرات، ولم يكن ذلك بالقرار السهل. ولذلك حين وجدت الأم طبيبًا أشار عليها بأن كل ما تحتاجه هو مناخ مشمس وجو دافئ، وقعت في غرام تلك النصيحة. «سنقضي الشتاء المقبل في مصر»، قالت الأم لابنتها أجاثا صبيحة يوم ممطر في أغسطس بمقاطعة ديفون أون شاير الإنجليزية. كان لهذا القرار أبعاد اقتصادية أيضًا: فأجاثا ستتم عامها السادس عشر عما قريب، وأصبح من حقها أن تحظى بحفل الخروج.. «في مصر سنشرب نخب حفاظنا على التقليد العريق وفرارنا من شبح السقوط من حافة الطبقة الوسطى!» قالت الأم بمرح وهي تلوح بإحدى مطويات شركة كوك للسياحة.. «الشكر للرب على نعمة الكومنولث!». بحسبة بسيطة، فإن عروض شركة كوك لتنظيم الرحلات إلى المستعمرة المصرية رخيصة بشكل مغرٍ. وإذا ما تمكنت الأسرة من تأجير منزلهم طوال مدة الشتاء، سيتمكنون من السفر إلى مصر وزيارة معالمها، والتمتع برحلات نيلية أثناء الإقامة في أفخم فنادقها دون مشكلة. تبدو خطة مباشرة

للغاية: ستحضر أجاثا 5 حفلات راقصة في الأسبوع لمدة ثلاثة أشهر تقضيها مع الأسرة في مصر، تتعَوّد فيها على الرقص ومخاطبة الرجال بشكل يومي، فكل فندق كبير في القاهرة يقيم حفلة راقصة يوميًا في الأسبوع، كذلك فإن الضباط الواسمين يتواجدون هناك بوفرة: القاهرة وحدها بها ثلاثة أفواج عسكرية ولاشك أن أجاثا ستقابل زوج المستقبل هناك. أما الأسرة فيمكنها قضاء فترة الصباح في لعب البولو بالنادي الخديوي، وربما زيارة معابد الأقصر وأسوان، كما ستتبع الأم التعيسة العلاج الذي تؤمن بأنه سيكون النهاية المأمولة لأمراضها المتتالية.

هرعت أجاثا إلى أختها لتخبرها بالمفاجأة السعيدة، وبعدها ركبت دراجتها وأخذت تتنزه حول البلدة الصغيرة وهي تتخيل ما ينتظرها في أرض الفراعنة. في مصر ستستحق عند بلوغها السادسة عشرة تقديمها إلى العالم كأنسة ناضجة غادرت إلى غير رجعة طور الطفولة. تشتري عدة فساتين، تغيّر من تسريحة شعرها لتتحول معها إلى امرأة ناضجة، وتخرج إلى حفلات الرقص برفقة صديقاتها، وتتعرف إلى الأولاد/الرجال، تحت رقابة أعين الأمهات الصارمة، وتمارس طقوس العبور من حياة الفتاة إلى طور النضوج. كان احتفاءً بانتهاء مرحلة عمرية والبدء في أخرى.

تعلم أجاثا جيدًا أن ظروف أسرة السيد ميلر بعد وفاة الأب ليست على ما يرام. ومثل ذلك الاحتفال الذي يستمر شهرًا سيكون مكلفًا لو أقامته الأم ما بين إنجلترا وفرنسا كما تحثّم التقاليد. ما بين السفر، شراء الملابس الجديدة، إقامة حفلات الرقص، ورحلات الصيد والأنشطة الاجتماعية الأخرى... لم تكن الأسرة لتتحمل كلفة كل هذه

ينتاب أجاثا حماس مزدوج لتلك الرحلة. حماس الذهاب للنيل وحماس انسلاخها من طور الطفولة الذي باتت تضيق به ذرعًا، وتطلعها لأن تشعر بأنها صارت امرأة ناضجة وحقيقية. على الرغم أن جمالها لم يكن باهزًا، وكانت تصنف نفسها بأنها فوق المتوسط بقليل مقارنةً بقريباتها من الفتيات، إلا أنها تشعر بأن داخلها روحًا جامحة تتوق إلى الانطلاق. حس الفكاهة الساخر بداخل أجاثا كان إنجليزياً بشكل مثالي. سخريتها القائمة من نفسها وممن تشكل كلاً من نظرتها للحياة ونظرة من حولها لها. تخفي روحها الأنثوية وذكاءها الحراق وراء صراحتها المخرجة، وقلماً تبوح بما يدور داخل نفسها. أو على أقل تقدير لا تقوله كما تشعر به، بل تفضل أن تلوي ذراع الحقيقة متوارية خلف تهكم مرير يسبب الحرج وربما الحنق للجميع عداها هي. هي تدرك جيداً أنها خجولة، وغير اجتماعية، ولا تتق في شكلها أبداً، بفكها العريض وأسنانها الكبيرة وعينيها غير المميزتين، ولذلك فإن سلسلة من الحفلات الراقصة في مكان بعيد عن الوطن، وفي نفس الوقت في بيئة مشابهة ومع أشخاص متشابهين، كانت حلاً ناجحاً لخروج هذه الفتاة من شرنقتها.

وهكذا شدت الأسرة الرحال إلى أرض الشمس والفراعنة.

وقعت أجاثا الصغيرة في حب مصر فور وصولها. ما إن رست الباخرة بميناء الإسكندرية في ديسمبر عام 1906 حتى قابلها الجو الدافئ، وتوزد خداهما على الفور بفضل الشمس الساطعة، وشعرت

بصفاء الجو الخالي من السحب يختلط بدماء عامها السابع عشر الذي دخلته للتو وكأنها تستحيل مخلوقًا جديدًا. بعد رحلة قصيرة إلى القاهرة وجدت نفسها في البهو الفرعوني لفندق شبرد العريق. في البداية انزعجت من كم الإنجليز والأوروبيين الذين يملؤون الفندق المنشغل عن آخره. فقد بدأ فصل الشتاء للتو والكل أتى هربًا من شتاء أوروبا القارس، ولكن أجاثا بقدر ما تطمح إلى مميزات الحياة الأوروبية التي ستجدها متوفرة هنا، بقدر ما تشعر بغربة عجيبة وسط بني جلدتها في تلك البلاد الحارة. تبحث بأعينها عن المصريين الذين درست أجدادهم كثيرًا في كتب المدرسة، حيث تاريخ الفراعنة الذي خلب لبها منذ نعومة أظافرها. سرعان ما شعرت بالآلفة من ابتسامات الندل والخدم الواسعة وحركتهم النشطة وهمتهم في حمل الحقائب. استرعى انتباهها شابٌ نوبي وسيم حمل حقائب أمها وأرشدتهم إلى جناح إقامتهم. طويل وهادئ بابتسامة حالمة وصوت رقيق. لم تكن إنجليزيتة سليمة ولكنها أعجبت بقدرته على التواصل البسيط. منحته أمها بقشيشًا سخيا فنظر لها باندھاش كبير وهو يمنحها فوطة ساخنة لتمسح بها وجهها وتزيل غبار السفر عنه. «اسمي أجاثا» قالت له بلطف شديد. «وأنت؟». لم يرد وظل ناظرًا لها بنفس نظرة الدهشة التي بدت وكأنها تقع لأول مرة في حياته على فتاة. ضحكت في صبيانيتها اللعوب سعيدة بتأثيرها عليه حتى نسيت سؤالها له.

فور انصراف الحقال بدأت أجاثا تفرغ محتويات حقائبها في حماس شديد. فساتين السهرة وأطقم رياضة البولو وزي السباحة وعشرات الحلبي وأدوات الزينة. تترقب كل ما ستأتي به هذه

الإجازة من مفاجآت، وداعبتها أحلام اليقظة فأخذت تتخيل نفسها وقد رحلت من هنا مخطوبةً لضابط إنجليزي وسيم أو كونت هنغاري ثري. تشعر بالحماس والقلق معًا، هل ستتمكن من التغلب على خجلها الذي تنتقده أمها فتتمكن من عقد صداقات وثيقة مع الخطاب والأزواج المحتملين؟ أفاقت أجاثا ميلر من شرودها على صوت أمها تخبرها بأن الوقت قد حان للنزول إلى الغداء. ارتدت فستائنًا من الشيفون بلون الفستق الباهت وشرائط ساتان عريضة وعلت رأسها قبعة من التول المشغول. نزلت العائلة إلى قاعة الطعام الفخمة فوجدوها مزدحمةً عن آخرها. هناك وجدت الحقال النوبي واقفًا وقد غير ملابسه من الجلباب المخطط إلى طقم نبيذي غامق وقد علا رأسه طربوش أنيق وبات نادلاً. لفت نظرها حزامه العريض المشغول بخيوط ذهبية لامعة. ابتسمت له فبادلها الابتسامة في خجلٍ متفاجئ. جلست إلى الطاولة وأخرجت دفتر ملاحظاتها، الذي لم تكن تذهب إلى أي مكانٍ بدونه، وأخذت تكتب وصفها للقاعة ومن يشغلونها بخطها الأنثوي المتصل.

منذ مرضت أجاثا بحمى التيفويد وهي في الثانية عشرة من عمرها، اقترحت أمها عليها تسلية وقتها بكتابة قصة. من يومها وقعت الفتاة في غرام تلك المغامرة الطفولية، واكتشفت بداخلها رغبة دفينية بأن تحكي القصص المثيرة التي تلهب الخيال وتثير نهم القراء للمزيد، ولذلك فهي تحاول طوال الوقت تدوين ملاحظاتها استعدادًا للقصة القادمة.

حين غادر كوش الغرفة التي أوصل زوارها إليها للتو، كان قد

بات شخصًا آخر غير الذي يعرفه. في اللحظة التي رأى فيها الفتاة ذات الشعر المشعث تمسح يديها ووجهها بالفوطة الساخنة فيلتهب وجهها الشاحب بحمرة فاتنة عرف أنه قد وقع في حبها. لم يدر أو يفهم ما شعر به، ولكنه كان قد انتهى إلى غير رجعة. بات أسير تلك الهالة الشغوف التي تحيط بها. كل ما شعر به أنه يريد النظر إليها طوال الوقت. يراقب حركاتها. يستمع إلى صوتها ويشتم عطرها. شعر بعينيه تتسعان ودقات قلبه تتسارع بينما تفسه يزداد قصرًا. منذ تلك اللحظة التي غادر فيها الغرفة قرر أن جدول عمله اليومي سيتمحور حول شيء واحد فقط: رؤية الأنسة ميلر بأكبر قدر ممكن. لم يفكر كوش في أي شيء يخض الفروق فيما بينهما. كل ما فكر فيه هو هذه الفتاة التي تستحوذ روحها شيئًا يتمناه، شيء يستحقه على البقاء حيًا وفي هذا الفندق. منذ انفطار قلبه على فراق رفيقه طه الذي لم يعد ليسأل عنه ظن أنه محكوم عليه بالبقاء في هذا الفندق إلى الأبد دونما اتصال حقيقي مع أحد. ولكن منذ وصول تلك الفتاة العجيبة لم يفكر حين يستيقظ من النوم وحتى ينام في شيء سواها، فقط خيالها يداعبه طوال الوقت. يبذل جدول المهام المعلق على حائط الغرف الداخلية كي يعمل في المطعم مناوبة الغداء، ويقدم المشروبات في التراس حين يراها متوجهة إلى هناك في الصباح. أقنع خولي أن ينتدبه لرفقة آل ميلر في رحلات لعب البولو بالنادي الخديوي رغم أن أطقم عمل النادي من الأسوانيين والأقصريين لا تشوبها شائبة ويقومون بواجباتهم على أكمل وجه. حين داهمته الدموع منهمة على خديه السمرائين فجأة بينما يسير في الشارع لدى تذكرها عرف أنه قد وقع في الحب. كان يسير في الطريق حاملاً ملابس النزلاء وفتش فيما بينها، وحين وجد ثوبها

الأخضر بلون الفستق ذاب قلبه، واكتشف أنه منذ الصباح، سواء كان يعي أو لم يكن يدرك، كانت هي كل ما انشغل به كيانه، في كل لحظة من اليوم. حين يستيقظ وحين ينظف مرايات الحمامات وحين يغني أمام المرأة وهو يزيل الصابون عن وجهه وحين يستمع إلى كلمة توزيع المهام الصباحية من السيد ستيفنسون وحين يروي النباتات ويحيي المارة في البهو. انهمرت دموعه فقط لأنه لمس شيئًا لامس جسدها. شعر برغبة عارمة نحوها. ودّ لو كان طه بقربه فيخبره بذلك. ودّ أن يخبر العالم كله أنه مفتون بذلك الكيان المتفرد المسمى أجاثا ميلر.

واصل كوش القيام بمهامه في الفندق دون كلل بينما مرت الأيام حاملةً على أعتاب أجاثا. وفي إحدى تلك الأيام استعد بكامل أناقته في المساء كي يبدأ نوبة الخدمة في الحفل الأسبوعي الذي يقيمه الفندق. على الرغم من عدم خلو قاعة الرقص على مدار الأسبوع من الحاضرين الذين يبحثون عن التسلية واللهو، إلا أن حفل يوم الأحد بشبرد هو الأضخم الذي تشهده فنادق القاهرة بأكملها. تتبارى كل الفنادق في تقديم حفلها الأسبوعي، وينتقل الأجانب إلى تلك الحفلات في أفواج جماعية يقضون حفلهم في فندق مختلف في كل يوم. يوم الأحد هو يوم شبرد. وهي الليلة التي سيشاهد فيها أجاثا تخلب لبه بينما ترقص فاتنةً بين الرجال والفتيات. يشعر الشاب ذو العمانية عشر عامًا بقوة وفتوته ولكنه في ذات الوقت مشغول باستكشاف ذلك الكيان المتكامل بداخله من الحب. لا يزال كوش ساذجًا بريئًا، يسعده تواجده بين الضيوف يخدمهم

كعاداته، فيقدم لأجاثا مشروبًا، أو يحمل عنها حقيبة، أو ربما تناديه فتطلب منه قطعة كانابيه، تارت الكافيار، أو معجون الجزر لأنها تشعر بالجوع. لم تكن تراه. لا ترى من هو. ترى فيه فقط شابًا لطيفًا يخدمها. ولكنه لا يطمع في أكثر من ذلك. يسعده أن يراها سعيدة. ولا يحلم بأن يحدثها. كل ما يهمه هو أن تظل باقية أمامه هكذا مفعمة بكل تلك الحيوية.

تزدحم القاعة بمختلف الحضور، يتوافد الضيوف على القاعة الزوج تلو الآخر من كافة الجنسيات والأشكال والألوان، يمسون بين أصابعهم بالسجائر ذات المسمم العاجي، ويجلسون حول الطاولات المستديرة في غير اتفاق، ينتقلون من طاولة لأخرى بينما يتعرفون على الآخرين. بين الطاولات والبار العتيد فراغ هو الساحة المخصصة للرقص. على جانب القاعة تعزف فرقة صغيرة موسيقى الراجتايم الرائجة، تصدح على صغرها بموسيقى عالية حتى إن الضيوف يحتاجون إلى الزعيق ويلصقون أفواههم في آذانهم حتى يسمعوا بعضهم. يحمل كوش الصينية ويجول بين الساهرين بأكواب الشراب الملانة والفارغة منها. وفي كل لحظة يسترق النظر إلى أجاثا، فيراها ترقص مع ضابط وسيم أو أحد العجائز الذين يترددون على الفندق ويعرفهم كوش جيدًا، وفي مرات أخرى ترقص بخفة مع أحد الأطفال. الجالية الإنجليزية هنا مثلها مثل بقية الجاليات الأجنبية تزداد كبرًا مع انفتاح القاهرة على العالم، ولكن بالطبع يظل البريطانيون ورعاياهم من الأسترال والأيرلنديين الأكبر حجمًا رفقة جيشهم العظيم.

كانت أجاثا خجولة في البداية، ولكنها تظهر مهارة خاصة في الرقص. لم تكن في البداية مأخوذة بالأهرامات والجمال والجو المشمس بقدر ما انشغلت بالتعرف إلى أكبر قدر ممكن من الرجال. إنها في السابعة عشرة ولا يشغلها شيء الآن سوى استكشاف ذلك الشعور الخفي بأن تكون امرأة. أجلسها أمها في اليوم الأول بشبرد: «فن الإغواء لابد وأن تمارسيه بحذق وحرص». وكما ستكتب أجاثا في مذكراتها بعد تلك العطلة بخمسين عامًا: «لم يكن الجنس أمرًا مطروحًا في تلك المغامرات. كان كل أمل الفتيات هو مقابلة الأولاد ليمرحن بعض الوقت. يكسرن ذلك الحاجز الضخم بالتعارف على شخص من الجنس الآخر. كان الأولاد ينظرون لنا أيضًا؛ فتيات هذا السن، باحترام شديد. كلنا كنا مادة خامة للزواج. أما مغامراتهم الجنسية فكانت تُعقد مع سيدات متزوجات أكبر منهن بكثير؛ زوجات الضباط والموظفين الرسميين في الكنات. كل ما كنت أبحث عنه هو بعض المغامرة البريئة».

واصلت الموسيقى صخبها وظل كوش يلاحق الفرقة الأمريكية من العازفين السود -الأكثر دكائة منه كما لاحظ- بالمياه الباردة والمشروبات الروحية محييا إياهم. أما أجاثا فكانت بين كل رقصة والأخرى تعود إلى الطاولة التي جلست إليها أمها تراقبها بعيون الصقر وتستجوبها عن كل فتى تتعرف إليه، من هو وسنه ورتبته ومدى ارتياحها له. يقول العرف الاجتماعي بأن الفتاة غير مسموح لها بالرقص أكثر من مرتين في ليلة واحدة مع نفس الشخص، وممنوع الاقتراب أو التلامس الجسدي خارج حدود الرقص، وممنوع الاختلاء أو الأحاديث الجانبية خارج المرقص. الهدف

هو تشجيع الأمهات بناتهن على العثور على الزوج المناسب وليس خوض مغامرات غير محمودة العواقب.

وحين دقت الساعة العاشرة مساءً، تغيرت حياة كوش للأبد.

حين مد الكونت النمساوي بشاربه الدقيق وشعره اللامع يده لأجاثا كي ترافقه في الرقصة القادمة، لم يكن يتوقع انتهاء الرقصة في منتصفها تلك النهاية الفجائية والهزلية. على الرغم من أسلوبه المذهب ولكن حركة جسده المتخشبة ووجهه المتجمد الذي لا يكشف عن أي مشاعر بدت منفرة بعض الشيء للفتاة الصغيرة، ولكنها لم تكن تقوى على الرفض، فضلت الرقص معه عن الجلوس ساكنة تتعرض لأسئلة أمها وثرثرة السيدات العجائز اللاتي يرافقنها، ولذلك استجابت إلى دعوته. ما إن بدأ اللحن حتى دببت في الأرض بحذاء الغيليز الأسكتلندي ودارت حول نفسها عدة دورات في رشاقة. خطفت الأنظار بخفتها وابتسامتها العريضة التي تشي بأنها فعلاً تستمتع بالرقص. وإذا كانت أجاثا خجولة ولا تجيد الحديث بلطف فإنها بلا شك راقصة مفعمة بالحياة.

ليلة مثالية حتى الآن..

ولكن فستانها الذي أهدتها جدتها قماشه المخملي الأرجواني بعد أن وجدته في عليّة منزلها في توركاوي كان له رأي آخر. فجأة وهي تدور حول نفسها وتتمايل على ذراع الكونت المليح سمعت صوت انقطاع القماش المربع. يبدو أن القماش المسكين المخزون لسنوات عديدة منذ القرن الفائت لم يتحمل حرارة مصر فانكمش واهترأت

خيوطه فلم يتحمل حركات صاحبتة العنيفة.

انفجر وجه أجاتا بأحمر الإحراج وركضت مسرعةً وهي تشعر بأن نظرات الجميع تحرق ظهرها. ركضت خارجةً من ساحة الرقص ومن القاعة كلها ودموع الغيظ تملأ عينيها. وفي لمح البصر وضع كوش صينيته وقال شيئًا لخولي الذي وقف في مهابة يشرف على الخدمة وخرج في إثرها. بحث عنها في أرجاء الفندق فلم يجدها؛ لا على التراس ولا بهو المشربية أو حتى في البهو الرئيسي. دخل إلى غرفة العاملين وأتى بحقيبة قماشية صغيرة ثم عرج على الممرات الخارجة عن البهو يبحث عنها في القاعات المتجاورة. في آخر غرفة، وحين كاد ييأس، وجدها منزويةً في غرفة الموسيقى على الأريكة المجاورة لبيانو شتاينواي الكبير.

طرق على الباب بلطف وخطأ ببطء نحو الداخل. حين اقترب منها في الإضاءة الخافتة للغرفة وجدها تبكي.

«مس، سوري...»

رفعت وجهها نحوه بعينين محمرتين دون أن تقول شيئًا.

أصابه الارتباك فجأة، وغلبته مشاعره، وأحس بأن قلبه يكاد ينفجر من تسارع دقاته. كان سعيدًا وهو يراقب قطرات العرق على جبهتها من أثر الرقص والإحراج، ولهائها بادي الانفعال لا يزال في أوجه. كان سعيدًا برائحتها التي ملأت الغرفة، وحضورها الأنثوي الذي حلّى الدنيا في ناظره.

فتح الحقيبة القماشية وأخرج إبرةً وخيوطًا. رفعهما أمام ناظرها. تباطأت أنفاسها رويدًا وبدأ على وجهها شبح ابتسامة.

«هذه لي؟ أشكر لطفك يا صديقي العزيز، ولكني سأصعد إلى غرفتي أجزّ أذيال الخيبة وأخيط الفستان غدًا».

لم يفهم كوش كل كلامها. تتكلم بلهجة جنوبية ثقيلة، وإن كانت تتكلم ببطء متأش من فرط تأثرها. ابتسم مرتبكا. مرت فترة صمت وهو واقف أمامها، يخبرها بعينه أنه يمكنه إنقاذ الموقف. ارتاحت أجاثا أكثر في جلستها.

«إنك لطيف للغاية. ما اسمك؟»

«كو. كوش كو» أجاب في خجل.

«كوشكو.. يا له من اسم موسيقي، أهلاً كوشكو.. أنا أجاثا» مدت له يدها مصافحة.

هذه الخصلات من شعرها تسحره. نظر إلى يدها منيرة البياض في ذهول ومدّ يده السمرء بداخلها. كاد يبكي من ملمسها.

«هل تتكلم الإنجليزية يا كوشكو؟»

أوما برأسه.

«قليلاً. السيد ستيفنسون يعلمني. أحب التعلم». قال لها بعينين مفعمتين بالوله.

«هذا رائع. سيكون لي صديق مصري إذا طوال إقامتي هنا». نظرت نحو الإبرة والخيط في يده. «هل تجيد استخدامها؟»

«بلى. خولي علمني. أحب التعلم» كرر في غباء.

تضيء وجهها ابتسامة وتقف على قدميها. تأتي موسيقى قاعة

الرقص مكتومةً من بعيد. استدارت أجاثا وأعطته ظهرها. «أظن الشق حدث هنا بجانب أسفل الظهر» قالت وهي تكلم لوحة ضخمة لجيروم تصوّر قافلةً من الجمال والبدو تعبر الصحراء بينما تشير بيدها خلف ظهرها. هذه الخصلات من شعرها تذيبه. ركع فورًا على ركبتيه ما إن رأى الشق الطويل الذي برزت من بين ثناياه بطانة الفستان البيضاء. في خفةٍ أدخل طرف الإبرة وطفق يعقد خيوطًا أرجوانية بداخله.

«إنها لعنة. تبذل الجهد كي ترسم لنفسك صورةً معينةً ثم تنهار هكذا في لحظة. كل الحاضرين الآن سيقولون إنني فتاة فقيرة استعارت فستانًا متهاكلًا. سأطلب من أمي اصطحابي إلى ترزي غداً يخطط لي فستانًا جديدًا، لم أكن مرتاحةً أبدًا لهذا الفستان ولكن جدتي أصرت أن أستخدم قماشها الفيكتوري اللعين».

واصل كوش خياطته بمهارةٍ وخفة، حريصًا ألا يمسّ جسدها دون حاجة.

«سيدتي جميلة وما إن تعود إلى داخل القاعة حتى ينسى الجميع ما حدث».

تحسست وجهها.

«ألا تظن أنني شاحبة كثيرًا! لم ألحظ ذلك في توركاي ولكن ما إن أتيت إلى هنا وأصبحت محاطةً بسمرتكم الرائعة هذه حتى بثّ أشعر أنني شبح تائه».

«سيدتي جميلة للغاية. شاحبة جميلة». قال متذوقًا الكلمة دون أن يفهم معناها.

ابتسمت أجاثا لنفسها وعيناها تطالعان اللوحة العملاقة.

«من أين أتيت يا كوش.. من الأقصر؟»

«من أعالي النوبة بجوار أسوان سيدتي»

«آه، تريد أُمي اختطافي إلى هناك ولكني أرفض. أريد البقاء هنا. الآثار الفرعونية عظيمة وكل شيء، ولكن من يدري ربما ثَّاح لي الفرصة لرؤيتها فيما بعد.. ربما بعد سنوات حين أنضج كفاية كي أقدر قيمة هذه الآثار العظيمة، أما الآن فلا أكثرث الحقيقة، أريد أن أُمرح فحسب.. وإن كنت متأكدة أنها خلافة. أنتم أناس طيبون للغاية يا كوشكو».

بدا أنها تستمتع بنطق اسمه. تجد فيه شيئًا بربريًا خلابة، وليست موسيقاه فقط.

«ماذا تحب فعله يا كوشكو في وقت فراغك؟»

تردد كوش قليلًا ليستجمع أفكاره ويصيغها بالإنجليزية. خرجت متكسرةً منه ومحرجة: «لا وقت لدي. الفندق مشغول دائمًا. لكنني أحب القراءة. صديقي طه علمني القراءة وأعطاني كتبًا كثيرة. أريد قراءة الإنجليزية أيضًا. الضيوف يتركون الكثير من كتبهم حين يغادرون. أقوم بتجميعها في غرفتي ولكني لا أعرف ما بها. أحب المجلات أيضًا وأقرأها كلها قبل أن نوزعها على الغرف. أنا أحب أن أعرف الأشياء».

«أوه كوشكو. هذا شيء رائع. أنا أيضًا أعشق القراءة. وأكتب قصصًا أيضًا. من يدري ربما تقرأ لي قصةً في يوم من الأيام

وتخبرني برأيك. أتعلم؟ منذ أتيت إلى هنا تراودني فكرة قصة تدور أحداثها هنا. لا أدري إن كنت سأعود مرة أخرى، ولكن الشمس والرمال وكل هؤلاء البشر المختلفين، إنها أجواء ملهمة حقًا». قالت أجاثا في شرود وكأنها تكلم نفسها. تقف هناك معطية إياه ظهرها دون أن تتحرك. واثقة فيه تلك الثقة التي تمنحها الفتيات الصغيرات قليلات الخبرة بالحياة.

مرت فترة صمت بدا أن كوش يتبتل فيها، لا يخطط شقًا مقطوعًا في فستان.

«انتهيت» قال بينما يقوم على قدميه.

هرولت في خفة نحو مرآة كبيرة على الحائط المقابل ودارت برأسها تنظر بينما تمر يدها على الشق. «يا إلهي. إنه غير ظاهر أبدًا. أنت رائع!»

عادت إليه وجذبت يده.

«لا أعلم كيف أشكر لك صنيعك هذا. الآن يمكنني العودة وأحفظ ماء وجهي قبل أن تعرثر هؤلاء العجائز عني. من اليوم أنت صديقي المصري المفضل كوشكو!».

ابتسم في بلاهة دون أن يقول شيئًا مما اعتاد قوله للضيوف المهذبين مثل «لا شكر على واجب. في خدمتك سيدتي. أهلا بك». لم يقل شيئًا، فقط راقبها وهي تبتعد راكضة خارج الغرفة آخذة قلبه معها.

نام كوش ليلته واستيقظ حالماً. يعيش وكأنه لم يستيقظ طوال تلك الأيام منذ وصلت أجاتا مع أمها وأختها وكلبها الصغير إلى بهو شبرد. نزل إلى غرفة الغسيل وبدأ عمله وعلى وجهه ابتسامة وهو يسترجع أحداث سهرة الأمس. قبل يد خاله وسار إلى داخل المطبخ يلقي التحية على من حوله من العاملين وفي قرارة نفسه يريد إخبارهم بما مر به. ولكنه شعر بفرحة عارمة بأنه يضم بين جنباته كنزاً صغيراً لا يُطلع عليه أحداً. كطفل اكتشف للتو مخبأً للنمل يسليه ويرقح عنه، أو كساحرٍ وقع على سر ترياق الحياة. كان سراً يُشرق الشمس بداخله فلا تغيب أبداً.

بعد الإفطار بذل ملابسه وارتدى الطربوش والقفطان الكحلي ولّف وسطه بالحزام المذهب وخرج إلى التراس الذي ازدحم بالزوار الذين يتناولون شاي الصباح. وقف الرجال يدخلون الباب والسيجار بينما جلست السيدات بقبعاتهن الكبيرة المزدانة بالزهور الورقية. وضع إبريق عصير الليمون المثلج فوق الطاولة التي جلست إليها أسرة آل ميلر. حيثه أجاتا بابتسامة عريضة وكأنها شفرة سرية بينهما. وبينما يجمع الأكواب الفارغة أنهت شيئاً كانت تكتبه في دفترها ومزقت الورقة ورمت بها دون اكتراث فوق الصينية التي يحملها. هرع إلى الداخل ووضع الصينية على منضدة وفض الورقة بيدين مرتعشتين. بخط أنثوي رقيق كانت رسالة أجاتا إليه:

صديقي العزيز كوشكو. بث ليلتي أفكر كيف أرد لك صنيعك. غداً تسافر أسرتي إلى الأقصر، وسيكون لدي وقت فراغ كبير. لقد قررت تعليمك الإنجليزية طوال فترة إقامتي هنا، يتبقى لدي شهران ونصف! هناك الكثير من الكتب التي أود أن تقرأها. وأنت أيضاً

ستخبرني بكل ما أريد معرفته عن مصر لأضقنه روايتي المستقبلية،
وهكذا يربح كلانا! ما رأيك؟

صديقتك الشاحبة أجاثا

طار كوش فرحاً. لم يجد ما يقوله. رفع رأسه فوجد السيد
ستيفنسون يمر أمامه وينظر له في لوم على وقفته بالصينية في بهو
الفندق. هرع كوش إليه وسأله: ما معنى كلمة Pale؟

أخلصت أجاثا عن حق في الوفاء بوعد لها كلما عادت من
مباريات البولو الصباحية، فتجلس معه في شرفة الفندق. تأتي
بأقلام ودفاتر وتعلمه الإنجليزية بحماس شديد... بدءاً من الحروف
والكلمات البسيطة وتصريفات الأفعال وصولاً إلى قراءة دليل كوك
للسياحة في مصر وكتب الأطفال التي تسرقها من أبناء العائلات
التي صادقتها في النادي. ومثل طه من قبلها، أذهلها تفتح كوش
للتعلم وذهنه المتقدم وعطشه الكبير للمعرفة. في داخلها تشعر
بالسعادة أنها تساعد فتى أسود ظهر لها من غياهب سحر مصر
الفرعونية على توسعة أفقه والارتقاء به. لم تفعل ذلك بدافع عنجهية
بيضاء بقدر ما كانت مدفوعة بسذاجة طفلة تشعر بالإنجاز وهي
تغير حياة أحد البدائيين الطيبين الذين يستحقون المساعدة، وكأنه
وحش صغير سهل الترويض يمكن الركون إليه دون خوف. كقطعة
وديعة أو كلب وفي.

هذه قصة لا يسعها الانتظار حتى تعود إلى بلادها لتحكيها
لصديقاتها.

أما كوش فلم يجد في فطرته المعهودة سوى فرصة للسعادة الخالصة: القرب من الفتاة التي خلبت لبه، وفي ذات الوقت فعل الشيء الأقرب إليه في هذه الدنيا: التعلم. لم يصدق بعد تجربته مع طه أنه ستتاح له فرصة لمعرفة شيء جديد. لا يزال يحمل مرارة من اختفاء صديقه الوحيد منذ أكثر من عام، ولكن قلبه يتسارع في لذة محمومة كلما تخيل كم المعارف التي ستنتفتح أمامه فور تمكنه من قراءة الكتب بلغة أخرى، تمامًا كما انفتح له عالم التراث العربي مع طه. هذا الملاك الشاحب يرشده نحو عالمٍ كاملٍ من اللغة والمعرفة والشعر. قرأت عليه حكايات تشوسر وأشعار ميلتون ومسرحيات شكسبير التي لم يفهم معظمها. أعطته روايات ديكنز والأخوات برونتي كي يقرأها حين يتمكن من اللغة يومًا ما. شرحت له ما أنجزه نيوتن في الفيزياء وما قاله جون لوك في الليبرالية والعقد الاجتماعي. في صباح يوم إجازته ذهب إلى شارع المكتبات فاشترى المعجم العربي-الإنجليزي وعاد إلى غرفته يستذكره ويحفظ كلماته ليبهرها حين يلقاها. سيظل ذلك المعجم هو المفتاح الذي يفك له ألغاز ما خفي عليه من أسرار اللغة الجديدة، وستلحقه قواميس أخرى على مر السنوات: إيطالية وفرنسية وألمانية. تلك مفاهيم قد يكون من المستحيل على كوش استيعابها في ذلك الوقت القصير، ولكنها وجدت أن لديه قدرًا هائلًا من الأفكار المجردة التي أخبرها أنه عرفها من صديق قديم له، أفكار مغرقة في الشرقية ولكنها كشفت لها عن ذهنٍ متقد، خاصةً إذا ما قورنت بالقدرات المحدودة لأصحاب تلك البشرة الداكنة كما تعرفها، وبالتالي استطاعت التدرج معه من الأعمال الأدبية البسيطة إلى بعض الأفكار التي تعلمتها في المدرسة ومن قراءاتها الخاصة. طوال ثلاثة أشهر قضتها أجاتا في

تعليم كوش بشكل شبه يومي، تبدلت حياته بين كل لحظة وأخرى.

واصل كوش كـو ذلك الإدراك الوجودي بأنه مهووس بالمعرفة وهو لا يزال مفتونًا بأجاثا. ينظر لها كمعلم ثانٍ بعد الطفل الضربير. ويشعر نحوها بامتنان لا يفوقه سوى افتتانه بجمالها الذي لم يره أحد غيره. كثيرًا ما شتتته مراقبتها بينما تخرج الحروف من بين ثنايا فمها، أو أناملها الدقيقة المقصوفة بتساوٍ وهي تكتب له شارحة لقاعدة لغوية أو تاركةً له الواجب الذي سيحلّه في المساء. تعقد المبالغة في انحناءته حين يرض لها أدوات الطعام على المائدة كي يشم عطرها الزهري الناضح مع نبضات عروق رقبتها.

بعد مرور شهور الشتاء والربيع في ذلك الحلم الذي لا ينقطع، أفاق كوش على حال الدنيا: تلاقٍ وفراق. وحانت لحظة الوداع. بدأ كوش في نقل حقائب وصناديق أسرة أجاثا إلى غرفة التخزين وهو غير مصدق أنها سترحل. أراد البوح لها بحبه طوال الأسابيع الماضية ولكنه ظل يؤجل المواجهة اليوم تلو الآخر. لم يجرؤ على الاعتراف لنفسه بأن الوقت يمر. كان يعرف من عامل الاستقبال الإيطالي فرانزينو موعد مغادرة عائلة أجاثا باليوم والساعة، ولكنه لم يرد تصديق أن هذا اليوم سيأتي، باتت لحظات الاستذكار معها أو مراقبتها وهي ترقص لحظات أبدية لم تكن لتنتهي. حتى حين كان حُطابها يجيئون ويروحون لم يراوده القلق، فقد كان موقنًا بداخله بيقين السذاجة المفرطة أنها لن تكون لأحد. ولكن هل ستكون له؟ كيف؟ حتى وإن تجرأ وقالها، هل تستجيب؟ وإن استجابت، هل تذوب الفروق فيبيض لونه ويصير إنجليزيًا محبوبًا بين يوم وليلة؟

تصارعه كل تلك الأسئلة فتلجم لسانه وتعتقد صوته فلا يبوح أمامها بما يريد حتى قاربت ساعة الرحيل.

في أيامها الأخيرة بدا على أجاثا الحزن المشوب بالحماس لعودتها إلى موطنها. «أفقد صديقاتي، وحديقتنا، وحتى مناخ ديفون البارد قد أوحشني». قالت له وهي ساهمة تحت مظلة الشرفة العريضة. «ولكني سأفقد كل هذا أيضًا. ذلك الصخب وزحام الباعة وشمس الظهيرة التي لا تطاق في كثير من الأحيان. وسأفقدك أنت أيضًا يا كوشكو. بأسنانك البيضاء كاللؤلؤ ووجهك الباسم دائمًا. هذه الصداقة هي أفضل ما حدث لي في تلك الرحلة». «إنني أحبك فوق كل المخلوقات» كاد ينزل إلى ركبتيه ويخبرها. رأى نفسه بعين خياله ممسكًا بيدها وناظرًا في عينيها ومحدثًا إياها بطلاقة علمته إياها قائلًا تلك الجملة التي أعادها في ذهنه آلاف المرات.

يوم المغادرة في أواخر شتاء عام 1907، نزل كوش بحقائبهم الصغيرة الخفيفة ووضعها على ظهر العربة التي ستقل الأسرة إلى محطة القطار متجهين إلى الإسكندرية، حيث يستقلون الباخرة المتجهة إلى البندقية بإيطاليا عابرين البحر المتوسط. نزلت أجاثا في لباس السفر مستعدة لرحلتها الطويلة، وفي خضم انشغال أمها بالتفاوض مع صاحب العربة، وبينما جلست أختها بداخلها، التفتت أجاثا إلى كوش المتعرق من فرط حمل الحقائب وشدت على يده بقوة. «إلى اللقاء يا صديقي. أرجو لك حياة سعيدة ومديدة مليئة بالمعرفة. إن لديك عقلًا لامعًا يا كوشكو، إياك أن تيأس أبدًا، ولا تجعل أي شيء أو أي أحد يوقفك عما تريد تحقيقه. الطريق أمامك طويلة وكل الفرص متاحة، وتسليح دائمًا بما تتعلمه. لن أنساك،

وسأكتب لك دائمًا، وأرجو أن تراسلني كلما سنحت لك الفرصة. تمنّي
لي التوفيق.. يومًا ما سأرسل لك روايتي حين أنشرها».
ورحلت دون أن تترك له فرصة للرد.

الفصل الرابع

ضيف عجوز يغير حياة كوش للأبد

(1908)

في أحد الأيام ضرب الجرس. كان كوش مكتئبًا وحزينًا لفقدانه أجاثا التي ظل يفكر فيها طوال الوقت. مَرَّ عام كامل على رحيلها بدا كالحلم الثقيل لا يذكر كوش منه شيئًا. فقط يقسم وقته بين الكتب والجرائد والمجلات، ومواصلة تعلم الإنجليزية، وممارسة مهام عمله والتفاعل مع زوار الفندق.

توجّه لمكتب الاستقبال فأرشدته فرانزينو إلى حمل حقائب ضيف وصل حديثًا إلى الجناح الكبير. نظر له عامل الاستقبال نظرة لم يعهدها كوش من وجهه الملول، نظرة ملؤها الرثاء مصحوبةً بابتسامة تشقُّ. «يا لك من فتى مسكين».

داهم كوش القلق. ما الذي قد يحمله الضيف الجديد الذي يدفع الشاب الإيطالي المعتد بنفسه لأن يقول هذا؟ لابد أنه ضيف مهم لأنه يسكن واحدًا من أجمل أجنحة الفندق. مستر ستيفنز. هذا كل ما يعرفه عنه. فكّر بينما يدفع العربة المحملة بحقائب السفر القاسية ذات الزاويا الحادة والمقابض اللامعة: لم ير حقائب مسافر بذلك الرونق من قبل، وكأنها لم تعبر البحر للتو في رحلة عبر عدة دول أوروبية استمرت قرابة الشهر.

خبط على الباب. انتظر الرد. «كام إن».

دفع كوش العربة في مدخل الغرفة ليطالعه ظل رجل جالس في

شرفة الجناح محاط بدخان غليونه. أنزل كو الحقائق من على
العربة في الصوان المخصص. قام بترتيبها كيفما اتفق ثم توجه
للشرفة ليأخذ الإذن من صاحب الغرفة كي يتم استلام متعلقاته.

حين عبر إلى الخارج وجد رجلاً قد تخطى الثمانين من عمره.
بجسد منكمش وعينين ضيقتين فيهما صفاء رمادي ووجهه يعلوه
تبزّم العجائز. نظر له الرجل من أسفل لأعلى.

«مرها. واتس يور نيم بوي»؟

أجاب كوش بإنجليزية واضحة: «كوش كو يا سيدي. يمكنك
مناداتي كوش».

«هذا اسم موسيقي للغاية. ولكن إذا كان اسمك يحمل ذلك النغم
فكيف تتحمل أذنك هذا الضجيج المروع الذي سمعته للتو وأنت
ترض الحقائق، أو بمعنى أدق، تحظّمها»؟

كانت هذه اللحظة بداية علاقة استمرت طوال نصف عام بين
الماستر ستيفنز، كبير خدم قلعة هايكلير العريقة الواقعة بمقاطعة
هامبشير البريطانية، وكوش كو الفتى ذي التسعة عشر عامًا القادم
من خلف شلالات النوبة العظيمة.

قضى الماستر ستيفنز -وهو اللقب الذي ينأى به بمعنى المعلم
الأكبر- أكثر من 60 عامًا في مجال الخدمة المنزلية. بدأ كصبي
صغير يعمل بقصر أحد الإقطاعيين الإنجليز، ثم ترقى ليصبح كبير
خدم القصر الملحق بواحدة من أقدم وأفخم القلاع الإنجليزية

العتيدة. حين قرر الماستر التقاعد، وهو لم يتزوج أو ينجب بطبيعة الحال، حدد وجهة تقاعده نحو مصر التي زارها مع سادته منذ ثلاثين عامًا وأقام في شبرد أيضًا.

وكان من حسن طالع كوش والقدر الذي بدا حتى ذلك الحين مسخرًا لإرشاده أنه هو من حمل حقائق ذلك الخبير العجوز حاد الطباع.

لم يكتف الماستر بسؤال كوش عما يعرفه من أصول الخدمة، والتي راعه أنه لا يعرف عنها شيئًا رغم أنه تربى وسط أفضل خدام فنادق الشرق، ولكنه أيضًا حاول اختبار معرفته التاريخية. بدأ الأمر كنوعٍ من التسلية للرجل الذي أراد ملء فراغ تقاعده في القاهرة ولكنه، وبحكم مهنته التي التزم بها طوال ستة عقود وباتت تجري منه مجرى الدم، لم يهتم بالذهاب إلى أي مكان خارج الفندق، وفُضِّل ممارسة ذلك الدور الإرشادي وتعليم أحد أبناء المهنة التي يقدها على زيارة الأهرامات أو النزاهات النيلية.

أما كوش فلم يفوت الفرصة بالطبع، وهذه المرة لا يتعلق الأمر بنهمه تجاه المعرفة الفكرية والإنسانية الخالصة بل بقدره كممتهن للخدمة. توصل كوش للماستر أن يعلمه كل ما يعرفه ويدربه ليصبح أفضل نادٍ في بر مصر. وافق العجوز، وتحدث مع السيد ستيفنسون -ستيفنز وستيفنسون كم هي محيرة أسماء الإنجليز- فكر كوش، والذي يكنّ لرئيس الخدم الشهير احترامًا كبيرًا. «سوف تترك لي هذا الولد بضع ساعات كل يوم كي أصنع منه تحفة خدمية تفخر بها أمام زوار فندقك». وافق ستيفنسون، أطيّب إنجليزي عرفه كوش في حياته، عن طيب خاطر.

ولم يكن كوش يتخيل مدى الروعة والشقاء اللذين سيختبرهما تحت إرشاد هذا الرجل العتيد.

بعدما لفت نظره إلى سوقية مخارج ألفاظه، وانعدام الإحساس في أذنيه والذوق في حركات جسده، أكد الماستر لكوش أنه لو اشتغل في أحد قصور الكبار فإنه سيُطرد بعد أقل من بضع ساعات. سأله سؤالاً مهماً: «هل تعلم ما هي غاية حياتك يا بني؟» «أن أتعلّم وأتثقف» قال كوش بفخر ودون تردد.. «خطأ» صرخ الماستر.. «روونج»-هذه الكلمة التي سيكررها الماستر مشدداً على حرف الأوه بشكلٍ لا نهائي طوال الأشهر القادمة لتصبح نذير تقصير يربع كوش كلما تكررت على مسامعه- «هذه غايتك الشخصية التي لا تهتم من تعمل في خدمتهم. غاية حياتك هي أن يتمتع سادتك بأقصى درجات الراحة في وجودك. ليست لديك مهمة أخرى. يجب أن تعتريك تلك الرغبة وتتملكك امتلاكاً صادقاً ينبع من داخلك. أنت موجود لتلك الغاية فقط ولا شيء غيرها. ليس مطلوباً منك إسعادهم أو حل مشاكلهم الشخصية أو الحياتية، ليس مطلوباً منك تحقيق أمنياتهم ورغباتهم. المطلوب منك إراحتهم فقط. تستبق ما يفكرون فيه قبل النطق به. هذه سمة لا تُكتسب. إما تكون نابعة من داخلك وإما لا. ولا يمكنك التمتع بها إلا إذا اقتبست قدرةً شبه إلهية على التعاطف مع كل من حولك، والاهتمام الأصيل بهم وبمصلحتهم. أن تحبهم ولا تكرههم. ألا يعرف قلبك الحقد أو الحسد أو الاستئثار بأيٍّ من نعم الله عليك».

«هل تستطيع أن تكون شبكا يا بني؟» نظر له كوش بتعجب ساخر: «كيف أصير شبكا وأنا ذو جسد من لحم وعظم؟ أم أكون مثل السيد سكروج في رواية ترنيمة عيد الميلاد؟» لم يبتسم ستفنز واحتفظ بوجهه الجامد دون الإثناء على استعراض كوش أنه قرأ ديكنز، «يكون وجودك ملحوظًا فقط عندما تدعو الحاجة إليه، وتكون منسيًا حين لا تكون لك حاجة. هذا ما أقصده بأن تكون شبكا. وسأريك كيف».

على الفور بدأ الماستر المخيف في إخضاع الفتى المسكين إلى تمارين التنفس والحركة والتوافق العضلي. جعله يخلع ثيابه ويستند إلى الحائط. يشفط بطنه إلى الداخل. ويمتنع عن التنفس لأطول مدة ممكنة، واضعًا تحت أنفه مرآة نسائية صغيرة. «إن غششت ستخبرني المرأة». كان الهدف تعويد كوش على التنفس بهدوء وصمت. «الشهيق والزفير العنيف يجعلك تتحرك بعنفوان، وتفقد درجة الخفة المناسبة. كن مثل التمساح الذي يبطئ من دقات قلبه حتى لا تلاحظه الفريسة. خطواتك خفيفة وكأنها لا تلمس الأرض. ألا يصدر عنك صوت أو هنة تشي بوجودك دون ضرورة». ليس مسموحًا له طوال حياته بممارسة التدخين أو التعرق الزائد. يجب عليه ممارسة الرياضة، والركض، والحفاظ على رشاقة جسده، وألا يأكل أبدًا حد الامتلاء، وألا يتكاسل عن مهامه مهما كانت العقبات. وألا ينشغل عن سيده بأي شيء آخر. «أن تكون مخفيًا وأنت داخل الغرفة أمر غاية في الصعوبة والسهولة في ذات الوقت ما إن تتمكن من القيام به».

بعد أسبوع، وبينما يقف كوش بجسده نصف العاري متشنجًا وحابسًا أنفاسه ويتعرق بغزارة، يباغته العجوز بسؤال آخر: «يجلس سيدك مع ضيوف في غرفة مكتبه، أو غرفة الموسيقى هنا في الفندق أو أي مكان لعين لا يهم، ويتناقش معهم في موضوع هام بينما أنت تقف على خدمتهم. بعد مغادرتهم يلتفت نحوك ويسألك عن رأيك فيما سمعته للتو. بماذا ترد؟»

فكر كوش قليلًا بعد استعادته أنفاسه.

«أخبره برأيي بكل صدق وصراحة».

«رووووونج». يصرخ العجوز. «إياك وأن تفعل ذلك. بل تخبره، ومن الأفضل ألا تكون كاذبًا، أنك لم تكن تسمع ما يقولونه، أو لم تدركه، أو كنت منشغلًا بإعداد الشاي أو التفكير في مراسم الغداء بعد قليل».

«إياك والتدخل فيما لا يعنيك. إياك وإبداء أي ردة فعل حينما تسمع شيئًا يدور في الغرفة. سواء كان نقاشًا سياسيًا رفيع المستوى، أو فضيحة مجتمعية تثير حفيظة السيدات المحترمات، أو سبًا مقذعًا بين رجلٍ وزوجته، أيًا كان ما يدور أمامك فإن سادتك يجب ألا يلحظوا أي تأثير لما يقال عليك. حين تطالع الصحف في صباح اليوم التالي فتجد أخبارًا عن اجتماع هام وقرارات خطيرة خرجت منه، اسمح لنفسك بأن تقول: لقد كنت هناك. كنت جزءًا من ذلك الحدث الهام. كنت جزءًا من ذلك الفريق الذي سهل حدوث تلك الفعالية الهامة. قله لنفسك فقط، وإياك المصارحة به خاصةً لسيدك. اكبر

فوق الموقف. فهو لا يحدد قيمتك، بل ما يحددها هو إخلاصك في عملك».

أفهمه أن الثقة التي تنبني بين الخادم والسيد تقوم على الاحترام المتبادل. «كرامتك فوق كل اعتبار. السادة لا يحترمون الخادم الذي لا يحترم نفسه. إن لم تحترم نفسك لن تحترم سيدك ولا أسرارته. إياك أن تسمح لأي أحد بتجاوز حدوده معك مهما يكن. طوال ستين عامًا لم أقابل شخصًا واحدًا قلل من احترامي، لأنني لم أترك لهم الفرصة».

«هل تعلم ما هو سر نجاحي طوال تلك السنوات؟ إنها لم تكن فقط معايير المرتفعة وقدراتي الخارقة، بل لأنني لم أشارك ولو يومًا واحدًا في جلسات النميمة التي يعقدها الخدم في المطابخ والأروقة. إن وجودك في بيت السيد يجعلك فردًا من عائلته، والرجل المحترم يحفظ أسرار عائلته ولا يلوکها على الألسنة».

«الأمراء والملوك والإقطاعيون ورجال التجارة والصناعيون كلهم سواء في خدمتك. لا تتصور أبدًا أن الحياة لن تضعك يومًا أمام أحد أحفاد الآلهة. حياة الخادم قد تكون أكثر إثارة مما تتخيل. إنها ليست حياة بسيطة. وما يقوم به ليس دورًا بسيطًا. الذي يقف أمامك الآن كان له شرف الخدمة في حفل عشاء حضرته الملكة المبجلة تقدست روحها بقصر يوركشاير عام 1880. كيف لم أرتبك أو أسقط الصينية في حجر جلالته من الخوف، تسألني؟ لأنني ببساطة كنت أقدم أفضل ما لدي لكل من أخدمهم بغض النظر عن كنههم وماهيتهم، ولم أكن متكاسلًا أو منافقًا لأخدم كل فرد تبعًا لوظيفته أو درجته الاجتماعية».

«الفضول هو السمة السحرية التي ستجعلك خادماً لا يمكن الاستغناء عنه. بالطبع ستقول هذا عكس ما أوصيتك به سابقاً بالألا تتدخل فيما لا يعنيك. ما أقصده هنا يا بني هو الفضول نحو العالم. نحو المعرفة. هذا سيجعلك شخصاً مثيراً لاهتمام من حولك وبالتالي تكتسب احترامهم. ثقافتك التي تتكون لديك هي التي ستجعلك تحسن التصرف في كل المواقف، وتتمتع بسرعة البديهة للرد المناسب دونما انبطاح أو تعالي. ولكن إياك والتفاخر بها، واستعراضها أمام الآخرين دون غاية أو تبرير. احتضنها بداخلك لترقيك وترفع من شأنك أمام نفسك قبل أن يكون ذلك أمام أي إنسان آخر».

لا يشعر كوش بالقلق حيال تمتعه بهذه الصفة. إن كان يتمتع بشيء واحد بفطرية مطلقة الآن، فهو ذلك الفضول المعرفي العتيد.

بينما يحمل كوش صينيةً بها عشرون كأساً ويصعد سلمات الفندق بفردة حذاءٍ واحدة في اختبار قاييس للتوازن أخضعه له ستفنز، صرخ الماستر فجأة: «قف!» يتوقف كوش متجمداً بغتةً فتساقط قطرات من الكؤوس على الصينية. يضربه بحرف مسطرتة الخشبية على رقبته «مرة أخرى!» يتحرك كوش ويصعد سلمة أخرى. «قف». «سر». «قف». ضربة مسطرة. ثم يلقي بمسطرتة على الأرض. يطلب من كوش الانحناء، ولا تزال الصينية في يده والكؤوس عليها وفردة الحذاء اليتيمة في قدم واحدة، ومناولته المسطرة من على الأرض. نقاط تتساقط من كأس واحدة فقط. يضربه على ظهره مرة أخرى. «حافظ على استقامتك، لا تتكاسل، اترك عضلات ظهرك تتشنج

وتشد من عمودك الفقري. هكذا تظل يدك ثابتة ولن تفقد نقطة واحدة حتى لو قُيدت رجلاك بسلسلة من حديد».

«استضاف سادتك حفلًا ساهرًا كبيرًا. استمتع الضيوف بتلك الليلة أيما استمتاع. أثناء مغادرتهم، وبينما تلبس أحدهم معطفه، يشكرك على الخدمة الممتازة وحساء البصل المذهل. بماذا ترد؟»
«أشكره بالطبع وأرد مجاملته بأفضل منها!»

«روووونج!»

يكاد كوش يبكي. لا شيء يفعله أو يجيب به صحيح أبدًا. لا يمكنه التفكير في أي إجابة أخرى تنال رضا هذا المخرف.
«مستحيل. لا يمكن أن تكون هناك إجابة أخرى».

«ولد أهوج وغبي». يصرخ ستفنز وهو يخطب بمسطرته على رأسه.
«تخبره أنك سعيد لقضائه وقتًا ممتعًا في بيت سيدك، وستحرص على إيصال تلك المجاملة بحذافيرها إليه، وستعود بالرد إن كان هناك رد».

يفتح كوش فمه.

«إنك حين تشكره على مجاملته فإنك تستأثر بفضل الأمسية لنفسك. مهما كان دورك في إراحة الضيف، وحتى لو كان يتوجه لك أنت بهذه المجاملة، فإنك لست صاحب فضل في أي شيء، بل صاحب المنزل؛ الذي تكفل بمصروفات الحفل وبعيشك أنت شخصيًا.

ويجب أن يعرف الكل ذلك. أنت غير موجود يا ولد. أنت غير موجود على الإطلاق. سيدك هو الذي يتصدر المشهد دائمًا. كل فضل يأتي منه ويعود إليه. سواء كان ذلك ضيفًا في مطعمكم أو رئيسًا للوزارة تخدمه في بيته».

سيراجع كوش الكثير من تلك الأفكار التي غرسها الماستر بداخله. خاصة تلك الفكرة بالطاعة العمياء وانعدام وجوده الفردي وضرورة ذوبان كينونته في ذات سيده، خاصة وأن الحياة ستجبره عما قريب على خيانة مبدأ الولاء المطلق للسيد الذي حاول الماستر تعليمه إياه. أما الآن، فلا يصدق أن مهنته التي يمارسها بالفطرة والاعتياد اللذين شربهما عن خاله ومساعدته خولي بها جوانب معرفية أكثر دقة وتفصيلًا مما كان يتخيل.

حين بدأت دروس «الحفاظ على قيمة الأثاث المنزلي» اكتشف كوش عالمًا آخر. «استخدام المنظفات والملقعات الكيميائية بجهل سيصبح له أثره على المدى الطويل في إزالة الطبقات الأساسية الحامية للأخشاب والمعادن. مهمتك ليست أن يبدو كل شيء نظيفًا فحسب، ثم مع مرور السنوات يصير باليًا وقد فقد لونه ورونقه. أنت القيم على إرث عائلي وتاريخي عظيم. كل قطعة أثاث وكل قطعة فضية في النهاية هي أداة تحفظ الفردوس المفقود لتاريخ العائلة». لفتت نظر كوش كلمة الفردوس المفقود. ميلتون. أجاثا. وذكريات باتت تبعد رويدًا رويدًا وإن كانت لوعة القلب لا تزال. يتمتع الماستر بقدر هائل من الثقافة الموسوعية الكلاسيكية، خاصة في موضوعه المفضل، الميثولوجيا اليونانية، ولا يبخل على كوش في أوقات

السمر الرائقة بسرد الترتيب المعقد للآلهة وعلاقاتهم المتداخلة
وصراعاتهم مع البشر.

«حتى وإن أصبحت مشرفًا على المنزل في يوم ما وتوقفت
عن ممارسة المهام بنفسك، فيجب عليك معرفة أدواتك وأساليب
التنظيف جيدًا: التنظيف يتم بكل غرفة من الأعلى للأسفل. تبدأ من
المناطق الأقل اتساخًا. احرص على نقل كل قطعة كبرت أو صغرت
والتنظيف تحتها، التنظيف حول الأشياء وتركها كما هي يكسب
أصحابه مكانًا خاصًا في الجحيم. بعد الانتهاء من كل غرفة تقوم
بمسحها بنظرك يمينًا ويسارًا في خط مستقيم ثم من أعلى لأسفل
كأنك ترسم صليبًا في الهواء. تكرر هذه الحركة ثلاث مرات لتلتقط
أي تفصيلة قد تكون فاتتك. إذا كانت ملابسك نظيفة ولم تكن
متعرقًا، وهو ما أستبعده في جوكم الحار هذا، يمكنك الجلوس على
أحد المقاعد أو على حافة الفراش ومطالعة الغرفة من ذلك المنظور
وكأنك أحد أصحاب المنزل. ماذا ستقع عليه عينا السيدة حين
تستيقظ؟ حين تقرأ أو تحتسي الشاي؟ هل ما ستراه مرتب ونظيف
إلى حد الكمال؟ بعدها تقوم بتنفيذ الوسادات وفرش البياضات.
احرص على إعادة الأثاث مكانه بالضبط بعد الانتهاء، لا تريد من أحد
السادة أو أطفالهم الارتطام بكرسي أو مائدة لأن مكانها تغير عما
تحفظه ذاكرتهم الجسدية».

أحضَرَ له عدة التنظيف المقدسة التي لن يتحرك بدونها في أي
مكان يخدم به. حامل خشبي مقسم إلى فجوات صغيرة متساوية،
بداخل كل منها زجاجة. البيكربونات. معجون الأسنان. الخل والماء.
الصابون. المراهم. بيكنج صودا. الكحول. الإسفنجات والقوط

القماشية. شرح له كيفية استخدام كل منظم والطريقة الصحيحة لتطبيقه. ثم قاما بتجربة عملية على التماثيل الرخامية والتحف والمقاعد المصنوعة من مختلف الأخشاب في جميع أنحاء الفندق. لا تتوقف نصائح الماستر بينما يغرق كوش في عرقه وهو يمرر يده بهمة فوق التماثيل الفرعوني بالبهو الكبير حتى يتحول إلى مرآة: «الملح وعصير الليمون قاهرا بقع الصدا. أما ملح الليمون والخل الأبيض فلتنظيف البقع على النحاس. معجون الأسنان صديقك الأقرب: يلمع الفضيّات إن وزعته في اتجاه واحد وبقطعة قماش ناعمة وجافة. إذا لم يتوفر المعجون فعليك بدقيق الذرة المخلوط بالماء الساخن. النشاء والأمونيا للرخام. والخل للأرضيات والملح لبقع السجاد. الأثاث المخملي تستخدم له النشادر، أما الأثاث الجلدي فلا يعيد له بريقه شيء مثل بياض البيض المخفوق مع الماء البارد». بعدها فتح الماستر دولابه وأخرج فرخ ورقٍ إسطواني وفرده بكل اعتزاز على الطاولة أمام كوش. أمامه وجد الخادم النوبي الذي يتعلم أصول الخدمة المقدسة جدولاً مقسماً إلى اثني عشر شهراً، وفي أعلاه كُتب بالإنجليزية: «الجدول الشهري للتنظيف العميق». تحت كل شهر كتبت المهام التي سيتم تنفيذها. «التنظيف العميق يضمن طزاجة المنزل، ويجلي ما خفي من الأوساخ أو العفن ولا يترك لها فرصة للتراكم، ويفتح الطاقات الروحانية للمنزل الذي قد يصيبه الثقل النفسي دون أن يدري أحد السبب. كما أنه يسهل عليك دورات التنظيف اليومية والأسبوعية». يناير مخصص لتنظيف المطبخ وقلب مراتب السرير. أما فبراير فلإخلاء الدواليب والخزانات والتنظيف المفصل لغرفة النوم الرئيسية. في مارس يتم إنزال

كافة كتب المكتبة وإزالة الأتربة عن كل كتابٍ على حدة -ستظل هذه مهمة كوش المفضلة للأبد- وتنظيف بقية غرف النوم. في مايو تُغسل النوافذ وغرفة الغسيل والقبو. في يوليو تنظيف وترتيب أدوات الشواء ومساحات الترفيه الخارجية، ونوفمبر شهر الفضيات استعدادًا لاستخدامها في احتفالات أعياد الميلاد ورأس السنة.

وفي النهاية، اختتم الماستر دورته التدريبية والحياتية المكثفة مع كوش بدروس الإتيكيت، وأصول مائدة الطعام، ترتيب جلوس الضيوف ورص الأواني وأدوات المائدة، ومهارات حمل الصواني والخزف، كميات الطعام المناسبة وكيفية تنسيقها داخل الطبق، وترتيب مراحل الوجبات. ثم بعدها أتت دروس مرهقة في كيفية إدارة الخدمة لعدد كبير من الضيوف في وقت واحد في الحفلات الراقصة ومأدبات الطعام الكبرى.

«هل حفظت قواعد جورج واشنطن للتحضر والسلوك المهذب؟» يسأله كلما صب له كوش شاي الخامسة عصرًا. يستتبع ذلك السؤال المخيف؛ اختبار مطول يلقي فيه كوش على مسامعه القواعد كاملةً عن ظهر قلب.

هذه هي وصية ستيفنز الأخيرة التي سيتركها لكوش قبل أن يغادره بعد أن أتم تعليمه وتمرينه بأقصى وأحسن ما يمكن.

في عمر السادسة عشرة قام معلم جورج واشنطن الرئيس التاريخي للولايات المتحدة بإملائه كتاب (110 قاعدة للتحضر والسلوك المهذب)، وهو كتاب وضعه اليسوعيون الفرنسيون عام

1595 كإرشاد لقواعد السلوك المجتمعي المذهب، وظل يرددها واشنطن طوال حياته ويرّوج لها حتى بعد أن أصبح رئيسًا للبلاد الوليدة، فباتت تُعرف باسمه. كان ستيفنز رحيماً بكوش ولم يلزمه بحفظ القواعد المائة كاملةً ولكنه عوضًا عن ذلك أجبره على حفظ الملخص الذي نقّحه الماستر من الوثيقة ويتكون من 12 قاعدة ذهبية للحياة: «احترم نفسك وراقب تصرفاتك أمام الآخرين، احترم الجميع، استخدم يدك بأسلوب مهذب، لا تشوح بهما ولا ترفعهما أو تحركهما دون حاجة، إذا ما واجهت أزمة محرّجة تصرف بهدوء وحاول حلها دون ملاحظة أحد حولك لذلك، حافظ على نظافة يديك وأظافرك مقصوفة في كل الأوقات، ورائحة فمك وجسدك ونظافتك الشخصية ولكن دون مبالغة. عامل كل شخص بالمقدار الذي يستحقه دونما تبجيل زائد أو تحقير مكروه. لا تتهم أحدًا بما قد يكون فيك. كن متواضعًا في لباسك دون لفت الأنظار إليك. داوم على مصاحبة الخيرين فقط، الأفضل لك أن تكون وحدك على أن تكون بصحبة الأشرار. لا تتسرع بالحديث والإدلاء بدلوك في أي أمرٍ أو تتدخل في حديث الآخرين مهما كانت معرفتك بالموضوع الذي يدور. تعوّد الإجابة على قدر السؤال. إياك البدء فيما لا يمكنك إتمامه. كن مسؤولًا عما تفعله ولا تقبل القيام بما لا تقدر عليه. وأخيرًا، لا تسمح للبيئة المحيطة بك أو لمن هم حولك بالتأثير عليك فتجاهل صوت ضميرك أو تخونه بأي صورة كانت، كرامتك من ضميرك وكلاهما يحددان مقدارك ووجودك في الحياة».

بعد ستة أشهر، وفي جلسة منفردة جمعت الماستر ستيفنز مع مدير

الفندق الطيب، أخبره الماستر بكل ما قام به مع كوش، وكيف أنه أعده ليصبح أكبر من مجرد خادمٍ اعتياديٍّ في أي فندق مهما علا شأنه. أخبره أن كوش يحمل سماتٍ ذهنية غير عادية، ورغبةً في التعلم، وطاقَةً متقدة للخدمة والتعاطف قد لا يحسن التعبير عنها بهدوئه الزائد، ولكنه يستحق دون شك فرصًا أكبر في الحياة. «بعد اثنين وستين عامًا في الخدمة، هذا الولد الساذج هو أفضل عملية تنظيف عميق قمت بها في حياتي. حافظ عليه وامنحه الفرصة كلما استطعت».

بعد أن ودّع ستيفنسون خرج الماستر ليتمشى حول الفندق لتنشيط دورته الدموية بعض الشيء قبل موعد العشاء. حين ظهرت سيارة من العدم فقد سائقها السيطرة فدهسته بعنف، كان ستيفنز العجوز يتطلع بشوقٍ لوجبة الفواجرا؛ سمك القاروس بالسبانخ الذابلة والليمون، وسوفليه الشوكولا بالتوت البري التي يعدها الشيف الفرنسي مرةً واحدةً فقط من كل أسبوع.

وهكذا غادر الماستر ستيفنز تاركًا كوش هو الآخر، ولكن هذه المرة إلى غير رجعة.

الفصل الخامس

الشاب الراقد فوق الدكة وبائع الآثار

(1909)

في إحدى الليالي الشتوية الباردة خرج كوش للتمشية في حديقة الأزبكية المقابلة للفندق. يمارس هوايته تلك كلما شعر بالاختناق من البقاء بالداخل لأيام طويلة، خاصةً مع أعمال التوسعة المزعجة التي تدور على قدم وساق الآن داخل شبرد في استمرارٍ للحرب المستعرة مع فندق سافوي على اجتذاب أكبر عدد ممكن من الزوار. يفتقد أيام التسكع مع صديقه طه. الآن وقد شت ليتم العشرين بات كوش طويلًا ورفيقًا بجسدٍ أكثر تماسكًا، وتشكلت عظام وجهه وبرزت لتكون لوحةً نوبيةً أصيلة تغادر في تؤدة سنوات المراهقة. تعكس ملامحه المريحة رحابته الواسعة للحياة، بشرته رائقة وصلبة، وتحمل ابتسامته الدائمة، وعيناه الحالمتان تصالحا مع الدنيا ومحيطاتها الصاخبة. تمشى كوش بعد عبور الطريق وعرج على دكان للمسلات اشترى منه بعض حبّ العزيز، ومنه إلى داخل الحديقة بممراتها الحجرية الضيقة وأشجارها الوارفة. كلما تعبت قدماه من السير جلس على إحدى الدكك تحت عواميد الإنارة المضاءة بالغاز. الكتاب الذي يصاحبه هذه الأيام هو أحد الكتب التي ورثها عن الماستر ستيفنز الراحل: «دليل خادم المنزل» تأليف روبرت روبرتس الخادم الزنجي لحاكم ولاية ماساشوستس. جلس كوش ليقراه تحت المصباح في شرود.

لم تزل صدمة موت ستيفنز تحوم رغم مرور أكثر من عام على

وقوعها. ما فعله ستفنز مع كوش جعله يدرك متأخرًا أمرًا لم يفهمه في البداية: أنه لم يكن يعده ليصبح نادلَ فنادق عظيمًا فحسب، بل للخدمة في أفخم البيوت والقصور أيضًا. لم تكن الدروس التي تعلمها كوش ذات صلة واضحة ومباشرة بخدمة الفنادق، التي تقوم على العمل الجماعي وتقسيم الأدوار وممارسة مهام محدودة وواضحة. لقد حرص ستفنز على إفهام كوش الفروق التي توصل لها الغربيون المهووسون بوضع القواعد المؤسسية لكل شيء فيما يخص درجات الخدمة، لينقل كوش من مفهوم النادل «باتلر»، أو ما اصطلح على تسميته «سفرجي»، إلى مدير منزل محترف «هاوس مانجر». شخص ملم بكل درجات الخدمة، لم يبذل ستفنز مجهودًا كبيرًا كي يفهم كوش هذه المصطلحات الأجنبية، ولكنه أراد منه استيعاب الفروقات بينها، ليصبح جاهزًا لشغل أعلاها مرتبةً، لأنه يعلم أن كوش ما إن يتم فترة تدريبه تلك فإنه حتمًا سينتقل إلى خارج الفندق. «خدمة الفنادق جيدة لا شك، ولكنك الآن أصبحت متهيئًا لخدمة البيوت. وليس أي بيوت. وهذه هي المرتبة الأكبر التي يصل لها أبناء مهنتنا. أنت أكبر من مجرد سفرجي يحمل صينية كؤوس النبيذ في حفلة ساهرة بقاعة الرقص الشبردية يا كوش. تذكر ذلك جيدًا».

مرت الكلمات في ذهن الشاب الصغير وحملت معها شعورًا بالأسى من القدر الذي يصر على اختطاف براءته، وإجباره على إدراك أن الحياة مهما حملت بين طياتها من سعادة فإنها تحمل مفاجآت مؤلمة. ولا تزال المفاجأة التي تتكرر كل مرة في حياة كوش القصيرة هي رحيل من يحب. أمه وطفه وأجاثا وستفنز. بعضهم

بالموت والآخر بالاختفاء والعائلة بالسفر. هل سيظل هكذا وحيداً؟

حين لفحت وجهه نسمة هواء باردة قام وواصل المسير مرة أخرى. لا يزال الشتاء في أوله ولكن الحرارة تنخفض في الليل لدرجة البرودة المؤلمة.

ما هي إلا بضع خطوات حتى لفت انتباهه صوت أخرجه من أفكاره. «بسست.. بسست». شك كوش في البداية أنه يستمع إلى صرصور الحقل فواصل المسير. ولكن الصوت المرتعش ناداه بوضوح أكبر هذه المرة. «بسست... يا أخ». التفت كوش فوجد جسداً متكوماً فوق إحدى الدكك الخشبية. اقترب ناحيته. قام الراقد فوق الدكة وجسده يرتعش وأنزل قدميه إلى الأرض محتضناً نفسه بينما يحك جانبي ذراعيه بعنف باحثاً عن الدفء: «عفوًا يا أخي، آسف لإزعاجك. لقد قرصني الجوع وقتلني البرد. ألا أجد معك مليماً أشتري به لنفسي طعاماً في الصباح؟» نظر له كوش باندهاش. للوهلة الأولى بدا ظاهراً لكوش أن هذا الشخص ببذلته الكاملة وطربوشه ليس شحاذاً. إنه أفندي محترم بكل هيئته. ليس من هؤلاء الذين اعتاد الاصطدام بهم نائمين على قارعة الطريق، أو من الفلاحين القادمين بأزيائهم المميزة ويفترشون طرقات قصر النيل ببضاعتهم من البيض والطيور. رق قلب كوش لحاله على الفور. «ليس معي مال، ولكن يمكنني أن آتيك بطعام إن أردت». نظر الأفندي إلى السماء في تضرع مسرحي وصرخ: «يا فرج الله.. رحماك يا رب». «انتظرني هنا» قال كوش وطفق عائداً دون تفكير إلى الفندق.

تسلل إلى المطبخ وانتقى بعضاً من بقايا الطعام. قطعة اسكالوب.

رغيف خبز. برتقالة وبضع عيدان الكرافس. حين عاد أدراجه إلى حيث كان الفتى الراقد وجده مستندًا إلى عمود النور يدخن سيجارة. «وجدتها ملقاة هنا على الأرض. الليلة ليلة سعدي لا شك يا رفيقي!». جلس كوش بجواره وأخذ يراقبه بينما يلتهم الطعام. يأكل بنهم وكأنه لم ير طعامًا لأيام. بشاربه الرقيق وشعره اللامع تحت طربوشه قذر كوش أن هذا الشاب في مثل سنه أو يزيد قليلًا. رفيع بوجه قمحي عريض ابيض من البرد وقلة الطعام. برزت أنفه المفالطحة عن بقية ملامحه فلم يتمكن كوش من تجاهل حضورها الهائل على صفحة وجه ذلك المسكين. «لا أدري كيف أشكر لك صنيعك هذا. إن لك قلبًا من ذهب» قال الفتى وهو يقشر البرتقالة. توقف فجأة، يتحرك بكامل جسده بحركات فجائية مليئة بالطاقة، ومد يده لكوش: «مرحبًا، محسوبك نجيب. تشرفنا». بادله كوش السلام وأخبره باسمه. ما إن بدأ الدم يقفز إلى وجهه نجيب وأطرافه مدفوعًا بطاقة الطعام حتى انطلق لسانه بالكلام. يتحدث بسرعة وحماس شديد.

عرف منه كوش أنه كان يعمل موظفًا بالبنك الزراعي، ولكنه يهوى التمثيل ولا يريد ممارسة شيء غيره في الحياة. انضم نجيب إلى فرقة مسرح وعرفت بذلك أمه «القاسية كحزمة قصب» فطرده من المنزل. ومن يومها وهو متسكع يبيت في المقاهي حتى طرده أصحابها لأنه لا يدفع ما عليه. «ولكن الجوقة تحضر لمسرحية جديدة ونبحث عن تياترو يستضيفنا. لو ضحكت لنا الدنيا وأقمنا العرض أرجو أن تأتي لتشاهده. سيكون ذلك أبسط ردٍّ لمعروفك هذا الذي لن أنساه ما حييت» قال نجيب وهو يلوك آخر فص في

برتقالتة الأثيرة. أخبره كوش بدوره عن عمله في الفندق الكبير، ومن أين أتى ومن هو خاله. شعر بتعاطف كبير مع هذا الشاب رقيق الحال، وتعجب من شخص يضحى بالبيت الدافئ والوظيفة الدائمة من أجل حلم لا يراه أحد سواه. تلك تجربة جديدة كليًا على كوش، وكانت مرتته الأولى التي يجلس ليتكلم فيها مع شخصاتي أو شخص يعمل في الفن منذ رؤيته سارة برنار وهي تدخل بهو الفندق محاطة بفرو الثعلب فوق كتفها العام الماضي. اعتاد كوش على صخب فرق التمثيل وأعضاء الأوركسترا الذين يأتون من كل بلاد الدنيا للعرض على خشبات الأوبرا وتياترو الأزبكية المهيّب، ولكنه لم يكلم أيًا منهم، وكل علاقته بالمسرح ما يراه بشارع عماد الدين من يافطات وما يقرؤه في الجرائد من إعلانات. مما فهمه كوش من كلام نجيب أن ذلك الشاب ورفاقه يستحدثون شيئًا جديدًا. ولكن حتى الآن لم يصبه هو ورفاقه أي حظ، ويتنقل من فرقة لجوقة لتياترو دونما عمل ثابت يؤمن له حتى إيجار مكانٍ يبيت فيه. وعده كوش أن يأتيه بالطعام كل ليلة طالما ظل يتردد على الحديقة.

كثيرًا ما يعد كوش القهوة والوجبات الخفيفة ويأخذها إلى السيد بلانشارد صاحب محل الأنثيكات المجاور لواجهة الأوتيل. السيد بلانشارد أمريكي لطيف، مهووس بالآثار المصرية القديمة خاصة البسيطة منها: موميאות الحيوانات والتماثيل والأواني الفخارية والجعارين، أدوات الطعام والتماثيل المنمنمة وأوراق البردي، وكل ما استخدمته الأسرة الفرعونية في حياتها اليومية. يمتلك السيد بلانشارد عددًا كبيرًا منها يعرضه بفخر على زواره الأجانب الذين

يذهلون من أصلية تلك القطع الفريدة، والتي يتاجر فيها السيد بلانشارد بكل أريحية تحت أعين الشرطة والحكومة التي لا تمانع في استقطاع قسط من أرباح تلك المنحوتات التي غالبًا ما ينتهي بها الحال إلى متاحف وبيوت الأثرياء حول العالم.

كان السيد بلانشارد -وهو أول أمريكي يقابله كوش في حياته- ينخرط مع كوش الصغير في أحاديث مطولة يخبره فيها عن مدى حبه واحترامه لحضارة مصر، ويخبره بالأخص عن حضارة كوش الغامضة، والتي أتت في عصور فرعونية متأخرة ونعلم عنها القليل. «لو يعلم أترائك أنهم أحفاد سلالة عظيمة لما تركوا أنفسهم لتلك الحال التي وصلت إليها». يقول لكوش بشفقة، ويبتسم له كوش ببراءة دون فهم مقصده أو كنه تلك النظرة التي يصوّبها تجاهه. في أوقات فراغه الرائقة حين لا يكون لديه زوار أو مشتررون محتملون أو بعض مورديه ومنهم محمد محاسب بيه دائم التردد على الفندق، يستبقي السيد بلانشارد كوش ريثما ينهي قهوته كي يعود بالفنجان الفارغ إلى الفندق، وفي هذه الأثناء يفرجه على بعض القطع الأثرية التي يحويها متجره، ويحكي له صفاتها وتميزها وروعة صنعتها، ومن أي أسرة وفترة زمنية أتت، وفيما كانت تستخدم، ولأي غرض، ومن أي فرد من أفراد الأسرة. كلام بلانشارد عن أجداد كوش يجعلهم يتمثلون أمامه ويراهم رأي العين، وذابت عنده الفوارق فلم يدرك في تلك السن الصغيرة إلى أي الأسر والحضارات ينتمي. بالنسبة له كل المصريين القدماء أجداده، وما صنعه يشبه بشكل ما تلك الأشكال الصخرية والحجرية البدائية التي كان يلعب بها طفلًا في النوبة.

لأكثر من شهر داوم كوش على إنهاء عمله في الفندق والتقاط ما تبقى من طعام في المطبخ، أو سرقة شيء يسير من الطعام خلسة على مدار اليوم، ثم تجميعه في ربطة قماش وحمله إلى حديقة الأزبكية كل ليلة، حيث يجد نجيب منتظرًا إياه على نفس الدكة، وبنفس الهيئة المنكفئة على نفسها، يطيل النظر نحو تياترو الأزبكية الذي تنبسط أضواؤه الهادئة فوق نباتات الحديقة، ويضيء وجهه بالفرح والسرور حين يستقبل كوش بكثير من الصخب الذي يشق سكون الليل من حولهما، ليسأله عن «منيو» الليلة وهو يفك الربطة في حماس شديد.

في تلك الجلسات وبينما يتناول نجيب طعامه يستمع كوش إلى ما في جعبة نجيب -الذي لا يفارق نظره مبنى التياترو المهيّب- من قصص حول الفرق المسرحية وأنواع التراجيديا والكوميديا وما جرى له من مغامرات خلال اليوم تتمحور جميعها حول محاولة نجيب العثور على فرصة يقدم من خلالها فنه أو على الأقل يكسب مالا يمكنه من تأجير مسكن والحصول ولو على وجبة ساخنة في النهار. أخبره أنه يترجم الآن مسرحية من الفرنسية إلى العربية، فهو خريج مدارس فرنسية ويحسن التحدث بها كالعربية، وأن فرقته ستقوم بتمثيلها قريبًا. ظل نجيب يدعوه أن يأتي يوم إجازته ويشاهد بروفات الفرقة على مقهى متاتيا، ولكن كوش دائم الانشغال، ولم يكن هناك أي فن آخر يثير فضوله. تكفيه الكتب والمجلات واجتهاده الدائم ما بين واجبات الخدمة بالفندق ومواصلة تعلم العربية والإنجليزية.

في إحدى الليالي وجد نجيب يرتعد من البرد. جسده كله ينتفض ودرجة حرارته مرتفعة ويكاد يخزف من الحمى. أصر كوش على نقله إلى غرفته التي يغط الأبله فيها في نوم عميق. إدخال غريب إلى جناح الخدم كان مسؤولية مرعبة، ولكنه لن يترك صديقه يتلوى من الحمى في هذا الصقيع. غطاه بكل الأغذية الموجودة بالغرفة، حتى إنه نزع عن سليمان غطاءه، والذي تقلب في انزعاج دون أن يستيقظ.

هرع كوش إلى الصيدلية المجاورة في شارع عابدين. يعرف الصيدلي الشاب الذي يعمل هناك خاصة فترة المساء. شاب نحيف للغاية بشارب خفيف وعينين كسولتين نصف مغمضتين طوال الوقت اسمه إبراهيم الورداني. عادة ما يلجأ إليه كوش حين يرسله السيد ستيفنسون لشراء البيكربونات لمعدته المضطربة، أو حين يحتاج السيد كوك إلى منشط قوي يعينه على الإفاقة من صداع الشراب. إبراهيم شاب مثقف عاد لتوه من سويسرا بعد إنجازه شهادة في الكيمياء. كثيرًا ما يتبادل الحديث المقتضب مع كوش. أعد له الشاب وصفة نزلات البرد دون أن يسأله من المريض، ولكنه طلب من كوش أن ينقل التحية لخاله.

توترت علاقة كوش بالسيد بلانشارد في يوم لم يعد كوش بعده إلى المتجر أبدًا.

دخل يقدم القهوة كعادته وهو يفكر في صديقه المريض الذي تسلل لتوه من الفندق. وجد السيد يعرض تمثالًا صغيرًا غاية في

الجمال بينما يحدث زواره، والذين فهم كوش أنهم عائلة أمريكية شديدة الغراء يشتغل رثها في صناعة الزجاج ويجمع الآثار لمتحف خاص أسسه في أمريكا. كان السيد ليبي يفحص التمثال بحماس حين وضع كوش صينية القهوة على مكتب السيد بلانشارد. وحين التفت كوش للتمثال وظلّ يطالعه في فضول، نظر السيد ليبي له وللسيد بلانشارد باستغراب من هذا الخادم الجريء. «إنه كوشكو، واحد من أنبه الأولاد هنا في الفندق، أحاول إقناعه بترك الخدمة والعمل صبيًا لديّ، لكنه يرفض، أيعجبك التمثال يا كوش؟» قال بلانشارد. هز كوش رأسه بانبهار وهو يطالع التمثال الصغير الذي وقع في حبه منذ النظرة الأولى. «سيكون عليك توديعه يا بني، فأنا حتمًا سأشتريه. سيكون حديث توليدو كلها ويثير أحقاد معهد الدراسات الشرقية ومتحف بروكلين». قال صانع الزجاج بصوت رفيع موجهًا كلامه لزوجته. «ولكن ألا ينتمي هذا التمثال إلى هنا؟» قال كوش فجأة بالإنجليزية. «ماذا سيفعل بعيدًا في أمريكا؟ هذا خطأ أن يغادر وطنه». اربد وجه السيد بلانشارد، بينما ارتبك السيد ليبي. تدخلت زوجته الهادئة التي تنضح بالطيبة. «هناك سنراعيه يا بني أفضل مما تراعونه هنا. لو كنتم تقدرون قيمة ما تملكون ما كان قد انتهى به الحال إلى دكان بقارعة الطريق». تكسر قلب كوش في تلك اللحظة لأنه وجد حديث المرأة محققًا بشكلٍ مهيّن، وعزم على ألا يعود إلى الدكان مرةً أخرى، فقد أصبح فجأة يمثل له محطة مغادرة أشياء يحبها، أشياء ثنتزع من بيئتها انتزاعًا، تمامًا كما انتزعه خاله من أحضان أمه، فلا تعود موجودة ويظل يعاني من فقدانها.

يومها تولدت داخل كوش تلك الرغبة المفاجئة في الانقطاع عن

الأماكن والموجودات بعد أن تكون قد ربطته بها ألفة الوجود وطول
المعاشرة.

بينه وبين نفسه كان كوش سعيدًا باكتسابه صديقًا جديدًا من
نفس سنه -عرف منه أنهما ولدا معًا في العام ذاته- فيشعر بأن هذا
الفندق العظيم الذي تربى فيه طوال السنوات السبع الماضية هو
نافذة كبيرة على عالم لا يعيشه، ولكنه محظوظ كفاية بتبوؤ مقعد
المتفرج عليه. عالم يلقي فيه كل هؤلاء البشر. في البدء كان طه،
ثم أجاثا، ثم السيد ستيفنز، بخلاف كل العاملين معه ومدرائه في
الفندق، والآن صديقه المصري الأول منذ أن غادره طه إلى الجامعة.
ظلت هذه الجلسات تتكرر يوميًا كل ليلة لأسابيع، حتى جاء يوم
ذهب فيه كوش إلى الحديقة فلم يجد نجيب في انتظاره. ظن كوش
أن عارضًا أصابه، فانتظر اليوم التالي وذهب في نفس الميعاد فلم
يجده هناك، ثم اليوم الذي يليه، حتى يئس.

اختفى نجيب فجأة.. تمامًا كما ظهر.

الفصل السادس

«جسxnما»

(1910)

بعد عام من اختفاء نجيب، وبينما كان يضع كوش بياضات الغرف داخل المغسلة في ليلة اليوم الذي أتم فيه الحادية والعشرين دون أن يدري، سمع صوت همهمة آتية من المطبخ الواسع عبر باب يفصله عن المغسلة. كانت وردية المساء قد انتهت واجتمع رجال طاقم الخدمة للسمر كعادتهم وجلسوا يدخنون السجائر ويمضغون عرق السوس ليغسلوا عن كواهلهم تعب يوم طويل. لسبب ما احتد أحدهم وأتى زعيقه غير المفهوم إلى أذن كوش.. انتابه الفضول فاقترب.. وعبر شق بسيط في الباب استرق السمع.

«لا يمكننا تركه دون أن نمذ له يد العون».

«الحركة كلها في خطر..»

«إنه بطل، ولن يشي بنا أبداً، كيف تظن به الظنون؟»

ميز كوش صوت خاله الجهوري: «كفاكم صياحاً. لن يشي بأحد أبداً. هذا قسم الدم. الورداني رجل الحزب أعرفه منذ زمن. لا داعي للتخوين ولا القلق. لن يعرض الجماعة لخطر حتى وحبل المشنقة يلف رقبتة. ولكني لن أتركه هناك يلقي مصيره وحده. إن كانت امرأته تريد إخباره بشيء فسوف نفعل ذلك بأي طريقة. كفاكم غوغائية وفكروا معي في حل».

هم كوش بالعودة أدراجه. لم ينس كلام ستفنز عن الفضول المذموم، كما علمه خاله ترك الفضول عند حدود النوبة وألا يحمله بداخله أبدًا داخل الفندق.

ولكنها تلك الهنة البسيطة، ذلك الخطأ غير المقصود، درجة ترنح حاد بها دون قصد بضعة مليمترات، تلك التي غيرت حياته للأبد.

انزلق كوش بسبب الماء المخلوط بالصابون الذي تركه أحداد القبطي منذ ساعات فوق أرضية المطبخ دون تجفيفه جيدًا. ترنح جسده وسقط بظهره على الباب الموارب فدفعه وارتمى على الأرض ساقطًا في منتصف الغرفة. ارتطمت رأسه بحافة الطاولة، وقبل أن تغيم الدنيا أمام ناظريه كانت وجوه سبعة رجال تحوم فوقه كغربان فوق ساحة المعركة تطالعه بغضبٍ مشوبٍ بالذعر.

ولكن وجهًا واحدًا حمل الكثير والكثير من الغضب.

وجه ظن أنه يعرفه جيدًا.

أفاق كوش فوجد نفسه مقيّدًا على كرسي أمام طاولة المطبخ. طاولة النقاشات التي التّف حولها الرجال منذ بضع دقائق.

عُفّ خاله على تلصصه... بينما حلّ خولي الطيب الوثاق من حول معصميه وناولوه كوب ماء.

شرح له الخال بجمل مقتضبة حقيقة هذا الاجتماع. حكى له عن «الجمعية السرية للخدم النوبيين في مجابهة الاستعمار «جسخنما..» الشبكة التي كوّنوها الخدم النوبيون في القاهرة ومحافظات مصر

المختلفة ليمارسوا دورهم في الكفاح ضد الاستعمار، مستغلين انتشارهم اللانهائي داخل بيوت الباشوات والوزراء والحكام المصريين والإنجليز وأعضاء الحكومة والفنادق والسفارات وغيرها من المواقع الحساسة.. انفصّ الاجتماع على عجل ونظر الخال لخولي نظرة ذات مغزى.. استبقى خولي كوش وبقيا وحدهما في المطبخ. هذا من روعه وطالبه أن يقسم ألا ينقل شيئًا مما سمعه اليوم لمخلوق.

«فُضِّل خالك عدم إقحامك في هذا الأمر لصغر سنك وخوفه عليك. ورغم أنني كنت أرى أنك مهياً للعب دور حاسم وهام بما أظهرته من قدرة وذكاء إلا أننا جميعًا امتعلنا لأمر خالك الذي لا يريد سوى سلامتك. ولكن الآن هتك القدر الساتر وستصبح من اليوم واحدًا منّا لتمارس دورك الوطني الذي قدّره الله لك. افهمني يا كوش. العالم ينظر لنا على أننا غير مرئيين. يظنون أننا ليست لدينا آذان أو أفواه، ويقولون ما يريدونه ونحن في حضرتهم دون ظنّ أننا سنكرر هذا الكلام وراءهم أو نعيه. وهذه نقطة قوتنا الأكثر خطورة. نظرة المصريين والأجانب المتعالية والمهقشة للسفرجي، ذلك الوهم بأننا لا حول لنا ولا قوة، مجموعة من البربر السذج الذين لا يحسنون شيئًا سوى الخضوع لسادتهم وخدمتهم، هذا هو يا كوش بالضبط سلاحنا الفتاك. ما يحاول الإنجليز حفره في الأذهان أننا غير مصريين أو ننتمي إلى عالم مختلف هو ما زاد من إيماننا بما نقوم به. هذه بلادنا ولن يسلب أيّ من كان هذا منّا. آن الأوان أن يدرك هؤلاء المنافقون الذين يتعاونون مع الإنجليز أننا سنحيل حياتهم جحيماً. لا نقتل ولا نخون، ولكننا أداة طيعة في يد كل من يريد

فكرة الجمعية بسيطة: يمتلك الخدم والسفرجية شبكة ضخمة قد لا تتاح لأي فئة أخرى في المجتمع. فلا يوجد بيت مسؤول أو فندق يخلو منهم. ولذلك أتت الفكرة للخال منذ حادث دنشواي بتأسيس اتحاد سري لتيسير الاتصال فيما بينهم، ونقل ما يروونه ويسمعونه من مئات المعلومات كل لحظة في مختلف أماكن عملهم، وبذلك يتمكنون من معاونة مختلف الحركات السرية التي تعمل لمناهضة الاستعمار وأعوانه. «لقد رقدنا في سبات طويل لسنوات، وآن الأوان لتفريق هذه البلاد من رقدتها، إنهم يظنون أننا مسالمون، وضعفاء، ولا حول لنا ولا قوة، هذه آفة الإنجليزي يا كوش، يظن أننا قد قبلنا ذلك الاحتلال وتآلفنا معه، ولكن الحقيقة غير ذلك تمامًا. سوف يصبح صمتنا وتواريها خلف رداء الخادم الوفي هو سلاحنا. إن عددنا يفوق كثيرًا ما يمكنك تخيله».

حاول كوش استيعاب ما يقوله خولي ولكنه لم يفهم شيئًا مما يسمعه، وبين اللحظة والأخرى ينظر له وكأنه شخص جديد تمامًا. لم يكن من أمامه خولي المرح حلو المعشر ذا الابتسامة الواسعة الذي ينحني أمام ضيوف الفندق بأدب جم. كل ما فكر فيه كوش وهو جالس على مقعد المطبخ برأسه ووجهه المبتلين بالماء الذي حاولوا إفاقة به هو أن حقيقة البشر والأشياء ليست كما يظنها، اعتقد حتى هذه اللحظة أن ما يراه هو الحقيقة ولا شيء وراءه.. ولكن ما يسمعه الآن درس له أن الحياة ليست دائمًا كما تبدو. وكانت هذه لحظة استفاقة أخرى.

استحال خولي الحبيب الآن رجلًا ذا صوت خفيض وملامح جادة

كأنها لم تعرف الابتسام يومًا. «إنك لا تعرف خالك يا كوش. لا تعرف من هو. لا تعرف أنه آمن بعراقي وانكسر بانكساره. في ذلك اليوم حين حاول صدّ الإنجليز عن الإسكندرية كان خالك يعمل هناك في بيت أحد الكبارات. ترك كل شيء وحمل السلاح. قتل منهم. هناك قابلته وعرفته. كنت أصغر. ودّعنا عراقي إلى سيلانه. وأقسم خالك يومها ألا يترك حقه أبدًا. صدقنا أنه سيعود. لم ينتفض أحد. عشرون عامًا من الصمت مرت ولم يعد عراقي. كلنا تخلينا عنه وعن هذا البلد. ومنذ ذلك اليوم في الميناء سقط خالك في صمتٍ أبديٍّ وكأنما هو عقاب منه لنا جميعًا نحن الذين فرطنا في الحلم يوم أن كان في متناول أيدينا. أنسيت يوم أن اصطحبناك لزيارته عند عودته منذ أعوام؟ بعد أن كسروه بالتشريد وباتت أكبر أمانيه أن يُدفن في أرض الوطن.. يومها انكسر خالك أكثر لمرآه وتذكّر قَسَم الوداع الذي حنث به في بلادٍ متخاذلة. يوم دنشواي أعاد كل شيء. أقسمنا أن نفعل ما بوسعنا حتى لا نعيش مثله مرةً أخرى. ظهر مصطفى كامل وجَدّد الأمل.. حتى وإن سبّ عراقي بعد ذلك فإنه أعاد لنا الحياة.. كنت صغيرًا ولم تفهم شيئًا ولكنك الآن لم تعد كذلك.. حين نموت أنا وخالك إن لم يكن الإنجليز قد رحلوا ستكمل أنت.. أنت من سيحمل اللواء.. لذا فعليك الآن أن تبدأ ولا تنظر خلفك أبدًا.. أجبر كسره وكسرنا..»

أذهله ما يسمعه.. أراد الركض إلى خارج المطبخ واحتضان خاله والبكاء في حضنه.. وكأنه لم يعرفه يومًا.. كل واحد من هؤلاء العاملين في الفندق من حوله كان شخصين في الآن ذاته. هل سليمان هو الآخر أبله فعلاً أم يدعي ذلك؟ فكرة وجود حياة

سرية ومهمة خفية ودور يفوق مجرد رض طاولات الطعام أو حمل الحقائب فكرة جديدة وغريبة على كوش، ولكنها منحتة شعورًا بالإثارة لم يكن يتخيله، وكأن وجوده يكتسب الآن معنى جديدًا كلياً. وعلى عكس المطلوب منه وهو الكتمان الرهيب، يتمنى لو أنه يستطيع حكي ما عرفه لنجيب وطه وحتى أجاثا. ظل كوش لأيام وأيام يفكر ويتدبر في أمر ذلك الاكتشاف الخطير.

أما الشاب الذي كان يتعارك رجال الجمعية السرية حوله حينما اقتحم كوش خلوتهم فكان إبراهيم الورداني الصيدلي الهادي الذي اعتاد كوش التردد عليه في صيدلية عابدين.

عرف كوش، من قراءته النهمة للجرائد، باغتيال رئيس الوزارة بطرس غالي منذ أكثر من شهرين. على الرغم من أن عالمه لم يكن يتعدى ذلك الفندق الذي يصحو ويعمل وينام فيه، إلا أن الجرائد وقراءته النهمة لها كانت هي وسيلته الأولى للاتصال بذلك العالم الواسع في الخارج. في كل صباح وحين يقوم بكيها لتجفيف الحبر يقضي في تلك المهمة وقتًا أكبر من المعتاد لأنه يطالع كل صفحة بدقة. وفي كل مرة يطالع فيها اسم وصورة القاتل لا يصدق أنه نفس الذي أعد له التركيبة التي أتمت شفاء صديقه المختفي نجيب.

كان رئيس الوزراء المقتول مؤيدًا لانفصال مصر عن السودان، وأن تصبح مقاطعة محكومة من الإنجليز. ولكن الأخطر هو دعمه الكامل لمشروع قانون مزايا قناة السويس للإنجليز لأربعين عامًا أخرى. تحمل القناة ألقا مبهما وبعيدا لكوش. كل ما يعرفه عن حياته السابقة

من خاله المتعلم أنه ولد سنة احتفل الفرنسيون بمئوية ثورتهم (فالخال لا يزال يذكر حين كان يخدم في حفل المئوية بالسفارة الفرنسية حين أتى خطاب تائه عمره شهران يقول إن كوش قد وُلد) وأن جدّه لقي حتفه بالقناة حين كان يعمل بالسخرة في حفرها، ولذلك اعتادت أمه القول بأن تلك القناة مربوطة بعائلته برباط الدم، ولم يكن الجد الوحيد من أفراد قبيلة كوش الذي مات في خنادق القناة العظيمة.

حضر إبراهيم الورداني، الذي كان عضوًا في حزب مصطفى كامل ومؤسسًا لحركة سرية منبثقة عنه اسمها «جمعية التضامن الأخوي»، اجتماع الجمعية العمومية بمجلس النواب لمناقشة القانون. وحين رأى إصرار بطرس غالي على الدفع به، ونظرًا لتاريخه في محاباة الإنجليز، اتخذ الشاب ذو الأربعة والعشرين ربيعًا قراره بأن ينهي حياة ذلك المتغطرس. وفي العشرين من فبراير من ذلك العام نفذ فعلته بست رصاصات.

الموقف الرسمي مما فعله الورداني أنه خائن للوطن، وموقف إبراهيم ومن معه أنه قتل خائنًا للوطن. وكان لبطرس غالي دور آخر استدعى كراهية مضاعفة من خال كوش وخولي على الأخص، وبقية المصريين بشكل عام: كان هو قاضي محاكمة دنشواي الذي حكم بالإعدام على ٤ من الفلاحين المساكين. ما فعله الورداني بدا وكأنه جاء لينكأ ويطبّب جرحًا يتذكر كوش كم كان مؤلمًا لخاله ومساعدته في ذلك اليوم الذي بدا بعيدًا منذ أربعة أعوام.

تلك الازدواجية في الرؤى أمر صعب على كوش استيعابه، ولكنه الآن بات يشعر بمسؤولية الانتماء لمعسكر بعينه. لم تكن لديه

قناعاته الخاصة بعد. فما رآه من الإنجليز والضيوف الأجانب في الفندق لم يعر لديه أي حفيظة تجاههم. كانوا بالنسبة له أمراً واقعاً. بشراً يتعامل معهم ويخدمهم، بل وأحب إحداهم أيضاً، ولذلك لم يستوعب ما قيل عن مدى الكراهية التي يجب عليه الشعور بها تجاههم. يريد التشبث بنظرته الساذجة والفطرية للحياة والبشر لآخر لحظة ممكنة. ولكن الزمن يصر على دفعه نحو النضوج المز. سيتغير ذلك مع الوقت، ومع تزايد استماعه لنقاشات أعضاء الجمعية التي سيضمونه إليها رغماً عنه سيسمع عن نهب الثروات، وكبت الحريات، والتحكم في المصائر. سيبدأ في قراءة الجرائد والمجلات بعين مختلفة، ويهتم أكثر بالمقالات السياسية، وسيعرف أكثر عن مصطفى كامل الذي خطفه الموت شاباً منذ عامين وسيتابع ما يكتبه محمد فريد وبقية أعضاء الحزب، كما سيشارك بشكل شبه يومي في اجتماعات الجمعية بالمطبخ، وسيتشكل وعيه السياسي والوطني بدرجة هائلة على مدار هذا العام، وسيبدأ رويداً في رؤية الوجه الآخر للرجال البيض ذوي الشعور الشقراء والوجوه المحمرة.

الوجه البغيض..

ما حدث قبل اقتحام كوش الاجتماع ومعرفته بالسر الخطير بيوم واحد فقط هو أن زوجة الورداني الشابة تواصلت مع أعضاء جمعياته السرية، والذين قاموا بدورهم بالاستعانة بـ«جسxnما». تريد التواصل معه بأي شكل لتعرف منه وصيته فيما يخص ابنهما الوحيد، وكي تخبره أموراً تخص المرء وزوجته قد تخفف عنها ألم الفراق الأبدي.

أصبحت زيارته في السجن في حكم المستحيل، فالحراسة عليه مشددة والشارع ملتهب بسبب ما قام به ولن يمنحوه حق الزيارة من أقاربه. ولذلك أصبح الخدم الذين لا تراهم عين الحكومة هم الملاذ الأخير لإيصال تلك الرسالة. فأني تواصل مباشر معه سيعني بالضرورة تعريض الجناح السري للحزب الوطني للخطر والاكتشاف، وهو جل ما تحلم به السلطة الإنجليزية الآن. عدد الذين يعرفون عن «جسxnما» يُعدّ على أصابع اليد الواحدة. فهي وإن كانت تلعب دورًا ثانويًا في الأحداث الجسام، فقد كانت محورية في مثل تلك المهمات، ومن الضروري الحفاظ على سريتها بأي ثمن.

غالبًا ما يقتصر دور الجمعية على نقل المعلومات التي يسمعها السفرجية أثناء خدمتهم في مختلف المواقع، وفي بعض الأحيان نسخ الوثائق المحفوظة في بيوت مسؤولي الحكومة من الباشوات، أو -وهؤلاء هم الأعلى مكانةً وخطورة- في بيوت الإنجليز. بدأ كوش في سماع اسم أحد أهم الأعضاء وهو سفرجي المعتمد البريطاني السلطة الأعلى والأكبر في البلاد. تخيل كوش ما يمكن أن يكونه هذا الرجل، وكيف يمارس مهامه وهو في بيت رأس الحكم الإنجليزي. «لم لا يقتله ويريحنا منه؟» «لا تكن ساذجًا يا كوش، لا فائدة تُرجى من قتله، ففي غضون أيام سيستبدلونه بواحد غيره، وقد يكون أكثر عنفًا وبطشًا. إن ما نسعى إليه هو تخريب خططهم من الداخل». يمارس خولي مهمته في فتح أعين كوش على هذا العالم السري، تمامًا كما فعل معه في أول يوم أتى فيه إلى الفندق، وتوسيع آفاقه وإعلامه بالمهمة المقدسة التي يمارسونها. تلك المهمة التي تعطي لوجودهم قيمة بقدر ما يعطون وطنهم من تضحية.

اتخذ أعضاء الجمعية في اجتماع آخر قرارًا بأن يتولى كوش أول مهمة له: إيصال رسالة الزوجة إلى المناضل المحكوم عليه بالإعدام داخل السجن. حين أبلغه الخال بذلك ارتاع كوش واتسعت عيناه عن آخرهما. من قال إنه يريد فعل ذلك؟ ولكنه فهم من نظرة الخال الجامدة أنه ليس لديه اختيار.

صباح يوم المهمة كان جسد كوش يرتعد بأكمله. لم يملك التفكير فيما هو مقبل عليه. استدعاه خاله ليلتها وأخبره بما هو مطلوب منه. «غدا تحقق الرغبة الأخيرة لزوجتي رجل ميت، إياك والتقصير». لم يحاول الخال الشد من أزر كوش أو استمالته بخطاب حماسي يطمئنه أو حتى يقنعه بضرورة انخراطه في تلك المهمة الوطنية. انتهى الغرض من المقابلة بمجرد أن أنهى إليه الأمر وأخبره بطريقة تنفيذه. لم يناقش معه أي شيء يخص الجمعية أو ما هو متوقع منه، فقط أخبره، أو أوعبه في حقيقة الأمر، بمدى المسؤولية الملقاة على عاتقه.

لن يُسمح بأي زيارات للورداني، لأن الحكومة تخاف أن ينقل أي شيء للشعب فيزيد من حماسه بأي صورة من الصور، خاصة وأن الشارع يهتز طربًا لتلك الفعلة العنيفة التي تُعد الأولى من نوعها في التاريخ السياسي الحديث، والتي تشعر الناس أن هناك من ينتقم ممن يخونهم ويبيع أرضهم، وأن هناك مصريًا يمكنه أن يفعل شيئًا أكثر من مجرد إلقاء البيانات الحماسية أو كتابة المقالات والخطب الرنانة. رائحة الدم الذي يريقونه بأيديهم لا تزال جديدة ومخيفة على المصريين، وهي تختلف عن رائحة دمائم المراقبة على مدار

قرون: كانت فعلة لم يقدم عليها أحد منذ أتى الإنجليز إلى هنا منذ ثمانية وعشرين عامًا مضت.

المطلوب بسيط ومباشر: سيقوم كوش بزيارة السجن ليلتقي أحد المساجين في الزيارة الأسبوعية باعتباره أحد أقاربه، وينقل له خطاب زبيدة الذي سيقروء ويحفظه عن ظهر قلب ثم يعيد تلاوته على السجين في حال لم يستطع تمرير الورقة له، والذي سيقوم بدوره بنقل الرسالة لإبراهيم، وفي حال كان لدى الشاب شيء يريد قوله فسوف يتلقاه كوش في الزيارة التالية.

وهو ما فعله كوش بكفاءة تامة. وكانت النتيجة وصول كلمات الورداني وتفسيره لما قام به لكل الشعب المصري، وتحقيق ما تمناه حين أقدم على فعلته التي دفع حياته ثمناً لها؛ فقد انتقلت وصيته إلى الشارع المصري بكافة أرجائه، وتم إلغاء مشروع قانون مذ امتياز قناة السويس.

وسرعان ما تحوّل إبراهيم الورداني إلى بطل شعبي، وغُلقت صورته في المقاهي والمحال، وأصبحت سيرته صداً في رأس الحكومة ومن يسيطرون عليها من ممثلي المحتل، وكُتبت في شجاعته الأغاني التي ردها الناس صبيحة يوم إعدامه..

«قولوا لعين الشمس ما تحماشي، لحسن غزال البرّ صابح ماشي..»

الفصل السابع

تيدي

(1910)

بينما كان كوش يمارس هوايته المفضلة؛ وهي تنفيض الغبار عن كتب مكتبة غرفة القراءة وترتيبها وفقًا لترتيب عناوينها الأبجدي، أتى عبد الله الصعيدي ووقف بجانبه: «أتريد المساعدة؟». نظر له كوش في اندهاش. ليس من عادة الصعيدي أن يقدم يد العون أبدًا. نظر له متسائلًا. «مبارك لك. لقد اختاروك لخدمة ضيف هام. سوف تصحبه طوال مدة زيارته هنا».

تابع كوش عمله متسائلًا عن ذلك الضيف الهام. لم يكن الضيوف ذوو الحيثية أغرابًا عن فندقهم. كل شخص حقق شيئًا من الشهرة والمكانة يتجه إلى فندقهم دونما تفكير حين يزور مصر. الممثلون والرؤساء والكُتاب والشعراء والسياسيون وحتى الملوك. في آخر زيارة لملك بلجيكا ارتفع علم المملكة عاليًا فوق الفندق ليعلم الجميع، بمن فيهم أصحاب الفنادق الأخرى الحسودون، بوجود دماء ملكية زرقاء في فندقهم. ثرى هل الزائر الجديد أحد هؤلاء؟

الحقيقة أن الزائر هو ثيودور روزفلت، الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية. كان كوش قد قرأ عنه في جريدة نيويورك تايمز وعرف عن انتهاء مدته الرئاسية في العام الماضي. تتبع تلك البلاد البعيدة نظامًا صارمًا مع حكامها فلا يقضون أكثر من ثماني سنوات في سدة الحكم. قرر السيد تيدي كما ينادونه في بلاده أن

يجوب العالم ويمارس دورًا سياسيًا بعد انتهائه من حكم بلاده، ولم يكتف بالتقاعد الهادئ في مزرعته في داكوتا، بل فضّل ممارسة دور سياسي يعزز الصعود الهائل لأمريكا كوصيف للإمبراطورية البريطانية، والتي دخلت القرن العشرين متخبطةً بفضل القلاقل التي لا تهدأ في كافة أرجاء إمبراطوريتها الاستعمارية. علم كوش من الجرائد أن روزفلت سيمر بمصر في طريقه إلى أوروبا بعد أن أنهى جولة صيد استمرت شهرين في إفريقيا، وأنه يأتي ليلقي خطابًا في الجامعة الأهلية -التي علم كوش من خولي أن صديقه طه الذي انقطع عن الأزهر لفترة قد عاد للقاهرة ليدرس بها أول ما فتحت أبوابها- بناءً على دعوة راعي الجامعة أمير البلاد أحمد فؤاد.

تم اختيار كوش ليصبح النادل الشخصي لتيدي خلال زيارته وإقامته بالفندق. والمطلوب منه من (جسخنما) واضح: أن ينقل لهم كل ما يراه ويسمعه في مقابلات روزفلت.. أن يستحيل كيانه كله إلى عينيّن وأذنين وذاكرة تسجل ولا شيء غير ذلك.

بات جميع العاملين ليلتهم يعملون بكد على استيفاء كافة جوانب الاستقبال الكبير، إلا كوش الذي مُنح رفاهيّة نادرة وظلّب منه أن يركز فقط على تجهيز أثوابه وأطقم عمله وأن يرتاح لأن مهمته الأساسية سوف تبدأ في الغد.

قبل أسبوعين، حين أعلم الخال السيد ستيفنسون أنه قد اختار كوش ليكون مرافق روزفلت طوال الرحلة ممثلًا عن فريق خدمة الفندق، تعجّب الأخير، وسأله إن كان متأكدًا أن اختيار شاب قليل

الخبرة لهذه المهمة هو قرار حكيم. «كوش ولد نابغ بلا شك، ولكننا يجب ألا نترك أي شيء للمصادفة». ولكن الخال طمأنه أن كوش قد أعد جيدًا لهذه اللحظة، وأنه -أي السيد ستيفنسون- يعلم مدى سرعة كوش المذهلة في التعلم، كما أنه يتحدث الإنجليزية ولديه من سعة الأفق بفضل قراءاته المتعددة أن يفهم المزاج الأمريكي، ولن يتوانى عن تقديم كل ما يمكنه ليصبح واجهة مشرفة للفندق. ولم تكن ذكرى شهادة ماستر ستيفنز بعيدة عن ذهن ستيفنسون. أشعل غليونه شاردًا: «حسنًا، إذا كان الولد قد تلقى تدريبًا خاصًا على يد أعظم خدم إنجلترا ويحفظ بايرون عن ظهر قلب فمن أنا لأمنعه».

استعد الفندق منذ صبيحة اليوم بترتيبات خاصة. أشرف السيد ستيفنسون بنفسه على عمليات التنظيف والتلميع التي جرت على قدم وساق الليلة السابقة. مهمة الجميع ألا يشعر رواد الفندق بأي إزعاج أو تغير في النمط الدائم، ولكن في ذات الوقت يجب أن يبدو الصرح الكبير في أبهى حله. «نحن واجهة مصر أمام الضيف الكبير» ردد السيد ستيفنسون في اجتماع العاملين الصباحي: «ما سيراه السيد روزفلت هنا سيعكس كل ما يراه ويقول في الخارج». تم إعداد الجناح الملكي له، والذي تناثرت في أرجائه باقات الزهور في المزهريات الفرنسية الطويلة، وتجهيز البار داخل الجناح بمشروباته المفضلة، كما استعد المطبخ باستحضار مكونات الوجبات التي يحبها، والتي جمعت ما بين أصناف اللحوم كعادة المطبخ الأمريكي، وبعض الوجبات الفرنسية الأصلية متعددة المراحل. «سنجعله في أوروبا قبل أن يزور أوروبا» قال الشيف الفرنسي متفاخرًا. وأكد ستيفنسون على نفس الفكرة: «هذا الرجل يجول أدغال أفريقيا لأكثر

من شهرين، وسيكون متعطشًا لمذاق الحضارة الذي سيتذوقه لأول مرة في فندقنا، يجب أن يصله من عملكم أنه قد بلغ منارة الرقي الوحيدة في قارتكم السوداء».

وصل الضيف الكبير في مارس وكان دخوله صاخبًا. أتى في صحبة جوقة من المرحبين والمرافقين. بعضهم من القصر الملكي، وبعضهم من نظارة الخارجية، والسفير الأمريكي، وعدد من موظفي السفارة والدبلوماسيين. وقف كوش على عتبة السلم بجوار باقي طاقم الخدمة الذين تراصوا خلف السيد ستيفنسون الذي صافح الرئيس السابق بشدة. نظر له كوش بتركيز شديد محاولًا حفر تفاصيله في ذاكرته. كان متيقظًا ومنتبهًا ولكنه في نفس الوقت مشتبك بعض الشيء. لا يعرف بالضبط ما يجب عليه فعله، فهو يحتاج إلى تحقيق التوازن بين القيام بواجباته الخدمية على أكمل وجه، وفي ذات الوقت جمع المعلومات، والتي لم يكن يعلم بعد أيها مهم وأيها لا يحتاج إلى تذكره. السيد روزفلت رجل قصير وممتلئ بعض الشيء. بشارب رمادي عريض ينزل على جانبي فمه ونظارة مستديرة بلا ذراعين مثبتة فوق منخاره، يصفف شعره الرمادي بفارق كبير ناحية اليسار. وجهه مدور ولكن أكثر ما يلفت نظر كوش عيناه الرماديتان؛ ذكاؤهما ثاقب ونظرتهما شرسة. فمه المزموم بشفتيه الرفيعتين تكشفان عن رجل يعرف متى يصمت ولكن ليس متى يتكلم.

كان رجلًا يبدو عليه الإصرار الشديد، وهو ما ليس بمستغرب على محب للطبيعة والبيئة وأصغر رئيس للولايات المتحدة في تاريخها.

تحرك روزفلت بنشاط إلى داخل الفندق، دائمًا ما يسبق من حوله
بعدة خطوات، ويلهثون جميعهم خلفه محاولين اللحاق به. يتحدث
بصوت عالٍ للغاية وبطاقة بالغة، حيا كل من قابله في الطريق
بكلمات أمريكية وبلهجة ثقيلة، جلس في البهو ودخن سيجارًا
برائحة نفاذة بينما يواصل الحديث مع مرافقيه، وعند مرحلة ما،
تقدم ستيفنسون نحوه ودعاه إلى مطعم الفندق لتناول وجبة الغداء.
حين جلس روزفلت إلى الطاولة أثنى على سمات الرقي التي يراها.
«من المنعش أن نقتبس روحًا من المدنية بعد كل تلك الشهور في
الأحراش. إنه شعور رائع بالتأكيد». استغل ستيفنسون تلك الفسحة
من الوقت بينما يتناول روزفلت سلطة الحمص وقدم كوش إليه.
«سيد روزفلت، اسمح لي بأن أقدم لك مرافقك طوال رحلتك هنا
هذا الولد الطيب، إنه يتحدث الإنجليزية بطلاقة، ويتمتع بفضول
معرفي فريد، كما أنه قد تعلم أصول الخدمة على يد أفضل النذل
ورؤساء الخدم، أثق أنك ستجده مسليًا بقدر ما ستجده محققًا لكل
رغباتك وراعيًا لاحتياجاتك داخل الفندق وخارجه». التفت روزفلت
نصف التفاتة ملقيًا نظره على كوش -كان يعاني من تصلب في
عضلات رقبتة نتيجة حادث سقوط في السودان- وابتسم قليلًا.
«كيف حالك يا ولد، تبدو لقاها بالتأكيد. ما اسمك؟» رد كوش باسمه
ونصف انحناءة مهذبة. تعجب كوش حين وجد الرجل الربعة يمد
يده مصافحًا «تيدي». كثيرون ينادونني بالسيد الرئيس، ولكني لم
أعد كذلك، يمكنك أن تناديني السيد روزفلت أو السيد وكفى، دعنا لا
نضيع الوقت إليه؟». اندهش كوش ونظر لستيفنسون متسائلًا قبل
أن يمد يده هو الآخر. طوال عشر سنوات تقريبًا عملها كوش في هذا
الفندق، كانت أول مرة يصافح ضيفًا عدا أجاثا.

هذه الحميمية الأمريكية سحرت كوش. بسرعة انتقلت إليه عدوى الروح النشطة للسيد روزفلت، وانكب على القيام بمهامه رفقة الزائر المهم بهمة ونشاط. اصطحبه إلى جناح إقامته بالفندق، وشرح له كافة وسائل الراحة المتاحة. استمع منه إلى ما يريده الضيف. أوقات نومه واستيقاظه، شرابه المفضل وقيلولة الظهر. أخرج ملابسه ورتبها وبدأ في كيها. لقع أحذيته ونشئ ياقات قمصانه. قام بتلميع أزرار البذلات بالليمون والبيكربونات كما علمه ستفنز. مرت الأيام سريعة وهو يستمع إلى روزفلت ويراقبه في كل حركاته. اصطحبه في زيارته للمتحف المصري والمتحف الزراعي ودار الكتب. كان الرجل الأمريكي حماسيًا ومهذبًا. يبدي إعجابه بكل ما يراه، ويلقي كلمات الثناء والاستحسان أمام المسؤولين الذين يستقبلونه في كل مكان يذهب إليه. أبدى انبهارًا بالحضارة المصرية القديمة وتحدث كثيرًا عن احترامهم للطبيعة -وهو موضوع يبدو أنه يثير اهتمامه بشدة. ظل في كل جولاته الطويلة بنفس وتيرته المليئة بالطاقة يسبق كل من حوله في الحركة ويتحدث بصخب. طلباته من كوش قليلة ولا يوجه له الكثير من الأوامر. في المرات التي يطلب منه فيها أن يعيد ملء كوب من الشراب أو إشعال السيجار، يرد كوش بكلمات محددة كما تدرب، والتي يعلق عليها روزفلت معبرًا عن اندهاشه من إنجليزية كوش السليمة. ينظر له تيدي في إعجاب وكأنه يكتشف في كل مرة أنه يمتلك تلك القدرة. بينه وبين نفسه تساءل كوش عما ستكون ردة فعل السيد الرئيس إن عرف أنه قرأ تاجر البندقية ويحفظ بعضًا من ألفية ابن مالك ويحب تشارلز ديكنز ويطالع مجلة

كوزموبوليتان المصورة كل شهر؟ كثيرًا ما انفرد به كوش وبقيا وحدهما في جناحه الرئاسي ولكنه لم يجرؤ على استعراض معرفته التي يتوق إلى مشاركتها مع أي أحد في هذا العالم سيقدرها.

يعدّ له الحمام ويجهز له ملابسه النظيفة ويواصل مهام الخدمة في صمت.

المتاع الذي أتى به السيد تيدي يملأ كافة الجناح بأمور عجيبة: رؤوس غزلان محنطة، أصناف من الأسلحة من بنادق وسكاكين وسواطير وسياط وحراب بملصقات كتبت عليها أسماء غريبة: رونجو، سجامبوك، أسيجاي، ومنحوتات خشبية لوجوه سوداء هائلة الطول بلامح متضخمة، أقنعة وملابس بدائية، وعشرات الدفاتر التي يسلي كوش نفسه بمطالعتها حين يأخذ السيد قسطه اليومي من قيلولة الظهيرة. تحفل تلك الدفاتر ذات الغلاف الجلدي السميك بمختلف الرسوم التي رسمها تيدي بنفسه خلال رحلاته للطيور، والحيوانات، وأبناء القبائل البربرية، ولكن أكثرها غزارة كانت النباتات، مئات الرسوم التفصيلية لأصناف الأشجار والأحراش والأعشاب، وحول كل رسم منها كلمات بخط متشابك بدا أنها تصف تلك النباتات وفصائلها وفوائدها. إلا أن كوش يطالع بفضول شديد، وشيء من الشغف الخفي لا يعرف من أين أتى، رسوم تيدي روزفلت لأبناء القبائل الهمجية. طالع النسوة نصف العاريات بملابسهن الغربية وحليهن الأكثر غرابة. الأطفال العراة. الرجال حاملي رماح الصيد. شعر كوش بشيء من الرباط بينه وبين هؤلاء. في تلك اللحظة تساءل عن ماهيته. ربما لم تكن بشرته بمثل تلك الدكانة، ولكنه

حتماً يشبه هؤلاء. إنه يشبههم بأكثر مما يشبه السيد ستيفنسون أو روزفلت بالتأكيد، ولكنه أيضاً يشبههم أكثر مما يشبه الصعيدي وسليمان أو صديقه المختفي نجيب. ربما هو التشابه، أو ربما روح ما خرجت من بين تلك الصفحات واجتاحته، ولكن شيئاً ما جعله يشعر وهو واقف هناك وسط غرفة استقبال الجناح الملكي بالفندق أن هناك توحداً بينه وبينهم وفي ذات الوقت هناك فارق شاسع أيضاً. كيف تكون قريباً وفي ذات الوقت بعيداً كل البعد؟ هل يمكن أن يكون كوش واحداً من هؤلاء الذين رسمهم السيد روزفلت بيده، هؤلاء الذين قابلهم في الأحراش يعيشون حياة البدائية الأولى؟ حاول أن يشاهد نفسه بعين الخيال نصف عارٍ وممسكاً بحربة طويلة في يده تنتهي بطرف مدبب يركض خلف حيوانٍ وحشيٍ ما محاولاً تأمين قوت يومه. شيء ما يخبره أن نصفه ينتمي إلى تلك «المدنية» التي تحدث عنها تيدي، ونصفه الآخر يشعر بالحنين تجاه هؤلاء الفطريين..

«ماذا تفعل عندك يا ولد؟». انتبه كوش من شروده على صوت السيد. نظر نحوه فوجده خارجاً من الحمام نصف عارٍ. لاحظ الجروح القديمة والسحجات تغطي مناطق متفرقة على جسده. ارتبك. ولكن الوجه الجاد تحول فجأةً إلى ابتسامة لطيفة. «هل تجد ما في دفاتري مسلياً؟» أوما كوش برأسه. «بلى سيدي، بعضها غريب للغاية». واصل روزفلت تجفيف جسده بينما هرع كوش وأحضر بذلته. اقترب موعده مع الخديوي. بينما يتناول جوربه من كوش المنحني قليلاً، تحدث روزفلت: «إنك شخص مثير للاهتمام يا ولد. أنت صغير السن ولكنك لاعم الذكاء ودقيق في عملك. إنها ليست

المرّة الأولى التي أقابل فيها شخصًا من أبناء جنسك بهذه الألمعية.
لم أقابل أيًا منهم خلال الشهرين الماضيين.. ربما تكون استثناءً
للقاعدة.. ولكنك استثناء يؤكد أن الحياة التي قوامها الالتزام
والتقشف والنظام قد تعلمكم شيئًا.. قد تجعل منكم بشرًا أفضل..
هل تعلم أن أبي حارب في جهة الجنوبيين في نزاعنا الأهلي؟ رغم
أنه كان يريد الرقّ لأنه يحقق له مصالح اقتصادية، ولكني لم أتفق
يومًا مع الآراء التي تقول بأن الزنوج عرق يجب تملكه.. الارتقاء بهم؟
نعم هذا واجبنا.. ولكن التملك؟ لا أظن أن هذا يتفق مع قيم التحضّر
الحديثة.. ما يتفق مع الحضارة فعلاً هو التخلص من عبء بلد مثل
السودان عن كاهلكم وتركه للإنجليز كي يتحملوه عنكم.. لا أدري لم
لا يريد أحد فهم وجهة الأمر.. اللعنة.. أحدهم قتل رئيس النظارة
فقط لأنه ناقش الفكرة! ولكنك لن تفهم.. لا تشغل بالك..» وقف إلى
قدميه ورفع ذراعيه بينما أسقط كوش الرداء الداخلي فوق رأسه، ثم
فرد ذراعيه وأدخلهما في كُمّي القميص.

ستكون تلك بداية لمرات كثيرة سيعتادها كوش طوال حياته حين
يتكلم سادته إليه ولكن دون أن يخاطبوه عن حق. فكرة الشبح تلك
التي أكدها عليه السيد ستفنز وخولي وخاله مرارًا وتكرارًا ستتأكد
في كل مرة يشعر سيده هذا أو ذاك بالراحة في وجوده لدرجة
أنهم يُخرجون ما بداخلهم من أفكار وتأمّلات وينطقون بها كأنهم
وحدهم.. وكأنهم يحدثون أنفسهم.. وكأنه غير موجود. كأن وجوده
مجرد شغل لمساحة مادية وليس كيانًا متكاملًا.. الكل يتوقع منه ألا
يمتلك عقلًا يفكر أو يتدبر، أو روحًا تتمرد، أو توقًا إلى سبيل التحقق.
وكوش، بإرادة منه أو بضعف مقاومة، يساير تلك الفكرة.

ليس عن ذكاء أو فطرة ولكن لأن هذا ما قيل له، بمثل تلك التصرفات والمواقف، أن يكونه. لم يدرك كوش كو حقًا إن كانت تلك مجرد متطلبات المهنة، أم أنه حكم أبدي عليه، على العالم الذي أتى منه والبلد الذي ينتمي إليه، أنه يجب أن يكون غير مرئي ولا مسموع. غير فاعل. بلا عقل ولا طموح.. يجهل العلم والحرية. عليه أن يكتم هذا كله ويتقبله وفقط يتعامل معه بينما يمر.. نزعتة الطفولية تريد أن تقول للسيد فرانكلين أنه يعرف تمام المعرفة ما حدث.. من قتل رئيس الوزارة ولم فعل ذلك. وأنه لعب بنفسه دورًا ليس بالهامشي ولا الذي يُستهان به في تداعيات هذا الحادث. إنه ليس تافهًا أو غير مهم. إنه ليس مجرد الكائن الذي يربط أضرار الرئيس. إنه شيء ما. شيء متكامل ومتعدد الأبعاد وليس تمثاليًا من الخشب الأسود مثل تلك التحف التي يقتنيها السيد. بينما ينهي معاونة سيده على ارتداء ملابسه ظلت رسمة الهمجي داكن السمرة ذي المحراب تطارد مخيلته.. وكأنها حُفرت فيه إلى الأبد.

الخدوي عباس شاب مضيء في السادسة والثلاثين. جلس روزفلت أمامه وهناه على عيد جلوسه الثامن عشر. أجرى كوش في ذهنه عملية حسابية سريعة وأدرك أن هذا الشاب ذا النظرة الحادة والشارب المدبب قد تولى حكم البلاد وهو في الثامنة عشرة. أي وهو أصغر من كوش بثلاث سنوات من عمره الآن. ترى كيف كان يشعر حينها؟ أخذ كوش يسلي نفسه بلعبته المفضلة: محاولة تخيل نفسه في مكان من يراه، يحاول الشعور بما يشعر به وتخيل ما مر به من ظروف وأحداث. ولكنه لم يسمح لنفسه بالشroud كثيرًا، فأمامه

مهمة خفية. وضع كل انتباهه في الاستماع إلى ما يقال بينما يحافظ على وجهه لا ينبئ بأي شيء. كان حوارهما بإنجليزية مبهرة من الخديوي.

«أرجو أن تكون قد وجدت ما يسرك في بلادنا سيادة الرئيس». «نعم نعم جلالتك. أيام ممتعة حتى الآن. أنتم لا شك تسبقون أفريقيا بعشرات السنوات». «يسعدني سماع ذلك».

وضع روزفلت رجلًا فوق الأخرى في صلف وارتاح أكثر في كرسیه:

«والحق أنكم تدينون بالكثير من هذا الفضل لأبناء عمومتنا. لقد أتيت إلى هذه البلاد الرائعة في صغري مع والدي، ودعني أخبرك بكل الصراحة الأمريكية الممكنة.. شتان الفارق».

ارتب وجه الخديوي عند سماعه الكلام الأخير.

«عرفت أن عمي العزيز ينتوي منحكم دكتوراه فخرية من الجامعة المصرية. لابد أنك متحمس لذلك».

«آه كثيرًا. إنه لشرف كبير لي. أنت لا شك تعلم اهتمامي الكبير بالتعليم. دعني أخبرك من خبرتي أن التعليم هو طوق النجاة الأول لمصر. إن النهضة لن تتحقق سوى به. إنشاؤكم للجامعة المصرية خطوة عظيمة ولكن لا يزال أمامكم طريق طويل لدخول مصاف العالم المتقدم».

«نحن فخورون بما أنجزناه. وفخري بتلك الجامعة يفوق كل إنجاز

آخر. فقد أسسناها بمبادرة مصرية خالصة. ودفع الشعب اللطيف لبنائها من قروشه المعدودة، أعتقد أن شعبنا يشارك الإيمان بأهمية التعليم والتطلع نحو المستقبل سيد روزفلت».

فهم روزفلت الرسالة ولم يقل شيئًا. عَضَّ على سيجاره المنطفئ بينما يفكر. دار الكلام بعدها في أمور تخص تاريخ الفراعنة والطبيعة وشمس مصر الدافئة. أخبر روزفلت الخديوي عن الكتاب الذي يقرؤه حاليًا لأحد علماء المصريات في القرن الماضي. وألقى عليه عدة أسئلة حول الغموض الذي يكتنف تلك الحضارة القديمة. ولكنها أسئلة لم تجد أي إجابة عند الخديوي الذي بدا وكأنه يسمع هذا الكلام لأول مرة.

«الحقيقة أن هذا الفرنسي يطرح أفكارًا مذهلة. هؤلاء الفرنسيون الملاعين أساتذة في التنقيب والحفر. حسنًا فعل جذك بالإذعان لهم وحفر قناة السويس. هذه أكبر نعمة منيت بها مصر بعد نهركم الخالد. وأظن من الحكمة أن تتركوا امتيازها مدةً أكبر لمن يستطيعون إدارتها، فحسن الإدارة لابد وسيعود على بلادكم بالخير، أعتقد أنك تتفق معي أن القناة، حتى مع النهضة التي نأملها، لن يكون من السهل ترك إدارتها للمصريين».

أطرق الخديوي مفكرًا، وكأنه يبحث عن إجابة، أو عن مهرب من الإجابة. وجهه يقول بأنه غير سعيد بما يسمعه. وما هي إلا لحظات حتى أتت النجدة.

دخل كبير خدم القصر، رجل إيطالي عجوز، ومزّ بجوار كوش وهو يغمغم. «سننتقل الآن للغداء». ثم وصل إلى جوار الخديوي ومال في

احترام شديد بجانبه هامسًا بشيء في أذنه.

«تفضل معي إلى مأدبة الغداء سيادة الرئيس» قام الخديوي على قدميه بنشاط.

سار الجمع إلى قاعة المحروسة، حيث شاهد كوش المائدة الأضخم التي يراها في حياته. القاعة المزدانة بالرسومات الجميلة والنقوش السقفية الممتازة واسعة وسع بهو شبرد. حول المائدة كان عددٌ من الجالسين الذين وقفوا بسرعة فور دخول الخديوي ومرافقه الأمريكي، يتبعهما كوش ببضع خطوات. وفقًا للبروتوكول لم يكن مطلوبًا منه القيام بأي شيء، سيقوم زملاؤه في الخدمة بالواجب عنه، فهذا قصرهم وتلك مملكتهم. نظر حوله وتساءل إن كان أحدٌ منهم عضوًا بجسxnما.

وقف كوش كالديدبان على بعد خطوات قليلة. أرهف السمع محاولًا التقاط الكلمات المتطايرة هنا وهناك، والتي يتوه بعضها بين أصوات الملاعق والكؤوس.

«فاتني أن أعزي جنابكم في وفاة رئيس الوزراء. إنه حادث بشع»
تمتم الخديوي بشيء لم يسمعه كوش.

«لقد ضدمت حين أتاني الخبر في كينيا. حقيقةً إنها صدمة. هذه أول مرة في تاريخكم العريق تعرف بلادكم هذا التصرف الوحشي. حسنًا فعلتم بالقبض على منفذ الفعله ومحاكمته سريعًا. لو سقطت مصر في تلك الدوامه لن تنتهي، خاصةً أن الراحل كان مسيحيًا مخلصًا كما عرفت».

من مكانه رأى كوش حاجب حاكم مصر الشاب يعلو في زاوية حادة. توقفت يده التي ترتفع بملعقة الحساء في منتصف الطريق إلى فمه، ولكنه لم يحوّل نظره عن طبقه.

«إنه رئيس النظارة وهذا يكفي. لن نتهاون في أي روح مصرية ثقتل غدرا لا شك».

تظاهر روزفلت بالانشغال بتناول طعامه. لم يوجه نظره للخديوي هو الآخر.

«نعم نعم. بالطبع. إن الأقباط سيشعرون بالغدر لا شك. ولو لم تتحركوا بسرعة لظنوا أن هناك تهاونا متعمدا. هذه الروح العدائية التي يحملها أتباع الحزب الوطني لأبد وأن تضربوا عليها بيد من حديد. أتعلم سيادتكم، لا يمر يوم لا نشعر فيه بالذنب تجاه ما فعلناه بالهنود الحمر، ولكننا في ذات الوقت ندين لأجدادنا بكل ما وصلنا إليه اليوم. هذه الهمجية كان يجب أن تواجه بقوة حتى نمهد الطريق للحضارة».

احمرّ وجه عباس وبدأ أنه قد فاض به الكيل. وضع الملعقة من يده ورفع منديله القماشي ومسح فمه بينما يبتلع طعامه، ونظر بحدة مباشرة لتيدي.

«سيد روزفلت. أنا موقن من ثقة سيادتكم في خبرتكم السياسية التي تفوق خبرتي بكثير، ولكن أرجوك لا تظن أن تلميحاتك لا تتضح لي. في الحقيقة لديّ ما يكفي من مشاكل. ولا أظنك تتوقع مني أن أرمي نفسي في حضن الحماية الإنجليزية. لدينا سلطان في إسطنبول يمارس الضغط علينا. وشعب هادئ ولكنه غير ساكن،

والحقيقة أن حكومة جلالة الملك لا تساعدنا بتصرفاتها بأي شكل من الأشكال، لا أدري إن كانت الولايات المتحدة تريد أن تشارك في هذه المهزلة هي الأخرى؟»

سعل روزفلت بصوت عالٍ واستعاد مرحة وصوته العالي مرة أخرى.

«على العكس تمامًا. أرجوك لا تسيء فهمي جلالة الخديوي. أنا هنا لا أمتل سوى نفسي فقط، وربما بعض من الدبلوماسية غير الرسمية، إن رسالتي واضحة وهي تحقيق السلام والتواؤم بين كل الشعوب. لا مصلحة لنا في التدخل في شؤونكم بأي شكل من الأشكال. لو عرف الكونجرس بوجهة نظرك لاستشاط غضبًا، ويعلم الله كم لا أطيق هؤلاء الأوغاد. أنا فقط أردت تحذيركم ونقل مشاعري لكم بصفتي مسيحيًا مؤمنًا. إن مقتل أخ في الدين أمر مؤلم لأي إنسان». ابتسم الخديوي ابتسامة أرسلت رعدة في ظهر كوش.

«أثق بأننا سنسمع الكثير من آرائك البناءة في خطابك بالجامعة غدًا. أرجو أن تستمتع بما تبقى من زيارتك لبلادنا».

قام الخديوي فور أن أنهى كلامه. وقف الجميع على الفور عدا روزفلت، الذي احتاج وقتًا لاستيعاب ما حدث للتو.

«دعنا نتناول بعضًا من الشراب، لا أريد أن أعطل زيارتك أكثر من هذا».

قال الخديوي بينما يتحرك بالفعل مبتعدًا عن الطاولة، وفي إثره هرول روزفلت معدلاً من وضع نظارته في توتر.

«ابن القحبة يريد أن يشعل فتنة دينية في البلاد».

غمغم أحداد القبطي في غضب. في ذلك المساء بعد عودتهم من القصر توجه كوش فورًا إلى الغرفة الخلفية للمطبخ وطلب اجتماعًا مع أعضاء الحركة. حكى لهم عن كل ما رآه وسمعه. وصف كل شيء في دقة أعجبت الخال وبهرته. وكأنهم قد حضروا الجلسة. ابن أخته لا يزال يفاجئه اليوم تلو الآخر.

بعد قليل أرسل الخال عبدالله الصعيدي بمشنة من الخضروات الطازجة والمخبوزات ذات الرائحة الشهية إلى أحد الأصدقاء بمنطقة السيدة زينب. داخل إحدى رقايات الفطير المشلتت رسالة واضحة يطلب فيها لقاءً ضروريًا. بعد ساعات دخل الجزار بجلبابه المخطط وعمامته العظيمة ورمى بفخذ عجل على منضدة المطبخ، وافتعل معه الخال عراكًا أدى بهما إلى الغرفة الخلفية التي انتقلا إليها لتسوية الخلاف. فور أن ابتعدا عن ضجيج المطبخ جلس الخال ونقل للجزار كل ما عرفه. كان يستمع للخال بانتباه شديد بينما يفكر بعمق فيما يسمعه.

في طريقهم إلى الجامعة اعترضت موكبهم مظاهرة كبيرة. جلس كوش في عربة خلف سيارة روزفلت. شعر بالسعادة بزيارة ذلك الرجل التي أخرجته من الفندق، ونقلته بين العديد من الأماكن التي لم يكن قد رآها من قبل. يواصل استكشافه المذهول للقاهرة التي يدرك كل يوم مدى اتساعها. كان إدراكًا لاتساعها ولكنه لم

يكن إدراكًا لحجمها الحقيقي. يحاول طوال الوقت أن يرتب في رأسه «القاهرات» التي عرفها حتى الآن. اليوم يرى القاهرة الجامعة العليا بعد أن سار بين أروقة القاهرة الأزهر صغيرًا، وكأنما كان طفلًا يتلقى تعليمه في الأزهر، واليوم بعد أن شت يرتاد الجامعة، وكأنما يسير حياة موازية، على الهامش، من الظاهر ربما، كتلك التي كبرها وعاشها طه.

استقبلتهم الجامعة بقبابها الضخمة وساعتها الأنيقة. فرشت الأرض بالسجاد الأحمر بدايةً من سور الجامعة وحتى قاعاتها الرئيسية. على الباب كان الأمير أحمد فؤاد، أمير البلاد وعم الخديوي الشاب، الذي صافح روزفلت بحرارة. لاحظ كوش الذي كان يخلف الرئيس بعدة خطوات أن حفاوة الأمير تختلف تمامًا عن برود ابن أخيه تجاه السياسي الأمريكي. دخلوا القاعة الكبرى والتي امتلأت عن آخرها بالحاضرين من كل صوب. سار كوش خلف الرئيس الذي مد يده في جيب سترته وأخرج بضع ورقات مطوية. جلس على كرسيه وأخذ يراجعها. ألقى الأمير كلمةً بعربية متكسرة. ثم رئيس الجامعة. بعدها صعد روزفلت إلى المسرح وتلقى الدكتوراه الفخرية من الأمير. بعد بعض المراسم الاحتفالية غادر الجمع المسرح تاركين روزفلت، الذي وقف خلف المنصة، وبدأ في إلقاء كلمته.

ولكن كوش لم يكن يحتاج إلى أن يستمع إلى الخطاب فهو يحفظه تقريبًا عن ظهر قلب.

في اليوم السابق، حين أطل الرجل في حمامه حيث يستلقي

مدخًا السيجار وممسكًا بكتاب، كان كوش ينسخ نص الخطاب بسرعة رهيبية في المطبخ. قبلها أذن له الرئيس بأن ينزل ليتابع تحضيرات العشاء. استلّ كوش الخطاب من فوق المكتب. ولأنه قوي الملاحظة ويجيد الإنجليزية، كان يعرف أن هناك عدة نسخ، واستطاع العثور على المسودة شبه النهائية المشطوب منها بضع كلمات ونقلها كما هي، ثم عاد مسرعًا إلى الجناح. وجدت هذه النسخة من الخطاب طريقها إلى علي فهمي شقيق مصطفى كامل، والذي تحرك سريعًا.

بكلماته الإنجليزية الرنانة، وأسلوبه الأدبي المفخم، واصل روزفلت لعبته المفضلة في البدء من موضوع بريء ظاهريًا ثم الولوج منه إلى قضايا شديدة الوضاعة، ودس الرسائل الخفية، وتأجيج مذهب للنيران. بأسلوبه المتحفظ والمستنير ظاهريًا تحدث روزفلت طوال ثلثي الخطاب حول الجامعة، في خطاب منزّه عن أي غرض سوى الاحتفاء بقيمة التعليم والتعلم في بناء الإنسان، وبتمنيات لا حصر لها لأن تكون الجامعة المصرية نبراسًا للحق والعدالة والتقدم لمصر. أسبغ كافة الصفات الحسنة على التعليم، معدّدًا فضائله وحسناته اللانهائية، ثم انبرى يتكلم في الثلث الأخير من خطابه عن بيت القصيد. تكلم عن عدم قدرة الشعوب المتخلفة على تحديد مصيرها، وأن الفرد الذي لا يتمتع بالعلم الكافي يحتاج إلى مرشد له. كذلك الأمم المتأخرة تحتاج لمن يأخذ بيدها. وحذّر من خطورة خروج مصر عن طوع الكومنولث، وأن مصيرها سيكون التخبط والضياع، وعرج على مقتل بطرس غالي، مؤكّدًا أن الجريمة بشعة سواء كان القتل مسلّمًا أم مسيحيًا، ولكنها تؤكد أن المصريين ليسوا مؤهلين

لحكم أنفسهم بشكل متحضر.

توالى الأحداث بعد ذلك بسرعة لم ينسها كوش طوال حياته..

كان الخطاب المنسوخ الذي سزبه كوش قد سرت آثاره وانسابت قبل صعود روزفلت للمسرح بساعات. أعد علي فهمي المظاهرات، وتولى حزب مصر الفتاة والحزب الوطني نقل ما جاء في الخطاب إلى مختلف الجموع. تصاعد الغضب الحارق كتصاعد الحموضة إلى البلعوم. وخرجت المظاهرات إلى الجامعة وامتدت طوال الطريق وصولاً إلى شبرد.

في رحلة العودة كان كوش مرافقاً لروزفلت في السيارة. حتى مماته سيذكر كوش أنه لم ير رجلاً مرتعّباً كما رأى وجه رفيقه الأمريكي. طوال الطريق تلاحقهم الشتائم واللعنات. لم تكن العدائية التي فوجئ بها تيدي التافه الذي لم يعرف من أين أتت هي السبب الوحيد في رعبه، ولكنها الصورة التي تشبّع بها وحملها بداخله بصفته رجلاً أبيض محافظاً عن أبناء ذلك الشعب الذي يزور أرضه: إنهم مجموعة من الغوغاء غير القادرين على التحكم في انفعالاتهم وحكم أنفسهم. ولغبائه الشديد قال هذا الرأي على الملأ منذ أقل من ساعة. المضحك أنه ظن أن الصياغة ناصعة البياض التي طرح بها رأيه لن تخرج عن تلك القاعة، وإن فعلت فإن ذلك سيأخذ أياماً حتى تنشرها الجرائد، وإن وصلت فلن يقرأها تسعون في المائة من هذا الشعب الأمي، لذلك فهو بعيد كل البعد عن كل هذا الهراء الذي أحدثه الخطاب، والأهم هو أنه صافح بذلك الخطاب أصدقاءه الإنجليز

مصافحة متينة وأسدى لهم خدمة جليلة وأصر على أن يوصل لهم صوتًا أمريكيًا متضامنًا. ما كاد يعير جنونه هو السرعة التي تم بها إعداد تلك المظاهرات وكأنهم كانوا يعرفون مسبقًا ما سيقوله في خطابه.

قبل أن يصل إلى الفندق كان المئات يتراصون في الشوارع يهتفون «مصر للمصريين» و«ارحل يا روزفلت». هرع ستيفنسون إلى نوافذ الواجهة وشاهد بارتياح الدهماء والغوغاء وهم يملؤون الرصيف. توقف الباعة الجائلون عن نداءاتهم واصطفوا وسط المظاهرات. كادت حديقة الأزبكية تختفي أمام جحافل الناس. أمر ستيفنسون الخدم بأن يخلوا شرفة الفندق من الزوار. خرج الخال وخولي والبقية في زعرٍ ظاهر وضحكات داخلية يخبرون الضيوف بضرورة الاحتماء داخل غرفهم حتى تمر الغمة. «فليرحمنا الله من هؤلاء الغوغاء» قال الخال بوجهه العابس ونظرته المحتقرة للواقفين على الاتجاه الآخر وهو يصحب إنجليزية عجوزًا إلى داخل البهو حاملاً قبعاتها المزينة بزهور الياسمين.

عند وصول الموكب مر بينهم روزفلت بسرعة في زهول مرتعب. صعد إلى الغرفة وهو يلهث في قمة الغضب والذعر. طلب من مرافقيه الانفراد بنفسه لنيل قسطٍ من الراحة بعد خطابه الطويل. وضع كوش درع التكريم على المنضدة بينما فك الأمريكي رابطة عنقه.

«صب لي كأسًا من البربون من فضلك يا ولد». قال بصوت متعب. بينما يعد كوش الكأس ترددت أصداء الهاتفات ضد الرئيس السابق

من خلف النافذة.

«إنكم لا تفهمون شيئًا. إننا نتحمل عنكم مسؤولية ضخمة. هذه فضيلة الجهل. يمنحكم رفاهية الرعونة».

قام في قلق ونظر من النافذة إلى الجمع الذي يهتف تحت شرفة الفندق.

«هل تظنون أنكم تعرفون الطريق نحو المستقبل أكثر مما نعرفه نحن؟ هل تظنون أن حكم بلادكم يتم بمثل تلك الشعارات الفارغة؟ أي سذاجة طفولية تلك.. تتشدقون بكلام فارغ عن الدستور والاستقلال وأنتم لا تعرفون شيئًا!»

«هذا الذي يحرم الآخرين من الحرية لا يستحقها لنفسه». قال كوش بهدوء، وبنفس طريقة تيدي وكأنه يحدث نفسه. التفت روزفلت من النافذة ونظر له مشدوها. «لينكولن! بحق الجحيم كيف عرفت بهذا؟»

كان كتابًا لخطابات إبراهيم لينكولن تركه أحد الزوار العام الماضي.. وجده كوش وضمه إلى مكتبته..

«عفوًا سيدي. مقولة جميلة حفظتها وتذكرتها الآن بينما أسمعك. لا أريد أن أتدخل فيما لا يعني. ولكن من الواضح أن كلمات سيدي أغضبت الكثيرين. ربما شعروا بأنها تملي عليهم ما يجب أن يكونوا. أنا عن نفسي لا أكون سعيدًا حين يصر السيد ستيفنسون على إخباري بكيفية التصرف مع الضيوف طوال الوقت رغم أنني أؤدي واجباتي على أكمل وجه. دائمًا ما أشعر بأني مقيد بشكل ما في وجوده. ولا يسعني سوى التفكير في التخلص من ذلك القيد رغما

عني..»

عاد روزفلت إلى كرسيه وتناول رشفة من كأسه. بدا غير مرتاح. جال في الغرفة بنظره. «حسًا أيها الحضيف، يؤسفني أن أُملي عليك طلبًا بأن تحزم حقائبك وتعيد ترتيب الصناديق، فقد حان وقت الرحيل، غدًا أستقل الباخرة إلى أسوان، وليكن الرب معكم، وليذهب هؤلاء جميعًا للأسفل إلى الجحيم». تابع كوش مهامه في هدوئه المعتاد. وقبل أن ينصرف سأل روزفلت إن كان يحتاج إلى شيء. بدا الكهل الأمريكي شاردًا وكأن رأسه تحلق في مكان بعيد. وكأن كيانه قد غادر إلى خارج الفندق وعاد مائة عام إلى الوراء. نظر لكوش وقال له بصوت مختنق ووجه مخيف آخر كلمات سيسمعه منها الصبي ذو البشرة الداكنة: «لقد كانت شيكاغو وواشنطن على حق.. وسرعان ما تنحو بقية الولايات والبلدان نحوهما.. الغد لنا.. لنا فقط.. إنهم يسمونه البيت الأبيض لسبب وجيه يا ولد..»

أوما كوش برأسه ولم يقل شيئًا، انحنى في احترام وأغلق الباب وراءه وهو خارج، ولم يرتدي أبدًا مرة أخرى.

على بعد كيلومترات بسيطة في أحد مسارح عماد الدين انعقد مهرجان شعبي ألقى فيه علي فهمي خطابًا حماسيًا. زاد الصخب في الشارع. خرجت بعض المظاهرات تهتف بحياة إبراهيم الورداني، وفي غضون أيام صرخ أحمد شوقي بقصيدة يشدو فيها بعظمة مصر ويندد بما قاله روزفلت. فجأة باتت هذه البلد الطيبة والمرحبة تردد أصداء الغضب الذي ارتسمت آياته على وجه الخديوي الذي أحبه كوش. وانفجرت البلاد بتماوجات غير مرحبة وطاردة لسفير الدبلوماسية غير الرسمية للولايات المتحدة الأمريكية، والذي هرع

في هزيع الليل مستقلاً باخرة شركة كوك السياحية المتجهة إلى
أسوان ليزور معبد أنس الوجود.. وهذه المرة لم يرافقه خادمه النبيه.

الفصل الثامن

البغاء الملون في القفص الذهبي

(1910-1913)

اكتسب كوش مكانةً مختلفةً بعد زيارة الرئيس الأمريكي السابق. تحدث الجميع عما قام به لخدمة الحركة الوطنية. أما هو فعاد لروتين عمله اليومي في الفندق. ومرت الأيام والأعوام دونما أي تغيير. ظل يواصل تعلم الإنجليزية، وأضاف إليها قليلًا من الإيطالية والألمانية، مستعينًا في ذلك بالزوار اللطفاء الذين يهتمون بمساعدته وبقواميسه الأثيرة. قرأ كل ما وقعت عليه عيناه، منفذًا وصايا طه وأجاثا بحذافيرها، مكتسبًا في قراءاته صداقات كثيرة ومتلصصًا على حيوات تعوّض شعوره بالعزلة داخل الفندق الكبير. لم يمر أسبوع لم يخرج فيه كوش يوم إجازته إلى باعة الكتب والمجلات ويبتاع ما يستطيع منها، ثم يعود إلى الفندق بحماس شديد وكأنه يوم عيد.

كذلك استفحلت قراءته النهمة للمجلات التي بدأت منذ سنوات تعلمه القراءة الأولى مع طه. تلك المجلات قديمها وحديثها هي ما حولت كوش إلى موسوعة متحركة تسير على قدمين. لم يكن كوش يرتوي أبدًا من المعرفة من كل لون وأي منهل وبأي طريقة ممكنة، وكأنه مسكون بأحد عفاريت الأدب الهاربين من حكايات شهرزاد. وإذا كانت الكتب باللغتين في بعض الأحيان تبدو جافة وصعبة المراس واللغة، فإن المجلات أصبحت على تنوعها مصدرًا عظيمًا للمعرفة لم يكن يكتفي منه أبدًا، فعرف عن التاريخ المصري والفلك

والأدب الفارسي من الأعداد القديمة لمجلة «الراوي» التي وجدها عند الباعة، والأخلاق والقيم الحميدة ونبذ الشراب والإسراف والتقليد الأعمى للغرب وأصول التربية من مجلة «المفتاح»، وتاريخ أطباء اليونان والشرق ومبادئ علوم الطبيعة من «المقتطف»، وجغرافيا العالم الإسلامي القديم وحرب البوير وكتابات كيبلنج عن الهند وعذابات الكورسيه للنساء والفيلسوف أرنان وآثار فلسطين وأعياد الربيع عند الفراعنة والرومان والإنجليز وترجمة بولس الرسول من مجلة «الجامعة العثمانية».

اكتسب كوش كذلك شعبية كبيرة لذكائه وسرعة تعلمه داخل الفندق، وبات مفخرة السيد ستيفنسون أمام الضيوف، وكثيرًا ما يناديه المدير وهو واقف مع بعض الضيوف داخل المطعم الكبير وقت الغداء، ويطلب منه أن يحدثهم بالإنجليزية، أو يلقي إليهم بأبيات من دانتى، أو يخبرهم عن آخر معلومة قرأها في إحدى مجلاته الأثيرة، أو يقص عليهم قصة مسلية من كيلة ودمنة. يلبي كوش طلب المدير. ولكنه في بعض الأوقات لا يشعر أنه مرتاح لذلك العرض القصير. لم يحب شعور أنه يسلي أحدًا أو يرفه عنه وكأنه مهرج في فقرة استعراضية. كان سعيدًا بالطبع بمشاركة معارفه مع كل من يهتم بها، خاصة أنه لا ينعم بذلك الامتياز مع رفقاءه من الخدم محدودي المعرفة وفضولهم الأكثر محدودية تجاه العالم، ولكن هذا لا يعني أنه يريد مشاركتها مع الآخرين لتسليتهم وكأنه أعجوبة من أعاجيب الزمن. حين أرسله ستيفنسون ليعاون صديقًا له، وهو مخترع أمريكي مجنون اسمه شومان يريد توليد الطاقة من ضوء الشمس في المعادي، وجد كوش في الهدوء النسبي للحي

الجديد فرصة للتفكير بعيدًا عن صخب الفندق.

ذلك الذي يحدث هو الميلاد الثاني لوعي كوش بعد ميلاد وعيه الأول على يد الطفل طه. بدأ كوش في اندهاشه الصامت يدرك حجم نهمه الحقيقي للمعرفة. لم يكن يدري ماذا سيفعل بكل هذه المعرفة أو كيف سيقوم بتوظيفها في حياة الخدمة البسيطة، ولكنه يعرف أن شيئًا ما بداخله، شيئًا لا يدري كنهه أو اسمه أو ماهيته، يضيء. بقعة من النور تكبر شيئًا فشيئًا فتتير روحه وتزيد من إدراكه لوجوده. كان سعيدًا بأنه الوحيد في المطبخ الذي يعرف الآن من هو شكسبير، أو الوحيد من بين الضيوف الذين يمرون بالبهو أو يزدحمون ملتصقين في البار الذي يحفظ أشعارًا للشافعي. شيء ما يجعله بلا إرادة منه يقارن قدر معرفته بقدر هؤلاء الذين يحيطون به. كل شيء من حوله يخبره بمكانه المحدود في العالم، أنه خادم وسيظل يخدم كل سادته من زوار الفندق، ولكن صوتًا ما، صوتًا يحاول إخماده دائمًا حتى لا يزعجه، يخبره بأن هذا ليس مكانه الوحيد، وأن شيئًا ما قد يربطه هؤلاء العابرين ويضعه في مصاف التساوي معهم. صوتًا يخبره كيف ستحدد تلك المعرفة مكانته الحقيقية وسطهم. نعم، جسديًا واجتماعيًا هو ينتمي لطبقة الخدام. في الشكل واللون والطبقة هو أقرب إلى خولي وبركات وأحداد القبطي وعبد الله الصعيدي وسليمان الأبله، ولكن ما يعرفه عن هذا العالم.. ألا يجعله أقرب إلى السيد ستيفنسون مما يظن؟ إذا ما تشابها في خبرتهما ودرايتهما بما في الكتب وما دار وكان في ماضي الأمم والإنسانية.. فأين يضعه هذا؟ لم ينشغل أبدًا بأن يغادر طبقة

لينضم إلى أخرى. لم تكن مثل هذه الأفكار تمر في عقل كوش. ولكنها رغبته في أن يشعر بأنه متساوٍ مع الآخرين. لم يأخذ كوش وقتًا كي يستوعب جيدًا أن بلاده رهيبة لدى السادة الإنجليز، وأنه أقل منهم. وحين يراقب خاله وهو يقف شبه محني أمام سيدة بدينة مشوب وجهها بالحمرة، يتساءل عن سبب ذلك. أهو الخال من وضع نفسه في تلك المرتبة، أم أنها بلاده الأكثر تخلفًا التي وضعت نفسها في موضع أقل سمح للآخرين باستغلالها؟ ولكنه لم ير نفسه هذا الشخص. منذ أعوام وقعت حادثة دنشواي، وأتاه خاله وأعطاه كتابًا اسمه «عذراء دنشواي» يحكي قصة ما حدث. كان الغضب يعتري الخال وهو يكلمه: «لا تنس أبدًا أن هؤلاء هم الإنجليز عن حق. إياك أن ينسبك زوار الفندق اللطفاء حقيقةتهم الخفية». رغم كلمات خاله التي لم تعن له الكثير، حتى ولو كان يشعر ببشاعة ما فعلوه في تلك المحافظة البعيدة، فإنها جعلته لأول مرة ينظر لخاله نظرة مختلفة، يراه من ورائها أبعد من مجرد خادم ماهر في عمله. وتساءل كوش كيف يمكن لشخص خدمة أناس وهو يكرههم كل هذه الكراهية؟ كراهية لم يعرفها كقط.

في ذات الوقت بات كوش بعد تلك المعرفة التي تتكون لديه يشعر أنه يقف شامخًا فوق تلة عالية. قمة من الكلمات تكونت عبر مئات الصفحات من الكتب والمجلات. قمة وضعه عليها جان فالجان والعم توم وديفيد كوبرفيلد. كل هؤلاء وغيرهم وضعوه في مكان جعله وكأنه يطفو فوق الأرض. إنه لم يصل بعد إلى تلك المرحلة التي يشعر فيها بداخله أنه يفوق سادته من الضيوف مكانة أو قيمة، ولكنه أيضًا لم يشعر بأنه مجبور على الانحناء، اللهم إن كان انحناء

مدفوعًا بمتطلباته المهنية كسفر جي وحقال ومقدم للشراب والطعام. ولكن شعورًا دفينًا آخر يخالج كوش. شعور يؤرقه ويحرمه النوم في كثير من الليالي بعد أيام العمل المتعبة. يشعر وكأنه طائر يعيش في قفص ذهبي كذلك البغاء الحزين الذي رآه مع طه في بيت الجار الفارسي، والذي لن ينسى أبدًا الرابط الذي شعر بولادته معه يومها. في كثير من الأحيان يبدو له الفندق مثل حديقة الحيوان التي زارها مع رفقاءه من الخدم في أحد أيام الإجازات. معرض كبير يؤمه الناس من كل حذب وصوب، ولكنه في النهاية مجرد محطة توقف مؤقتة في حياة زواره، بينما بالنسبة لكوش ومن يماثله هو الدائم المستقر. كلهم يأتون إلى الفندق من أماكن عديدة وبعيدة ويمكنهم به بضعة أيام أو حتى شهور، ولكنهم في النهاية يغادرونه وينطلقون نحو مغامراتهم الحياتية في العالم الواسع، بينما يظل كوش قابلاً فيه لا يغادره، ينام ويصحو ويعمل ويكبر بداخله.

بالطبع كان قد تشبع بالقناعات التي تحيط به من كل من هم حوله بأنهم محظوظون بكونهم موجودين في هذا المكان. إنهم لا يملكون فرصة خارج أسوار ذلك الفندق. إنه يمثل لهم الحماية من شرور الحياة، ويمنحهم مناماً نظيفة وسقفاً صلباً يحميهم من قسوة الشارع والزمن، كما يمنح ذويهم حياةً كريمة. من من أقاربهم أو أصدقائهم يرفل في نعمة التعامل مع صفوة الخديوية والأجانب وأرقى نتاج إنساني في مصر؟ أمثالهم في الحياة إما فلاحون أو صيادون أو تجار جمال وبعير. إنهم لا يعرفون عالمًا آخر غيره.

ولكن الحقيقة هي أنه لا يشبه أحدًا من زملائه. إنه يمتلك ما لا يملكونه. كلهم رضوا بتلك الحياة باعتبار أنها الفرصة المثلى ولا

شيء أفضل منها. لا أحد منهم يجلس ويتساءل عما يقبع خارج تلك الأسوار. عن آلاف البشر الذين يمكنه لقاءهم في رحلة الحياة ما إن يغير المكان ويدور مع حركة الزمن. الخوف من المجهول والرضا بما هو متاح كان آفةً بدأ وعي كوش المتشكل من الكتب يستيقظ عليها مع كل صفحة يقرأها.

ظل كوش في سنواته الأولى بعد العشرين تتنازعه تلك الرغبتان المتضادتان: الرغبة في الخروج واستكشاف ذلك العالم الواسع، والخوف من التغيير.

تلك الرغبة في الخروج تحمل رمزيةً ما لم يفهمها كوش أو يعيها عقله المستكين بآلاف السنوات من الخضوع. إنه يطمع في المزيد. لا يقنع بما وُلد عليه. لا يكتفي بما قسمه له لوته وبلدته وعشيرته والبقعة التي خُلق فيها. لم يكن ذلك شيئًا يخطر على بال أحد. فالسادة هم السادة. والأجانب البيض والحممر والشقر هم الأجانب. والأفندية هم الأفندية. والمصريون هم المصريون.

ذلك التقسيم كان واضحًا وجليًا في كل شيء. لم يكن هناك شيء غير طبيعي فيه أو مرفوض. من المنطقي للغاية، كما حكم الزمن والفطرة الإنسانية، أن يخدم الأسود الأبيض. أن يخدم الأقل الأعلى. الأفقر الأغنى. الأكثر تخلفًا الأكثر تقدمًا. ليس هناك ما يثير التساؤل في هذا الأمر.

أما مسألة الاحتلال فمسألة أخرى. استطاع كوش أن يفرّق بنباهة نادرة ما بين الاحتلال المقيت الذي يمارسه البريطانيون على مصر وبين التقسيم الطبيعي للبشر في هذه الحياة، خاصةً مع انضمامه

للجمعية، فأصبح واحدًا ضمن تيار كبير من المصريين باتوا يعانون الوعي ويدركون ضرورة رفض الاحتلال، ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن يظن أي شخص أنه مساوٍ للأجنبي العظيم. أو للتركي. أو للبasha أو لمنتسبي العائلة الخديوية. من المستحيل أن يظن أحد ذلك. ولا حتى كوش ظن ذلك. فقط يشعر بأن هناك شيئًا ما بداخله يخبره بأن هذا الفندق ليس مكانه. وأن العاملين معه في طاقم الخدم لا يشبهونه. يخجل من ذلك الشعور بأنه أفضل من غيره. أنه متعالٍ. ولكنه لا يقصد ذلك. فقط يُحبط بأنه غير مفهوم ولا مسموع من أحد. وكأن حنجرتَه تنطق بصوتين؛ صوت يخاطب مَنْ حوله بما تعودوا سماعه منه.. الصوت الذي يجيب بالإذعان عند تلقي الأوامر ويلقي التحية على الزوار.. ويمزح به مع الرفقاء في آخر الليل.. في كل مرة يتحدث كوش بذلك الصوت هناك صوت آخر بداخله لا يسمعه أحد.. الصوت الذي يريد مناقشة عجائب الآثار للجبرتي أو عقد روسو الاجتماعي.. الصوت الذي يتساءل عن اختراع الطائرة الجديد أو الهاتف كيف يعمل.. الصوت الذي يفكر فيما تفعله أجاثا الآن وكيف سارت حياتها.. كل ما أراد هذا الصوت قوله لم يكن له صدى بينما ينظر كوش بعينيه الضجرتين نحو من يحيطونه في الفندق.

ومع مرور كل يوم تعمق شعوره بأنه بات لا ينتمي إلى هذا المكان. وجاءته الإجابة عن سؤاله الوجودي حول ما إذا كان الفندق هو غاية ما يمكنه تحقيقه في حياته، بحلول عام 13.

استدعى السيد ستيفنسون كوش إلى مكتبه. نقر على الباب ودخل ليجد خاله جالسًا على الكرسي يدخن. أجلسه السيد على الكرسي المقابل وتحدث إليه في لهجته الودود المعتادة وبعربيته المضحكة:

«كو.. أردت مفاتحتك في أمر خطير. رغم إنه يعز عليّ، ولكنني أتاني طلب من مكتب اللورد كتشنر. وللأسف لا أجد أفضل منك لتبليته. يحتاجون سفرجيًا لأنّ من كان يعمل هناك مات بغتة. ستختلف مهامك قليلًا عما تفعله هنا، ولكنني أثق في ذكائك وسعة اطلاعك. ما إن أخبرتهم بقدراتك وتعليمك الرفيع حتى كان القرار قد اتخذ بالفعل. سيمنحونك راتبًا مجزيًا. ما رأيك؟»

لم يرد كوش، ينظر إلى خاله في صمت.

«نحن جميعًا تحت أمر اللورد وأمرك سيد ستيفنسون. لا تقلق.. كوش يعلم جيدًا كيف يفي بمسؤولياته في أي مكان».

بدا الارتياح على وجه الإنجليزي الطيب. «رائع. ها نحن قد أنهينا الأمر. سوف يمر سائق في الغد ويصطحب كوش إلى منزله الجديد. ارفع رأسنا يا بني».

بسرعة عُقد الاجتماع في المطبخ. الكل يتكلم في نفس الوقت بينما كوش صامت، ينشغل بخطاب بعخته أخواته عن طريق أحد المعارف الذين يوصلون لهم المبالغ التي يرسلها هو وخاله لهن. منذ وفاة أمه توقف عن مراسلتهم، وبدأت وجوههن تختفي عن ذاكرته. يذكرهن حين يصله خطاب يقمن بإملائه على أحد الأقارب الذين يجيدون العربية والكتابة. يرسلن له الأشواق ويحكين عن

زواج واحدة أو إنجاب الثانية. أمور من عالم بات بعيدًا عنه كثيرًا. يستفيق على زعيق أبناء الجمعية. تنتابه حالة من الذعر جراء ذلك التغيير المفاجئ. ينظر لخاله بنظرة لوم. يشعر أنه يتم استغلاله والإلقاء به إلى المجهول. حتى لو كان هذا ما يريده، فإنه لم يكن مستعدًا له بهذه السرعة وبهذه الطريقة، كما أنه يعلم تمامًا السر وراء تشجيع الخال لهذه الخطوة، إن لم يكن هو من أوعز بها إلى ستيفنسون.

واصل خولي تقشير البطاطس بينما يحدث الشاب الصامت ذا العينين الواسعتين: «هذه فرصة عظيمة. من يتخيل أن تصبح لنا عين داخل قصر هذا اللعين. يجب أن تفتح عينيك وأذنيك عن آخرهما. لن أوصيك بالقيام بعملك على أكمل وجه لأنك ستفعل ذلك لا شك، ولكن المهم أن تكتسب ثقة الرجل وكل من يسكنون المقر، سوف يعطونك يومًا في الأسبوع إجازة.. غالبًا العلاء.. تأتي إلى هنا على الفور وتبلغنا بكل ما تراه».

أمضى الفريق ليلتهم ساهرين في وداع كوش. أعد لهم مساعد الطباخ وجبةً عامرة بكل الملذات، بينما قام شباب المغسلة بغسيل وكي ملابس كوش. كذلك شربوا عصير التمر وفناجين هائلة من القهوة وأخذوا يتسامرون طوال الليلة الأخيرة دون نوم. اعتادوا جميعًا فراق الأحباء، ولكن كوش الذي أمضى أكثر من عشر سنوات في هذا المكان الذي أتاه طفلًا بات بالنسبة لهم من علامات الفندق التي اعتادوها ولا يتصورونه بدونه. يخيم شعور بالفقد على الجلسة المرحّة، ولكن ذلك الشعور أضاء داخل كوش شعورًا آخر بالأخوة والاتحاد، وفهم في تلك الليلة أن الإنسان لا يدرك حقًا قيمة الشيء

إلا حين يفقده. فابتعاده عن هذه الرفقة، سواء أعضاء الجمعية أو غيرهم من موظفي الفندق الأجانب والمصريين، هو ما جعلهم يدركون قدره لديهم، ولذلك يغادر كوش هذا المكان وبداخله شعور بالقلق المتحمس، وفي ذات الوقت شعور بأنه ليس وحيّدًا أبدًا في الدنيا. يوم مغادرته لهم شعر كوش أنه أقرب لهؤلاء الرفاق أكثر من أي وقت مضى، وها هو ينطلق نحو العالم الواسع الذي لطالما حلم برؤيته، ويترك شرنقة الفندق الكبير راميًا نفسه في أحضان المجهول، ليختبر حقيقة ذلك الشعور الذي يؤرقه منذ سنوات.

الفصل التاسع

في عرين الأسد

(1913-1914)

جرى تقديم كوش إلى مقر عمله الجديد على عجل. لم يكن قصر الدوبارة مسكنًا مستقلًا، بل مقرًا للقيادة المركزية للمعتمد البريطاني ملحقًا به أجنحة المعيشة، ولذلك فالإجراءات الأمنية المشددة هي السمة الغالبة على المكان. معظم العاملين من الضباط والموظفين الإنجليز. طاقم الخدم نفسه من الإنجليز أو اليونانيين وقلما اشتغل به مصريون. في عهد مندوب سامي عتيد مثل كرومر كان يستحيل وجود مصري في جواره، ولكن اللورد كتشنر أقل هوشًا وتوجسًا.

حذّره السائق وهما في الطريق إلى القصر من رفيقي اللورد: «بهما من المكر والدهاء والرغبة في الإيذاء ما يكفي العالم. وراك الله شرهما يا بني».

أخبره أيضًا بوجود جناح مكتب اللورد الذي يباشر منه معظم أعماله في المساء، ولكنه يخرج في النهار لزيارة ثكنات الجيش الإنجليز، أو رئيس الوزراء، أو مقر الجمعية التشريعية والخيديوي. تذكر كوش الخديوي المحبب إليه وذكر للسائق فيما يشبه التفاخر الخجول بأنه التقاه قبلاً.

حاجيات كوش القليلة مجموعة في حقيبة سفر مضلعة تبرع بها كوستنياكوس عامل البار على أن يعيدها كوش في إجازته الأولى. ولكن هاجسه الحقيقي هو كتبه ومجلاته التي شعر أن روحه تغادره

وهو يتركها في غرفته، ولكنه قرر أن ينقلها إلى مسكنه الجديد على مراحل مع كل زيارة له للفندق لتسكن بجواره.

في المقر الجديد جناح الخدم لا يدعو للتفاؤل. ضيق وبإضاءة خافتة وتهوية سيئة وتفوح منه رائحة عطنة بعض الشيء. رائحة هؤلاء الذين يخدمون ليلاً نهارًا دون فرصة للاستحمام اليومي أو الراحة وممارسة الحياة بشكلها الطبيعي. لأول وهلة أدرك أن معايير النظافة التي تعود عليها في الفندق لم تكن مطبقة هنا. مع الوقت وطول الخبرة في خدمة المنازل سيفهم كوش أن ذلك أمر طبيعي؛ ففي الفندق الخدم هم عماد المكان وقلبه النابض، ولذلك فإن راحتهم ورفاههم أمر جليل لا يستحسن إهماله إن أراد الفندق بناء سمعة من الخدمة الممتازة، أما في المنازل فالخدم منتج زائد، احتياج عرضي، لهم الحقوق البشرية العادية ولكن أدناها يكفي.

منذ اليوم الأول شعر كوش بأنه غير مرحّب به. وزاد ذلك من شعوره بالوحدة والغربة. شعر أن العالم الذي يطمح إلى الخروج إليه أكبر وأكثر وحشة مما أعدّ نفسه له، وباغته الندم على مغادرته أمان الفندق. البيت الصامت غالبًا كان معاكسًا تمامًا لأجواء الفندق المفعمة بالحركة والحياة. وعدد الخدم قليل مقارنةً بتروس الماكينة اللامتناهية في الفندق.

ما يعرفه كوش عن سيده الأول قليل، فقط ما تقوله الصحف التي يقرأها بانتظام: تم تعيينه منذ أقل من عامين معتمدًا بريطانيا على مصر. بطولته الكبرى جاءت في السودان حين أحمّد الثورة

هناك ورشخ الوجود البريطاني حيث حكم الخرطوم بالحديد والنار لسنوات. ثم انتقل بعدها إلى بلاد أفريقية بعيدة وقاد الجيش الإمبراطوري فيما يُعرف بحرب البوير الثانية، تقول الصحف إن انتصاراته وإنجازاته هناك لا تُعد ولا تُحصى. انتقل منها إلى الهند؛ بلاد أخرى بعيدة لم يعرف كوش منها سوى راجيب البائع الجوال الذي كانوا يطارّدونه بين أروقة الفندق وهو يبيع البخور والمسبحات الخرزية، وهناك عزّز سمعته داخل الجيش الإمبراطوري كعسكري صارم بل ومخيف لا يؤمن بالمجاملات ويكره الفساد ومظاهر الدعة والخمول.

لم يكن منصب اللورد الرفيع في مصر من قبيل المصادفة. فذلك العسكري النشط سكن هذه البلاد منذ أكثر من عشرين عامًا، آتيا من قبرص بعد أن أنهى مسحا شاملا لفلسطين وضع تفاصيله في ثلاثة مجلدات كبرى. عمل كتشنر بجد على إعادة هيكلة الجيش المصري في العام الأول بعد الاحتلال والتأكد من تجريده من كل قوته، وترقى على مر السنوات حتى صار قائدًا عامًا للجيش بعد ولادة كوش بثلاث سنوات. وبعد جولاته العديدة في مختلف المستعمرات، وبدلاً من أن يُحال إلى التقاعد، عاد اللورد بعد بلوغه الثانية والستين ليجلس على قمة الهرم الاستعماري في بلاد كوش الحبيبة. لم يتزوج اللورد أبداً.

بعد أسبوع هادئ لم يكد أحد سكان المقر المنشغل دائماً كخليفة نحل يلحظ وجوده فيه، جلس كوش في فترة راحته يقرأ العدد الأخير من مجلة الهلال. قلب ما بين صفحاتها في موضوعات لم

تهمه كثيرًا، كأصل اليهود ومن هم ومن أين جاؤوا وطباعهم إلخ، ثم استغرق في قراءة موضوع عن الترف. أعجب كوش برأي جان جاك روسو المكتوب بين طيات المجلة: «الترف يفسد الغني والفقير معًا: الأول لأنه يعوّده الخمول والكسل، والثاني لأنه يرّبي فيه الحسد والبغضاء. ولولا تبذير الأغنياء لما كان على الأرض فقراء». ولفت نظره اختلاف كاتب المقال مع هذا الرأي، فهو يرى أن الترف والغنى يعود على الفقير بالمنفعة، ولولاه لكان كل الناس فقراء. تفتحت بداخل ذهن كوش طاقة جديدة من الإدراك حين قرأ السطور التالية: «ولولا ترف أثينا ورومية وبغداد لما استولت عليها شعوب خشنّة ليست من المدنية في شيء».

بحلول يومه العاشر كان قد استمع إلى صوت سيده الجديد بضع مرات ولكنه لم يره بعد. فكّر كوش بداخله في المقال الذي قرأه منذ أيام وهو يرى أمارات الغنى والحياة الرغدة بين سكان المنزل، ولكنها لم تكن بحياة غريبة عليه، فقد تعود على نمط الحياة هذا في الفندق، ولكنه ربما يستوعب الآن أن هؤلاء الزائرين الذين يذهبون ويجيئون على الفندق يعيشون هكذا في منازلهم. أيضًا فكر كوش في أعضاء الجمعية الذين ينتظرون منه الأخبار بفارغ الصبر، أملين أن يأتي لهم بمعلومات مصيرية، ولكن الحقيقة التي أدركها هي أنه شاب صغير لا يتخطى الرابعة والعشرين وتم تعيينه لأقل درجات الخدمة: فتح الباب أو تنفيذ التراب وتلميع الفضيّات وربما في بعض الأحيان إعداد القهوة والمشروبات الروحية لبعض الضيوف. فالسيد يحتفظ بخادميه اللذين أتى بهما معه من إحدى البلاد التي خدم بها، ويُقال إنهما تربيا على يديه منذ أن كانا في العاشرة، هما

أقرب إلى عبيدين منهما إلى خادمين، وهما من يقومان على كل ما يحتاجه ويحظيان بثقته الكاملة.

يخاف كوش عند مرآه أيًا منهما. جسد الواحد منهما الضخم، وملامحه المتجهمة التي تعلو وجهًا وحشي السواد وأنف عملاقة كفيلة بأن تبعد عن كوش أي وهم بأنه تربطه بهما صلة القرابة أو الدم. لم يبد كشيًا من الارتياح تجاه رفيقي كتشنر المتوحشين. بدت علاقتهما قريبة غاية القرب من العسكري الإنجليزي غير المتزوج. أشياء ثقال دون أن تقال متنقلة في أرجاء المنزل خاصة بين الخادومات اليونانيات. هن أكثر جرأة في ضحكاتهن المستترة ونظراتهن ذات المغزى لبعضهن البعض كلما مر أحد الأسودين. لم يحاول كوش أن يستطلع شيئًا مما كن يقصدنه لأنه أراد الاختفاء قدر الإمكان، لا يشغله سوى أن يكون نافعًا لخاله الحبيب في ذلك المكان الذي وضعه فيه علّه يوفقًا ما يجبر كسره.. وأن يواصل إشباع نهمه اللامنقطع إلى التعلم والقراءة.

منذ اليوم الأول تعقدا مضايقته والسخرية منه خاصة حينما وجده أحدهما يقرأ. نزع الكتاب من بين يديه ومزقه إربًا في لحظات. «أنت هنا لخدمة السيد فحسب. من تظن نفسك؟ خلقت من طينة أخرى؟» قال بعربية ملحونة. من وقتها تعمد كوش الاختباء من أمام ناظريهما. يعرف أنهما يحبان سيدهما حب عبادة، وسيفعلان أي شيء ليحافظا على حياته وولائه لهما.

كلاهما يحمل اسمًا بدائيًا يصعب نطقه، لذا استقر كوش على تسميتهما ياجوج ومأجوج.

مر شهر دون أن يلمح كوش سيده. وفي صباح أحد الأيام وبعد أن أنهى إحضار الطلبات للمطبخ دخل يأجوج وتحدث نحوه دون أن ينظر إليه:

«ستصحب اللورد إلى زيارة للمحفل لانشغالنا بأمر هام. حاول أن تظل متيقظًا، واحرص على مناولته الماء طوال الوقت حتى لا يصاب بالجفاف فيهبط ضغط دمه. ولا تتكلم إلا إن وُجه الحديث إليك. احذر، فسيادته يحب ممارسة اللغة ويتبسط أحيانًا في الحديث فلا يغرنك هذا ويجعلك تنسى مكانتك الحقيقية».

على الفور بذل كوش ثيابه وركب السيارة الثانية. تحرك الموكب الصغير محاذًا بحراسة من الجيش. خرج أمامه السيد كتشنر بقامة ممشوقة وصلف عسكري ونظرة جامدة خلف نظارة مستديرة وشارب عظيم. لاحظ كوش أنه يسير بعرج بسيط يكاد لا يرى.

اصطحبه الموكب حتى المعبد الماسوني بشارع عماد الدين. دخل كوش خلفه مشدوهمًا من روعة البهو الكبير بلونه الأزرق الداكن. بدا التصميم فرعونيًا بعض الشيء بتمثالين يشبهان أبا الهول على المدخل ذكراه بالبهو الفرعوني للفندق.

سار الجميع في صمت بينما وقف رجل عريض على منبر يخطب في الجمع الجالس على دك متجاورة. زينت النجوم المعقوفة والرموز الغربية حوائط القاعة التي يرن فيها الصوت برنة مميزة تضيف مزيدًا من المهابة. بدا اللورد كتشنر مبتهجًا وهو يصفح الجميع ويتحدث معهم بصوت عالٍ.

قرأ كوش عن الماسونية في إحدى المجلات منذ فترة وكيف يدعون إلى الخير والإخاء العالمي، وما يقوله الرجل الخاطب في الجالسين يحمل شيئًا من هذا المعنى؛ أخذ يسهب في ضرورة بناء محفل في الصعيد لخدمة أبناء الجنوب، ويتحدث عن الملاجئ وقنوات الري التي تم حفرها في مختلف القرى. تحدث الرجل أيضًا عن الحرب التي باتت وشيكه، وتورد الصحف حول العالم الأخبار والآراء التي تتنبأ باندلاعها في أي وقت. وفي النهاية أكد على دور المحافل الماسونية جميعها في إرساء السلام العالمي وتجنب ويلات الحروب، ومحاولة البناء وتعمير الأرض في ظل روح المساواة بين البشر.

ظل كوش واقفًا في جانب الصف الأمامي الذي جلس إليه كتشنر يستمع باهتمام. اتجهت إليه كل الأعين وبدأ أنه يلقي احترامًا كبيرًا لدى الحاضرين. كانوا من كل الجنسيات: إنجليزًا وفرنسيين وطيلائًا ويونانيين وقلة من المصريين. دخل اللورد في نوبة عطش لثلاث مرات متتالية وفتش في جيبه. اقترب منه كوش وأعطاه منديله القماشي النظيف. تناوله كتشنر ونظر له بتفحص وشكره بعربية سليمة. استبشر كوش خيرًا بذلك السلوك المتحضر. في تلك الأثناء انتهت محاضرة الرجل العريض، وقام الجالسون وبدؤوا في السلام على بعضهم البعض والانخراط في أحاديث جانبية. استند كتشنر على ذراع كوش كي يقوم، وقبل أن يبتعد كوش للوراء مرة أخرى اقترب منهما رجل في الخمسين. رفيع. طويل. بوجه طويل ومتجهم تتوسطه عينان مكرتان وشارب كث. سلم الرجل على كتشنر بشيء من الاحترام، بينما ابتسم كتشنر في وجهه بتحفظ ونطق بعربية

أذهلت كوش للمرة الثانية:

«أهلاً سعد. كيف حالك؟»

أجابه الرجل بصوت رخيم وببطء:

«لست بخير سيدي اللورد. لست سعيداً أبداً بما يجري في الجمعية.
لا أظن أن هذا كان اتفاقنا».

نظر كتشنر حوله وغابت ابتسامته:

«وأنا لا أظن أن هذا هو الوقت المناسب لمناقشة مثل هذه الأمور.
نحن هنا إخوة في الإحسان ولا نبغي سوى الخير للإنسانية...»

قاطعته الرجل بسرعة:

«ومتى نبغي الخير لمصر يا سعادة اللورد؟ المصريون أيضاً ينتمون
للإنسانية!»

نظر كتشنر لكوش بتساؤل وكأنما تحزج أو رفض خوض مثل هذا
الحوار أمام خادمه:

«دعنا نتناول القهوة بعد شم النسيم... كل عام وأنت بخير... الآن
ضع جل طاقتك في مشروعنا القادم؛ محفل الصعيد، سيفيد كثيراً
من إخوانك يا سعد... كفاك حنقاً...»

انحنى المدعو سعد انحناءة خفيفة وعلى وجهه ابتسامة اجتهد
في إبداء عدم صفائها. ولذهوله، مدّ سعد يده لكوش وسلم عليه
بحزم. ثم انصرف.

توالت الأيام بعد ذلك. وانفرد كوش بخدمة كتشنر حين سافر العبدان لاصطحاب أحد أصدقاء اللورد المقربين والعودة به إلى مصر. لم يرتح كلاهما لترك رئيسهما مع ذلك الولد الجديد، وبدأ كتشنر نفسه غير مرتاح للتغيير، ولكن كوش تمكن من اكتساب ثقة الكهل الإنجليزي حين بدأ يستعرض معرفته، وهو ما أذهل كتشنر في الأوقات القليلة التي كانا يجتمعان بها، ودفعه إلى الحديث عن كوش بإعجاب شديد: «هذا ما يمكننا تحقيقه إذا تابرنّا في جهودنا بهذه البلاد»، أخبر أحد ضباطه وهو يشير له بينما يضع القهوة أمامه على المكتب، «كما أنه يصنع قهوة ممتازة!». كان اللورد قليل الخروج من منزله إلا لدواعي العمل. يستقبل كثيرين من الساسة والمفكرين والضباط في مكتبه بالقصر. في مساءات الأحد ينفرد بنفسه ليقراً ويحتسي الشراب بينما يبقى كوش جالسًا بالخارج. في أحد أيام الشتاء وبينما تمطر بالخارج، استدعاه كتشنر ليغذي نار المدفأة بمزيد من الخشب. راقبه وهو ساهم بينما يرتشف شرابه..

«أخبرني يا بني... أي البلاد أحب إليك؛ مصر أم النوبة؟»

توقف كوش للحظة مفكرًا. لم تكن ذكرى النوبة قد مرت عليه لمدة طويلة.

«لا أذكر عنها الكثير يا سيدي. أتيت إلى هنا وأنا في العاشرة أو أكبر بقليل. ولا أعرف مصر حق المعرفة أيضًا. الفندق كان عالمي».

«ألا تتوق إلى العودة إلى هناك؟ إنها بلاد جميلة. قضيت بها فترة منذ خمسة عشر عامًا فوق جزيرة خلافة».

طقطق الخشب بينما يقلبه كوش بالسيخ الحديدي.

«لا أدري... لا أعلم ماذا سأفعل هناك... الخدمة هي حياتي الآن».

«هناك الكثير من المميزات في النوبة يا كوش. إنهم أهلك. يشبهونك. لونكم واحد، ولغتك واحدة. إنكم تشكّلون عرقًا مختلفًا تمامًا. كنتم يومًا أسياد الجنوب.. الفارق بين النوبيين والمصريين كبير للغاية.. المصريون قوم يصيبونني بالحيرة..»

«ولكننا اليوم ندين بالولاء للعلم المصري والعثماني يا سيدي... وكل صعيد مصر من السمر...»

«بلى.. بالطبع... ولكنكم سود يا ولدي ولستم سمرا. ولديكم إرثكم الغني الذي لا يشاطركم فيه أحد.. لغتكم مختلفة.. ومسيحيون بالفطرة.. قاومتهم الإسلام ثمانمائة عام وسقوكم برمّة الحديق في حال لم تكن قد قرأت هذه المعلومة في مجلاتك! أنت نفسك تحمل اسم أحد أعظم قبائلكم الذين حكموا مصر يومًا ما.. إن قومك يا كوش هم السلسال الذي يربط هذا البلد الجميل بإرثه الأفريقي.. هل ترى نفسك زنجيًا أم مصريًا يا ولدي؟»

توقف كوش لبرهة وهو يفكر في رد. ولكن اللورد المائل للسكّر لم يمهله.

«لا عليك. ليس شرطًا أن يتنافرا. أنت زنجي ولا شك في ذلك لمن يراك للوهلة الأولى. أما كونك مصريًا أم أقرب للسودان فهذه قضية أخرى.. هل ذهبت إلى السودان؟ أنت تعلم أنني خدمت هناك سنوات كثيرة؟»

«بلى.. مما قرأت كانت خدمة مشرفة سيدي..»

«لقد رأيت أشباهك كثيرًا. أنتم عرق من الكسالى محدودو التفكير لا شك في ذلك، ولكنكم أوفياء وطيبون... حرارة الجو وقيظ الشمس شكلكم على هذا النحو.. والمصريون.. إنهم لا يحترمونكم.. وأنتم أيضًا تريدون بل وتستحقون سودانيًا منفصلة عن مصر...»

«ولكني لست سودانيًا سيدي..»

«أيًا يكن.. إنه نفس الشيء.. المهم.. ما أردت قوله.. ماذا لو أصبحت يومًا ملكًا كوشيًا على مملكة النوبة واستعدتم أمجاد الماضي.. وتمتعت أنت وبنو جنسك بالاستقلال.. ألا يسعدك هذا؟»

«استقلال عمن؟ الإمبراطورية تقصد سيدي؟»

«لا يا كوش.. عن حاكم مصر..»

«وما الضير في وضعنا الآن؟ وكيف سأتي إلى القاهرة بعد ذلك لو صرنا مملكة أخرى؟ هل سأحتاج إلى جواز سفر؟»

نظر كتشنر بخيبة أمل لظهر خادمه الذي ظل منكفئًا على المدفأة..
«لا فائدة فيكم يا ولد.. لا فائدة..»

استدار له كوش ونظر نحوه مليًا. ثم كسا وجهه مرخ مفاجئ:

«هل أحكي لسيادتك عن تلك المرة التي رافقت فيها ملكًا من عربستان طوال إقامته في الفندق؟»

هز كتشنر رأسه في يأس...

«رغم كل ذلك مازلت أفضل رفقتكم على رفقة أبناء جلدتي.. وإن كنت أفضل العزلة عنكم جميعًا.. احك لي يا كوش.. لعل المطر

يتوقف ونخلد إلى النوم في هدوء».

عاد العبدان من سفرتهما.. وعاد كوش ليجلس بالمطبخ وانقطعت علاقته بسيده تقريبًا. بقيت تلك المحادثة بعضًا من الوقت في ذهنه. كلما استعادها تذكر تيدي وحديثه المشابه فيشعر بشيء يشبه الغضب. لثاني مرة يقابل سياسيًا أجنبيًا يحبه في البداية، ويجده لطيفًا للغاية، ولكنهم فجأة يتفوهون بكلام يثير حنقه. كلام يحمل ازدراءً متخفيًا. إنه لا يستطيع وضع يده بالضبط على ما يثير حنقه. ولكنه متضايق. لا يبذل كوش الكثير من التفكير في هذه الأمور. ويفضّل إتمام مهامه على أفضل وجه، ولكنه لم يُرد كره اللورد كتشنر.. فهو متواضع وراقٍ وحازم وهادئ الطباع، عكس الصورة التي هيأها له خولي بأنه وحش كاسر. حتى إنه تكاسل عن نقل أي معلومات يسمعها في اجتماعات كتشنر مع القواد الإنجليز إلى خاله وجمعيته. لم يكن فيها ما يثير الاهتمام بأي حال. مجرد شؤون إجرائية. اجتماعات مع حكمدار القاهرة أو أو مؤسسي الجمعيات الأهلية، خطابات رسمية تأتيه من الوزارات ومن الخارج، وبعض اللقاءات العاصفة مع أعضاء الجمعية التشريعية -التي فهم أنها تحل محل البرلمان- الذين يشكون من دورهم الصوري في الحياة السياسية.

دخل عليه مأجوج بابتسامة صفراء: «هذا يوم سعدك يا فذلوك. لدى سيادة اللورد ضيف هام فانهب لترى ماذا يشرب. لقد طلبك

بالاسم». ذلك حدث فريد. باستثناء زيارة المحفل الماسوني، لم يحدث أن قام كوش بخدمة اللورد مباشرة في وجود خادميه. توجه كوش نحو المكتب وهو مستغرب من تلك الحفاوة التي أبداهها العبد. من المنطقي أن يكون أكثر ضيقًا من احتلال كوش لمكانة لم يكن أحد يتمتع بها غيرهما حتى اليوم. تناسى كوش قلقه في فورة حماسه لوضعه الجديد. ربما الآن يجد شيئًا يخبره لخاله.

حين دخل المكتب وجد رجلًا بديئًا ربما على مشارف الخمسين يجلس أمام كتشنر. بطنه العظيمة تبدأ من منتصف صدره في بروز هائل. شعر رأسه موصول بجانبه وجهه عبر فؤديه المشعثين. حاجباه الكثيفان كلون شعره بلون ترابي ما بين الأشيب والرمادي المتسخ. عيناه الجاحظتان أكثر عينين أربعتا كوش في حياته.

فجأة.. تحرك الكراث والفول من وجبة الإفطار في فورة عارمة داخل بطنه. ودون أن يملك التحكم بالأمر الذي حدث بسرعة فاقت قدرته على التحكم، دخل كوش في نوبة فساء عنيفة. حمد الله أنها تخرج في سلام دون صوت أو رائحة بينما يرسم ابتسامة عريضة تخفي المعركة حامية الوطيس التي تدور داخل أمعائه.

ستكون هذه أولى نوبات الفساء الفجائية التي تنتابه كلما وقعت عيناه على شخص لا يحبه أو يتوجس منه شراً.. واحدة من قدرات كوش العجيبة التي لم يجد لها تفسيرًا طوال حياته.

«تعال يا كو. هذا هو الدكتور بلاكويل. إنه طبيب وعالم طبيعة أمريكي لامع وواحد من أعز أصدقائي. سيقوم معنا بعض الوقت ولذلك أرجو أن تعد له غرفة الضيوف وتحرص على تلبية كل

احتياجاته. أعلم كم قد تكون فضوليًا يا كو، والحقيقة هي أن سيادة الدكتور قارئ ممتاز لتاريخ الزوج الممتد في كافة أرجاء القارة وسيمتعك الحديث معه، ولكن أرجوك لا تسبب له الصداق.. إقامته معنا ستكون خدمةً جليلاً للعلم ويجب أن نفخر جميعاً بأنه اختار مصر وجهةً لأبحاثه الجديدة!»

أحنى كوش رأسه لسيدة ثم استدار ناحية الطبيب الذي لم يبادل كوش النظر. عرف أنه الصديق الذي أرسل كتشنر عبديه ليأتيه به.

«كوش يا دكتور واحد من أنبه الزوج الذين قابلتهم في حياتي، وأثق أنه سيكون مفيداً لك في أبحاثك، هذه فرصة ذهبية لك».

نظر الطبيب هذه المرة لكوش من أسفل لأعلى باحتقار ثم ابتسم باقتضاب.

خرج وتوجه للغرفة بصحبة خادمتين وبدأ في الإشراف عليهما. يدق قلبه من الخوف. خاصةً حين يمر عليه يأجوج ومأجوج فينظران له في سخرية. ما السر في وجود ذلك الطبيب هنا؟ لم يُعرَف عن كتشنر حبه للأصدقاء، بل هو مشهور بعزلته حتى الملل. أخبره السائق العجوز أن كرومر كان شغوفاً بالقراءة، بينما غورست كان ميله كله للموسيقى الكلاسيكية، واللنبي اعتاد ترديد الشعر وممارسة الرياضة، أما كتشنر فلم يُعرف عنه اهتمامه بشيء أبداً، فلماذا يتحدث بذلك الحماس عن ذلك الرجل الذي كرهه كوش منذ أول لحظة؟ وماذا كان يعني حين قال إن كوش سيكون مفيداً له في أبحاثه؟

سرعان ما تحولت غرفة الضيف المريب إلى عيادة طبية ومعمل علمي. حقائب الرجل التي حملوها للغرفة ملأى بالحاويات والقوارير الزجاجية والأدوات الطبية وعشرات الكتب. يخرج الطبيب في كل صباح ويعود متأخرًا في المساء.

في أحد الأيام وقف ضابط أمام الممر المؤدي للغرفة ومنع أيًا من الخدم من الاقتراب. «الدكتور يجري تجربة دقيقة ولا يريد إزعاجه». بعد ساعتين خرج يأجوج حاملاً أخاه على كتفه. بدا الآخر في حالة مروعة ويهذي ما بين النوم والإفاقة وظل لأيام بعدها يسير بطريقة مضحكة. لم يجرؤ كوش على سؤالهما عما يحدث ولكنه شعر بضرورة إبلاغه للجمعية، ولكن الرد جاء في الإجازة التالية؛ أن يراقب الوضع ويبلغهم بكل ما هو جديد. «ما علاقتنا نحن بتجارب طبية يجريها طبيب لعين في الدوبارة؟ أين الاجتماعات السرية لكشنر وقائمة زواره؟» قال خولي لكوش في حدة. «أنا أخبركم بالضيوف أولاً بأول، ماذا تظنني كي أحضر مثل تلك الاجتماعات بنفسني؟ كشنر حريص ولا يتحدث أبدًا في وجودي. إنه لا يعق سوى بكلبيه». عاد كوش يومها إلى القصر غاضبًا من ذلك التجاهل الذي قوبلت به هواجشه. قرأ مؤخرًا إحدى الروايات المثيرة التي تركتها له أجاتا قبل مغادرتها، «القضية العجيبة للدكتور جيكل ومستر هايد»، فلعبت الظنون برأسه.

حاول كوش سؤال يأجوج عما دار في تلك التجربة الدقيقة، ولكنه كما توقع قوبل بشخرة عنيفة.

ساعتها قرر توظيف قدراته السحرية ليستطلع الأمر.

بعد انتهاء طقوس الإفطار ونزول كتشنر إلى مكتبه، وكان الطبيب قد غادر مبكرًا بحكم العادة، حمل كوش عدة النظافة المقدسة وتوجه ناحية العيادة المخيفة. يخفي بين طيات ملابسه قاموسه الإنجليزي-العربي السميكة. دخل إلى الغرفة وتشاغل بالتنظيف لبرهة من الوقت. ثم وضع كل شيء جانبا وفتح صناديق الكتب. ألقى نظرة على أحدها الذي بدا الأكثر استخداما. أخرج القاموس وبدأ في ترجمة العنوان. (استفسارات في كلية الإنسان وتطورها) من تأليف فرانسيس جالتون. ماذا بحق الجحيم يعني هذا الكلام؟ بدأ في قلب الصفحات ومطالعتها مستعيئا بقاموسه الأثير.

ما وجده كوش في ذلك الكتاب، وما سيكتشفه في ذلك اليوم حين يسرق ثلاثة كتبٍ أخرى من الغرفة ويعود بها إلى مخدعه ليقتضي ساعات في مطالعتها، أصابه برغبة عنيفة في التقيؤ.

دُون كوش ونقل كل ما استطاع فهمه وترجمته من صفحات تلك الكتب. يكتب استنتاجاته باختصار لاهثًا حتى يسجل وثيقةً يمكنه إيصالها لمن يهمهم الأمر. هل ترسلها الجمعية للخديوي؟ من يمكنه إدراك خطورة هذا الأمر غيره؟ هو وحده من سيفهم ماذا يفعل الطبيب الملعون في هذه البلاد..

«علم تحسين النسل هو فكرة قديمة بدأت في بلاد اليونان وإسبرطة، حين كان يتم التخلص من الأطفال المشوهين الذين لن يكونوا محاربين أقوياء ويُنظر لهم كعالة على المجتمع. توصل السيد

جالتون خبير الإحصاء والرياضيات الفذ -وقريب العالم الشهير داروين- إلى نظرية مفادها أن الانتخاب العرقي يحثم على الأمم المتحضرة تحسين النسل حتى تحافظ على نقاء سلالة الإنسان الكامل، وهو ما يعني بالضرورة تحديد نسل كل من يُظن بهم شبهة الخلل العقلي أو الميل نحو الإجرام. فبهذه الطريقة تضمن عدم استمرار نسلهم الذي يحمل في داخله بذور الفساد والقصور البشري. لقد نجحت الولايات المتحدة في إقرار قانون الإخصاء القسري -والذي تمنع الحكومة بمقتضاه من ترى أنهم فاسدون من الإنجاب. بدأ تطبيق الأمر على المسجونين ونزلاء مستشفيات الأمراض العقلية، ولكن الآن يأتي اتجاه جديد يكشفه العلم الحديث ويرسخ له جالتون: كل هؤلاء الذين ينحدرون من سلالات أفريقية أو غير أوروبية بشكل عام ملعونون بالضعف الجسدي والعقلي، والتأخر الذهني، وقابلية الإصابة بالأمراض والوفاة الناتجة عنها أكثر من ذوي البشرة البيضاء. فكل الدراسات العلمية الحديثة الواردة في الكتب تؤكد أن العبيد الزنوج الذين خضعوا للاختبارات وقياسات المخ غير مؤهلين بأي حال للتحضر أو الارتقاء. والآن، ومع توسع الرقعة الأوروبية في الدول المستعمرة، بات اختلاط الأعراق احتمالاً خطراً، خاصة مع عدم سيطرة الرجال البيض على رغبتهم في التزاوج من نساء المستعمرات، ولذلك تؤكد الدراسات العلمية أن تقليل وإنهاء القدرات الإنجابية لمثل هؤلاء الهمج هو الحل الوحيد حتى يحافظ الجنس الأوروبي الأبيض على نقائه باعتباره أعلى الأجناس ارتقاءً وأكثرها كمالاً، وتقل بذلك أعداد الزنوج والحمير والصفراء الذين يشكلون عبئاً حضارياً على الأوروبيين، وهو ما ستنتج عنه تبعات إيجابية لا حصر لها، ربما يكون أبسطها هو

الحفاظ على قيادة الإنسان للأرض وقهره للأمراض وتقليل العبء الناتج عن تكاثر الكائنات الأقل قدرة والتي تتطلب مزيدًا من الجهد والموارد دونما تقديمها لفائدة تذكر للبشرية».

أعاد كوش الكتب للمكتبة قبل حلول المساء وقلبه يدق بعنف.

لم يحتج إلى الكثير من الذكاء كي يفهم أن الطبيب الأمريكي هو واحد من هؤلاء الذين يجرون أبحاثًا علمية على مختلف الأعراق، وأن زيارته لمصر ضمن جولة أفريقية طويلة ليست إلا لغرض دراسة الجنس المصري. وأن كتشنر يساعده في ذلك، ربما كجزء من خطة أكبر تعدها الإمبراطورية لإخصائهم جميعًا. وماذا عن جراحة مأجوج؟ هل أخصاه حقًا؟ (لم يدرك كوش، وإن كان سيفهم بعد ذلك، أن كلمة الإخصاء لم تكن دقيقة، بل هي عملية تعقيم).

كتب استنتاجه هذا في الورقة أيضًا.

قرر كوش مواصلة عمله بشكلٍ طبيعي. ولكن لم يسعه كلما وقعت عيناه على كتشنر أو الطبيب أو أحد الكلبين سوى أن ينتفض قلبه وثستمار معدته في فورتها العارمة. بالغ في إخفاء مشاعره، وأدرك أنه لن يستطيع الانتظار حتى يوم إجازته. حين استأذن أحد العبدین في إجازة ليزور خاله المريض رفض بشدة ونهره كالعادة. لم يجد كوش حلًا سوى الوثوق في الشخص الوحيد الذي يحترمه في هذا السجن الفاره.

حين أعد الإفطار للسائق العجوز مَرَّرَ له ظرفًا صغيرًا: «اذهب به إلى شبرد وسلّمه لأي من الخدم النوبيين هناك». نظر له السائق في

ارتياح: «مستحيل. إنهم يفتشونني أكثر من أي شخص آخر، ماذا لو عثروا عليه معي؟» حاول كوش طمأنته أن لا شيء خطير في الخطاب، فقط يطلب من خاله إرسال مبلغ من المال لأمر طارئ. ولكن العجوز لم يستجب واعتذر في خجل. عاد كوش به ودشه بين طيات أحد كتبه القليلة منتظرًا يوم إجازته بفارغ الصبر.

أطل يأجوج في مساء اليوم التالي برأسه الكريهة إلى المطبخ: «يريد الدكتور كوبًا من القهوة وآخر من الماء في عيادته».

أعد كوش القهوة وتمنى لو يضع له فيها السم. فكر مليًا لو يفعل ذلك. سمّ الفئران ليس ببعيد عن عدة نظافته. طرد الفكرة من رأسه ورفع القهوة عن الموقد قبل أن تفور. توجه بخطى بطيئة في الممر الطويل. دق الباب ودخل إلى الغرفة المظلمة بتؤدة.

يجلس الطبيب ببطنه الضخمة ورأسه المشعثة وقد خلع نصف ملابسه التي أتى بها للتو من الخارج.. منكفئًا على مكتبه يكتب.. وضع كوش الصينية فوق المنضدة واستدار خارجًا.

«حين أخبرني كتشنر عنك لم أصدق إلا حين سمعتك تتحدث. لغتك الممتازة وما عرفته عن سعة اطلاعك وذكائك لن أنكر آثار فضولي، حتى إنني أرسلت في طلب كتبك لأعرف ما إن كنت فعلاً تحسن القراءة ولا تكتفي بترديد الكلمات الإنجليزية كالبيغاء. حسناً.. أعترف أنني قد تفاجأت.. ربما تكون من أول من رأيت من بني جنسك يتمتع بحس الفهم والمنطق. ليس الزنجي المثقف بأمر جديد، لدينا في أميركا تجار وكثاب وموسيقيون زنوج. ولكن الفريد بالنسبة

لي أن أجد زنجياً أفريقيًا خالصًا يتمتع بمثل قدراتك. اجلس يا بني ودعنا نتحدث قليلاً... في خدمة العلم».

تنسحب الدماء من وجه كوش. يبتلع ريقه بصعوبة بينما يجلس على كرسي في آخر الغرفة وهو يتفادى النظر للكهل الذي ينظر نحوه من خلف نظارته المنزقة على أنفه وحاجباه الكثيفان يظلان نظرتيه.. كم يكره هذا الوجه.

«سأسألك بضعة أسئلة أريد إجابات لها، ولكن قبلاً دعنا نأخذ بعض القياسات. الفرينولوجيا علم مبهر لو كنت تعلم!»

يقوم الطبيب ويضع مرآسا حول رأسه يقيس به حجم جمجمته. في أثناء ذلك يدون الملاحظات ويسأله أسئلة متلاحقة حول الأدب والتاريخ والأفكار المجردة. يهدأ قليلاً حين يجد لهجة الطبيب قد باتت ودية، بل ويبدو مهتماً للغاية بسماع آراء كوش حول مختلف القضايا الأممية. يطرح عليه نفس ما طرحه عليه كتشنر قبلاً حول علاقة النوبيين بالمصريين.

«أنت لم تقرأ التاريخ جيداً. لقد كانوا يحتقرونكم. أنتم بالنسبة لهم أمة من الرقيق. سقوها كوش البائسة. نظر الفراعنة الذين هم سمر أيضاً لكم كعرقٍ أقل مكانة. الأكثر دكانة أقل مكانة. هذه قاعدة الحياة التي يحبها العلم كل يوم ويجب أن تذكرها باستمرار»

يبدأ كوش في التملل في جلسته. ها هو يعود إلى خطابه الكريه. ولكن هذا يزيده إصراراً لا يعلم من أين يأتي..

«ولكننا دُبنا على مدار آلاف السنوات وصرنا واحداً. أنا لا أعرف لنفسي مكاناً آخر غير مصر، ولا أحداً أنتمي له غير المصريين. لماذا

تصرّ حضرتك على أني شيء آخر غير هذا؟»

«هل تعلم ماذا كان مؤرخو الإغريق يسمونكم يا ولد؟ الأثيوبيون.
هل تعلم معنى الكلمة في الإغريقية؟ بالطبع كتبك ومعارفك لم
تخبرك بهذا!»

«بل أعرف..»

«ما هو إذا؟»

يصمت كوش..

«لا تريد أن تقول.. حسنا سأخبرك أنا: ذوو الوجه المحروق. هذا
أنتم يا بني».

«بالنسبة لليونانيين؛ أجدادك!»

يبتسم الطبيب في هدوء بينما يخرج حقنة ثخينة ويغرزها في
ذراع كوش. تبدأ دماؤه في الانسحاب..

«نحن لسنا سوى امتداد لنفس الفكرة التي قدّمها الفراعنة الذين
استعمروا أرضك لأكثر من ألف وخمسمائة سنة. الاستعمار ليس
صناعة الإنسان الأبيض، ولكنه سنة الحياة! وهي سنة وضعها أجداد
من تقول إنك تنتمي لهم اليوم. أرادوا منكم الذهب والعبيد. وأنتم
أردتم الانتماء إليهم أكثر من انتمائكم للبدايين السود والهمج الذين
يزحمون قارتكم دونما فائدة للبشرية. أردتم أن تنتموا للشمال أكثر
من الجنوب، ولذلك كان ترحابكم بالاحتلال بنفس راضية. لأنكم
سقطتم في فخ الهروب الأزلي من الحقيقة العلمية التي تؤكد أنكم
لن تكونوا أبدًا أكثر مما أنتم عليه. محاولتك البائسة أن تكون

مثقّفًا ومتحضّرًا كسادتك تحدّ سافر للطبيعة التي خلقتك وكوّنتك ليس فقط على هذه الصورة.. ولكن بتلك العقلية والقدرة الجسدية والطبيعة النفسية التي تؤهلك كما تؤهل بني جلدتك جميعًا للتبعية والخدمة ولا شيء آخر. هذه ليست نقيصةً فيك. وكما خدم أجدادك الفراعنة من آلاف السنين، اليوم نخدمنا نحن، لا فائدة من مقاومة الفكرة، لا يمكنك أن تقف في وجه العلم. لا يمكنك أن تقف في وجه الطبيعة. العلم هو الحقيقة يا كوش.. والحقيقة تقول إنكم لن تساوونا أبدًا!»

تذكر كوش الكتاب الذي نسيّه الأثري ذو النظارة السمكية في غرفته حين غادر لتل العمارنة..

«والعلم التاريخي هو الذي يقول أيضًا في كتاب المستر واليس بادج أن الأسرة السادسة استعانت بالمحاربين النوبيين كي تحكم قبضتها التي كانت قد بدأت تضعف على أرض مصر في الشمال. وإلهتنا ساتت تحمل السهم رمزًا. نحن سلالة محاربين ولسنا خدمًا فقط. والخدمة حرب يا سيدي.. أنا أحارب نفسي ألا أكرهك في هذه اللحظة!»

دخل ياجوج ومأجوج بغتةً ووقفوا بمنتصف الغرفة. ارتاع كوش لمرآهما وشعر كالفأر المحبوس في المصيدة. طلب منه الطبيب الوقوف، وحين فعل تناول ياجوج أداةً أخرى وبدأ في قياس طوله وأبعاده وإملاء القياسات للطبيب.

«المشكلة في أمثالك أنهم يمثلون استثناءً للقاعدة.. استثناءً قد يكون ضرره بالغًا على المستقبل».

يأتي كوش بحركة مفاجئة.. يهّم بالركض بكل قوته إلى خارج الغرفة، ولكن قبل أن تخطو قدماه خطوة واحدة.. يمسكه العبدان بقبضة من حديد. يبدأ في الصراخ فيضربه أحدهما على وجهه بلكمة عنيفة تدير الدنيا من حوله. يقترب منه الطبيب حاملاً حقنة تقطر في يده بينما يجبره الكلبان على الاستلقاء.

«لا تقلق. ستظل قادرًا على إتمام واجباتك الرجولية..»

الفصل العاشر

الحرب العظمى

(1914-1917)

عاد كوش مرةً أخرى إلى الفندق. يشعر بالحزن لأنه سيعود بتلك السرعة إلى العالم الذي غادره. يعود ناقصًا ومهزومًا، ولكنه وجد بعضًا من السلوى في اللهجة المرحبة للسيد ستيفنسون وبقية العاملين. خاله أخبره أن العودة الآن هي أفضل خيار له ليتمتع بأمان كنف الفندق العظيم، فالعالم جن جنونه خلال الأشهر الماضية، ولن تعود مصر كما كانت لأنها ستكون مرغمةً على دخول الحرب المستعرة حديدًا.

كان كل شيء يتغير في ذلك الربع الأخير من عام 14 حين وضع كوش كتبه المنهكة من الترحال على أرضية غرفته القديمة. في عزله جلس مصدومًا ومذهولًا مما حدث. عادت إليه ذكري الأيام الماضية كابوسًا يخطف أنفاسه كلما تذكره.

استيقظ بعد سباتٍ عميق فوجد نفسه في غرفته وألمٍ بشع يخرق إيلته وخصيتيه وعضوه. نصفه الأسفل بأكمله نازَّ تحترق. بجوار سريريه وجد السائق العجوز جالسًا بعينين يملأهما ندم كفى كوش ليسامحه. الخادمت اليونانيات يطببنه برثاءٍ عميق. أخبرنه أن اللورد كتشنر سافر إلى لندرة في إجازة وأن الحرب قامت في أوروبا وهو هناك فتم استدعاؤه ليصبح وزيرًا للحرب ولن يعود مرةً أخرى. غادر

الطبيب الكريه وكذلك العبدان إلى حيث لا يعلم إلا الله.

ما إن استطاع الوقوف على قدميه حتى لملم حاجياته وأوصله السائق منكسرًا إلى بيته الذي حاول الهروب منه. ارتقى في حجرته وطلب إجازةً لأسبوع قبل مزاولة عمله داخل الفندق الذي تحول بين ليلة وضحاها إلى ما يشبه ثكنة عسكرية كثيفة جراء التغيرات الكثيرة التي فرضتها الحرب على العالم.

حتى يوم مماته لم يخبر كوش أحدًا عما جرى في تلك الليلة الرهيبة.

كبن دول ساعة غرفة الموسيقى راح بلد كوش الحزين يتأرجح بين قوتين تريدان استغلالها في حربٍ ليست لها منها طائل ولا مصلحة: العثمانيون والإنجليز. وفي أغسطس من عام 14 أتى بيان الحكومة واضحًا باعتبار الألمان ورعاياهم أعداءً للخديوية المصرية. ثم صدر قرار آخر ليصبح ذلك منسحبًا على الهنغاريين والنمساوية. استدعى ذلك اجتماعًا طارئًا مع طاقم الفندق أكد فيه ستيفنسون أن كل ضيوف الفندق سواسية وسيلقون ذات المعاملة، وعلى من لا يرغب في وجود أي منهم أن يأتي ويقبض عليهم، وساعتها لن يصبحوا مشكلة شبرد. أعقب ذلك طلبه المريك بحصر كامل لكافة الضيوف من تلك الدول الثلاث ولا مانع من إبقاء الأعين عليهم في حال قاموا بأي شيء يثير القلق ويعرّك صفو الأمن.

فهم كوش من نقاشات أفراد الجماعة الكثيرة، ومن مقالات «الشعب» و«الجريدة»، ضرورة تأكيد مصر التي تتبع رسميًا الدولة

العثمانية ولاءها لتلك الإمبراطورية الإسلامية المجيدة ومشاركتها الحرب، وبالتالي يصبح الألمان -حلفاء الدولة العثمانية- أصدقاءها والإنجليز أعداءها. لكن في نفس الوقت الإنجليز يحتلون مصر، ويتوقعون منها أن تدين لهم، رغماً عنها، بالولاء أيضاً، وهو ما قد يحمل خيراً للبلاد إذا ما وقفت بجانبهم وربما تحصل على استقلالها في القريب.. وهنا كانت المعضلة.

أعلن القائد الإنجليزي الأحكام العرفية قبل نهاية العام بشهرين، مؤكداً أن وجود الجيش الإنجليزي بالقطر المصري يستدعي أخذ الاحتياطات خوفاً من الهجوم على مصر لهذا المسوغ، ولذلك تم إعلان مصر محمية بريطانية طوال مدة الحرب. كاد الخال يصفع أحد الشبان الصغار الذي أتى راكضاً بجريدة الوقائع المصرية ليخبرهم فرحاً بتحرر مصر من التبعية العثمانية المقيتة وأنها صارت الآن في حماية ملك إنجلترا: «لن يصيبنا سوء بعد اليوم وسنصبح قطعة من أوروبا!». ولكن خولي ركله في مؤخرته وحكم عليه بأن يبقى داخل الإسطنبول يسبح في روث الخيول حتى تنتهي الحرب ليطبق الإنجليز حمايتهم على «مؤخرتك التي سأنتهكها بنفسي يا ابن الجاهلة».

ليلة تلك الجمعة يوم الثامن عشر من ديسمبر جلس الجميع واجمين وكأنهم في عزاء الأمة المصرية. (الحماية) لفظ يحمل مائة معنى، واستغرق مئات السجائر والكثير من الشجار الذي كاد صوته يصل إلى الضيوف بأعلى حول ما تعنيه تلك الكلمة العجيبة ودلالاتها، وهل يسكت السلطان محمد على هذا العبث؟ وما قول الحزب الوطني فيما قاله تشييتهم البليد؟ وهل تنتهي تلك الحماية بنهاية الحرب؟ وحماية من ممن؟ إنها حماية مصالحهم ولا شك وحجة

لبقائهم للأبد. «متى كان شيء يعود إلى حاله في تلك البلاد» قال الخال بلهجته الحكيمة بلا علامة استفهام.

«إنهم لن يستطيعوا حماية فرج الملكة ماري لو وكلوني أمر هذه البلاد اللعينة» قال خولي وهو يقذف بفوطته من فوق كتفه على الأرض. وقف الخال وزعق منهيا اللغط الدائر والأحاديث المرتبكة والهمهمات التي سرت عبر المطبخ: «ليس هذا وقت الانفعال. ما نحتاجه الآن أكثر من أي وقت مضى هو استيعاب أن المعركة باتت أكثر شراسة. بقبول تلك الحماية اللعينة يكون الأتراك قد تخلوا عنا وبتنا وحدنا. سندفع جميعنا الثمن، فقد غرز الوحش أسنانه في لحمنا ولن يفلت فكه عنا سوى بالدماء، وبيدنا فقط يتقرر مصيرنا. غدا نرى ما تقوله «الشعب» ونعرف منها خطوتنا القادمة..»

أطرق الجميع رؤوسهم في وجوم. وهو وجوم ازداد كآبة بالأخص على كوش حين صدر قرار آخر في اليوم التالي مباشرة بخلع خديويه الأثير عباس عن الحكم وتعيين سلطان عجوز اسمه حسين كامل أحد أبناء إسماعيل.. منحوه لقب السلطان للتأكيد على استقلالية مصر وعدم تبعيتها للعثمانيين. «ألا يزال أبناء المديون على قيد الحياة ويتقلدون السلطنة؟» قال مساعد الطباخ وهو يغرف لهم طعام العشاء. غاص قلب كوش وهو يتذكر مرآه للرجل الذي جلس على عرش مصر الهوائي طوال اثنين وعشرين عامًا رآه منها كوش ساعة وهو يلقي روزفلت درسا لن ينساه.

بدوا جميعًا كالموتى وهم يسرون مهدي الكرامة، مجبرين على

خدمة سادة إنجليز في إفطار اليوم التالي- وسط شتاء ديسمبر البارد لتلك السنة السوداء- وهم يعلمون كيف عزّلت إمبراطوريتهم خديويًا وعينت سلطانًا على بلادهم الكرتونية بكل صلف وسهولة الآن وقد باتت بلادهم محمية كقطعة أرض يمتلكها ثريّ بمن يسكن عليها. كل ما يعرفه كوش عن السلطان الجديد هو اسمه الذي ورد أكثر من مرة في أخبار تخص أنشطة الجمعية الزراعية التي أعطاهها جل وقته واهتمامه. «إننا نعيش مسرحية أشد تراجيدية من أوديب» قال كوش. ولكن أحدًا لم يعره اهتمامًا أو يبادلّه برد. سكت وعاد إلى تلميع شمعدان غرفة الموسيقى وهو يتعرق في حنق.

وبسرعة كانت الأحوال داخل الفندق تتبدل يومًا تلو الآخر أمام أعين كوش: العسكريون الإنجليز بملابسهم الرسمية يملؤون بهو الفندق كل يوم أكثر من سابقه. زملاء الفنادق الأخرى اشتكوا من ثكنات الأستراليين الفوضوية التي باتت تجاورهم، وأصبحوا مرغمين على إطعامهم عدة مرات في كل يوم. حدث ذلك بين ليلة وضحاها بجوار فنادق المينا هاوس والجزيرة بالاس وهليوبوليس بالاس وحتى الفندق الألماني بحلوان، والذي كان الضباط يطعمون أكله للكلاب خشية قيام السيد فرانتز صاحب الفندق بتسميمهم، وفي النهاية تخلصوا من المشكلة برمتها بإغلاق الفندق والقبض على صاحبه. باتت الأجواء أكثر كآبة والحفلات المسائية ملأى بالضباط المخمورين العائدين من الجبهة. حتى حفل رأس سنة 15 لم يكن بالبهجة التي اعتادها كوش، وقامت عركتان أو ثلاث بين ضباط مخمورين في تلك الليلة إثر نقاش حاد.

على مدار أشهر عام 15 حملت الجرائد وأحاديث العاملين في

بيوت الكبار في اجتماع ليلة الخميس لمحاتٍ عما يدور بالخارج: الأسعار الجنونية، وفرق الهجانة التي تجمعت على ضفاف القناة لغزو سيناء وإرجاعها للعثمانيين، وامتنال السلطان كامل الكامل لتدخل المندوب السامي الذي عينه وأرغمه دون قهر على عدم تحريك تلك القوات. كذلك تحدثوا عن تعطيل الدراسة، وشائعات التجنيد القسري وإرسال الرجال إلى الجبهة. أتت الأخبار من أحد معاوني النظافة القادم من الغربية أنهم يجمعون الفلاحين بالكرباج ويرسلونهم أفواجا إلى أوروبا ليعملوا هناك في خدمة الموانئ الحربية والثكنات العسكرية على خط النار، كما حكى مورد البن للخال أنه حين كان يفرغ حمولة السفينة في ميناء بورسعيد وجد فرطاقات ضخمة تحمل مئات الجنود الهنود الذين لم ير مثلهم من قبل.. بذقون تصل إلى منتصف صدورهم وعمائم حمراء كتلك التي تلف النساء بها شعورهن في الحمامات البلدية. أرسلهم الإنجليز من بلاد الهند كي يحموا القناة من أي قلاقل إسلامية. «هذا ما ينقصنا.. هنود كفار أيضًا» قال خولي لنفسه وهو يعرض على سيجارته ويطالع الجريدة. لاحظ كوش أنه بدأ يكبر في السن ويزداد سخطا مع الأيام. بدأت أخبار معارك جبهة السويس تصل كل يوم إما عبر البرق أو الألسنة، خاصة عن ملازم المدفعية الذي مات في مشهد من العبث المجنون وسط جنود من الشيخ في معركة جبرية ضد الأتراك المسلمين. توالى أخبار معارك أخرى في مطروح ضد قبائل الليبيين ومثلها في دارفور السودانية. بدت الحدود جميعها مشتعلة في عبثية غير مفهومة.

وسط كل هذا واصل الجميع عملهم في هدوء واتزان مع تذكير

السيد ستيفنسون لهم صبيحة كل يوم بأن الفندق هو الواحة التي ستعبر من خلالها أسود أيام العالم دون أن تمسها، ودورهم جميعًا هو حماية ذلك الصرح من أن تلوثه شرور الزمن الحاضر. فقط يوم أتاه خبر موت أخيه الأصغر مع كتشنر فوق الباخرة التي اصطدمت بلغم ألماني قبالة سواحل روسيا سمح ستيفنسون للظلام أن يخيم على الفندق وخرجت دموعه الطيبة بينما يصب أقذع اللعنات على الألمان. ألمهم مصابه جميعًا، ولكن كوش كاد يطير فرحًا من مقتل الكهل البريطاني الحقيق وتمنى لو كان اصطحب كلبه معه على الباخرة.

في تلك الأيام المشحونة بالقلق والخوف ظل كوش يتابع قضية أخرى لا تقل خطورة- بالنسبة له- عبر صفحات الجرائد.

ظل مترددًا حيال ما يجب عليه فعله تجاه ذلك الأمر، مشوبًا بمزيج من الفضول والتردد والحنين. إلى أن اجتاحه في أحد الأيام شعور بالملل فقرر الخروج مع مغيب الشمس ليتجول في القاهرة قليلًا.

ولكنه لم يسر في الشوارع بغير هدى.

طفق يبحث عن عنوان سكن صديق قديم علم به من الجرائد.. صديق كان مسافرًا وعاد، ويغالب شعوره بالفخر تجاهه شعوره بالمرارة.. أراد تهنئته وتجاذب أطراف الحديث معه... وربما يستعيدان ذكريات الطفولة إن كان صاحبه لا يزال يذكر.

صعد السلم الحجري ببطء وتردد تشوبه حماسة طفولية. وجد باب الشقة مفتوحًا على مصراعيه. يقابله صخب باب الشقة بينما

يخرج منه ويدخل الكثيرون. لا يسأله أحد إلى أين هو ذاهب. صالة استقبال كبيرة تناثر في أرجائها عدد من الرجال وبعض النسوة المتأنقات. بعضهم يمسك بأقلام الرصاص ودفاتر صغيرة. بعضهم يرتدي قبعات وآخرون طرابيش، وكلهم بلا استثناء واحد يرتدون بذلات كاملة. عبر كوش بينهم وكأنه شبح لا مرئي. لا أحد يلتفت إليه أو يكلمه. سار في ممر طويل تأتي منه أصوات متداخلة حتى وصل إلى مكتب مزدحم عن آخره. وهناك وجده. يتوسط ثلة من الصحفيين المنكبين حوله يدونون كل كلمة يقولها. على شفتيه ابتسامة لا إرادية يذكرها كوش جيدًا. يرتدي الآن نظارة سوداء. ازداد صوته رزانة وباتت مخارج حروفه أكثر تفخيماً.

استند كوش على الباب بمرفقه وراقب المشهد في فخر لا تشوبه ذرة حسد.

«ولكن يا دكتور حضرتك الآن ماذا تجني من هجومك الدائم على الأزهر؟ لقد منحتك تلك المؤسسة تعليمًا أهلك للانضمام إلى الجامعة المصرية، والآن يقطعون بأن انضمامك للجامعة الفرنسية يجعلك تنحو نحو التغريب وتشن حربًا على الدين!»

«يا صديقي العزيز. ليس انتقاد المؤسسة التعليمية بمساس من الدين في الشيء. إن طريق الإصلاح لن يبدأ سوى بنقد ونقض طرقنا القديمة التي تلقي بنا سنوات إلى الوراء. وإذا كان السادة الأفاضل يعترضون على انضمامي لجامعة السربون، ومن قبلها جامعتنا الأهلية، فليس هذا بغريب عليهم، فهم يرون كل مؤسسة غير مؤسستهم غير جديرة بالتقدير».

«وهم الآن يسعون إلى منعك من العودة واستكمال درجتك العلمية».

«هذا قدر من يريدون الإصلاح في هذا البلد».

«ماذا ستفعل حيال توقف منحتك الدراسية؟ هل تتراجع عما كتبته منذ عودتك؟»

«كما قلت لك. هذا قدر من يريد التغيير. ولكن ما نفع كوني أول خريج الجامعة، أول الحاصلين على الماجستير والدكتوراه، وأول المرشحين المصريين للحصول على دكتوراه من جامعة أجنبية، إن لم يعد كل ذلك بما أراه خيرًا وتنويرًا على وطني؟»

امتدت يد إلى ذراع كوش فأخرجته من شروده:

«يا أخ... كوب شاي بعد إذنك وأكرمني في السكر».

نظر كوش للصحفي ذي الشارب الرفيع بتعجب دون فهم.

«أنا لا...»

ولكن الرجل تركه بغتة راکضًا نحو الشاب الكفيف رافعًا يده وطالبًا السؤال.

بعد مرور بعض الوقت وعشرات الأسئلة بدأ الجمع ينفض. ارتبك كوش وتساءل عما يجب عليه فعله الآن. تقدم ببطء نحو صديقه القديم الذي أطرق نحو الأرض صامتًا وكأنما يفكر بعمق خلف نظارته الداكنة. وقف بجانبه قليلًا دون قول شيء. بعد برهة رفع الشاب رأسه فجأة وتلفت حوله ناظرًا لأعلى.

«من أين تأتي تلك الريح الطيبة؟ ليست بغريبة!»

«لازلت تخشى استخدام الملعقة؟»

«يا الله... إنه أنت يا كوش!»

انتفض طه واقفًا واحتضن صديق طفولته في سلام حار. جرت بينهما الأسئلة المستعجلة حول كل ما سبق من حياتيهما. سأله كوش عن فرنسا واستفسر طه عن كل ما قرأه صديقه النوبي منذ أن غادره. أعرب عن ندمه على اختفائه المفاجئ وانقطاعه عنه كل تلك السنوات. برر موقفه بصعوبة التواصل وانغماسه في عالم الجامعة الجديد. بدا سعيدًا حين عرف أن كوش وسع قراءاته لتتخطى كتب التراث التي بدأ بها، وأنه تعلم الإنجليزية على يد فتاة لا بد أن صوت كوش وهو يحكي عنها قد فضح مشاعره حيالها. سأله إن قرأ شيئًا من أعمال الفرنسيين، ولكن قليلًا منها قد تُرجم، عدا مغامرات روكامبول التي تحدث عنها كوش بحماس شديد مما أضحك صديقه القديم بصوت مرتفع. توالى أكواب الشاي والقهوة التي قدمها خادم عجوز يرتدي مثلما يرتدي كوش أثناء عمله. تذكر حين رآه الصحفي الذي طلب منه إعداد الشاي. لم فعل ذلك؟ لم يكن يرتدي ثياب العمل بل جلبابًا نظيفًا وعليه صديرية خفيفة وطربوشه الأثير. هل يبدو عليه أنه يعمل بالخدمة لتلك الدرجة؟

«والآن ها أنا أعود بسبب الحرب الملعونة، ولأن مَعين السلطنة المصرية قد نضب ولم يعد يكفي مصروفاتي التي لا بد وثقلت عليهم».

«ولكن حتمًا لا بد من حل. تفخر بك الصحف نموذجًا للتحدي

وقدوة لكل طالب علم مصري ولمصر الجديدة. لم يحقق أحد ما حققته... خاصة وأنت...»

سكت كوش خجلًا دون إتمام عبارته.

«نعم. ربما يكون كف بصري قد أعطى قيمة لا أريبتها لمنجزي.. حتى أنت يا صديقي العزيز لا تنكفئ ترى إعاقتي.. ولكني أبغي استحقاق ما أفوز به في تلك الحياة.. لا لأنني كفيف يستحق الشفقة.. ولكن لأن لدي عقلًا أحترمه وأؤثر تسخيرته لمعركة النور. أتذكرها؟»

«يبدو أنك لم تنس شيئًا مما قاسيته يا طه..»

«ولم أزل على العهد...»

«ألا تسامح؟ أنت الآن عَلم».

«وهم يكرهون ذلك. لا علاقة للمسامحة بالأمر. يومًا ما ستفهم. لا يزال الطريق طويلًا يا صديقي الطيب».

«أنا فخور بك. وأنت حتمًا ستعود لنا بشهادتك الفرنسية وتنسانا».

«لا أدري إن كان ذلك قابلًا للتحقق الآن. أرباب العمام يفضلون إبقائي بجانبكم بعضًا من الوقت، ولا ندري متى تضع هذه الحرب أوزارها وتعود حركة الأمور إلى طبيعتها».

«ألا يوجد أي حل لتلك المعضلة؟».

«كل يوم يقترح علي المقربون حلولًا ولكني لن أستجدي أحدًا. إن لم يكن ما حققته حتى الآن كافيًا بأن يضمن لي الدعم فلا طائل من وراء أي شيء. لن أطلب من إنسان الإشفاق علي».

«إنك لا تطلب ما دون حقك...أنت تستحق!»

«قل لهم هذا!»

صمت كوش مهمومًا ومنزعجًا مما عرفه عن صديقه. تعجب كيف تفشل مصر في إعانة صديقه على البقاء عاقًا أو عامين آخرين في تلك البلاد البعيدة كي يحقق إنجازًا غير مسبوق. ربما تسرع طه في مقالاته التي أملاها للجرائد وسخر فيها من أساليب الأزهر والمعممين. ولكنه لطالما حمل تلك المرارة بداخله، وبدأ أنه حين حقق شيئًا يستند إليه ويسلّط عليه ضوءًا أول ما فُكّر فيه هو رد الصاع لهم بما يحمله من مرارة، متخفيًا وراء ستار إيمانه الصادق بما أسماه معركة التنوير، والتي لا تزال تتشكل بعد في وجدان المفكر الصغير. ولكن الآن بات كل شيء مهددًا بذلك الموقف الذي وقع فيه صديقه القديم.

«هل تذكر فرتر يا كوش؟»

«وكيف لي أن أنساه؟»

«هل تعلم ذلك الشعور الوجداني الذي داهم كلينا حين قرأناه أول مرة؟ تلك الرغبة الرومانسية في إنهاء حياتنا على أعتاب الحب اليائس؟ أتتخيل يا صديقي أنني قرأت بحثًا يقول بأن مئات الشبان في عهد جوتة وبعده أقدموا على الانتحار حين قرأوا تلك الرواية! مئات السنوات مرت ولا يزال ذلك العمل الأدبي يترك ذات الشعور في نفس من يقرؤه مهما اختلفت الأزمان! ألا يخبرك هذا بشيء عن الأدب العظيم وقدرته على توحيد الإنسان في كل زمان ومكان؟»

قطع حديثهما دخول شاب أزهري مرح سلّم على كوش بحماسة

متقدة.

«مرحبًا شيخ علي. فأتتك النسوة الحسان وأرباب الصحافة
الثرثرة».

قدم طه كوش إلى صديقه باعتباره رفيق الصبا وصاحب عقل
نابه، أما الشاب الأزهري فقال عنه طه ضاحكًا لكوش: «لا تغرّك عمّة
الشيخ علي عبد الرازق يا كوش فإنه أوروبّي القلب وطويل اللسان».
شعر كوش أن موعد إنهاء زيارته قد حان. سلّم على صديقه الذي
أمسك بذراعه بقبضة فولاذية وأقسم عليه أن يزوره مرةً أخرى.

«ربما في المرة القادمة تصحبني لتسكع قليلًا في شوارع الحسين
ونأكل التين والبسبوسة!»

وعده كوش بذلك، وعاد من فوره إلى الفندق.

واصل التمتع بإجازته طوال اليوم مقضيًا إياها في قراءة
مخطوطة كتاب أهداه إليه طه: ترجمته الخاصة لإحدى أعمال
راسين. حين أتى موعد العشاء نزل إلى المطبخ وجلس مع طاقم
الخدمة بأكمله... يترأس طاولتهم الطويلة خاله المبجل. حين فرغوا
من الطعام ثم الشاي والقهوة والتدخين عاد معظمهم إلى مخدعه.
استفرد كوش بخاله وخولي واثنين من أعضاء الحركة السرية.

- لذي أمر مُلِح أرجو أن تعينوني عليه...

باتت شرفة الفندق محطة تسلية لضيوفه.. يراقبون منها المواكب
العسكرية والجنود المدججين بالسلاح بينما ينتقلون من إحدى

أحياء القاهرة إلى أخرى. كل يوم يقيم الإنجليز معسكرًا جديدًا وكأن مصر ستتحول فجأة إلى ساحة معركة في الحرب العظيمة. حين كان كوش يضع عصير الليمون الساخن في صبيحة إحدى الأيام المشمسة من مارس سنة 15 توقف ونظر مع الناظرين إلى السيارات العسكرية التي توقفت أمام الفندق ونزل منها ضابط أجنبي عريض وحوله جنود في ستراتهم الغامقة. توجه الضابط إلى الداخل وطلب مقابلة المدير على الفور. استقبله ستيفنسون في مكتبه بينما وقف الخال في اعتزازه الأبدي دون أن ينظر نحوهما.

الضابط أسترالي ولكنه ثقيلة وصلافة عجيبة. كلامه مباشر ودون تورية. قدم ورقة لستيفنسون وهو يتحدث في حزم ملول: «بأمر من القائد العسكري ستقوم بتسليمنا إحدى قاعات الفندق لتحويله إلى مستشفى ميداني لاستقبال الجرحى العائدين من معارك السويس وغيرها من الجبهات. يرافقني هنا رؤساء مستشفى قصر العيني ومدرسة الطب. سيمدونك بما تحتاجه. سأمنحك ثلاثة أيام على الأكثر لتوفيق أوضاعك، ومن بداية الأسبوع القادم نوفد المرضى إلى هنا، وسيكون المستشفى تحت قيادتي مباشرة».

أخذت الجميع المفاجأة جراء تلك الزيارة، ولكن الحرب الدائرة في الخارج لم تمهل أحدًا فرصة للتفكير. بعد مغادرة الضابط أمسك السيد ستيفنسون رأسه بيديه مطرقًا: «أظن أنني لم أكن لأرجئ سقوط الحصن أكثر من هذا». بسرعة تم تخصيص قاعة الرقص الكبرى لتصبح مقر المستشفى الميداني. أزال العاملون تماثيل فينوس وإيزيس الرخامية بعناية فائقة ونقلوها إلى قاعات الطعام والموسيقى. أزيلت الستائر الضخمة التي امتدت من سقف الغرفة

إلى الأرض لتكشف عن النوافذ المربعة الصغيرة التي تمنح المكان إحساسًا هائلًا بالاتساع. قاموا بنقل البيانو أيضًا وفك خشبة المسرح الصغير الذي اعتادت فرق الجاز العزف فوقه، ولكن تم الإبقاء على لوحات كورنر وفريير العملاقة لتذكر الجرحى في أي أرض يعالجون. حين جردوا القاعة من كل ما تملك من معالم البهجة والرقى بدت كصحراء حزينة مهياة لاستقبال الألم والدم، وبدلاً من أن تتردد في جنباتها أنغام الترامبيت وديب الراقصين المرح باتت مستعدة لزمن لا نهائي من الأثين.

ما إن رصت الأسرة حتى بات كل شيء جاهزًا. هم الإدارة الرئيسي ألا ينزعج رواد الفندق من الترتيب الجديد. بالطبع تفهم كل الزوار الأمر، فمعظمهم إما له علاقة بالحرب أو مستفيد منها، وبالتالي لم يشك أحدهم أبدًا من سيارات الإسعاف التي تسد المدخل، أو الجنود الداخلين الخارجين ومرأى الجرحى المؤلم. شاع التضامن بين مختلف الأوروبيين المقيمين بالفندق بروح الانسجام والوحدة طالما كانوا حلفاء على نفس الجبهة.. تجمعهم المصلحة المشتركة والمصير الواحد.

أعجب كوش بروح التكاتف الهادئ تلك. الكل يقوم بدوره ويتعد عن طريق الآخر حتى لا يعطله.

تسلم البريجدير كولينز المستشفى، وجعل لنفسه غرفة إقامة دائمة داخل الفندق. كذلك كلف كوش وسليمان الأبله بإعداد غرفتين لطبيين مناوبين أحدهما مصري والثاني إنجليزي. أما الغرفة

العائلة فكانت ستخصص لكبيرة الممرضات التي ستسكن وحدها، وسيخصص جناح بأكمله لخمس ممرضات أخريات سيأتين تباغًا.

تم تكليف كوش لإجاده الإنجليزية وبعض الإيطالية كي يلزم المستشفى، وأعفي من واجباته الفندقية كاملةً. تتلخص مهامه في تلبية احتياجات الطاقم الطبي والعسكري، وأن يكون همزة الوصل بينهم وبين الإدارة، ويشرف على فريق النظافة ويضمن تطبيق أعلى معايير النظافة والتعقيم، خاصةً في الأدوات الطبية وملابس المرضى والملاءات التي أوصى الدكتور حلمي بغسلها عند درجة الغليان. كذلك سيساعد في حراسة مخزن الأدوية الذي يحتوي على كم ليس بالهين من المورفين والهروين وغيرها من المسكنات والمهدئات القوية.

الدكتور حلمي كهل في الخمسين بشارب مشذب وجسد ممتلئ يتحرك بتؤدة ورزانة. تجاذب أطراف الحديث مع كوش منذ قدومه إلى الفندق وكالعادة أعجب كثيرًا بعقافته وحسن اطلاعه. في جلسات الراحة من رعاية المرضى، وبينما يدخن السجائر البنية الرفيعة، أخبر كوش أنه يسكن بالسيدة زينب، ولديه ابنة واحدة هي كل حياته، وحكى له عن مغامراته حين خدم في السودان بصحبة الجيش. الحال كذلك مع الطبيب الإنجليزي ولكن بدرجة أقل من الحميمية.. فالرجل المسن الذي تجاوز منتصف الستين لديه مشكلة واضحة مع الشراب، وكثيرًا ما ظهر متأخرًا وسط مناوبته المسائية مخمورًا. أما كبيرة الممرضات فراهبة إيطالية من الإسكندرية تتحدث العربية بشكلٍ مضحك، في غاية الحزم مع الممرضات وغاية اللطف مع المرضى.

بدأ توافد المرضى على الفور عبر قوافل طبية وعسكرية ما انفكت تظهر كل يوم حاملة بعضهم على مشدات أو فوق أسرة متنقلة. لم تكن إصابة كثيرين منهم خطيرة، معظمها ارتجاجات في الدماغ أو صدمات جراء القتال. بعضهم فقد سمعه من أصوات القنابل أو بصره نتيجة شظيات اخترقت الجمجمة. حين وقعت عينا كوش لأول مرة على أحد الشبان الهنود بُترت ذراعه اشمازت نفسه وتآلم بشكل لم يفهمه.

ظن كوش أن تلك الأشهر الأولى رأى فيها كل شيء، ولكنه لم يكن يعلم بعد ماذا سيأتي.

تغلب فضول كوش عليه في الأيام الأولى وبات يسأل الدكتور حلمي بإلحاح حول كافة المسائل الطبية، ويتابعه في عمله، ويفهم ما يقوم به، ويستفسر منه بالتفصيل عن آثار مختلف الأدوية، وأيها أنسب لأي حالة. أيضًا ظل يراقب عن كثب ما تقوم به الممرضات، وتعلم منهن قياس المؤشرات الحيوية، وإعطاء الحقن، وتعليق المحاليل الطبية، وتركيب الأدوية البسيطة لحموضة المعدة وتسكين الآلام العرضية. تفتتح أمام كوش طاقة جديدة من المعرفة العلمية ليس مصدرها الكتب أو علماء تحسين النسل الكريهين، بل مجال من الممارسة العملية المحضة التي مكنته من رؤية أثر صنعة يديه على الفور في تخفيف ألم إنسان.

في صبيحة إحدى أيام أواخر عام 15 اجتمع دكتور حلمي بالطاقم

الطبي والخدمي وانتحى بهم جانبًا في آخر العنبر ليطلعهم على نبأ هام: اليوم يصل بالباخرة وعبر الإسكندرية جندي إيطالي أصيب إصابةً بالغة بإحدى المعارك على الجبهة النمساوية. سيكون مريضهم الأول من خارج الجبهات المحيطة بمصر. أرسلت القيادة الحربية بلاغًا إلى كولينز والذي أرسله بدوره للطبيب تطلب فيه إيلاء أكبر قدر من العناية النفسية والجسدية للجندي المصاب، وتحذر أن مرآه لن يكون سهلًا على الأعين، إذ جاءت جل إصابته في وجهه «ولكنه خضع لعمليات إعجازية على يد الجراح الشهير السير هارولد جيليز قد تمنحه أملًا جديدًا، ولذلك توليه حكومتنا اهتمامًا خاصًا كلفتة إنسانية تجاه حليفنا إيطاليا». حذر الخطاب أيضًا من نوبات عصبية تصيب الجندي ريكاردو. وأخيرًا نصحت القيادة بأن يتم عزله بعيدًا عن بقية المرضى إن أمكن حتى لا تحطم هيئته معنوياتهم.

قابل الطاقم كل هذا بصمت، ثم بدأوا في نصب هيكل معدني غطوه بساتر أبيض حول السرير الذي سيرقد عليه. ستتولى ماريا العناية به لخبرتها وإجادتها الإيطالية، والتي سيستغلها كوش طوال فترة الحرب لتواصل تعليمه لغتها الموسيقية التي بدأ في تحصيلها منذ سنواتٍ قليلة.

وصل الموكب الصغير في وقت متأخر من الليل. وقفت السيارة وكان في استقبالها عند باب الباحة الخلفية للفندق كلا الطبيبين وكبيرة الممرضات وكوش. نزل شاب بجسد ضئيل ماذًا عكازه أمامه. رأسه محاطةً بأكملها بضمادة طبية لا تظهر منها سوى عين واحدة مذعورة. رحب به الطبيب الإنجليزي وبمرافقه العسكري الذي فتح له الباب. حمل المرافق حقيبته وسلمها لكوش.

لم يرد الشاب النحيل الذي عبرهم ببطء شديد رافعًا قدمه المصابة عن الأرض دون الالتفات لأحد. نظروا لبعضهم البعض في استفهام، وكانت ماريا هي أول من تحرك نحوه.. مالت عليه بحنو بالغ آخذة ذراعه بيدها بينما تتمتم بكلمات خافتة في أذنه وهما يبتعدان.

في صباح اليوم التالي - وفقًا لإرشادات السير جيليز- كان يتعين تغيير الضمادة. وقفت ماريا بجانب السرير الذي رقد عليه المريض الغامض وبجوارها الدكتور حلمي - فوت الطبيب السكير رؤية الإعجاز الطبي القادم من أوروبا لأنه نام متأخرًا- وممرضة أخرى بينما وقف كوش في آخر الجمع. تأكد من إحاطة السرير بالسواتر وعدم استراق أي من المرضى النظر للداخل. حملت الممرضة الغيارات النظيفة بينما أمسك بكيس ورقي لتلقى فيه الضمادة المستخدمة. الجميع في حالة صمت كامل لا تقطعه سوى كلمات د. حلمي الهادئة حين يطلب مقصًا أو مبضعًا. رويدًا رويدًا بدأ الرباط في الانفكاك حتى أزاله الطبيب.

حين رأى كوش وجه العريف ريكاردو عرف أنه لن ينظر للعالم أبدًا كما اعتاد من قبل، وأن البشاعة الإنسانية التي غفل عن وجودها في غياهب خياله البريء تتجسد الآن أمام ناظريه في هيئة لن ينساها طوال حياته.

تدور عينٌ عارية من الجفن في مقلتها وكأنها تبحث عن ذبابة تحوم. مكان العين الأخرى مغطى برقعة جلدية بشرية تملؤها التقرحات وتتماوه مع جبينه بدون حاجب. المسافة ما بين عينيه،

من أسفل جبهته وحتى شفاهه حيث يفترض وجود الأنف، يحتلها تجويف هائل، يعبره من الداخل قضيب حديدي رأسي يمكن رؤيته من على بُعد، واقفاً داخل جمجمة الشاب ومطالعا الراي في تحدّ صناعي بشع.

تدور رؤوسهم في نظرات صامتة. أهدأهم وأكثرهم تحكما في انفعالاته هو الدكتور حلمي، الذي أخفى أيّا ما دار بداخله بابتسامته وحركة يديه السريعة وهو يضع الدهانات التي أتى بها الجندي معه مرسلةً من أطبائه في لندن. بعد إعماله المبضع في تنظيف تقيحات الجروح اللزجة، غطى البثور والنتوءات الغائرة بالسائل البني كريحه الرائحة، ثم قام وترك الأخت ماريا تعيد تضميد رأس الجندي بعين دامعة.

خرج الطبيب وفي إثره كوش إلى الباحة الخلفية. أشعل سيجارته ونظر أمامه في شرود: «يبدأ تقاعدي فور انتهاء تلك الحرب اللعينة».

مضت الأيام رتيبة وكثيبة. لم يقطعها على كوش سوى الخبر الهائل الذي كان يعود إلى المطبخ كل مساء معبأً برائحة المعقمات ليسأل عنه.

وسط كل العمل المضني في المستشفى الميداني، ظل كوش ينزل إلى المطبخ كلما سنحت له الفرصة ويتابع في صمت وهو نصف نائم الخناق الدائر طوال الفترة الماضية بين فريقين انقسما داخل الجمعية: فريق يؤيد وجهة النظر القائلة بأن القوى الوطنية عليها مخاطبة الإنجليز مباشرة والمطالبة باستقلال مصر إثر انتهاء الحرب

وتخلص بريطانيا العظمى من معاناتها العالمية، وهذا الفريق لا يمانع أن تخلص البلاد في مساعدة الإنجليز على عبور أتون الحرب فتكسب بذلك ودهم وتستحق الاستقلال. أما الفريق الثاني والأكثر صخبًا يصر أن الإنجليز لن يفوا بوعودهم أبدًا، وأن دعم الخديوي عباس في المنفى والوقوف بجانب السلطان العثماني والتأكيد على عدم انفصال مصر عن أمة الإسلام هو الحل الوحيد. أصحاب ذلك الرأي يرون النصر قادمًا لا محالة، وأن انتصارات الألمان الموالين للدولة العثمانية والمحبين للإسلام تتوالى، بينما يولي الإنجليز الكفرة الأدبار في مختلف المعارك. «الحاج ويلهلم سيسحقهم» قال خولي. في إحدى الأمسيات رمق أحد أعضاء الجمعية كوش بنظرة انتقاد وتمتم: «أخونا كوش يبذل قصارى جهده في علاج عساكر الإنجليز بعدما قتلوا إخوتنا المسلمين في السويس. لك أن تفخر يا أخي». أسكنه الخال بنظرة حازمة، وساعتها فكر كوش في يأس أنه ربما يكون من الأفضل لو تذهب كل تلك القوى المتصارعة إلى الجحيم وتتركه في حاله.

لا يكثر كوش لكل هذا ويسأل وسط الزعيق الدائم إن وصلت أخبار تخصه، ولكن لأيام وأسابيع لم يحدث جديد.

أتى الخبر المفرح مساء يوم الجمعة الذي نطق فيه ريكاردو أولى كلماته. أخبره خولي أن صديقه طه في طريقه إلى الإسكندرية ليستقل السفينة عائدةً إلى فرنسا. فوجئ طه مثل مثل بقية المصريين باستصدار السلطان الجديد أمرًا بإلغاء قرار تعطيل منحة طه، والتأكيد على التزام السلطنة بكافة مصاريف بعثته إلى فرنسا وتغطية إقامته حتى يحصل على الدكتوراه.

امتلاً كوش بالسعادة والفخر وكاد يبكي من شعوره بالإحسان. كان قد استغل التراتبية اللانهائية لأعضاء الجمعية لإيصال خطاب مفوه كتبه بنفسه يعرض قضية طه، وتناقلته الأيدي الواحدة تلو الأخرى حتى وصلت إلى أحد طباحي قصر عابدين، الذي قام بدوره بإعطائه لمسئول التشريفات السلطانية، والذي وضعه بين يدي السلطان بينما يدخل سيجاره الصباحي بصحبة قهوته التركية المحوَّجة. عادت السلسلة التراتبية بشكل معكوس تتناقل ردة فعل السلطان المحب للزراعة والحيوانات النادرة: كيف تم إخفاء هذا الخبر عنه حتى الآن؟ وبصفته رئيساً سابقاً للجمعية الإسلامية خلقاً للإمام محمد عبده، رأى السلطان أن واجبه يحتم عليه تشجيع خريج للأزهر وباحث جاد «وضرير» مكافح تمكن مما لم يتمكن منه المبصرون، حتى لو تسبب ذلك في تدمير بعض الشيوخ ضيقي الأفق، والذي لن يصل بالطبع إلى مسامع السلطان الشريفة.

دون معرفة أن كوش هو السبب في ذلك، سيعود طه حسين إلى فرنسا ويتم دراسته ويرجع إلى مصر ليتقلد أرفع المناصب، ويكمل معركته نحو النور التي بدأها منذ سنوات بعيدة وهو بعد فتى صغير مع رفيقه ومساعدته الأسمر الذي ولد معه في ذات العام وعلمه هو القراءة وأرشده نحو مناهل المعرفة.

بدأت أولى نوبات ريكاردو بعد منتصف الليل. كان كوش ينام بالكاد خارج بوابة العنبر تحسباً لأي قلاقل قد تصيب أحد المرضى فيوقظ الطبيب من فوره.

لم يكن ريكاردو قد نطق خلال الشهرين الكاملين اللذين قضاها
بعنبر الفندق العريق، وبالتالي لم يميز كوش صوته حين قطع سكون
الليل وأيقظ المرضى فزعًا. دخل كوش بسرعة ليجده وقد سقط من
على سريره محاولًا الوصول إلى عكازه المستند إلى الحائط. أخذ
يمزق اللفائف حول وجهه وهو يواصل الصراخ ويرطن بإيطالية لم
يفهمها كوش. هرع نحوه بينما يصرخ في أحد المرضى ليذهب إلى
مكتب الاستقبال ويطلب منهم إيقاظ الطبيب. حين وصل إليه انقض
عليه ريكاردو كحيوان متوحش وطرحه أرضًا. وصل إلى العكاز
وضربه به على رأسه، ثم استند إلى العكاز وقفز في خطوات عرجاء
إلى خزانة الأدوية، كسر زجاج ضلفتها ومد يده المرتعشة بعشوائية
أسقطت الكثير من الزجاجات إلى الأرض. رفع كوش رأسه الدامية
ونظر نحو الشاب الغائب في هيجانه. ينعكس ضوء القمر على وجهه
الذي بان نصفه بينما تتدلى من حوله اللفائف المقطوعة. يظهر في
وقفته هذه شبكًا مخيفًا قوامه اليأس والألم. يقوم كوش ويسير
نحوه ببطء ويلمس كتفه. يرتعد الجسد النحيل ويستدير بنظرة
حيوان مذعور.. تنهمر الدموع من عينه السليمة.. في يده مبضع
قبض عليه بكفه حتى تقطرت منها الدماء. تهرب من فم كوش بضع
الكلمات الإيطالية البسيطة التي يعرفها. لا يذكر أيًا منها وغاب عنه
قول شيء بالإنجليزية. فقط الصمت يهيمن على كليهما. الصمت
وضوء القمر المتسلل عبر النافذة الهائلة ينير جسدًا شاحبًا ومحطًا،
بينما رفيقه ينظر إليه في توجس وعطف ماذا يده السمراء نحوه.
يقبض كوش على اليد الدامية بمبضعها والتي تريد الارتفاع نحو
رقبة صاحبها بكل ما أوتي من قوة، فيترك ريكاردو العكاز ويتشبث
برقبة غريمه قابضًا عليها بكل ضعفه. يتبادل كلاهما النظر دون كلام

أو حراك. يبدأ كوش بالاختناق ولكنه يحافظ قدر استطاعته على يده المرفوعة تجاه المرضى الواقفين ومعهم الطبيب المشدوه في جلباب النوم مشيرًا لهم بالبقاء بعيدًا.

وبينما يغيب نور المساء عن عينيه ترتخي القبضة حول عنقه ويرتمي الإيطالي ساقطًا بحضنه في بكاء مرير.

في الصباح التالي وما تلاه من أيام بدأ ريكاردو الخروج في زهات صباحية بحديقة الأزبكية بصحبة الأخت ماريا في أوقات يقل فيها الزوار. يقول بضع كلمات دون أن يقول شيئًا حقًا. شكرٌ خجل على حسن الرعاية، اعتذار لكوش الذي وضعت له ممرضة بدينة ونصف نائمة طوال الوقت ضمادة على رأسه الجريح، وفي بعض الأحيان يتجرأ بطلب فنجانٍ من القهوة السوداء أعدت خصيصًا له في بار الفندق وحملها كوش إليه بسرعة قبل أن تبرد. بدا أكثر هدوءًا واستكانة بعد أحداث تلك الليلة التي ترتب عليها نقل خزانة الأدوية خارج العنبر بالكامل، وهو ما يعني مزيدًا من المسافات يقطعها كوش وأطعم التمريض كلما احتاجوا شيئًا. المرضى الآخرون، والذين كونوا صداقات وحكوا لبعضهم البعض كل مآسيهم الحربية يتجنبونه في أغلب الأحيان، مدفوعين بإحساس العزلة التي يفرضها النطاق المقام حوله والغموض الذي يكتنف تلك البقعة البيضاء التي يحاط بها. حين أصابت ماريا نزلة برد اكتفى ريكاردو بكوش رفيقًا له. تماثلت قدمه للشفاء وبات يسير دون عكاز بعرجة واضحة. في حوار هو خليط من الإيطالية والإنجليزية وحركات اليد العنيفة وبكثير من الحنق لعدم القدرة على إيصال

المعنى عرف كوش من ريكاردو أن عمره عشرون عامًا فقط، وأنه ابن مزارع كروم من توسكاني تمتلك أسرته أرضًا صغيرة بسفح الجبل يزرعون فيها العنب الذي يخفرونه في معامل العائلة. دُفع ريكاردو إلى الحرب دون أن يدري لِمَ. عاش تجربة مروعة في إحدى معارك إيسونزو الأربعة حيث أصيب. أخبر كوش عن الأسلحة الفتاكة وشظايا المدفعية التي تمزق الأجساد إربًا حتى كانوا يقضون ساعات في جمعها.

حين جلسا على دكة بحديقة الأزبكية أخبره ريكاردو عن حبيبته التي تنتظره في إيطاليا، والتي فقد عذريته معها ووعداها بالزواج. الآن لن يعود إليها مهما كان الثمن. لن يجعلها تراه في تلك الهيئة. لن يراه أهله مرة أخرى ولن يرى بلده. تلك حياة أخرى وعالم آخر عليه إلقاؤه وراء ظهره وبدء حياة جديدة في هذه البلاد الغريبة التي أرسلوه إليها ولم ير منها سوى أسوار ذلك الفندق.

في نزهة تالية بدا مزاج ريكاردو معتلًا لأن القائد كولينز -بعد إطلاعه على تقرير الدكتور حلمي- أخبره أنه لم يعد بحاجة إلى الضمادات، والأفضل إزالتها حتى تترك لجروحه الفرصة لتتنفس وتلتئم طالما زال الخوف من تلوثها. «يريدون مني السير بين الناس بوجه كهذا؟» قال في حنق. لم يكن ذلك خيارًا متاحًا بالنسبة له. «سأكون مسخًا، أفضل الانضمام إلى سيرك المساخيط على مواجهة العالم بوجه الشيطان هذا». أطرق كوش دون معرفة ماذا يقول. اقترح: ماذا لو صنعوا له قناعًا أنيقًا يخبئ وجهه؟ لم يرد ريكاردو وشرد طويلًا في شجرة سنديان وقفت الطيور تغرد عليها في سلام. «أتعرف ما هو المضحك في الأمر؟ أني لست جنديًا حقًا. كنت

مسعفاً يحمل الجرحى من ميدان المعركة. أتريد شيئاً مضحكاً أكثر؟
لن أقوله لك. كفى العالم سخريّة مني اليوم..»

على مدار الأشهر الماضية واطب البرجيدير كولينز-الذي كان طبيباً بدوره- على مرافقة الدكتور حلمي كلما فحص وجه ريكاردو.. يحاولان معاً فك ألغازه. كيف قام الجراح الإنجليزي بترميمه، واستكمال العظام المفقودة بالشرائح والقضبان المعدنية، وأعاد توصيل القناة الدماغية ومجرى التنفس ليعملاً بشكل طبيعي، والأهم كيف لم تصب تلك الأنسجة الداخلية التي باتت مكشوفةً بالعفن والتسمم. وحين كان كوش يجلس مع ريكاردو على الدكة في الحديقة، كان الدكتور حلمي يأخذ استراحةً في شرفة الفندق في رفقة الضابط المسئول عن المستشفى، احتسى خلالها البرجيدير كأساً من مشروب بلودي ماري مع الكرافس وهو في حالة سيئة، فالأخبار تأتي عن معركة جاليبولي بمضيق الدردنيل والتي يموت فيها الإنجليز والأستراليون بالآلاف، بينما واصل الدكتور حلمي شرب الشاي. لم ينفكا يتكلمان عن الحالة الطبية الإعجازية لوجه العريف ريكاردو.

«حسناً، على الأقل يمكننا الامتنان لتلك الحرب اللعينة على دفعها للتطور الطبي وإيجاد حلول لم تكن موجودة حتى حرب البوير».

ابتسم حلمي بمرارة..

«ولكن بأي ثمن!»

«إننا نحارب هذه الحرب نيابةً عنكم، مسؤولية الرجل الأبيض

بغیضة إن سألتني الحقيقة»

«أقصد مسؤولية تنویر عالمنا المتخلف؟! ولكن هذه الحرب تدور رحاها بین دولكم المتحضرة ولا علاقة لنا بها! الحقيقة هي إنكم تزجون بنا في معركة لا ناقة لنا فيها ولا جمل، فقط لأننا رعايا إمبراطوریتكم المبجلة...»

«العالم لم يعد ینقسم اليوم إلى شرق وغرب، لقد حملنا لواء الإنسانية ونور الحضارة لكم، ولا بد من فرض ذلك بالقوة في بعض الأحيان، والصراع الدائر الآن في أوروبا هو في حقيقة الأمر صراع حول رقعتكم تلك».

«إنكم لا تقتلون بعضكم البعض بهذه الوحشية والبشاعة حرصًا على دوركم التنویری، أظن إن سمحت لي القول إن الأمر جلي.. السر هو ما لدينا من ثروات، ولا داعي لأن أذكرك يا حضرة الضابط أنك لم تجدنا نرتع في الأحراش، لقد أتیتم ولدينا جيش ومصانع ودار أوبرا وقناة بحرية ومعاهد ومدارس. حجتكم الواهية بتمدين أفريقيا لا تنطبق على مصر، ولا أراها تنسحب حتى على الزنوج، فلكل أمة الحق في عیش حیاتها كما تريد، لم يطلب أحد منكم المساعدة!»

بدا الضابط المحتقن بتأثير الخمر وكأنه يفكر مليًا في وجهة نظر محاوره.

«أكثر من عشرين زميلًا أعرفهم ماتوا حتى الآن في جاليبولي. حقًا لا أعرف إن كان أي شيء يستحق هذا الثمن..»

«هذه نتيجة طبيعية لرغبتكم المتعطشة للدماء. ترى كم زنجي عاش في بدائية بالغابات والأحراش قبل حضوركم أصابه مثل ما

أصاب صاحبنا ريكاردو على أيدي أوروبي مثله؟ ومن يدريك لعلهم كانوا سعداء بحياتهم كما كانت.. على فطرتها وبدائيتها تلك. ليس شرطًا أن ما تظنونه تحضرًا بالضرورة يناسب غيركم من الشعوب!»

نظر كولينز نحو كأسه مليًا في شرود. قرر تغيير الموضوع.

«ما لم يخبرونا به في الخطاب أن نيراننا هي التي أصابته. فشل مروع في الاتصال. لم يعرفوا وهو عائد إلى الخندق يحمل أحد المصابين أنه ليس من الأعداء، فأصابته شظية موجهة نحوه في وجهه وشوخته. هذا الحطام البشري بالداخل صنيعه أيدينا، والنتيجة هي هذا المسخ الجاثم أمامنا ليذكرنا كل يوم ليس فقط ببشاعة تلك الحرب، ولكن من يقفون وراءها ويتربحون منها. ولكن أتعرف شيئًا؟ أنا أسترالي، وبالتالي ستكون لي ذريعة يوم القيامة وسأحاول التبرؤ أمام الرب من تلك الوحشية الفتاكة».

في ليلة ذلك اليوم، وبعد تناول البريجدير كولينز قائد المستشفى الميداني بفندق شبرد العريق جولة أخرى من الشراب في بار الفندق الخالي، عرج على قاعة المستشفى قبل الصعود إلى غرفته، وهناك دخل برفق بينما غط كوش في نوم عميق كحال بقية المرضى، وتسلل ببطء إلى آخر سرير بالعنبر تحت النافذة العملاقة.

أخرج من جيبه حقنة معدنية، وغرزها في رقبة الشاب المشوه بهدوء.

بحلول العام الثاني من الحرب تمكن الانزعاج من كوش. يجلس في المطبخ كلما سنحت له الفرصة ولم يغالبه النوم من إرهاق العمل

بالمستشفى الميداني ليستمع إلى المناقشات الحامية عما يدور في البلد، وهو ما لم يكن ملقًا به لاستغراقه في شئون المرضى والطبيب، خاصةً بعد الصدمة التي ألمت به جراء وفاة ريكاردو المفاجئة في نومه التي حطمته تمامًا.

أسماء حركات فدائية جديدة تلقى كل يوم أمام كوش ولم يسمع عنها من قبل. الكراهية نحو السلطان كامل في أوجها. «لقد باع نفسه للإنجليز وتركهم يعيثون فسادًا وقمعًا بحجة الحرب اللعينة» قال أحدهم. تزداد البلاد احتقانًا كل يوم. والقمع يتواصل. رُفد أبناء مدرسة الحقوق لاعتراضهم على زيارة السلطان ومقاطعتهم له -تحججوا بحضور جنازة وهمية لزميل لهم وذهب السلطان المتفطرس ليجد المدرسة خاوية- كذلك عوقب طلبة من مدرسة الطب لنفس السبب.. باتت مقاطعة زيارته نكتة يتناقلها الشعب وصفعة تؤلمه في كل مرة.. هتف الناس ضد السلطان ولم يكثرثوا للحبس وفقًا للقوانين العرفية. من القرى والبلاد توالى أخبار الحبس الاعتباري كلما تحدث بضعة من الأفراد على القهوة. هناك حالة من الإرغام غير المفهوم للمصريين على تقبل السلطان ومساعدة إنجلترا في الحرب، ونسيان ارتباطهم بالدولة العثمانية الإسلامية التي ينتمون لها بحكم الدين وبحكم احتلالها لهم هي الأخرى طوال أربعمئة عام. ولكن ما يحدث في الشارع لم يكن مسبوقًا. بدأت حالة من الكفاح المسلح على نطاقات صغيرة. وسرت الشائعات في كل مكان.

في وسط هذا الصخب الوطني استدعى الخال كوش. «ستأخذ إجازة من المستشفى ليومين، وسيحل عبد الله مكانك. ستحمل

طرّدًا مهمًا إلى رفيق لنا بالمنصورة. تلازمه حتى لا يعود يحتاجك. لا تسأله عن شيء. هذه أخطر مهماتك. ولا أثق في غيرك للقيام بها».

حمل كوش الطرد في اليوم التالي وتوجه إلى المحافظة البحرية، وهناك سار وسط الزراعات دون الاستدلال على العنوان كما أمره خاله. وجد في أسفل البيت الذي يقصده شابًا يجلس على المصطبة يمص القصب. «أتيت لك بغداء شهى من فندق شبرد» قال كوش كما وضاه خاله. وقف الشاب المتجهّم واحتضن كتفيه بحزم: «إنك تصنع التاريخ يا أخي، دعك من غداء الخواجات هذا وهلم بنا نتناول الفطير المشلتت». وسط الغيطان وحين تأكد الشاب من عدم مراقبة العيون لهما، أخذ الطرد من كوش وبدأ في فك وثاقه. توقفت اللقمة في حلقه حين أخرج محمد خليل منه مسدسًا من طراز بروننج. «ما هذا؟» قال كوش في قلق. «هذا هو السلاح الذي سيسطر تاريخًا جديدًا لمصرنا الحبيبة». أصاب كوش زعر لا يفهمه. هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها سلاحًا في حياته، وليس هذا فقط ولكنه حمله بنفسه. تذكر إبراهيم الورداني. «هل ستشارك في عملية اغتيال؟»، «ليست أي عملية.. سلطاننا المفدى بذاته!». قام كوش وركض إلى التربة وتقياً طعامه كله. أشارك في القتل الآن؟ وقتل من؟ السلطان! لو كان ليختار الإتيان بمثل ذلك الفعل الوحشي في حياته لاختاره مع الطبيب الكريه، أما فيما عدا ذلك لا يمكنه هضم الفكرة. نقل المعلومات أو فضح خطط الإنجليز أمر والقتل أمر آخر. اللعنة على تلك الحرب المجنونة. من قال أنه أراد الاشتراك في هذا؟ الآن هو مغصوب ومرغم ولا يستطيع الهرب. لقد سلّم السلاح بنفسه فعلاً. لماذا لم يسأله خاله؟ لماذا لم يخبره بشيء؟ لماذا يظن أنه يريد

الاشتراك في هذا؟ أهو مدين له لأنه رعاه بأن يقبل كل شيء وأي شيء؟

عاد واستعاذ من نفسه. ألا يريد أن يكون وطنيًا؟ ولكن ما له لا يرتاح لهذا الشاب؟ ولو قتل السلطان، هل قتله يكفي لضمان استقلال مصر؟ أيعجز الإنجليز عن القدوم بغيره؟ قضى مع الشاب المعتد بنفسه ليلة طويلة وهو يتدرب على إطلاق النار، ويقابل أقاربه الذين يعرفون بخبطته. سيهاجمه بعد يومين.

في الصباح عاد كوش إلى الفندق كالمحكوم عليه بالإعدام. دخل مباشرة إلى غرفته وبكى بكاءً مريزًا. نظر إلى السماء وإلى كتبه وشعر أن ما قام به ينافي كل شيء تعلمه منها. هل هذا هو النور الذي تحدث عنه طه؟ ربما لو كان قتلاً لإنجليزي لكان ذلك مقبولاً بعض الشيء، ولكن حتى ذلك ليس بالسهل. مشاعره المختلطة تجاه من ينفذون الاغتيالات تثير تعجبه وشكه في نفسه، ولكن ليس كل من خلق ولد للقتل. ربما لم يكن ذلك مقدراً له ولكنه ضروري لا يزال. ربما يريد أن يكون فقط نفسه.. يقرأ الكتب ويعرف الناس ويحبهم ويتعلم منهم ويفهم العالم، ربما يستخدم ذكائه في الإيقاع بمن يريدون بوطنه سوءًا وتخریب خططهم، ولكن القتل؟ هل يموت السلطان غداً؟ هل تصل إليه السلطات؟ اللعنة! ماذا لو قبضوا على خليل واعترف عليه وعلى الجمعية؟ كل شيء يضيع في لحظة؟ وماذا عن الكتب التي لم يقرأها بعد؟ ماذا عن الحياة التي ينتظر أن تزداد تكشفًا؟ ماذا عن معركة النور؟ والمرضى الذين يحتاجون مساعدته؟ أراد اللجوء للطبيب حلمي ويخبره. كم يتمنى لو تحدث

مع طه أو أجاثا الآن. لماذا يغادر كل من يحبهم ويتركونه وحيدًا؟ رغم أن كوش ظل وحيدًا بمعنى ما طوال حياته إلا أنه لم يشعر بالوحدة كما يشعر بها الآن. لأول مرة تختطف منه سعادته وسذاجته التي لم يكن يدركها ولكنه يحمل بفضلها حبًا وإيمانًا بهذا العالم. اللعنة على هذه الحرب. اللعنة على المحتل. اللعنة على كل هؤلاء البيض الذين يحملون سوادًا. ولكن ريكاردو أبيض. وكذلك أجاثا. وستيفنسون، وستفنز، ومثلهم مئات الضيوف الذين أحبوه وعطفوا عليه وأحسنوا معاملته طوال السنوات الماضية. لماذا ينبغي عليه كرههم جميعًا؟ هل السلطان حسين أبيض هو الآخر؟ الصور أحادية اللون في الجرائد لا تشي بشيء. نام كوش والأسئلة تعصف برأسه، وبحلول ظهيرة اليوم التالي أتت الأخبار...

اقترب خليل من الموكب بينما يترجل السلطان عن عربته بتقاطع شارع عماد الدين مع شارع حسن الأكبر ناحية باب الخلق.. تقدم الشاب نحو العربة يحمل في يده باقة من الورود أشهر من بينها سلاحه وأطلق رصاصةً وهو يصرخ «لأجلك يا كرداوي!». أصابت مقدمة السيارة، وقبل أن تخرج الرصاصة الثانية رمى حارس السلطان بنفسه ودفع كامل إلى داخل العربة. قبل إكمال الشاب مهمته ضربه حارس آخر بسيفه دون قتله وطرحه أرضًا.

حين وصلت الأخبار بفشل المهمة تنفس كوش الصعداء وعاد إلى المستشفى.. ساعد الأخت ماريا في إعداد حقنة.. وحمد الله أنها لم تلاحظ يده المرتعشة.

في العام الثاني للحرب، تحديدًا في أوائل عام 16، تعرض مالك شبرد، ملك الفنادق في مصر السيد بهلر السويسري الذي التقاه كوش عدة مرات بالفندق ولم يجرؤ على الاقتراب منه، إلى الاعتقال على يد الإنجليز بتهمة التعبير عن تعاطفه مع الألمان ومحاولته إخفاءهم في فنادقه وأرسلوه إلى سجن بريكستون بإنجلترا. نزلت الأخبار كالصاعقة على ستيفنسون وأصابها الجميع بالوجوم.

في ذات اليوم استدعى الدكتور حلمي كوش إلى غرفته. «أريد تكليفك يا بني بخدمة شخصية. هل لك بزيارة بيتي لتأثني ببعض الكتب والملابس؟ الوقت ضيق ولا يسمح لي بالذهاب. هاك العنوان والطلبات، ستقوم ابنتي سنية بقراءتها لأمها وإعداد ما أحتهاجه». نفحه جنيهاً كاملاً ولكن كوش رفضها تمامًا، كان سعيدًا بأن يخدم الطبيب الذي بات الآن رفيق كفاحٍ ومعلمًا في إنقاذ حياة المرضى.

بدل كوش ملابسه ونزل إلى الشارع سعيدًا بفسحة التنفس بعيدًا عن أجواء المستشفى المليئة برائحة المعقمات والدماء. طالع الشوارع حوله بغرابة وكأنه لا يعرفها.

عانى كوش طوال سنوات الحرب تلك من حرمانه من جرائده المصرية والأجنبية الأثيرة. زادت الرقابة بشكل مقيت على الصحف حتى باتت مبتورة، ورسائلها غير مفهومة، وبات نصيبه اليومي من الثقافة والمعرفة التي يتجرعها يقل رويدًا رويدًا حتى كاد يموت من الظمأ. الحركة ثقيلة والضيق الخائق لا يطاق. إذا ما حاول الخروج لإرسال برقية نيابةً عن أحد الضيوف حين تتعطل أجهزة برق الفندق يتعرض للتفتيش من قوات الحراسة المفروضة على كافة الأجهزة والدوائر الحكومية. وضع الجيش الإنجليزي رقابة صارمة

على الهواتف والبرق والبريد. منذ بداية الحرب أتت الأوامر للفندق بإغلاق البار في الثامنة مساءً أسوةً ببقية المحلات بعد أن اعتاد السهر حتى الصباح.

مر الترام على أحد المدارس بميدان لاظوغي وقت خروج التلاميذ يحثون الخطى تحت رقابة الجنود الشقر بسرؤايلهم القصيرة. قفز بعضهم فوق الترام أو تعلق خلفه وهو يتهادى، ضحك كوش وهو يراهم يسبون العساكر بينما يبتعد الترام الكهربائي: أصاب الإنجليز هوس بقانون التجمهر حتى إنهم يرتعدون عند تجمع بعض تلاميذ المدارس أمام إحدى المقاهي بعد انتهاء اليوم الدراسي ويهددونهم بالاصطحاب إلى قسم الشرطة إن لم يتفرقوا في الحال. المدارس بالذات مصدر إزعاج لهم لأنها تمتلئ بتلك الطبقة المتعلمة التي تحاول درء مفاصد الاحتلال وتبحث عن الاستنارة وتقرأ وتفكر في المستقبل. كانوا يدركون خطورة الطلبة والمعلمين بعدما رأى كرومر كيف وجد مصطفى كامل اللعين صداه بين مرتدي الأحذية والنظارات هؤلاء. لم تكن ذكراه قد خبت بعد رغم مرور سنوات على وفاته ولم يزل الحزب الوطني شديدًا وعنيفًا. تذكر كوش مغامرته الأولى معهم وهو بعد بالغ يافع.

عاد وجال ببصره عبر النافذة حين توقف الترام فجأة.. طالع سريةً من الجنود الهنود تقطع الطريق في استعراض للقوة الاستوائية. بات مشهد طواف الجنود والفرسان بكامل أسلحتهم مشهدًا معتادًا منذ بدء الحرب.

ترزح السلطنة تحت احتلال حقيقي الآن، وكأن كل هؤلاء الإنجليز الذين كانوا يروحون ويجيئون في مصر منذ قبل مولد كوش قد

ارتدوا طاقيات الإخفاء وكانوا أشباحا يسكنون العاصمة ولكنهم فجأة صعدوا إلى السطح وظهروا إلى العيان مكشرين عن أنيابهم. كان وجودهم سهل التعايش معه من قبل لأنهم لم يكونوا شيئًا ذا معنى. مجرد أجساد بألوان غريبة ولكنات أغرب ربما لا يمسون الحياة اليومية، ولكن وجودهم الجاثم على الصدور بات مريزًا اليوم تلو الآخر، والمشكلة أن كل هذا يحدث دون أن يفهم كوش وأمثاله من المصريين ضرورته، لم يشعر أحد بوجود حربٍ إلا بسبب القيود الداخلية التي فرضت عليهم فباتت الحرب في ديارهم وشوارعهم الخلفية مع ذلك المحتل الذي بغائه وخوفه كشف عن نفسه وأشعل فتيل القنبلة المدوية التي ستنفجر بعد سنوات قليلة للغاية.

بقدر ما كان حزينًا لأنه لا يمارس دورًا مع رفاقه بقدر ما كان فخورًا وراضيًا عما يفعله بين أروقة المستشفى. لقد تغير المسمى من احتلال إلى حماية، ولكن هل تغير شيء حقًا؟ لا تزال التجربة المريرة التي عاشها في بيت كتشنر مع العالم الكريه تغلي الدم في عروقه كلما تذكرها. سأل نفسه مرارًا حين يقف بجانب الممرضة تقيس حرارة جندي إنجليزي إن كان هذا الشاب سيعود إلى الشارع ليقمع مصريين آخرين فور تماثله للشفاء؟ لم يعرف قلبه الحقد بعد، ولكنه منزعج لا شك من تلك الازدواجية الغريبة. يحدثه الدكتور حلمي كثيرًا عن رسالة الطب ودور الطبيب في إنقاذ حياة البشر بغض النظر عن لونهم أو عرقهم، حتى لو كان ذلك يعني توجيه مدية بندقية إلى الطبيب نفسه. «لا نطلق الأحكام ولا نصلح الكون، فقط نضمد الجرح الذي أمامنا» أخبره الطبيب الكهل في مثالية لاقت صداها لدى الشاب متفتح الفكر.

نزل كوش من الترام ورأسه تدور من كل تلك المشاهدات التي تمر أمام عينيه وتجد انعكاسها في الأفكار داخل رأسه. دخل إلى مسجد السيدة زينب وصلى فيه متبركاً بابنة ابنة الرسول، ثم عرج منه إلى الحواري المتفرعة حتى وصل إلى البيت المقصود بشارع سلامة. صعد إلى الشقة بالدور الثاني وطرق الباب ووقف بعيداً.

فتح الباب شاب أسمر بلامح متجهمة. قبل أن ينطق كوش أتى صوت امرأة من الداخل:

«من بالباب يا عبده؟»

«أتيت من طرف الدكتور حلمي برسالة لجماعته».

أدخله الشاب إلى صالة الاستقبال ثم تركه وعاد إلى سلم خشبي يستند إلى الحائط، صعد عليه وأخذ يعالج أسلاكاً كهربائية. أقبلت على كوش امرأة ريفية دميمة. أخبرته أن سيدة المنزل ستأتي على الفور، وسألته إن كان يريد احتساء القهوة.

جلس كوش في الصالة وأخذ يراقب الشاب الواقف فوق السلم وهو يسترق النظر بشكل سافر نحو الغرف الداخلية. شعر بمدى وقاحة تصرفه. بعد قليل أقبلت من ظن أنها لابد وتكون زوجة الدكتور.

«معذرة يا بني كنت أصلي. هل من أخبار؟»

أبلغها كوش سلام الدكتور لها وللآنسة سنية - التفت المسمى عبده فور سماعه اسم سنية وكاد يسقط من فوق السلم - وسلم الورقة للسيدة. تركته وعادت للداخل ولحققتها المرأة الدميمة - والتي ناداها

عبده بزنوبة- ودخلت لتساعدها في إعداد طلبات الطبيب. بعد لحظات أتى خادم وقدم القهوة لكوش الذي عرض المساعدة على عبده. رد الشاب القوي بصوت بالغ في جعله مسموعًا وكأنه يُسمع من الداخل:

«لا تقلق كل شيء تحت السيطرة.. الكهرباء أمر خطير.. ولا يجوز التعامل معه إلا من المهندسين أمثالي!»

لا بد أنه مجنون ذلك الشاب، وربما البيت بأكمله. بعد لحظات دق الباب وفتحه الخادم ليدخل ولد صغير لا يزيد عمره عن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. يرتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا مزررًا عن آخره وشعره الناعم مصفف إلى الجانب. لاحظ كوش على الفور أنه يحمل كتابًا في يده. لاحظ أيضًا أن عبده امتعض عند رؤيته.

«محسن؟ ماذا أتى بك إلى هنا؟»

جلس الولد أمام كوش بعد أن حياه بأدب، ثم أجاب في خجل:
«أتيت لأعيد كتاب أبله سنية».

«اتركه هنا وغادر إذا، ستعطيه زنوبة لها».

لم يرد محسن وظل جالسًا في مكانه. نظر كوش بفضول نحو الكتاب ثم تجرأ وسأله:

«هل لي معرفة اسم الكتاب إن أذنت؟»

نظر له محسن باندهاش.

«حضرتك تحسن القراءة؟»

هز كوش رأسه وهو يبتسم. التفت لهما عبده من فوق سلمه ونظر نحوهما بامتعاض ثم عاد منشغلاً إلى عمله.

«إنه ديوان مهيار الديلمي».

«أه. إنه ديوان رائع وحساس، ولكنني أفضل الأخطل عليه».

عاد محسن الصغير ينظر لكوش بإعجاب مندهش.

دق الباب ثانيةً. هذه المرة كان فلاحاً ضئيل الجسم تبدو عليه علامات سوء التغذية. نظر له محسن ضاحكاً.

«مبروك؟ ماذا تفعل هنا؟»

التصق مبروك بالسلم ورفع رأسه يراقب ما يفعله عبده بفضول وهو يوجه له كلامه من أسفل:

«أرسلني حنفي أفندي ليرى لماذا تأخرت أنت والست زنوبة حتى الآن. وقال لي أن أسألك إن كنت تحتاج مساعدة بينما يأخذ قيلولته لأنه لا يريد أن تتأخرا على موعد الغداء فهو جوعان.. جوعان يا عالم!»

«رئيس الشعب إما نائم أو جوعان!» قال محسن بمرح.

تطلع كوش نحو ذلك المسرح الصغير الذي يدخل ويخرج منه الجميع دون أي منطق. من هو رئيس الشعب؟ وهل يعرف الدكتور حلمي أن بيته يتحول إلى سيرك من الفوضى في غيابه؟ وتساءل إن كانوا يعلمون خطورة الدور الذي يمارسه في المستشفى.

مضت لحظات من الهرج والمرج حتى خرجت زنوبة ببقجة

وصندوقين وشماعات تحمل لباسًا. فوجيء كوش بكل هذا.

«عذرًا، ولكن هلا تنتظر معنا بعض الوقت، تود السيدة طبخ بعضًا من طعام الدكتور المفضل كي يقيم به أوده. تقول لك فلتبق معنا للغداء حبًا بالنبي والطاهرة».

اعتذر كوش بلطف عن تناول الطعام ولكنه قال إنه سينتظر عن طيب خاطر. في الحقيقة ليس لديه شيء مُلِح ليفعله كما أنه مستمتع للغاية بالفرجة على ذلك الهرج والمرج العشوائي.

رويدًا رويدًا بدأت روح الحميمية والود الفطري تحوم في الأجواء وتنتقل عدواها إلى كوش المتحفظ. تخلص عن تحفظه المتأدب وانخرط أكثر فأكثر في الحديث مع رفقاءه في الصالة.

عرف منهم أنهم جيران الدكتور حلمي منذ زمنٍ بعيد، وأنهم في الأصل من البحيرة، ويسكنون جميعًا مع بعضهم البعض في الشقة المجاورة. الإخوة حنفي وزنوبة وعبد، وابن عمهم اليوزباشي سليم، وخادمهم مبروك، وأخيرًا محسن الذي انضم إليهم مؤخرًا ليواصل دراسته في المدرسة الإعدادية بالقاهرة. سألوه عما يفعل في الفندق، وحكى لهم بعضًا من حكايته، ينظرون له مشدوهين حتى إن عبده بعد إنهائه عمله الكهربائي الذي أخذ أكثر من وقته جلس معهم يطالعه بفضول. أما محسن فكان مأخوذًا بمعرفته وحبه للقراءة، بينما حاول مبروك فهم كيف يتحدث خادم مثله بمثل تلك الفصاحة ويقرأ ويكتب بلغات ويخدم أجنب في فندق كبير. ولكن ما حرص كوش عليه حقًا هو إخبارهم عن جارهم الذي يكن له

احترامًا كبيرًا، والدور الكبير الذي يبذله الطبيب في خدمة رسالته حتى لو مع جنود محتلين. تطرق الحديث رغما عنهم إلى السياسة ووضع البلاد الراهن، وأبدى عبده وعيًا فريدًا وتحدث عن الانزعاج بين طلاب المهندسخانة التي يقضي فيها سنته الثانية، كذلك حاول محسن قول شيء عن طلبة المدارس ولكن عبده لم يمهله الفرصة. حتى الخادم مبروك الطيب شارك في الحديث بتخويفهم في زعر بأن الكلام في السياسة ممنوع بأمر الحكومة ومن الأفضل عدم المخاطرة فالحيطان لها آذان هي الأخرى.

تحدثوا أيضًا عن تجميد الجمعية التشريعية بحجة عدم التجمهر، وكيف لم يتحرك أعضاء الجمعية الأرستقراطيون ضد هذا القرار ولم يقولوا شيئًا، حتى زنوبة وهي تعبر الصالة قادمة من السطوح وفي يديها فرختان قامت بذبحهما للتو أخبرتهما في حزن يائس أن مولد السيدة لن يقام هذا العام لأن الحكومة قالت إنها لا تريد ازدحامًا في الشوارع. «أي دين وأي شرع يمنع احتفالنا بمولد الطاهرة... ألا يخافون الله؟!». أخبرهم كوش أن مبروك ربما على حق، فقد أتت إشارة منذ مدة إلى الفندق تلزمهم بأن يقدموا بيانًا بكل من يأتي ويقيم في الفندق إلى قسم البوليس، وأن زميله الصعيدي يذهب ويجيء إلى القسم كل صباح حتى كَلَّت قدماه. تمنى كوش لو حكى لهم عن الخناق الدائر كل ليلة في المطبخ بين فريقَي الجمعية، ولكنه بالطبع لم يفعل. وأخيرًا دخل عليهم سليم ضابط الشرطة متحجبًا بأنه يريد نقل خبر هام: «داهمت قوات الإنجليز مقر الحزب الوطني وأغلقتة وقامت بسجن جميع أعضاء لجنته التنفيذية». أصاب الجميع الوجوم لبعض الوقت، والذي قطعه محسن بصوته الرفيع:

«لقد قال معلم اللغة الإنجليزية إن ما تفتقده مصر حقًا هو قائد يجمع كافة الفرق المتفرقة، فيلتفون حوله، وساعتها فقط ستتجمع الإرادة الوطنية على قلب رجل واحد وتحدث الثورة. بدون ذلك القائد المخلص سنظل مشرذمين على تلك الحال». أوما الجميع رؤوسهم مؤمنين، وعاد النقاش ليدور مرة أخرى. عاد مبروك يبيكي ليصمتوا، فقد قبضوا على أحد ركاب الترام منذ أيام لأنه تفوه بكلام بذيء ضد الحكومة والإنجليز. ضحكوا جميعًا ولكن كوش نظر نحو سليم بتوجس. فهم عبده نظراته فطمأنه ضاحكًا وهو يربت على كتف ابن عمه. «لا تقلق من أخونا سليم فهو لا يشغله سوى التفتيش، وطالما أنه يفتش بسلام فلا شيء آخر في العالم يهمه». لم يفهم كوش ما يقصده عبده ولكنهم انفجروا جميعهم ضاحكين عدا سليم الذي نظر للجمع في حنق مغتاظًا.

بينما يتكلم كوش في ذلك الجمع غمره شعور بالآلفة العائلية الذي أدرك أنه قد نسيه ولم يعيشه منذ انتزعه خاله من كنف أمه حين كان طفلًا أصغر من محسن. كذلك تولد لديه شعور آخر بأن وعيه بصورة ما يتشكل وهو جالس معهم ويتحدث عن الحرب والاحتلال والمستشفى. كان وعيًا يتشكل تمامًا كما تشكل الكتب.

ما لم يعرفه كوش هو أن حديده كانت تسترق إليه فتاة في الخامسة عشرة تجلس خلف الباب. حان موعد رحيله بعد ساعتين، فطلبت من أمها أن يأتي إلى الجناح الداخلي لتنقل له رسالة إلى أبيها.

خرجت زنوبة إلى الجمع الواقف، وبعد أن وضعت حلل الطعام، ابتسمت نحوه في خجل:

«إن أذنت فإن ابنتنا سنية تريد إخبارك شيئًا عن أبيها».

انتبه عبده ومحسن وسليم على الفور لذلك. راقباه في مزيج من الحسد والتعجب بينما يقوم سائرًا خلف زنوبة نحو الممر المؤدي للداخل. وصل إلى باب مغلق وتركته زنوبة هناك. انفتح قليلًا ومن خلفه امتدت يد رقيقة بظرف صغير.

«إن سمحت. أرجو أن توصل هذا الخطاب إلى أبي دون أن تطلع أحدًا. وأخبره أنني أحبه كثيرًا وأفتقده. وإني فخورة بكل ما يفعله. وأشرك على ما حكيت لتوك فأنا لم أكن أعلم كل هذا. أرجوك حافظ على هذا الخطاب».

تناول كوش الظرف الذي فاحت منه رائحة العطر ووضعه في جيب سترته. انغلق الباب دون أن يقول شيئًا.

حين عاد إلى الصالة وجد عبده ومحسن ومبروك يحملون المؤن والحاجيات التي أعدتها الأسرة للدكتور حلمي.

«اتفقنا أن تنضم إلينا للغداء وتأكل ورك الديك الأبدي من يد زنوبة.. ثم سنوصلك حتى باب الفندق.. وليست لديك حرية الرفض» وكانت تلك بداية صداقة مديدة تنامت وتعمقت ما بين كوش وجيران الدكتور حلمي طوال ما بقي من سنوات الحرب.

الفصل الحادي عشر

عام الغليان

(1918)

بمرور الشهور بدأت أعداد المصابين المتوافدين على المستشفى تقل، خاصةً مع افتتاح مستشفيات أخرى في العام السابق بهليوبوليس بالاس والجزيرة بالاس، وشعر كوش أن تواجهه الدائم لم يعد مطلوبًا. كذلك لم تكن ذكرى ريكاردو تفارقه، وبات الفندق بالنسبة له مذكّرًا لكل ما عاشه خلال الحرب التي بدا أنها لا تريد أن تنتهي. لن يسمح لتجربة الدوبارة المريرة بتكبيله ودفعه للاختباء خائفًا بحصنه الآمن. في أواخر عام 17 ذهب كوش إلى السيد ستيفنسون وطلب منه مساعدته في العثور على عمل جديد خارج الفندق، على أن يقسم وقته بين عمله والمعاونة في المستشفى كلما دعت الحاجة. وعده السيد بذلك وإن تضايق من رغبته بالمغادرة بعد كل تلك الخدمة المميزة في المستشفى. «لقد سعدت للغاية بخدمة اللورد كتشنر وأريد تكرار التجربة. سيظل الفندق بيتي وسأعود إليه كلما استطعت» قال كوش لستيفنسون كاذبًا ومطمئنًا.

نجح ستيفنسون في إيجاد وظيفة لكوش لدى الطبيب الإنجليزي العجوز الذي خدم معهم بالمستشفى. قابله ستيفنسون في النادي الخديوي. وأثناء حديثهما فهم من الطبيب أنه يبحث عن سفرجي جديد. اقترح ستيفنسون اسم كوش على الطبيب السكير والذي

تذكره على الفور، وفكر أنه يمكنه الاستعانة به أيضًا في مهامه الطبية القليلة، واشترط عليه ستيفنسون أن يصحب معه كوش في زيارته للمستشفى وأن يسمح بإرساله للفندق إن احتاجوه. وهكذا كانت تجربة كوش الطبية البسيطة خلال الحرب عاملاً مرجحاً لتعيينه سفيرجياً في منزل الطبيب العجوز بحي المعادي.

وجد كوش بيت الدكتور آرثر هادثاً ورتيباً. حديقته الواسعة تذكره بحديقة الفندق. يعيش الطبيب مع زوجته. ولديهما خادمة مسئولة عن التنظيف وطباخ وسائق. كل ما يحتاجه الطبيب هو سفيرجي ومساعد يمكنه الاستعانة به في الزيارات المنزلية المستعجلة أو لمعاونته عند استقبال بعض المرضى المقربين الذين يزورونه بالعيادة الواقعة بالطابق السفلي من الفيلا.

مع الوقت أدرك كوش فداحة مشكلة الطبيب مع الشراب التي يعرفها جيداً. كذلك شك حين نظف خزانة الأدوية أن بعضاً منها يُستهلك رغم عدم وجود أي زوار في الليلة الفائتة. خطيئة أخرى هي حبه للمقامرة وهوسه المرضى بمتابعة سباقات الخيل. تلك الخصلة مصدر الشجار الرئيسي بينه وبين زوجته التي لم يكن صوتها مسموعاً معظم الوقت. ولكن بالنسبة لكوش كانت تلك العادة مصدراً لفرحته بشكل كبير، فكل سبت وأحد من كل أسبوع، دون تفويت أسبوعٍ مهما كانت الأسباب بدءاً من المرض وحتى هطول الأمطار، يتوجهان إلى مضمار السباق بهليوبوليس. تضمن زيارة النادي خلال هذين اليومين خروجاً من المنزل طوال فترة النهار، كما أن الطبيب الكريم حين يفوز حصانه ويحظى بيومٍ جيد ينفحه مبالغ محترمة من المال، ولا يقيده في الخروج من المنزل في أي وقت

ولأي مدة يريد لها بعد فترة الغداء.

تنحصر مهام كوش خلال السباق في وضع الرهانات نيابة عن سيده، إمداده بما يحتاج من المشروبات التي تبدأ بالشاي وسرعان ما تتحول إلى الشيري والكونياك والبيرة. يحمل له المظلة في الأيام الحارة والممطرة، ويهش عنه الذباب، ويخبره أنه متفائل بربح وفير اليوم. بعد أول زيارتين للمضمار بصحبة كوش انتهيتا بفوزه بمبلغ كبير، آمن الطبيب كما يؤمن كل مقامر على المجهول أن كوش هو تميمة حظه ولن يذهب من دونه أبدًا.

وهكذا هيأت الظروف لكوش في بداية عام 18 صدفةً من أروع ما يمكن. حين مر بين الجالسين وهم يراقبون الخيل والفرسان يستعدون للسباق متجهًا نحو مكتب المراهنات في الخلف، سمع بأحدهم يصيح:

«يا عذراء الطاهرة، سأكون ملعونًا لو لم يكن أنت!»

التفت كوش فوجد شابًا أسمر في مثل سنه بأنف أفطس وفم كبير وشارب خفيف. نظر له غير فاهم. إنه متأكد أنه قد رآه من قبل. ولكن من هو؟

«إنك لا تذكرني يا ولدا! بالطبع، وكيف لك أن تذكر شحاذًا كنت تعطف عليه. ولكن إن نسي المحسن فيستحيل أن ينسى المحسن إليه ما لقيه من عطف. يا أمين... يا أمين... تعال أعرفك على صديقي الأسطوري.. قلت لك أنه حقيقي».

اقترب شاب آخر وسلّم على كوش. يتحدث ذو الأنف الضخمة بحرارة وطاقية غير معقولة وجسده كله يهتز من فرط الحماس بينما

يواصل كوش النظر له باستغراب:

«من حضرتك؟»

«ألا تذكر يا صديقي الطيب ذلك الفتى الشقي الذي لقيته يومًا منذ سنوات بعيدة مستلقيًا على دكة بحديقة الأزبكية وهو يتضور جوعًا؟ ومضيت تمده بما لذ وطاب من الطعام والشراب والدخان لأيام! إنه أنا يا صديقي... نجيب».

تذكر كوش كل شيء، وعانقه بحرارة غير مصدق. على الرغم من النجاح-والهجوم- الذي أصابه نجيب الريحاني في العامين الماضيين في معارك الفودفيل الشهيرة خاصةً على صفحات جريدة المنبر كانت الصحف تكتب اسمه دون نشر صورته في الغالب. وحتى حين رأى إعلانات مسرحيات كشكش بيه ولا مرة تصور كوش أنه ذات النجيب الذي لقيه على الدكة منذ أقل من عشر سنوات وهما بعد في سن العشرين.

«ما الذى أتى بك إلى هنا يا ولد؟ لقد حكيت لأمين صدقي عنك كثيرًا ولكنه لم يصدق القصة أبدًا وظنّها ضربًا من ضروب خيالي الفني».

ابتسم كوش وفهم أن نجيب يواصل نداءه بالصديق والولد لأنه لا يذكر اسمه. أراد أن يتجاذب معه أطراف الحديث ولكن ما أن دخلت الخيول إلى كبائنّها استعدادًا لبدء السباق حتى أصابه الذعر.

«يجب أن أودع الرهان لسيدي حالًا وإلا أصابه الجنون».

مد نجيب يده في جيب سترته بسرعة...

«حسنًا حسنًا، خذ هذه التذكرة لمسرحيتي الجديدة بالإجبيسيانة في عماد الدين. احضر في أي يوم يروق لك، وبعد المسرح تعال لي في الكواليس. أريد الجلوس معك لعلني أرد لك بعضًا من دينك علي...»

لم يمض يومان حتى كان كوش يرتدي أنظف جلابيه- وهي كلها نظيفة- وطربوشه الخصوصي الذي يبقيه للمناسبات والحفلات الكبرى، وتوجه مختلًا نحو وسط البلد بعد تأكده من خروج سيده وسيدته لسهرة في فيلا السفير الفرنسي المجاورة. حين وصل إلى شارع عماد الدين نزل من الترام وتمشى بالشارع المزدهم بينما رأسه تدور من يافطات المسارح الضخمة المنارة بالكهرباء، والمزينة برسوم ذات ألوان براقة إما لممثلين كبار أو صاعدين أو راقصات وأصحاب الفرق: جورج أبيض، سلامة حجازي، منيرة المهدية، أحمد الشامي، أولاد عكاشة، وغيرهم ممن لم يعرفهم.. شارع صاخب نابض بالحياة. أخذ قلب كوش يدق لأنه سيتعرف لأول مرة على هذا الشيء المسمى بالمسرح. لقد قرأ عدة مسرحيات من قبل سواء في كتبه أو حتى الفصول القصيرة التي تنشر بجرائد اللطائف المصورة وأبو نظارة والكشكول، ولكنه لم يحضر واحدة قط.

حين طالعتة صورة نجيب الضخمة مرتديًا زيًا مزركشًا كأحد سلاطين ألف ليلة وليلة وتحتها اسمه وعنوان «المسرحية الاستعراضية الفكاهية حمار وحلاوة» توقف وعرف أنه وصل المكان المنشود. على الباب انتظر دوره في الطابور الطويل وأخرج تذكرته التي قلبها الرجل المتأنق فوجد عليها ختم نجيب. «إستر»

نده بصوت مرتفع. أقبلت فتاة أرمينية نصف عارية غاية في الروعة أربكت كوش. «ضيف للأستاذ». صحبتها الفتاة التي تحمل حول رقبتها صندوقًا عريضًا يحفل بجميع أنواع السجائر واللب والسوداني والكرملة والعلكة. قادتة إلى مدخل المسرح الواسع ومنه إلى أحد الصفوف المتقدمة. «اوود وين ما تحب» قالت له قبل أن تعطيه قرطاسًا من السوداني وتغادره. المسرح كبير وإن كان بسيطًا لا يشبه دار الأوبرا الخديوية العظيمة التي زارها كوش مع كتشنر من قبل، ولكن بهذه المعاملة الملوكية يشعر بأنه ملك العالم وهو ينظر إلى المتفرجين الداخلين من كل مكان ويتصارعون على المقاعد المميزة التي توفر لهم أفضل رؤية لخشبة المسرح. بينما ينتظر بدء العرض انتابه حماس مفاجئ بأن تلك اللحظة قد تمثل بداية صداقة جديدة تولد بينه وبين نجيب.

أظلمت الأنوار ثم سلطت على خشبة المسرح. خرجت فرقة من الراقصين والراقصات وبدأت الموسيقى تصدح في المكان. قدموا استعراضًا بكلمات لطيفة وموسيقى أطربت كوش كثيرًا. ثم ظهر صديقه نجيب في شخصيته الشهيرة «كشكش بيك» عمدة كفر البلاص. لم يعرفه في البداية من كثرة ما غير من شكله، ولكنه أدرك الصوت المرتفع وحركات الجسد المهتزة والمشحونة بالطاقة المبهرة. ضحك كوش كما لم يضحك في حياته من قبل. تتخلل المشاهد التمثيلية مقطوعات موسيقية راقصة يغني فيها نجيب بصوته الخشن الذي لم يكن حسنا على الإطلاق. نسي كوش الزمن بينما يشاهد أحداث المسرحية التي يحلم فيها كشكش تحت تأثير المخدر أنه صار ملك مصر وتوافدت عليه مختلف طوائف المجتمع تشكو

له حالها المرير أثناء الحرب، بدءًا من الغسالات والسقائين ووصولًا إلى الخواجات ومدمني الأفيون، ويعددهم الملك الجديد بحل جميع مشاكلهم إلى أن يستيقظ ويكتشف أنه راح في حلم عميق، وكل ذلك في استعراضات راقصة مبهرة. مرّت استعراضات المسرحية بسرعة بينما كوش يستوعب كل تفاصيل التجربة من حوله ويزداد سعادة فوق سعادته.

حين أنيرت الأضواء وضج المسرح بالتصفيق تحية للفرقة لم يتمالك كوش نفسه، على النقيض من رزائته المعهودة، من التصفيق هو الآخر، فقد تفجرت في نفسه طاقة جديدة لم يكن يعرف بوجودها بفضل ذلك الفن الذي رآه يمثل أمام عينيه وأصابه بالعدوى وشحنه بتلك الطاقة التي شاركها فؤاده مع كل هؤلاء الجالسين في المسرح في تلك التجربة الجماعية الفريدة. نوع من الوحدة والتآلف نشأ بينه وبين كل الجالسين حوله جعلته يشعر أنه قريب منهم، وليس وحده.

أدرك أيضًا أنه لأول مرة يتواجد تحت سقف واحد مع هذا العدد الهائل من المصريين.

نزل كوش سريعًا وبحث عن إستر، ذكرها بنفسه، ثم طلب منها إرشاده إلى غرف الممثلين ليقابل «صديقي نجيب». نظرت له بجلبابه وسماره وتعجبت، ثم أشارت له باسمه إلى باب خلفي صغير. «هوش هنا». توجه نحو الباب ودفعه بيديه.

دارت رأسه بينما يعبر الممر الطويل كالسرداب.. تقع عيناه الآن على

كرنفال مجنون بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. الكل يسير بحيوية احتفالية مرتدين أزياء غرائبية ومساحيق صارخة.. ممثلات بريش وردي فاقع حول رقابهن.. رجال بشوارب تقف فوقها الصقور.. أقزام وعمالقة.. موسيقيون يتعثرون في آلاتهم النحاسية الضخمة واللامعة.. سيدة بمعبان حول خصرها ولسانه يرتعش خارجاً لمرأى كوش الذي أفسح لهما الطريق بنظرات زعر أثارت ضحكها.. الحيوية والصخب في هذا الممر بمقدار لم يعهده كوش في حياته.. هؤلاء هم الذين رأهم لتوه على خشبة المسرح ولكن من مسافة بعيدة. الآن فهم أن تلك المبالغة في أزيائهم ومساحيقهم هي التي جعلته يراهم بهذه الحيوية من تلك المسافة.. هذا عالم آخر.. عالم يفوق في حرارته وجنونه صخب الفندق الراقى وهدوء سكن كتشنر القاتل.. لم يطق الانتظار كي يصل إلى نجيب ويشكره على تلك القوة الدافعة من الحياة التي بعها هذا المكان في أوصاله بمجرد أن وطئته قدماه. من كل الأماكن المحدودة التي شهدها كوش حتى تلك اللحظة.. هذا بالنسبة له العالم الذي لا يريد مغادرته أبداً.

دخل إلى الغرفة المعنونة «الأستاذ» فوجد نجيب جالساً بها وهو على حال غير تلك التي رآها عليه يوم السباق أو حتى على المسرح للتو. يجلس أمام مرآة محاطة بمصابيح كهربية مستديرة وقد تهدل جسده بالكامل بينما يتفصد وجهه وجبينه عرقاً. نصف المساحيق التي تغطي وجهه ممسوحة، تخفف من الأزياء المزركشة وجلس متدثراً بعباءة خفيفة. عيناه مغمضتان وثقلته ثقل. أغلق كوش الباب وراءه ونظر نحو شاب خجول يجلس في الزاوية. الغرفة كلها مظلمة عدا تلك المصابيح المحيطة بالمرآة. مرت لحظة صمت لا

يقطعها سوى ضجيج الممثلين في الخارج، ثم فتح نجيب عينيه فجأة ونظر نحو كوش وكأنه يراه لأول مرة في حياته.

«آه. صديقي. كيف حالك. اجلس.»

أتى صوته متعبًا وخاليًا من الحياة. جلس كوش بينما يسلم على الشاب الخجول.

«هذا صديقي بليغ خيري. حسنًا ليس صديقًا قديمًا مثلك فقد التقيته منذ أيام، ولكني مؤمن بأننا سنفعل أشياء عظيمة أليس كذلك يا أستاذ؟ إنه مدرس لغة إنجليزية ولكنه يكتب أزجالًا رائعة.. رفته من مصلحة التليفونات لأن سيادته أصر على إصلاح هاتف أحد السادة الإنجليز حين يصيبه الدور.. تخيل!»

وجدها كوش فرصة ليذكر نجيب باسمه، وإن كان فتوره قد اعتصر قلبه وأشعره بخجل عظيم.

«أهلاً سيادة الخوجة. كوش كو، نادل سابق بفندق شبرد وأعمل حاليًا في منزل طبيب خوجة بقصر العيني. في خدمة سيادتكم.»

تمتم الشاب المنطوي بكلمات خفيضة بينما يوجه نظرة لوم خجول نحو نجيب. فهم منها كوش أنه يصحح له اسمه. «بديع وليس بليغ» قال.

بدا أن نجيب لا يسمعها وكأنه عاد للغفلة مرة أخرى. بعد قليل نهض في تعاقل بينما يجر رجليه. انفتح الباب بغتة فوجد كوش امرأة بيضاء ممتلئة تقف بمساحيقها الثقيلة وتتحدث بصوت مزعج. عرفها كوش.. إحدى نجومات المسرحية.

«هناك ضيوف يريدون...»

صرخ نجيب بصوت مرتعد انتفض له كوش وبديع..

«ليس الآن!»

أغلقت الممثلة الباب بسرعة بينما ارتمى نجيب بجانبهما. عاد إلى الهدوء مرة أخرى في لحظة.

«حسنًا يا كوش هل أعجبك العرض؟»

«نعم نعم جدًا فوق ما تتصور. رائع». قال كوش بفتور وهو ينظر نحوه بتوجس.

نظر نحوه نجيب بنظرة قوية وحاسمة. توتر كوش. ابتسم نجيب فجأة في إرهاب.

«لا تقلق يا صديقي سأكون بخير. أنا فقط متعب. أستنفد جل طاقتي فوق المسرح ثم لا أعود أشعر بأطرافي، أحتاج إلى بعض الوقت وسأعود نجيب الذي تعرفه. آه يا كوش. إنه هذا المسرح المنحوس وتلك الفرقة اللعينة. سيقضيان عليّ يومًا ما. هل أعجبك العرض؟»

وكانه نسي أنه قد سأل لتوه. أعاد عليه كوش إعجابه. نظر نجيب في الفراغ ولم يقل شيئًا، بل بدا أنه لم يسمعه بالأساس. تبادل كوش النظر مع الشاب في ارتباك. ماذا يفعلان مع هذا الرجل المجنون؟ بدا على بديع أنه يريد الانطلاق نحو الباب والفرار دون عودة. فجأة انطلق نجيب يحدث نفسه بصوت بالغ العمق دون أن يحيد نظره عن النقطة التي يسهم بنظره نحوها وكأنه يلقي خطابًا مرتجلًا من فوق

«أنا وأمين كنا نشكل فريقًا رائعًا، ولكنه طماع. من غدٍ سنبدأ أنا وبلغ في وضع مسرحية جديدة، صديقنا هذا يا كوش يحمل أفكارًا وطنية عظيمة. إنه يريد تسخير موهبته لتصبح سلاحًا ضد ولاد الكلب. تخيل معي لو امتزجت فكاهتي بالأزجال ذات القيمة الوطنية. هذه الحرب على ويلاتها نقطة انطلاق لنا جميعًا، وهذه هي الروح يا بديع التي أريد اقتناصها. فليذهب النقد إلى الجحيم. إذا كانوا يكرهون كشكش لهذه الدرجة رغم أنه هو من يدفع لنا جميعًا مرتباتنا وشعبنا الجميل لا يكاد يكتفي منه حتى يطلب المزيد، فإننا سنقدم لهم شيئًا رائعًا. قل لي. قل لي أنك ستكتب شيئًا يلهب المشاعر ويضحك النظارة في نفس الوقت. هل تعدني بذلك؟ الآن مع ألحان كميل أيضًا سيجلس أمين صدقي والكسار في بيوتهما. هل تريد أن تأكل شيئًا يا كوش؟ بعد قليل نقوم وأدعوك إلى عشاءٍ عظيم لم تذق مثله أبدًا. كوش هذا يا بديع كان يعطف عليّ حين طردتني أمي من المنزل وعضني الفقر دون حتى أن يعرف من أنا. كل هذا من أجل ذلك الشيطان الملعون المسمى بالفن. وأنا نذل. ما أن قبضت أول أجره ووجدت سقفاً فوق رأسي حتى انقطعت عن الأذبية ولم أعد لأشكر له صنيعه. تلك الأيام السوداء تعلمك الجفاء والقسوة. إنها أكثر سوادًا من صديقنا هذا ولكنه كان نقطة مضيئة فيها. إنك تذكرني بكل ما أكرهه من الأيام يا ولد ولكني أحبك. تعال لزيارتي كلما استطعت. وفي كل مرة أراك سأدعوك لتناول الطعام. سوف أرد جميلك ما حييت. هل تعلم أن هذه المسرحية تحقق إيراداتًا يتخطى الألف جنيه؟ هل يمكنك استيعاب الرقم؟ إنك لا تفهمه

بالطبع. ولا أنا. أمي الآن تتفاخر بي. ولكنها كانت تحتقرني. الآن تقول للناس هذا نجيب. ابني. حسنًا شكرًا يا ست الوالدة الغالية. ولكنك كنت أحن عليّ منها بعد أن رمتني في الشوارع. هل تشربان شيئًا؟»

على مرّ الأشهر التالية من سنة 18 الحاسمة سيتابع كوش خطوات نجاح نجيب الريحاني عن قرب. سيواصل زيارته إلى المسرح كلما استطاع. ويتعرف أكثر على بديع الذي كوّن شراكةً بدا أنها ستكون ناجحة مع مسرحيتهما الجديدة «على كيفك» التي حضرها كوش في عرضها الأول. ترك نجيب يدعوه إلى الطعام ويشعر بالرضا أنه يرد دينه كلما زاره. كذلك سيتعرف كوش في تلك الزيارات على الأوجه المتعددة لصديقه نجيب. سيفهم من هو وكيف يمكنه تلبس مئات الشخصيات في ذات الآن. ساخر وفكاهي ومتهمك في لحظة، وصامت مفكر في أخرى. يزعق حينًا ويغضب حينًا ثم يسقط في نوبة ضحك وفكاهة مرةً أخرى. تنتابه كآبة مفاجئة وغضب عارٍ ثم روح من التسامح الفياض. يراه حائقًا وبخيلًا مع أفراد فرقته ثم في أحيان أخرى يكون بالغ الكرم والرقّة. صراع نجيب مع الفقر وشعوره بعدم الأمان يسيطر عليه، ولذلك في تلك الفترات التي يستعيد فيها نفسه وينزع عنها قناع الرجل الفكاهي لا يتحدث عن شيء سوى الفقر والمرض وفقدان الأحباء والخوف من المجهول.

في نفس الوقت يواصل النجاح بشكل معقول للغاية، وبدا أنه يثير حسد الكثيرين، يتابع كوش الجرائد وما تكتبه عن نجيب من هجوم وتقريع وتقليل من قيمة ما يقدمه بل واتهامه بأنه يفسد

الذوق وينافي الآداب العامة. ذلك هو الهم الأكبر الذي يأكل صديقه حيًا. يبحث عن الاحترام والتقدير. يشعر بأن بدايته الفكاهية المغرقة في السذاجة مع شخصية كشكش قد وصمته للأبد بأنه محب للابتذال إلى حد السفالة. قرأ مقالة تسب نجيب وتنعتة بأقذع الألفاظ، ولكنه لم يجرؤ ولا مرة على مناقشته في ذلك الأمر أو ذكر أي من تلك الأمور. يفكر دائمًا كيف يشعر نجيب. ولكن مسرحياته مع بديع، خاصة بعد انضمام شاب قصير من الإسكندرية لهما كملحن للأوبريتات اسمه سيد، كانت تجد صدى هائلًا لدى الناس في الشارع، وتعكس حالة الغليان تلك التي يشعر بها المصريون خلال الحرب. وجد كوش في علاقته بنجيب بعدًا آخر من الصراع الوطني الذي كان منغمسًا فيه مع أعضاء الجمعية في الفندق.

في ليالي السهر حول أكوام الكباب أو الأسماك، يحكي كوش لبديع ونجيب وسيد عن مغامراته مع كتشنر وروزفلت وريكاردو، يحكي لهم جانبًا آخر من الحياة لم يعرفوه هم أيضًا، وهكذا بات كلا الطرفين يتبادلان حيواتهما مع بعضهما البعض، كوش من جهة، والثلاثي الفني من جهة أخرى.

فضول ثلاثتهم لمعرفة ما يحكيه كوش عظيم، ويشعر هو بالإغراء أن يحكي لهم عن حياته السرية ولكنه يخاف من غضب خاله رغم أنه لن يشكك لحظة في وطنية ثلاثتهم، ولكن نجيب وسيد بالذات محبان للخمر ولا يأمن أن يقولوا شيئًا رغبًا عنهما. يكفيه ما يخبره لهم متمنيًا أن يجدوا فيه إلهامًا ربما يكتبون من خلاله مسرحية تفيد الجماهير. على الرغم مما وجده كوش من متعة في مرافقة

ذلك الثلاثي، وعلى الرغم من العناية المرهقة التي يتطلبها نجيب لمراعاة مشاعره المتقلبة وصراعاته النفسية العنيفة، إلا أن كوش يرى في تلك اللقاءات، وما ينتج من هذا الثلاثي من فن، جانباً آخر من الصراع الوطني المتأجج قد لا يختلف كثيراً عما يقوم به أعضاء جمعيته. وطبعاً لم يفوت كوش الفرصة ليخبرهم بفخر أن أقرب أصدقائه هو الدكتور طه حسين الذي أوشك على إنهاء تعليمه في فرنسا ورفع رأس مصر بين العالم.

مرت الأيام الثقيلة وانقضت كما تمر وتنقضي الأيام في جميع الأزمان مهما ثقلت، وفي نوفمبر من عام 18 أعلنت الأمم المتحدة وراء البحار البعيدة انتهاء الحرب الكبرى-تم اختيار الساعة الحادية عشرة في اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر في رمزية مبهمة، وانزاحت عن العالم غمة ثقيلة تركت في إثرها وفيات قدرت بعشرين مليوناً من الأنفس التي راحت هباءً.

وكعادته أصبح الفندق انعكاساً لكل ما يحدث. سرعان ما تم تفكيك أسرة المستشفى وعادت القاعة إلى وظيفتها الطبيعية، وكان أولها حفل ضخم لم ير الفندق مثله من قبل شارك فيه مئات المدعوين من الأجانب وممثلي السفارات وأفراد الجيش والتكنات مع ذويهم احتفالاً بانتهاء الحرب. الفرحة في أوساط الأوروبيين المقيمين بالقاهرة كانت معدية بشكل أثار ضحك كافة العاملين في الفندق الذين يركضون يميناً ويساراً ليلحقوا مئات التفاصيل في ذلك الحفل الكبير. وسط كل هذا الصخب يحمل كوش بداخله حزناً كبيراً لفراق الدكتور حلمي والأخت ماري وبقيّة الممرضات، بل وحتى

المرضى الذين كانوا يخرجون تباغًا في الأيام الأخيرة.

شعر كوش أن مرحلة من حياته قد انتهت، وتساءل عما تحمله المرحلة القادمة. ودع الدكتور حلمي بعين دامعة ولكنه وعده بقاء قريب. فعلى مدار العامين الماضيين توطدت علاقة كوش بجيران الدكتور حلمي، ووجد وسطهم دفئًا لم يكن على استعداد لأن يغادره أبدًا. شعر نحوهم بوذ لم يحمله في حياته سوى لخاله وخولي وطه وأجاثا. أدرك مع مرور لقاءاته بهم أن عائلة تتكون له، وأنه ليس وحيدًا في هذا العالم كما شعر دائمًا، وأن الكتب ومن يخدمهم ليسوا فقط هم حياته. بل إن هذه الروح العائلية جبرت بعض الشيء جرح نفسه الذي لا يندمل مما حدث له على يد الطبيب الكريه. ربما لن يتمكن أبدًا من تكوين أسرته الخاصة، ولكنه على الأقل ليس وحيدًا الآن. ذلك الشعور بالعائلة والتعاضد، تلك الفطرة والعفوية، والقدرة على تخطي كل الظروف مهما كانت صعبة، نكاتهم وضحكاتهم وصفاتهم العجيبة. شارب الضابط سليم، وشكوى الأستاذ حنفي مدرس الرياضيات بمدرسة خليل أغا، خجل محسن وحبه للثقافة، تجهم عبده واعتداده بنفسه، وأخيرًا افتتاحهم جميعًا بسنية والذي شعر كوش أنه ينذر بحرب عائلية قد تقوم في أي لحظة، خاصة أن لا أحد منهم يصرح به ويمارسه كل منهم في سرية بمنأى عن الآخرين.

لم يخبر كوش الدكتور حلمي عن هذا الأمر بالطبع، واكتفى بأن يطمئنه بأن قهوة الحاج شحاتة المقابلة لبيته أصبحت مزارًا شبه أسبوعي له، وبالتالي فإنه سيمر عليه كلما سنحت الفرصة. أما ماريّا فقد استعدت للعودة إلى الإسكندرية وطلبت من كوش بحرارة

صادقة أن يزورها بالدير إن حدث وأتى يومًا ما.

وفي النهاية، ورويًا رويًا، عاد كل شيء إلى حاله، عدا شبح الآلام والأنين الذي لم تزل أصداؤه تتردد بجدران قاعة الرقص العامرة بالفرح الآن.

بعد الحرب واصل كوش انخراطه في عمليات هامشية تخص الجمعية السرية. تدور معظمها حول توصيل الرسائل أو نقل معلومات يسربها العاملون في قصور أعضاء الجمعية التشريعية أو القصر السلطاني. ينقل كوش تلك الرسائل للفاعلين في الحركة الوطنية والجرائد المتعاطفة معها بعد غلق صحف «الشعب» و«المؤيد» و«الجريدة» أثناء الحرب. انتابته سعادة وهو يدخل مقرات الصحف التي لا تزال تعاند في الصدور لأول مرة ويتواجد بالقرب من خلايا نحل نشطة تنتج المنشورات التي لطالما فتنته وكأنه لا يدرك أن بشرًا يكتبونها، وإنما يتصورهم كائنات خيالية تحلق في فضاء العالم.

لتلك الرسائل التي ينقلها كوش أبلغ الأثر في استباق الصحف المعارضة للكثير من الأحداث، ومنحهم الوقت الكافي لشن الهجوم على تقاعس السلطان عن مناقشة رفع الحماية عن مصر إثر انتهاء الحرب بعد أن لم يعد هناك مسوغ لها. مختلف القوى السياسية في البلاد تحاول إجبار الإنجليز على التوقف عن الخروج بحجج جديدة تبرر وجودهم في مصر، خاصةً مع خسارة العثمانيين الحرب وانهيار إمبراطوريتهم، وهو ما يعني رسميًا خروج مصر من كنف

إمبراطورية حاكمة إلى أخرى، وكأنه ليس واردًا يَوْمًا أن تصبح مصر مجرد مصر، تقف مستقلةً وسط بلدان العالم دون تبعية لأحد. سنوات الحرب نقطة تحول ليست فقط لكوش ولكن لكثيرين مثله بدأوا يتساءلون إلى متى سيظلون جزءًا من شيء لا يريدونه، يصل إلى وعيهم الآن مفهوم غريب اسمه الإرادة الحرة، تعبر عنه كلمة اسمها الحرية. حتى ذلك التاريخ كانت فكرة مصر بلا أجناب مستحيلة وغير واردة حتى على الأذهان، بالذات ذهن كوش الذي تربى وسطهم، ولكن الآن اختلفت الأهواء. هناك شعور عام بعدم الثقة في وجود مصريين يمكنهم تقلد شئون بلادهم وحدهم دون معونة دماء أجنبية تجري في عروق الدولة. ولكن الخال وخولي والدكتور حلمي وعائلة محسن ومقالات الجرائد الوطنية تعلّمه الآن الفارق بين الضيف الأجنبي والأجنبي كضيف ثقيل لا يريد المغادرة، وكيف يحق لمصر مواصلة دورها كمركزٍ لالتقاء العوالم دون عودة خيرها على الرجل الأبيض.

في تلك الفترة لاحظ كوش تغييرًا في المزاج العام للمطبخ. فقد خفت الكلام عن الحركات المسلحة وضرورة التعاون معها، وبات التركيز على الخدم العاملين في بيوت الأجانب، والذين تولوا دور البطولة بما يقدمونه من معلومات يعرضها أعضاء جسخنما على كل من يحتاجها، ولكن المزاج العام الذي لحظه كوش هو ميل الخال وخولي قائدي الجماعة إلى دعم الاتجاه الجديد الذي يصعد بقوة.. أعضاء الوفد المصري.

لأول مرة يسمع كوش كلامًا إيجابيًا عن باشوات مصريين يتقلدون مناصب في الحكم أو ينتمون لطبقة الأغنياء: أحمد لطفي السيد

وسعد زغلول وعلي شعراوي وغيرهم. كان خولي وقت الحرب يتهم هؤلاء بالخيانة لأنهم انساقوا وراء الإنجليز في بداية الحرب ووافقوا على إقامة الحوار معهم، وقدموا لهم المعونة طمعًا في الوعد الساذج بأن إنجلترا ستعلن استقلال مصر ما أن تؤدي دورها وتنتهي الحرب. والآن بعد ثبوت كذب الإنجليز، قرر هؤلاء المطالبة بالاستقلال وحق تقرير المصير ولو عنوةً. تقبل خولي تحويل ولائه لهم على مضض وقبولهم ممثلين عن المصريين في المرحلة الحالية بعد أن فتر نشاط الجمعيات السرية بوفاة أتباع مصطفى كامل وخفوت صوت رسالته مع مرور الأيام، خاصةً مع انهيار الدولة العثمانية ونفي عباس اللذين كانا الداعمين الرئيسيين لتلك الحركة التحررية. سقوط الخلافة أدى أيضًا إلى إعادة تشكيل الخريطة العربية والإسلامية باتفاقيات ووعود مثيرة للريبة والغضب بين الإنجليز والفرنسيين. «ليس لدينا خيار آخر، هم الأعلى صوتًا والأكثر إلحاحًا في مطالبنا الآن» قال خولي من بين ضروسه وهو يقرأ تصريحًا لزغلول بالجريدة.

دخل زعماء القوى الوطنية الجديدة في محاولات عقيمة من الإصلاح الدستوري والذي يضمن نوعًا من الحكم الذاتي أو الإصلاح للمنظومة التشريعية والسياسية تمهيدًا للمطالبة بالاستقلال، كالإصلاح القضائي وإلغاء الامتيازات الممنوحة للأجانب وتحديث القوانين، وإعادة مجلس النواب ممثلًا عن الشعب بعدما تم تعطيله واستبداله بالجمعية التشريعية الصورية، وتعيين الوزراء المقبولين من الشعب بدلًا من التركيز على هؤلاء الموالين للإنجليز.

ولكن السلطان أحمد فؤاد الذي ورث السلطنة عن حسين كامل

ضعيف كسابقه، والإنجليز يزدادون استهزاءً بمطالب القوى الوطنية ومماطلهً في إلغاء الأحكام العرفية متحججين بعدم استتباب السلام بين القوى الأوروبية المتناحرة بعد، بل يزدادون صلًا ويحاولون تكرار نموذج الهند في مصر والنزول بها إلى مرتبة المستعمرات بدلًا من مجرد دولة ذات سيادة تقبع تحت الحماية، ويقدمون مشاريع إصلاحية وهمية -كإنشاء مجلس نواب مضحك أكثر من مسرحيات نجيب نفسها ومهين بدرجةٍ تتخطى مرافعة فتحي زغلول في قضية دنشواي- مصرين في عناد رهيب على تجاهل حقيقة أن مصر كانت دولةً قائمةً ومتكاملة الأركان من النواحي الدستورية والتشريعية قبل أن يشرفوها بزيارتهم التي لا تود أن تنتهي.

وفي نوفمبر، حين أعلنت إنجلترا وفرنسا - استجابةً لوثيقة أصدرها رئيس أمريكا في يناير من نفس العام- استعدادها لمنح حق تقرير المصير لمستعمرات عثمانية سابقة كالحجاز وسوريا، انتقلت العدوى لمصر: لماذا لا نكتسب ذلك الحق ونحن أولى به؟

ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، وتوالت الأخبار التي لا تنتهي كل يوم عن اللاشيء الذي يتحقق. وفي الوقت الذي كان يجلس فيه كوش مع عائلة محسن أو يزور نجيب في كواليس مسرحه ويسهر معه حتى الصباح رفقة بديع خيري وسيد درويش، كان سعد زغلول برفقة مجموعة من الأعضاء السابقين للجمعية التشريعية يقابلون المعتمد المصري الجديد وينجت ويخوضون معه مفاوضات عقيمة يطالبونه فيها بوقف الأحكام العرفية والرقابة على الجرائد وتنفيذ وعدهم برفع الحماية. ولكن وينجت يتعجب من رفض المصريين

لعبودية الإنجليز رغم أنهم كانوا سعداء بالعبودية للعثمانيين،
وعندها فهم أعضاء الوفد أن لا أمل في الحوار ولا نية للإنجليز في
الوفاء بوعدهم.

وعليه لم يكن من حل سوى السفر لإنجلترا نفسها ومناقشة
الحكام الإنجليز حول موقفهم من الاستقلال عوضًا عن الموظفين
العنصريين الذين يرسلونهم لحكم المستعمرات، فلربما كانت للقيادة
السياسية الفعلية في المتروبوليتان رأي أكثر حكمة واستعداد
للسماع وليس فقط تنفيذ الأوامر.

وكانت رغبة أعضاء الوفد في السفر كفيلة بأن ينهار كل شيء رأسًا
على عقب.

رفض الجيش الإنجليزي منح جوازات السفر للوفد بهدف تعطيلهم
عن السفر لإنجلترا، وفي حادثة نادرة تعاطفت الحكومة مع أعضاء
الوفد المصري واستقال بعضهم، وامتنع آخرون عن تولي الوزارة،
وبقيت البلاد بلا حكومة أملًا من ممثلي الشعب المصري في تصعيد
الأزمة وإجبار الحكومة الإنجليزية على الاستماع إلى مطالبهم.

ومع حالة الجمود تلك، بدأ يصبح للمصريين صوت موحد بل
ومسموع بعض الشيء... بعض الشيء.

وسط تلك الأجواء المشحونة واصل كوش عمله الهادئ في منزل
الطبيب المخمور، مفتقدًا المشاركة في تلك الأحداث الجارية والتي
يطلع على تطوراتها سواء من الجرائد أو كلما مر على الفندق يوم
إجازته قبل لقاء عائلة محسن على قهوة شحاة -انقطع عن زيارتهم

لفترة لإصابتهم جميعًا بالحمى الإسبانيولي التي اجتاحت البلاد ذلك العام، وبعدها حين يحل المساء يتوجه إلى المسرح لحضور العروض، ثم لقاء نجيب وبديع وسيد درويش حتى ساعة متأخرة من الليل. هذا هو الروتين الأسبوعي ليوم إجازته الذي حافظ عليه كوش لشهور طويلة... إلى أن سقط الطبيب العجوز صريعًا إثر أزمة قلبية داهمته بحلبة السباق فور أن خسر رهانًا كبيرًا على فرسه المفضل. ظل كوش بجانب الزوجة المكلومة حتى انتهت مراسم الجنازة ونقل الجثمان إلى ويلز. بعدها عاد مرة أخرى إلى قواعده سالمًا بالفندق العتيد.

في فبراير من العام التالي ألقى حجر في البحيرة الراكدة حين حضر كوش-مندوبًا سرّيًا عن الجمعية السرية- محاضرةً يلقيها قاض إنجليزي اسمه برسيغال، يحاول عبر زيارته لمصر رسم ملامح المرحلة القادمة للبلاد فيما بعد الحرب كمستعمرة إنجليزية عبر إبدال القوانين المصرية بالإنجليزية. فوجئ كوش بدخول سعد زغلول ومجموعة كبيرة من مؤازريه لحضور المحاضرة، لتصبح هذه المرة الثانية التي يرى فيها الزعيم المصري الأسمر الذي بات اسمه يتردد بكثير من الإعجاب في المطبخ. تحدث سعد بعد برسيغال طالبًا رفع الحماية عن مصر. كانت حركة شديدة الذكاء. فالتجهر ممنوع على المصريين، وبالتالي كان الحل هو حضور تجمهر مسموح به قانونًا لمحاضرة يلقيها قاض إنجليزي في جمعية الإحصاء، ومن هنا وجد سعد المنبر الذي يستطيع الكلام منه.

انهر كوش بهذا الرجل الطويل ذي الشارب الكث والعينين

الضيقتين اللتين تشبهان أعين الآسيويين وتشعان ذكاءً وهدوءًا والأهم: إصرارًا مخيفًا لآلد أعدائه. ترك لديه ذات الانطباع الفضولي الذي تركه بداخله يوم أن رآه بالمحفل الماسوني منذ خمس سنوات.

في ديسمبر من عام 18 حين حضر كوش لأول مرة مسرحية «مصر في 1918-1920» وخرج مهتزًا من المزاج الوطني لتلك المسرحية الكوميديّة ذات المغزى السياسي طلب من نجيب عشر تذاكر. انهار نجيب، البخيل بعض الشيء، من ذلك الطلب الجريء ولكنه وافق على مضمض. استغرق الأمر أكثر من شهرين حتى يتنازل نجيب ويمنحه التذاكر المطلوبة.

سرعان ما قام كوش في الأسبوع التالي بزيارة آل حلمي، ومنح طبيبه الأثير ثلاث تذاكر له ولزوجته وابنته، ثم وزع الباقي على محسن وزنوبة وسليم وعبدّه وحنفي وحتى مبروك، وجلس معهم لتناول القهوة وتناقشوا حول بيان السادس من مارس الذي أصدره أعضاء الوفد في مختلف الصحف صباح ذلك اليوم وواجهوا فيه الإنجليز علانيةً وحملوهم مسؤولية خلو البلاد من حكومة، وتعنتهم إزاء فكرة السفر لعرض القضية المصرية في مؤتمر يعقد في فرنسا من أجل إحلال السلام في أعقاب الحرب، بل والتهديد الذي يتعرضون له من قبل القائد العام للقوات البريطانية.

تبقت تذكرتان منحهما كوش لخاله وخولي، وكانت سعادته لا توصف بعدها حين اصطحبهم جميعًا في ليلة واحدة من ليالي مارس الربيعية لحضور المسرحية، وخرجوا كلهم يهتزون طربًا

ووطنية بدرجة لا يتخيلها، ثم أخذهم في فخرٍ لمقابلة نجوم المسرحية وعلى رأسهم نجيب الذي احتفى بضيوف كوش أيما احتفاء.

وبينما يودعهم نجيب إلى خارج المسرح أتت الأخبار أن سعد زغلول ورفاقه بالوفد المصري قد تم اعتقالهم في اليوم السابق، وترحيلهم إلى جزيرة اسمها مالطة. أصابهم الوجوم الصامت. وفي لحظة الصمت تلك، بالرغم من الأخبار المزعجة، وجد كوش نفسه محاطًا بكل من يحبهم في هذا العالم، أدرك كوش أن تلك الليلة هي الأسعد في حياته... ولم ينسها حتى يوم مماته.

لم يكن يعلم أنها ليلة عيد مولده الثلاثين...
وكانت ليلة لم يعد شيء بعدها كما كان...
ليلة ستتغير حياته ومصر بعدها إلى الأبد...
كانت ليلة العورة...

الفصل الثاني عشر

الثورة

(1919)

في اليوم التالي استيقظ كوش في الصباح ونزل إلى الفندق بعد أن ارتدى زي العمل. لا يزال كل شيء على حاله.

ساعد في تقديم الإفطار وتنقل بخفة يشوبها القلق بين الضيوف الأجانب يلاطفهم ويحادثهم كعادته. بعدما انتهت ساعة الإفطار العصبية على كل العاملين بالفندق أتت الهدنة التي سمحت، ولأول مرة في تاريخ الجمعية السرية، باجتماع أعضاء الحركة وقت الصباح. الأخبار تأتي ملفزة بأن الشعب حتماً سيتحرك، وأن القلاقل في بيت سعد زغلول، المسقى ببيت الأمة، قد وصلت أشدها وأن هناك تجمهراً هناك. لم تتعال الأصوات هذه المرة خشية وصولها إلى أي شخص خارج محيط المطبخ، خاصة أن السيد ستيفنسون الطيب كان قد استيقظ في ذلك الصباح بإمساك مزمين ووجه ممتقع كأنه على وشك ملاقة الموت.

ولكنه لم يكن وحده الذي سيواجه الموت في ذلك اليوم العظيم..

في الظهيرة تعالت أصوات هائلة أمام الشرفة الخارجية، وهرع الضيوف إلى الداخل في زعرٍ صاخب. خرج كوش وخولي والخال إلى الشرفة ليجدوا أمامهم مسيرة هائلة من طلبة المدارس تهتف بسقوط الاحتلال وعودة سعد ورفاقه. نظر ثلاثتهم إلى بعضهم البعض بعيون تقفز منها قلوبهم، ودون أن يقولوا شيئاً تحدثوا معاً

بلسان اللحظة. خلع كل منهم إزاره على عجل ورمى به إلى أرض المطبخ وخرجوا مسرعين للانضمام إلى المسيرة..

سار كوش مع خاله وخولي في البداية، ولكن خطوات الخال العجوز الذي يناهز السبعين كانت تبطئه. لا يدري إلى أين يسيرون ولكنه يعلم أن ما يحدث الآن يختلف عن كل مظاهرة رآها تمر من أمام شرفة الفندق من قبل. ليس بسبب حجمها المهول فحسب، ولكن أيضًا بفضل تلك الروح المخيفة التي تحرّكها. ذلك الصوت الجماعي الموحد الذي يصرخ بقهر سنوات الحرب وما قبلها. هناك شيء ما يزلزل الأرض ولكنهم لا يعرفون بعد ما هو وإلى أين سيصير. كلما سارت المسيرة بضع خطوات ترك كل من يشاهدها ما بيده وانضم لها. أصحاب المحال أغلقوا محالهم وساروا مع الركب. الباعة الجائلون رموا ببضاعتهم البسيطة التي تثقل كواهلهم المنحنية وانضموا بدورهم. كذلك فعل الشحاذون وسائقو الحناطير وباعة الحلوى وملمعو الأحذية وباعة الفواكه والبيض والجبين، وموظفو الدوائر الحكومية ومكاتب المحاماة وعيادات الأطباء ومكاتب الشركات التجارية وبورصة القطن الذين ينزلون من مبانيهم أفواجًا. كلّ يقوم بدوره فقط بالمسير وسط هذا الجمع الواحد. جميعهم يشعرون أنهم قد شهدوا تلك اللحظة من قبل، وكأنهم عاشوها في فترة سابقة والآن يعيدون إحياءها مرة أخرى.

لم يكن أحد من هؤلاء ومنهم كوش ورفيقاه يعلم كيف ستحل عليهم ليلة ذلك اليوم، ولكنهم يعرفون معرفة اليقين أن المسير الآن، تلك الخطوات التي تعبر الطرقات إلى المجهول، هي كل ما يجب عليهم فعله وأن لا شيء أمامهم سوى المسير. لم يكونوا مدفوعين

بلحظة وطنية صادقة فحسب، بل مسيرين نحو مصير واحد اختاره لهم القدر دون أن يدروا.

لم يكن القدر وحده، بل إرادتهم الحرة التي يشعرون بها تنتقل من قلوبهم إلى حلوقهم فحناجرهم لأول مرة منذ أتى المحتل اللعين قبل سبعة وثلاثين عامًا. سبعة وثلاثون عامًا من الاغتصاب والقهر والصمت والتحمل والفرض. سبعة وثلاثون عامًا من الليل الذي لا يريد أن ينجلي. الآن باتت اللحظة تتوحد وتنتهي إلى ما ستنتهي إليه، ولكنها ستنتهي. شيء ما سيحدث ولن يقدر أحد على منعه.. اليقين الآن لن يقف أمامه حائل.

انعطف الركب عابرًا خط القطار متجهًا نحو القاهرة القديمة. القاهرة الأخرى كما أسماها طه. تذكر كوش. قاهرتهم وليست القاهرة الأجانب. وهناك تغير كل شيء. من فم كل شارع تتفجر الحوارى والأزقة والعطافات بمئات القادمين من كل صوب وحذب. قبل أن يصلوا إلى محطة القطار بات المسير مستحيلًا من فرط الأعداد المهولة التي تكدست جميعها وانصهرت في كتلة بشرية عملاقة. الآن مصر تستيقظ من سباتها العميق، وتذكر لأول مرة منذ زمن بعيد أن هناك نبضًا واحدًا يضرب في قلوب أبنائها جميعًا.

سيكتب محسن بعد عشر سنوات من ذلك اليوم رواية باسم مستعار يحكي فيها ما حدث. سيوعز هذا اليوم العظيم إلى روح مصر التي عادت لها في ذلك اليوم. وسيتكلم عن أوزوريس الذي تجمعت أشلاؤه بفضل إيزيس الروح الحية والمثابرة، والذي سيعود مرة أخرى للحياة ما إن يكتمل ويصبح جسدًا واحدًا.

ارتعد كوش وهو يقرأ تلك الكلمات بعدها بسنوات:

«في شهر مارس... مبدأ الربيع... فصل الخلق والبعث والحياة...
اخضرت الأشجار بورق جديد وحبلت وحملت أغصانها الأثمار!...
وكذلك مصر أيضًا... قد حبلى وحملت في بطنها مولودًا هائلًا...
وها هي مصر التي نامت قرونًا تنهض على أقدامها في يوم واحد...
إنها كانت تنتظر ابنها المعبود رمز آلامها وآمالها المدفونة يُبعث من
جديد... وبُعثَ هذا المعبود من صلب الفلاح! ما غابت شمس ذلك
النهار حتى أمست مصر كتلةً من نارٍ، وإذا أربعة عشر مليونًا من
الأنفس لا تفكر إلا في شيء واحد: الرجل الذي يعبر عن إحساسها...
والذي نهض يطالب بحقها في الحرية والحياة؛ قد أخذ، وشجن،
وئفى، في جزيرة وسط البحار، كذلك أوزوريس الذي نزل يصلح
أرض مصر ويعطيها الحياة والنور، أخذ وشجن في صندوق، وئفى
مقطعًا إربًا في أعماق البحار»

كتب محسن تلك الكلمات لأن اللحظة خُفِرت في داخله حيث
عاشها بكل تفاصيلها، فقبل أن يخرج كوش من الفندق بلحظات،
كان محسن يقفز من فوق أسوار مدرسته مع زملائه إلى الشوارع
يهتفون ضد الإنجليز. وقادته مسيرة الطلبة الصغار إلى جوار مدرسة
الهندسة حيث لقي عمه عبده، وسار معه، ثم انضم لهما سليم وحنفي
ومبروك، وهتفوا جميعًا في صوت واحد أنساهم حزنهم العميق
لضياع سنية التي كانت قد حظمت قلوبهم جميعًا على مدار العام
الفائت، فاكسبوا روحًا جديدة مستعدين مرةً أخرى أخوتهم التي
فرقها الحب الضائع.

على الناحية الأخرى من المدينة، خرج نجيب الريحاني بصحبة
فرقته من المسرح وانضموا إلى جحافل المظاهرات، وقادوا مظاهرة
يصدر في مقدمتها صوت سيد درويش وهو يغني ألحانه الوطنية
التي لطالما حفلت بها مسرحيات الريحاني.

ولكنه لم يظل حلقًا ورديًا كما ابتدأ...

قرب الأزهر وحين انضم شيوخه وطلبته إلى الجحافل الجبارة
ظهرت المدرعات الإنجليزية البغيضة يحيط بها الضباط والجنود.
أطلقوا النيران. بدأت الأجساد تتفجر من حول كوش. التفت
حوله فلم يجد خاله أو خولي. افترق ثلاثتهم عن بعضهم البعض
دون أن يدري في خضم اللحظة. ركض باحثًا عن ساتر بينما يكبر
المتظاهرون ويصرخون بحب الوطن وهم يرون رفاقهم الذين لا
يعرفونهم ولكنهم تربطهم بهم أخوة الأرض والدم وقد تساقطوا على
الأرض. هاجوا في هستيريا عارمة وانطلق بعضهم يحطم واجهات
المحلات بينما انطلق آخرون بغضب كاسر وهاجموا عربات الترام
مخرجينه عن قضبانه. حاول بعضهم تحطيم الأرصفة واستخدام
حجارتها كطوب يردون به على الجنود الذين يصطادونهم كالذباب.
رأى كوش قسيًا يسير بجانبه وهو يبكي بينما يحمل صليبًا ضخمًا
يحاول أن يحمي وجهه به من الرصاصات الطائشة. لم يكن يحتمي
بالصليب رمزًا فقط ولكن بقوة المسيح التي لا بد وأنه أيقن أنها
حاضرة في تلك اللحظة.

غلي الدم في عروق كوش بينما يسمع صوت الضابط الإنجليزي

يصرخ فيهم أن يعودوا إلى بيوتهم وإلا حوكموا بتهمة العصيان العام وخرق القوانين الغرفية. بدا صوته ضربًا من الجنون وكأن الضابط قد عمي عن القوة البشرية الهائلة التي تحيط به من كل جانب. التحم بعضهم مع الجنود ولكنهم كانوا عزلاً فسقطوا بسرعة. بدأ الجنود في التجرؤ ومحاولة القبض على من يستطيعون القبض عليه. فجأة وجد كوش خولي على مقربة منه يستند إلى عمود إنارة وهو يتقيأ. هرع نحوه وأمسك به. ملابسه كلها مزرقة بالدماء. طمأنه كوش وحاول أن يصحبه إلى مدخل إحدى البنايات. حين أدرك خولي في هذيانه أن من بجواره كوش سلمه يده ليقوده.

مع أول خطوة نحو المدخل انفجر دماغ خولي وسقط بغتة على الأرض. ارتاع كوش لمنظر الدماغ المتناثر ونظر حوله ليرى من أين أتت الرصاصة. ركضت مجموعة من المتظاهرين بسرعة لتحمل الجثة إلى جانب الطريق. انهمرت الدموع من وجهه بينما يركض خلفهم يحاول اللحاق بهم مخبرًا إياهم أن هذا أبوه. ركع إلى الأرض حيث وضعوه وهم يلقنونه الشهادة دون طائل وحاول احتضانه وهو يئن. لم يستطع الإمساك برأسه واحتضانها كما أملت عليه فطرته أن يفعل، فقد وجد مكانها مجرد سوائل لزجة ودم ساخن أحرق أصابعه.

حين شعر بأصابعه تخرق دماغ أول إنسان التقاه بابتسامة واسعة حين أتى القاهرة العظيمة انهار وانسحبت روحه في صرخة هائلة لم تستطع هتافات المتظاهرين إخفاءها.

«اقرأ الفاتحة للحامولي أفندي، أجمل من صدح صوته في المحروسة» كان قد قال.

دون أن يفكر ترك كوش الجثة وركض بكل ما أوتي من قوة. اخترق الزحام وخلع جلبابه. ركض بكل ذرة في كيان عمره آلاف الأعوام. المتظاهرون يعطونه ظهورهم بينما يتفرقون هاربين من الرصاص المنهمر من فوق عربة عسكرية تتوسط الميدان.. اقترب حتى أصبح مستحيلًا أن يكون في مرمى النيران. لم يلحظه أحد إلا بعد أن فات الأوان. قفز من فوق المدرعة وخطف البندقية من يد الجندي الذي كان يصطاد بها المتظاهرين وضربه بظهرها بكل ما أوتي من قوة حتى انفجر وجهه هو الآخر وغاصت ملامحه إلى الداخل. سمع سبًا مقذعًا فالتفت ليجد مسدس الضابط الإنجليزي موجهاً نحوه. أغمض عينيه وانتظر اللحظة عاريًا إلا من صديري وسروال تحتاني. ولكن اللحظة لم تأت. انزلت قدمه بفعل دماء الجندي الذي قتله للتو فسقط إلى الأرض مرتطفاً ظهره بالبازلت الصلب. وهو يسقط كانت الرصاصة تخترق كتفه بدلا من صدره. قبل أن يدرك ما يحدث دهسته الأقدام المذعورة بلا هوادة، ومن بينها امتدت ذراع وسحلت على الأرض. اخترق الألم كتفه ومزقه فظل يصرخ دون أن يسمعه أحد هذه المرة. فقط يجزونه ويجزونه ثم يحملونه وسطهم ثم فوق أعناقهم. من موضعه هذا شاهد الشمس وقد تلونت بصبغة أرجوانية وتراقصت حولها دوائر بهلوانية اخترقت نظره حتى غشيته تماقا.

يفتح عينيه. الظلام دامس. لا يدري أين هو. ولكنه متأكد أنه حي. يلتفت حوله فيعاجله ألم حاد يتأوه منه بصوت واهن. ينفتح باب غرفة يرقد على سريرها ويدخل وجه يعرفه جيدًا. ينحني عليه

الدكتور حلمي ويطلب منه أن يهدأ. «أنت بخير الآن. أنت في بيتي. استخرجت الرصاصة وعليك أن تستريح». يحاول أن يقول شيئًا، ولكنه يعود إلى غيبوبته مرة أخرى.

حين أفاق للمرة الثانية لم يكن وحده. وجد عائلة محسن بأكملها حوله. يبكي محسن بوجه محمر بينما نظرات القلق من أعمامه ترتاح ما إن يبتسم كوش. أخبروه أنه قبل أن يذهب في غيبوبته الطويلة أعطى المتظاهرين الذين أنقذوه عنوان الدكتور حلمي وهو في حالة هذيان مستعرة. على الفور داهمته فكرتان قاتلتان: إنه في الأغلب قد قتل نفسًا، وأن دماغ خولي لا تزال بقاياها عالقة بأصابعه. نظر إلى يده المزينة بالسحجات والجروح في هلع، ثم انخرط في نوبة بكاء حارة.

لم ينتظر كوش أكثر من بضع ساعات حتى ارتدى ملابسه بصعوبة مدخلًا ذراعه المضمدة التي عاونه عبده في ارتدائها، شكر الدكتور حلمي الذي رجاه بكل إنسانيته أن يبقى، ونزل بصحبة محسن وأعمامه لينضموا إلى المظاهرات. ساروا وسط الركب متجهين إلى الجامعة.

أثناء المسير أخبروه أن هذا هو اليوم الخامس للثورة، وأن كافة وسائل المواصلات مقطوعة، وأن سعد سيعود حتمًا أو عاد، وأن الإنجليز يرتعدون، وأن الأخبار تصل رغما عن أنفهم من كافة المحافظات لتؤكد أن ما يحدث بها يفوق ما تشهده القاهرة، وأن

الإنجليز يبطشون بتلك المحافظات بطشًا أشد عنفًا، ويحاولون تأليب الأرمن واليونانيين والأقباط وإقناعهم أنها ثورة دينية وليست وطنية، ولكنهم لم يجدوا حتى الآن الاستجابة التي يطمنونها، فالأقباط يشاركون منذ اليوم الأول ويزداد إصرارهم كلما ازدادت الدعاية المضادة، أما الأجانب فقد استجاب بعضهم بينما ضحى آخرون بحياتهم أثناء حماية المصريين.

أخبره محسن وعبداه بلهات مضطرب من الحماسة بينما يسيرون وسط الجحافل أن الإضرابات تعم البلاد جميعًا من كافة النقابات والاتحادات والمدارس والموظفين والعاملين في المواصلات والجامعة والأزهر، وأن أعداد القتلى في تزايد، ما بين رجال وشيوخ ونساء. وأن جحافل جدد من الجنود أتت من مختلف المستعمرات في محاولة لصد الثورة، ولكنهم للفتوات أقرب منهم للجنود، فهم يسرقون الرجال ويعتدون على النساء ويحاولون تجريدن من ثيابهن وسرقة مصوغاتهن في محاولة منهم للتخريب وإشاعة الفوضى والذعر.

كذلك حكوا له عن حادثة وقعت بفندق شبرد الذي لم يكن بمنأى عما يحدث، فقد وقف أحد الضباط الإنجليز في شرفة الفندق التي شهدت مولد حب كوش بأجاثا وأطلق الرصاص على مظاهرة تمر من أمامها فأردى أحد الشباب قتيلاً، ولكن المصريين -سمر البشرة أحفاد الهمج الذين لن يحسنوا حكم أنفسهم- حملوا جثة صاحبهم وواصلوا المسير بذات الهدوء دون الالتفات للضابط المجنون أو الاعتداء عليه، مما دفع الضيوف الأجانب الذين خدمهم كوش بكل قلبه أن يصفقوا ويصفروا تشجيعًا لهؤلاء المتحضرين الذين عرفوا

من الإنسانية ما لم يصبه الأبيض المتغطرس.

واصل كوش المسير مع أصحابه حتى أصابه الإعياء. أوقفوا له سيارةً -ذلك الاختراع الذي بات مشهداً مألوفاً الآن في القاهرة- وأخذه صاحبها الشهم إلى الفندق. كل ما فكر فيه أن يطمئن على خاله وعلى البقية، وأن يرتاح في كنف بيته الذي يأويه. دخل وهو يرتعد إلى ما بدا وكأنه بيت أشباح مسكون ببشرٍ قتلتهم العزلة. لأول مرة بدا الفندق غريباً عليه. عالم لا يعرفه. وجوه الأجانب المذعورة وتمتماتهم الأجنبية التي لا تحمل شيئاً سوى الكراهية لهؤلاء الرعاع الذين يرهبونهم بتصرفاتهم البربرية أصابته بمقتٍ شديد. الظلام مخيف. خطواته عبر البهو بذراعه التي عادت مخضبةً بالدماء تثير فيهم الذعر بقدر ما تثير فيه الاحتقار لكل من حوله. وهو يسير نحو المطبخ دون أن يقول شيئاً أو يقول له أحد شيئاً أدرك أنه يدخل هذا الفندق لأول مرة منذ ثمانية عشر عاماً دون أن يكون فيه خولي. ارتمى على المطبخ وهو يكاد يغمى عليه بينما الجميع يسألونه عن خاله وخولي. صعق كوش. لم يعد خاله إلى الآن؟ منذ أيام؟ أمات هو الآخر؟ بصعوبة أخبرهم أن خولي مات وأنه ترك جثته في عرض الطريق. انهاروا جميعهم في بكاءٍ مرير. وبسنوات النضج الثلاثين وبفضل يوم التاسع من مارس أخبرهم كوش أن خاله في الأغلب قد مات هو الآخر، وهكذا صارت جسخنما -التي بات اسمها الآن وكأنه عنوان لعبة طفولية تنتمي إلى أيام البراءة الساذجة- بلا زعيمها ونائبه، وأنهم يجب أن يعدوا جمعيتهم في عداد الماضي السحيق دون رجعة.. كل شيء تغير الآن.

وبصوتٍ يكبره بعشر أعوام أقرب الشبه لخاله، أخبرهم كوش أن

يحافظوا على رباطة جأشهم، وألا يتحدثوا في أي شيء لأن فرصة كشفهم والقبض عليهم أخطر من أي وقت مضى، ولا سبيل للهروب من هذا المصير سوى بالاحتماء بغطاء الفندق ومواصلة عملهم في الخدمة بشكل طبيعي.

لن يظهر الخال أبدًا.. حيًا أو جثة في مشرحة.. لم يعرف أحد إلى أين ذهب.. وما آل إليه مصيره.. وسيتحول بمرور الأيام إلى أسطورة أخرى كأوزوريس مقطّع الأشلاء الذي عاد إليه جسده بعد مماته وصار قاضيًا لعالم الموتى..

وإلى أن يموت.. لن يدخل كوش فندق شبرد مرة أخرى.

القسم الثاني

العالم

الفصل الثالث عشر

في الإسكندرية

(1919-1920)

استيقظ في منتصف الليل على صوت ارتطام مزعج. هذه ليست المرة الأولى التي يسمع فيها هذا الصوت. ماذا يفعل هؤلاء السكان في ذلك الوقت المتأخر من الليل؟ إنهم أصحاب البيت، ولكن أعني هذا ألا يراعوا المستأجرين؟ ألا يكفيهم أنه قَبِلَ بهذه الغرفة الحغيرة في السطوح دون أن يعترض؟

عاد إلى نومه قلقًا حتى الصباح. خرج كعادته إلى البحر ما إن أشرقت الشمس. جلس يقضم قطعة سميطة اشتراها من البائع الجوال الذي يلقاه كل صباح يراقب الأمواج المتكسرة. من يصدق أنه يرى البحر لأول مرة في حياته بعد أن أتم الثلاثين؟

حين بعدت المسافة بين الشمس والبحر علم أن وقت مغادرته قد حان. نفّض الفتات عن جلبابه النظيف كعادته وسار الهوينى حتى وصل إلى الفندق. عبّر القوس الكبير الذي يقول «كازينو وفندق سان ستيفانو» وسلم على الحراس والعاملين في طريقه. دخل من فوره إلى الإسطنبول. سلم على الأحصنة وهو يرتدي حذاءه المطاطي ذا الرقبة الطويلة وزيّ العمل القذر، ثم أخرج الدلو والفرشاة وأخذ في تحميمهم. سرح شعرهم ونظف روثهم وساوى القش من تحتهم ثم وضع لهم العلف. ناول حصانه المفضل تفاحة فأخذها دفعة واحدة وأخذ يلوكها على مهل.

وكعادته في كل مرة يجلس أمام الخيول الهادئة.. استعاد ذكريات ذلك اليوم المشؤوم وما تلاه..

بعد عودته إلى الفندق أدرك أنه أقدم على فعلٍ متهوّر. كتفه المصابة لا بد وستتير التساؤل، خاصةً وسط كل هؤلاء الأجانب والضباط الذين يرتادون الفندق ليل نهار. صعد إلى غرفته وقضى اليوم بأكمله يفكر في خطواته التالية. رتب كتبه وأشياءه جميعًا وتركها في الغرفة، ثم حزم حقيبة صغيرة حوت ملابسه القليلة. انتظر حتى هبط الليل وخرج من الباب الخلفي.

ذهب إلى منزل عائلة محسن وبقي لديهم بضعة أيام حتى عادت حركة المواصلات. استقل القطار بعد توديع أصدقائه، الذين لم يعرفوا حتى الآن أنه قتل جنديًا، وذهب إلى الإسكندرية. لو كان خاله موجودًا لأشار عليه بنفس الشيء، أن يتوارى عن الأنظار حتى تهدأ الأمور ويتوقف البحث عنه. كل الأخبار تقول إن الإنجليز يسعون إلى قمع الثورة، ويبطشون بيد من حديد بكل من يشتبهون به. ماذا لو تعرّف عليه أحدّهم؟ فكّر في العودة إلى النوبة ولكن لم يكن له أحدّ هناك، حتى إخوته بات لا يعرف عنهم شيئًا سوى أنهم تزوجن جميعًا ولو ذهب لعرضهن للخطر، من يدري، ربما بحثوا عنه هناك.. هل يكون الخال قد ذهب إلى هناك؟ ولكنه لن يفعل ذلك أبدًا ويترك شبرد فجأة بعد كل تلك السنوات، ولو فعل لأرسل لهم. وحتى لو فعل؛ كيف سيصلون إلى كوش ليخبروه؟ بداخله يقين لا شك فيه أن خاله قد مات.. أو تلاشى باحثًا عن عرابي. هذه نهاية تليق بأسطورية صمته الطويل.

تذكر الأخت ماريا. نزل من المحطة وسأل عن الدير. توجه إلى هناك. طلب مساعدتها. لم تتأخر ولم تسأل. اصطحبته إلى فندق سان ستيفانو، وفي الطريق أخبرها أنه لا يريد العمل سفيرجيًا، ويفضل لو لم يعرف أحد أي شيء عن إجادته للغات أو أصول الخدمة الرفيعة. فكر في أكثر أعمال الفندق وحدة فتذكر الأعرج راعي الإسطبل في شبرد. كلمت ماريا مدير الفندق اليوناني الذي تربطها به صلة قرابة بعيدة. لم يتردد كثيرًا في تعيين ذلك الشاب الهادئ الذي بدت عليه ملامح الغباء -قرر كوش استعارة بعض من حركات صديقه سليمان- في الإسطبل، ولكنه أخبره بشرط واحد: لا مكان لديهم للإقامة. تركه يبيت في الإسطبل لأيام حتى وجد كوش بيتًا متهالكًا في منطقة المكس أرشده إليه أحد العاملين في الفندق الذي شعر نحوه بالعطف.

اصطحبه السفرجي إلى صاحبة البيت فلم يجدها بل وجد أختها الصغرى. انتظرا في الخارج حتى عادت من السوق. بدينة وضخمة الجثة وبوجه لا يعرف الابتسام ونظرة غير مرحبة. نظرت له بامتعاض وهي تستمع إلى استعطاف زميله أن تقبل شكوى هذا الشاب الغلبان صاحب المخ البسيط. آلمته معدته فجأة لمرآها. طلبت أجرة ثلاثة أشهر مقدمة. دفعها كوش حتى قبل رؤية الغرفة. الحي الفقير والمغرق في الزحام والنسيان ملائم تمامًا. حين دخلها أصابه الدهول من قذارتها وأثاثها المتهالك. كلمة الأثاث تُعد تجاوزًا. سرير صديء وقلة مشروخة ولا شيء غير ذلك. قيل صامتًا طالما أن لا أحد يسأل. كل شيء يهون طالما أنه سينزل إلى البحر في الصباح. رؤية

البحر بالنسبة له معجزة لم يكن يتخيل أثرها في نفسه رغم أنه قرأ «جزيرة الكنز» و«20 ألف فرسخ تحت الماء»، ولكن كل كتب العالم لم تكن لتقرب إليه حتى صورة البحر ومعناه وأثره في نفسه كما فعلت رؤيته له أول مرة.

تكفل البحر بأن ينسيه الهوة السحيقة التي سقط فيها من علياء فخامة شبرد إلى غرفة بمثل تلك الحقارة.

قضى ليلاليه في كوابيس مروعة. شعر أنه كبر عشرين عامًا. لم يصدق ما آلت إليه حياته فجأة، في ليلة وضحاها. كما تغيرت مصر تغيرت حياته تمامًا، وخرج من كنف الرحم الذي احتواه معظم سنين عمره. فقد خاله وخولي وبات يتيماً فوق يتمه بفقدان عائلته. ابتعد عن الفندق. انفصل من داخله عن الضيوف الذين أحبهم طوال حياته. بات غريباً ووحيداً في هذا العالم. سافر وابتعد عن عائلة محسن ونجيب ورفاقه المبدعين؛ الأسر البديلة التي كانت ستعوضه حتى عن غياب الخال. انثزع من كل من يحب. كان يعاني قبلاً من ابتعاد من يحبهم عنه، الآن هو يفعل ذلك قريباً على مذبح الثورة المجيدة. يا له من ثمنٍ فادحٍ ذاك الذي تتطلبه التضحية من أجل الوطن..

غادر القاهرة بكل ما حملته من فرص الحياة وملامح الظلم. الآن بات وحيداً في غرفةٍ حقيرة في بيتٍ متهالك تصدر منه أصوات غبية في أوقات عجيبة. بات في بلدٍ غريب لا يعرف فيه أحداً ولا أحد فيه يعرفه. لا يتكلم مع أحد ويتصنع البلاهة ويقضي جل وقته

مع البحر والخيول. من هو؟ وما هي تلك الحياة التي يحياها؟ أين كان وأين صار؟ وماذا ينتظره؟

لأول مرة يشعر كوش أن العالم قايٍس. موحش ودموي وقايٍس. سحقه سحقا. فرض عليه أن يعيش مطارداً وشريداً ومتوارياً ووحيداً. لم يتركه لينعم بكتبه وبحياته المستقرة وبحب أصدقائه. لم يكتف بحرمائه من ذرية تحمل سمته واسمه وترث كتبه ومجالاته. حتى ذلك لم يكن كافياً، بل كان يجب أن يُشرد ويفقد كل من يحب. حين خرج في تلك المظاهرة ظن أنه ينتقم من الطبيب الكريه ومن ذلك الاعتداء الذي مارسه على كرامته ورجولته وحقه في التناسل والكينونة.

شعر لأول مرة بالغضب الحقيقي. الآن وقد قتل رجلاً، شكّله العالم المتوحش كما أراد. من كان ذلك الذي بداخله الذي قام بقتل الجندي؟ ينتفض جسده كلما تذكر تلك اللحظة اللعينة. كيف بدأ اليوم بعاطفة إنسانية جياشة، وتفاؤل بالمستقبل المشرق الذي يستحق كل شيء من أجله، ولكنه انتهى بالنسبة له برأس أحب الناس إليه يتفجر، وبيده وهي ترتكب جرم الإنسانية الأول.

حتى الآن يرفض تصديق أنه هو من قام بذلك. لم يصدق أنه تساوى مع المحتل الأبيض في الخسة والنذالة. أكان قتله هذا دفاعاً عن النفس أم انتقاماً؟ كيف صار هذا الشخص؟ حاول مراراً أن يصبر نفسه بأن هذا الشاب قد قتل رفاقاً آخرين يسرون معه نحو الحرية. إن آخر ما رآه على وجه الجندي قبل أن يخطف بندقيته لم تكن نظرة الذعر، ولكن النظرة التي سبقتها.. شبح الابتسامة. أم أنه يهياً له ذلك من فرط شعوره بالذنب؟ هل استمتع ذلك الجوني بما كان

يفعله؟ ماذا كانت جنسيته؟ أكان إنجليزيًا أم ويلزيًا أم أستراليًا أم إسكتلنديًا؟ نيوزيلنديًا ربما؟ كان أبيض لا شك. ليس هنديًا.. ماذا لو كانت محتلّة بلاذه هو الآخر من الإنجليز وسيق إلى مصر رغما عنه؟ ماذا لو كان يحمل داخل قلبه تعاطفًا مع هؤلاء الذين صوّب تجاههم الرصاص ولكنه كان مدفوعًا بأمرٍ من ضباطه أو تهديدٍ من قائد كتيبته؟ أو حتى مجبولا على فطرة كارهة لأبناء الشرق لم يخترها لأنه وُلد ونشأ في احتلال من بيض يشبهونه وأخبروه أن واجبه حماية الإمبراطورية من الرعاع السمر؟ هل كان يراه قردًا كما كتب العالم الكريه في كتابه؟ هل رآه كائنًا أدنى؟ ألم يكن ذلك الجوني يدرك حقّ كوش والآلاف الذين أحاطوه في المطالبة بحريتهم؟ لماذا أجبروه على رؤية قبح العالم؟ تراءى له وجه ريكاردو في تلك اللحظات. وجهه الذي يحمل البشاعة رغم قلبه الطيب. عينه الباقية المذعورة. ريكاردو أيضًا لم يكن يريد أن يحارب. كان ابن مزارعين بسطاء. أراد الحياة الرعوية الساذجة تمامًا كما أرادها كوش.

هل أرغمه المصريون على أن يصبح داخله قبيحًا مثل وجه ريكاردو؟ ليحارب من أجل قضية لم يخترها يومًا؟ حتى حين انخرط في الجمعية في ذلك اليوم الذي انزلق فيه وسقط عابزًا من الباب لم يسأله أحد إن كان يريد أن يكون جزءًا من هذا. ولكنه صدّق في كل ما رآه وسمعه. وصدّق في خطورة دوره، أم أنه أراد دور البطولة بسذاجة المراهقين؟ هل رأى نفسه روكامبول آخر؟ روبن هود؟ جان فالجان؟ هل أراد أن يكون شخصية بطولية يومًا ما في رواية يكتبها أحدهم؟ أم أنه آمن حقًا بقضية بلاده؟ هل وطنيته مزيفة؟ جُبل عليها من خاله وخولي الذي خوّله يومها حمل اللواء؟

وها هو يخذلها ويموتان بعد أن راوغهما الحلم اللعين ثم انسل من بين أيديهما مرة أخرى.. تذكر خاله الصامت أبدًا الذي وضع بين يديه قصة «عذراء دنشواي» حين كان في السابعة عشرة وأخبره بالفارق بين الضيوف الذين يخدمونهم وبين من يسرقون البلاد ويجلدون أبناءها.. لم يسمع ولم يرد أن يسمع لأنه كان مفتونًا بحبه لأجاثا ونهمه للعالم الذي ينتظره فاتحًا ذراعيه.. كان ساذجًا ومصدقًا أن عالمه لن يتخطى خدمة هؤلاء الضيوف كي يصبحوا أكثر سعادة واستمتاعًا بأوقاتهم كما أوصاه ستيفنز..

عصفت به الأسئلة.. وتلاعب به الشك.. ولم يجد الإجابة.. وطوال الأشهر السبعة التي تلت هروبه من القاهرة واصل كوش السقوط في ذلك الأتون المستعر من الحزن والوحدة والمساءلة..

ولكنه لم يكن يملك رفاهية الضعف.. ذلك إن أراد الاستمرار في الحياة..

من بعيد، وبقلب منقبض ونفيس مجتعة من جذورها، تابع طوال تلك الأشهر من التشرد تطورات الموقف عبر الجرائد. وقائع الثورة، والسماح أخيرًا بسفر سعد لباريس، وفشله في عرض القضية المصرية هناك، ثم لقاءه لملنر في لندن وفشل المفاوضات مرة أخرى بعد استعداده لتقديم تنازلات كبيرة. تابع الصراع بين عدلي يكن وسعد زغلول ودمي قلبه لرؤية الانقسامات تشق أعضاء الوفد، ونجاح الإنجليز بعقريتهم المعهودة في زرع الخلاف بين صفوف العوار، معتمدين على نفس الفكرة القديمة؛ أن المصريين همج

وسيتوهون وسط الطريق ما إن تتركهم وحدهم، وسوف تسوقهم
الأطماع والأهواء.

تابع كوش كل هذا من بعيد، وتابع أيضًا ما فعلته النساء ودورهن
الحاسم في الثورة بقيادة زوجة سعد باشا وهدى زوجة وكيل الوفد
علي شعراوي. قرأ عن استمرار الإضرابات. الأقباط ورفضهم للوزارة
الموالية للإنجليز التي حاولوا تشكيّلها، ثم زيارة لجنة ملنر وزير
المستعمرات البريطانية إلى مصر التي استهدفت توفير الأوضاع
والاستماع لمطالب الشعب دون اقتناعها بذلك، وكيف وقفت لها
لجان الوفد وكل ممثلي الشعب بالمرصاد، ولم ينساقوا وراء أي
وعود كاذبة تحاول استغلال سذاجة كانوا يظنون أنها لا تزال تكتنف
المصريين.

كل تلك الأخبار وغيرها من التفاصيل التي لا يبدو منها أن حلًا
جذريًا سيظهر قريبًا أثقلت كاهل كوش وسقطت به إلى متاهة
خرافية من عدم اليقين لا تقل تعقيدًا عن متاهة الكفاح الوطني ضد
الاستعمار البغيض. أيذهب كل ما فعله هو وغيّزه ودفعوه من ثمّن
باهظ هباءً؟

بينما يقرأ الصحيفة، تنهى إليه صوت من شقة جيرانه. مشاجرة
إحدى الأختين مع زوجها شابتها أقذع الألفاظ التي لم يسمعها كوش
في حياته. لم يكن كوش قد عرف مثل تلك الألفاظ من قبل سوى من
بضع انفجارات غضب خولي. ولكنه الآن وكلما استمع إلى وصلات
الردح من إحدى الأختين لزوجها أو زوج الأخرى، كاد يصيبه الذهول

من بلاغة الوصف التي لم يجد مثلها في كتبه الأثيرة.

من أعراض الانهزام الروحي التي ثني بها كوش في تلك الفترة المظلمة من حياته كانت توقفه تمامًا عن القراءة. كل فترة يشتري كتابًا أو اثنين خفية ولكنه يرمي به في أبعد أركان الغرفة الضيقة بعد أن يحاول قراءة بضع صفحات فلا يفهم منها شيئًا. قراءة الجرائد بحكم العادة هي كل ما يقوى على فعله، وربما ممارسة الإيطالية دون حماس مع البائعين وبعض خدم الفندق وغيرهم، فالإسكندرية حبل بالطلّيان في كل مكان. يتذكر إخوته فجأة. من سيرسل لهن الأموال الآن؟ ربما لم يكن يرسلهن كما كن يفعلن، ولكنه مطمئن أنهن جميعًا بتن متزوجات الآن ولديهن من يعولهن. يعلم أن خاله حتى اللحظة الأخيرة كان يرسل لهن مبالغ وإن كانت أقل، وبات كلما كبر كوش يمنحه تحكّمًا أكبر في راتبه وما يكسبه، ووضعها جميعًا في حساب بالمصرف. الآن لن تصله خطابات بعد أن ترك شبرد. لن يصلن إليه. انتابه حنين مفاجئ لذلك العالم المجهول الذي صار ذكرى بعيدة بشخصه وآثاره.

عاد إلى صحيفته محاولًا تشتيت تفكيره بينما تواصلت الشتائم، متمنيًا ألا يقوم أحد الزوجين يومًا ما بقتل زوجته، وإن ظل متأكدًا أن هذا ضرب من المستحيل، فكلاهما غاية في الدعة والضعف وتسوقهما الأختان كما تسوق السياط البهائم.

قلما يلتقي كوش جيرانه. فهو ينزل في الصباح الباكر ولا يعود سوى بعد الغروب حين يكون قد قتله التعب فينام محاولًا الهروب

من أشباح الماضي القريب. ولكن نومه قلق بسبب الحركة الدائمة والمزعجة لهؤلاء الذين يبدو أنهم لا يعرفون النوم. لم يكن كوش ممن يشغلون أنفسهم بما يفعله الآخرون، خاصة في وضعه الملتبس والخطر، ولكنه في بعض الأحيان حين يجافيه النوم يخرج إلى السطوح الخارجي فتتناهى إليه أصوات الضجيج. كثيرًا ما يأتي لهم ضيوف يسهرون حتى آخر الليل. أغلبهم من الرجال. كذلك لم يستطع تجاهل حقيقة غاية في الغرابة: كلما نزل في الصباح متجهًا إلى سان ستيفانو تداهمه رائحة بخور نفاذ. كيف يمكن لهؤلاء الذين يتمتعون بقذارة هائلة أن يحرصوا على تعطير منزلهم بتلك الرائحة الزكية طوال الوقت؟ أليس الأولى بهم إصلاح الصرف الصحي الذي ينضح بأبشع القاذورات في المنزل بأكمله؟ ولكن كوش بذكائه المتقد فهم السبب بعد ذلك: يتعاطون المخدرات بكثرة، بل ويبيعها أحد الزوجين في بعض الأحيان بجانب البناية، فيحاولون إخفاء رائحتها بالبخور الكثيف. يتعجب من تلك الأخلاق المتدنية.

لم يخفف من نفور كوش تجاه جيرانه سوى ابنة الأخت الكبرى، الفتاة الوديدة التي لا يزيد عمرها عن عشرة أعوام والتي يشاكسها في أيام إجازته ويعطيها الحلوى كلما سنحت الفرصة. فتاة صامته بعينين قلقيتين، تخاف من الغرباء ولكن تحدوها رغبة مترددة في اللعب، وبدا أنها ترتاح لكوش. لم يعكر صفو علاقتهما سوى نظرات أمها وزعيقها المخيف حين تخرج إلى مدخل العمارة فتجدهما سويًا وتنهرها، فتهرع الفتاة مذعورة بينما ينظر كوش محرجًا للأُم التي تبادله نظرات قاتلة قبل عودتها للداخل.

حل الصيف، وبدأ الزوار يتوافدون هربًا من حر القاهرة إلى

البحر. عَجَّ الفندق بالكثيرين يراقبهم كوش من بعيد بينما يتمنى خدمتهم في قرارة قلبه. رغم أنه غاية في الجمال، إلا أنه لم يكن راضيًا عن الكثير من أصول الخدمة فيه، والتي تختلف في عدة مناحٍ عن شبرد. للطليان أسلوبهم الخاص الذي يفتقد نزعة الرقي. ولكنه لم يملك التدخل أو حتى الاقتراب من عالم غرفة الطعام وشاطئ الفندق الخاص، وحافظ على انزوائه داخل الإسطبل. الحزن والوحشة ينهشان قلبه.

بعد قرابة العام، حين قارب كوش على اليأس، وجد إعلانًا في الجريدة بذل حاله في يوم وليلة.

«فرقة نجيب الريحاني تزور الإسكندرية في أقوى عروضها الصيفية الاستعراضية بدءًا من الأسبوع القادم. احجز تذكرتك الآن».

لم يعرفه نجيب لأول وهلة. كانت لحية كوش قد نمت وازدادت طولًا وكثافة طوال الشهور الماضية. فقد كثيرًا من وزنه وصارت عيناه غائرتين من اضطراب النوم وإلحاح الذكريات وفراط الشعور بالذنب وانعدام القراءة. تطمئن له لحيته أن مظهره متخفٌ يشبه وحدته. ما إن احتضنه نجيب وهو لا يزال يرتدي زيه التنكري في الكواليس حتى سقط كوش في نوبة بكاء صامت. أجلسه نجيب وسمع منه. حكى كل شيء وكأنه انتظر كل تلك الأشهر ظهور صديق ليزيح عن كاهله عبء تلك الأيام السوداء.

«ظنناك مت. أرسلت إلى شبرد أسأل عنك، قالوا لي إنك ظهرت مرة واحدة في خضم الثورة ثم اختفيت في ذات الليلة ولا أحد يعرف

عنك شيئًا. بحق المسيح يا كوش. كيف تركت نفسك لما فعلته بك الأيام، وكيف لم تلجأ إليّ؟ أظنني أقل وطنية منك يا ملعون؟»

ثم أتى على فعلة مجنونة لم يكن أحد غير نجيب ليفعلها، وكانت تلك الفعلة هي التي غسلت كوش من الداخل وإن أعادت إليه دموعه مرة أخرى: أمسك بيده بين كفيه وقبلها.

«سلمت يذك يا بطل. لو استطعت لقتلت ألقا منهم. أتعلم كم روحا قبضوا في طغيانهم؟ أي شعور بالذنب هذا؟ وماذا عن الذي ربّاك، أيشعر أحدهم بالذنب له؟ العين بالعين، والبادي أظلم. أمّا عن ثورتنا فطريقها طويل، والكفاح مستمر، وأنت وأمتالك وقود تستعر به نار الانتقام والسعي للحرية. انفض عن نفسك هذا اليأس، وغدا أبرق إلى القاهرة ومنها سأعرف إن كنتَ مطلوبًا أو يعرفك أحد بالاسم أم لا.. المستشار عبد السلام ذهني القاضي بالمحاكم المختلطة من جمهوري المخلص وهو رجل وطني سيخدمنا عن طيب خاطر.. إن لم يكن، أريدك أن تعدّ نفسك للعودة معي إلى مصر فور انتهاء عروضي هنا بنهاية الصيف».

بعدها عرج الحديث إلى مغامرات نجيب وقت الثورة، وعروضه المتعاقبة التي لم يحضرها كوش: «قولوا له» و«إش» و«رن»، وكيف شارك في الثورة مع فرقته، ولكن ما إن بدأت الأوضاع تستقرّ حتى قام الأزهر والصحفيون والنقاد بالافتراء عليه بأنه دسيسة إنجليزية ويحاول إلهاء الشعب بعروضه التي واصل تقديمها في خضم الثورة، رغم أنها تخرج منها أكرر الأغاني إلهابًا لحماسة الثوار. «تخيل أنهم أرادوا قتلي وهربت من المنزل في عز الليل إلى فندق هليوبوليس بالاس مع لوسي؟ تخيل بعد ما قدمته من محاولة رفع الوعي طوال

السنوات الماضية والاضطهاد الذي تعرضت له من الإنجليز والمسرح الذي أغلقوه، الآن يقولون عني دسياسة؟» ثم أردف بكلام كشف عن شعوره بالغبن. «أتري يقولون مثل هذا الكلام ليوسف وهبي أو البربري الثاني؟ ولكنني الحائط المائل». ذكره كوش بأنه بقوله هذا يردّد بالضبط ما يريده الإنجليز أن يعتقدوه. هدا نجيب وزفر بحرارة. «يا أخي عمر ما حال هذا البلد سينصلح أبدًا. حين قدمت «العشرة الطيبة» عادوا مرةً أخرى لتخريفهم، فرجوت الوفد ليرسلوا واحدًا من أعضائه يشاهد المسرحية ويحكم إن كنا فعلاً نسيء للعثمانيين لنحبب الشعب في الإنجليز كما يدّعي المنافقون، من تظن أرسلوا؟» «من؟» سأل كوش باهتمام. «مرقص حنا وابنته زوجة مكرم عبيد!». تصنّع كوش أنه لم يفهم تلميحه: «هذا ليس بالهين، إنه وكيل اللجنة المركزية للوفد أليس كذلك؟» نظر له نجيب بحنق.. ثم هدا قليلاً: «الحمد لله الجمهور لا يفكر مثل هؤلاء الأوباش. آه يا كوش لو رأيت العرض الأول لـ«قولوا له» العام الماضي. كيف أصف لك تلك الليلة؟ لو كنت موجودًا لكان قد انخرس لسانك من الدهول. الجمهور يغني الأغاني الوطنية، والمسرح ممتلئ عن آخره يكاد ينهار من كثرة الحماس والتصفيق، والإنجليز يقفون خارجه خائفين من خروج الجمهور متفجرًا بثورة جديدة. والملابس والأضواء والحماس.. صرخت الجماهير متباكية وهم يرون كافة فئات الشعب ممثلة فوق خشبة المسرح. لمثل هذه اللحظات نعيش نحن معشر الممثلين يا رجل».

حين قام كوش ليغادر ودّعه نجيب الأصيل بوذ عميق: «لن أتخلى عنك يا ولد، إياك واليأس».

عاد كوش من لقائه بنجيب منشرحًا بما فرغه من نفسه. ربما لم يمخ ما قاله نجيب في فوراته المتفجرة بالطاقة المُعدية كل ما بداخل كوش من مرارة، ولكنه على الأقل أشعره بأن الأمل لا يزال موجودًا، أن يعود إلى نفسه التي كان عليها. هذا هو كل ما يشغله الآن، أن يعود كوش الذي كان. البريء الساذج المحب للحياة والاستكشاف. يريد أن يمحو تلك الأشهر الماضية من ذاكرته. وينسى حنينه لشبرد، ولخاله، ولأجاثا، يريد نسيان كل هذا والرجوع مرة أخرى إلى كوش الذي يعرفه. يريد العودة لخدمة أناس يحبهم أو يستغربهم لا يهم، المهم أن يفعل ذلك، ولو سنحت له الفرصة لخدمة بلاده، فلا ضرر، ولكن ما سيعيده لصوابه عن حق هو عودته لامتلاك الأمل، ومواصلة استكشاف العالم الواسع الذي يعلم أنه لم ير منه شيئًا بعد.

مرت أشهر الصيف سريعة ومتلاحقة، يقضي فيها كوش مساءه مع نجيب، وصباحه بالفندق، ويكاد لا يذهب لشقته البائسة إلا لساعات النوم القصيرة. في تلك الأثناء طمأنه نجيب أن واسطته بالسلك القضائي أكد له أن لا أحد مطلوب بالاسم، وأن الإنجليز باتوا مشغولين بأزمات تشكيل الوزارة والمعوقات التي تجابه لجنة ملنر، ويحرصون على مهادنة المصريين أكثر من اهتمامهم بالانتقام وفرض السيطرة بشكل مباشر، وإنهم يسعون لتجنب ثورة أخرى.

قبل عرضه الأخير انطلق نجيب: «يا ولد، عد واثّ بحاجتك، لأننا

نعود إلى القاهرة فجر الغد».

ذهب كوش للبيت وقلبه يكاد يرقص لأنه يعود إلى قاهرته التي أوحشته. عند دخوله باب الشارع قابلته الطفلة الصغيرة ابنة صاحبة البيت. فوجئ بها واقفة في قلب الليل وسط الشارع الهادئ بخيال شبحي. ابتسم لها وهو يقترب. وجد وجهها مليئًا بدموع ملتاعة تتخلل بكاءها. هرول ناحيتها ولكنها أطلقت صرخة خافتة وهربت منه. تركض في زعر. انعطفت بجانب البيت وعبرت ممراً قصيراً يفضي إلى الفناء الخلفي الضيق الذي يطل عليه كوش من سطوحه. نظر حوله في الصمت الرهيب ولكنه لم يجد للفتاة أثراً. الظلام دامس. عمود الإنارة الوحيد في الشارع الخلفي الضيق منطفئ. نطق باسمها وهو يتعزق من اللهاث ولكنها لم ترد.

يسمع خشخشة تقوده أكثر نحو الفناء. من داخل شقة الأخت الكبرى بالدور الأرضي يأتي صوت ارتطام وصياح مكتوم لرجال ونساء. ذلك الصوت المقلق الذي يتكرر كل بضعة أسابيع ويوقظ كوش من نومه في كثير من الأحيان. الضوء خافت من وراء الشيش. ينسى كوش الفتاة مؤقتًا وتسترعي انتباهه الجلبة الحادثة داخل الشقة. يشعر بالفضول. يتقدم نحو النافذة الخلفية والمغلقة بكاملها بالشيش الذي لا يمنع الصوت كليةً. يستفيد كوش من الظلام المحيط به والذي لا يجعله مرئياً من الداخل ويقترب أكثر. من الشق الضئيل في النافذة يرى ما يسقط قلبه بين رجليه. الضجيج المكتوم صار كلمات واضحة الآن. الأختان وزوجاهما يمسكان بجسد امرأة تركل الهواء بكل قوتها. أحد الزوجين يمسك برجليها بينما الآخر قد

عقد كفيها بيديه القويتين. الأخت الكبرى التي تعطي كوش ظهرها تضع منديلًا على وجه الضحية التي يخرج صراخها مكتومًا. «فكيه عنها بسرعة قبل أن تقطعه». الأخت الصغرى تسب الضحية بينما تخلع عنها كردائنًا لامعًا وخلخالًا من قدمها في الضوء الخافت. قبل أن تستوعب دماغ كوش ما تراه يكون الجسد قد سكن، ويتركونها أربعتهم وهم يلهثون كالضباع الجائعة.

يستدير ليجد الفتاة الباكية وقد هدأت الآن وتطالعه بصمت مرتعب. يتبادلان النظر للحظات طويلة.

صعد كوش بكل هدوء خبرة الجمعية السرية ولملم حاجياته من الغرفة، ثم نزل منها إلى قسم بوليس اللبان. التقى الملازم المناوب، وحكى له عن كل شيء. اضطر كوش للبقاء بالإسكندرية لبضعة أيام أخرى ربما تكتمل التحقيقات ويتأكدون من أنه ليس مشتبهًا به أو متواطئًا معهم وقرر الإبلاغ عنهم لخلاف دب بينه وبين العصاة المنكوبة.

ألقي القبض على الأختين وزوجيهما وآخرين بعد بلاغ كوش بأيام، وتم اكتشاف الجثث السبع عشرة تباغًا. ثلاثة منها لم تُعرف هويتها، غالبًا من فتيات الليل. طلب الضابط من كوش التحدث إلى الصحف وأن يلقي الاحتفاء الذي يستحقه كونه البطل الذي كشف غموض العصاة التي دوخت الشرطة لعام كامل وارتكبت أبشع الجرائم في تاريخ مصر الحديث. أقسم عليه كوش بأعز من لديه في الحياة ألا يفعل، وألا يرد اسمه في أي شيء، وبلغ من قوة رجائه أن

قام الضابط ومعاونو القسم بتأليف قصة أخرى لكيفية كشفهم عن أفراد العصابة: أن أحد معاونين قد شك في رائحة البخور النفاذة وتصرفات الأختين واختفاء زوارهما من النساء فدخل ليفتش المنزل ووجد الجثث مدفونة بأرضه.

نفذ حكم الإعدام بأفراد العصابة بعدها بعام في أواخر ديسمبر من عام 21، حين كانت يد كوش ترتعد بينما يطالع كتابًا في بيت علي وهدي شعراوي.. كتبه شخص تعلق به قلبه طوال سنوات.

الفصل الرابع عشر

في رحاب صاحبة العصمة

(1921-1923)

أوفى نجيب بوعدده، وساعد كوش في أن يعثر على عملٍ بفندق هليوبوليس بالاس الجديد نسبيًا الذي هرب إليه نجيب وقت القلاقل التي أعقبت الثورة. صاحبة هليوبوليس بعيدة وغريبة عليه ولكنها أيضًا ملاذ جيد له كي يعمل في أجواء الفنادق مرةً أخرى بعيدًا عن الأعين والذكريات المؤلمة لوسط القاهرة. رجع إلى ارتداء زي العمل النظيف، الطربوش والصديري الأحمر المنقوش بالذهب والحزام العريض المؤطر لوسطه النحيف. حافظ على لحيته ولكن بعد أن هذبها وصارت ملائمةً لوجهه المنحوت كتمثالٍ فرعوني من الأبنوس ومنحته نضجًا ومزيدًا من الجاذبية.

بعد عدة أشهر قابل ابنًا آخر من أبناء شبرد. تبادلًا التحية في حرارة وسأله عن أحواله. تجنّب كوش سؤاله عن الفندق ولكن الحنين غلبه. هز السائق رأسه نفيًا وأشار في فخر ناحية رجلٍ فخم يتناول الغداء بالمطعم:

«لقد تركت الفندق منذ أشهر. أعمل الآن سائقًا خصوصيًا لوكيل الوفد السيد علي شعراوي»

يعرفه كوش جيدًا من الصحف. ويعرف زوجته التي لا تقل عنه شهرةً. قرأ لها عدة مقالات تبشّر فيها بتحرير المرأة ودورها في مصر الجديدة، وتابع أيضًا ما كتبه الصحف عن تأليفها لجنة سيدات

الوفد وتعاونها مع زوجها وسعد زغلول لإدماج المرأة في الحركة الوطنية. يكاد اسفها يفوق اسم زوجها شهرةً منذ خلعت البرقع عن وجهها وقادت المظاهرات النسائية يوم الثورة.

«إنهم يبحثون عن طاقم جديد للخدم. تعال غداً في ذلك العنوان وسأكون قد كلمت الهانم عنك».

وهكذا انضم كوش في بدايات عام 21 لطاقم الخدمة في بيت الباشا الكائن برقم 2 شارع قصر النيل. كل شيء في المنزل يشي بالراقي والهدوء. هذه مرّته الأولى في العمل لدى مصريين لذا تطلّع كوش إليها بحماس، ولكنه لم يكن يتخيل أن يكونوا بتلك الطيبة.

انحصرت أعماله في تقديم الطعام والإشراف على النظافة واستقبال الضيوف ومعاونة الخدم الأقدم والأكبر سنًا في الأعمال اليومية، ومنها تلبية طلبات أبناء الباشا وزوجته. السيدة هدى يفوق اختلاطها بالخدم اختلاط زوجها الذي لا يتواجد كثيرًا، هي أمّرة المنزل ومدبّرتة. راعه الفارق الكبير في السن بينهما. هو ابن عمّتها ويكبرها بأربعين عامًا، أما هي فكانت بدراً انشقت عنه سماء حياة كوش. بسمتها الهادئة، صوتها الحنون والحازم، وأمومتها المتدفقة. شديدة الجمال والإصرار، بذقنٍ عنيدة وعينين ثاقبتين ذكّرتاه بحبه الأول. شعر كوش نحوها بأنها - رغم الفارق في كل شيء - أمّه التي انتزعه خاله من حضنها منذ عشرين عامًا.

البيت خلية نحلٍ سياسية ووطنية لا تهدأ. فعلي باشا ومناوشاته مع الإنجليز في صفوف الوفد لا تتوقف، أما هدى هانم فتستقبل

ضيقاتها من عضوات اللجنة المركزية لسيدات الوفد ليل نهار، وتخوض النقاشات والحوارات الطويلة حول القضية المصرية، وما يمكن أن تقدمه اللجنة من دعم لرجالها. على عكس ما تخيله كوش، لم تكن السيدة هدى في قيادتها لتلك القوة النسائية مجرد تابعة لطيفة للرجال ذوي الشوارب الفخمة والأصوات الرخيمة والنشاط السياسي البراق، بل متدخلة في القرارات والمشاريع التي يعدها الوفد لمجابهة الإنجليز، وثراربعها، وتنتقد الباشا ورفاقه في العديد من مواقفهم، وكثيرًا ما أرسلوا لها ليلظفوا الأجواء، ويعملوا على احتواء اعتراضاتها، ولكنها لم تكن تهدأ أبدًا، وجدها كوش شعلة نشاط عنيدة ومزعجة وتطلب دائمًا المزيد، وفرضت لنفسها مكانة لم يكن زوجها نفسه يتخيلها حين تزوجها وهي بعد طفلة في الثالثة عشرة.

تقضي السيدة ساعات لا تنتهي في مكتبها تدون الخطابات، ودائمًا ما تطلب من كوش إمدادها بمزيد من الورق أو تغيير المحبرة والنشافة. مراسلاتها لا تنتهي، وفي بعض الأحيان يختلس كوش وهو يرتب المكتب في الصباح الباكر النظر إلى مسودات تلك الخطابات: خطابات لسعد باشا موجهة لباريس، وأخرى لزوجته المعتمد البريطاني، ودعوات لنساء اللجنة. أسلوبها في الكتابة رائق وصاف بلغة متدفقة كروحها التي ذاب فيها كوش عشقًا جنينيًا.

وبمرور الأشهر الأولى عرفت السيدة هدى كوش عن حق. وحفظت اسمه. وأغدقت عليه العطايا والحنان. وحين تجزأ وتدخّل في أحد حواراتها الحادة وأدلى بدلوه، لم تنظر له بالاستهجان المتوقع، بل

بإعجاب كبير. وحين أبدى ملاحظاته على أحد خطاباتها عرفت كل شيء عن حبه للقراءة وشغفه بها، وإجادته للغات، وثقافته الواسعة، وتاريخه المشرف وخبرته الفائقة في الخدمة.

في أحد الأيام أتاها مندوب جمع تبرعات تمثال نهضة مصر الذي يعتزم المثل محمود مختار المقيم بباريس نحتة احتفالاً بالثورة المصرية المجيدة، وبينما تعدّ هي الأوراق المطلوبة لتبرعها السخي، هرع كوش نحو المندوب وأعطاه قدرًا كبيرًا من راتب شهره الأول لدى السيدة المصونة، ومن يومها أصبح له شأن آخر بين طاقم الخدم.

كاد عام 21 ينقضي دون شيء يذكر لولا حادثة أخرى سيظل يذكرها كوش طوال حياته.

في ظهيرة أحد أيام ديسمبر -الحارة على غير العادة- استقبلت السيدة هدى صديقة إنجليزية تُعرف باسم السيدة تشاترلي تكن لها مودة كبيرة. السيدة تشاترلي عاشقة لشراب الليمون والكركيه الذي يعدّه كوش بمهارة. وفي حديقة المنزل أثناء تلك الظهيرة الحارة، وبينما ينحني بالصينية أمام السيدة كي تتناول الكوب الذي نظرت نحوه بشهوة العطشى، لمح كوش كتابًا محشورًا في كرسيها.

لم يستطع أن يمنع نفسه من النظر بفضوله المعتاد الذي يناهز كل آداب الخدمة التي تربي عليها نحو الكتاب، وكاد قلبه ينفجر بالسؤال على لسانه. لاحظت السيدة هدى الطيبة التوتر الذي اعتري كوش في وقفته وعينه المصوّبة نحو فخذ السيدة بين حين وآخر.

«عزيزتي لويز... هلا أخبرتني عن كتابك هذا؟ يبدو أنك تحمليه معك في كل مكان!»

«أوه... هدى... إنها رواية جريمة رائعة وصلت من لندن منذ بضعة أيام... الحقيقة أنني سرقتها من زوجة القنصل... أعارتني الكتاب ومنذ ذلك الحين جافاني النوم طوال الليل حتى أنهيتها هذا الصباح.. إنها لكاتبة جديدة وهذه أولى رواياتها، زوجة ضابط إنجليزي معروف في أوساط لندن، ولكن ذكاءها خطيرا»

ابتسمت هدى بينما تنظر نحو كوش الذي يتعرق الآن وجسده يتقطع من الفضول.

«هل لي أن أستعيره منك إذا؟ مر زمن طويل لم أقرأ شيئا يروح عن نفسي ويريح ذهني عن كفاحنا النسوي المرهق».

صرخت تشاترلي بمرح:

«بالطبع عزيزتي... حافظي عليه حتى أعيده لصديقتنا وإلا قتلتني».

رفعت السيدة هدى عينيها لكوش.

«هل تمنع يا كوش أن تأخذ الكتاب وتضعه على مكتبي بعد إذنك؟»

انتقل كوش في لمح البصر نحو السيدة الإنجليزية التي ناولته الكتاب، وابتعد وهو يشعر نحو سيدته الراقية بعرفان لن ينساه. ذلك التقدير الذي أظهرته بحيلتها الطفولية تلك أدخل الفرح على قلبه وأشعره أن هذه السيدة هي أم بكل معنى الكلمة.

حين قلب الكتاب بين يديه بعد أن انزوى في المطبخ الهادئ ذكره اسم الكاتبة بذكرى تكاد تكون بعيدة ولكنها لا تزال قريبة من قلبه. يتصدر الاسم الأثير إلى قلبه غلاف الرواية المعنونة بـ «قضية ستايلز الغامضة». تعجب كوش وتذكر رغبة حبه الأول في أن تكتب كتابها يومًا ما. تذكر أنه لولاها لما استطاع أن يمسك بهذا الكتاب ويقرأه. وحين قلبه على ظهره ليقرأ كلمة الغلاف ارتعشت يده وسقط منها الكتاب.

إنها هي! أسفل الغلاف على اليسار طالعتة صورثها الصغيرة التي كانت كافية ليعرفها. صورة صغيرة ومشوشة لسيدة في نفس عمره تقريبًا. بدت أكثر هدوءًا وراحة عن تلك الفتاة القلقة ابنة السادسة عشرة. ولكن لا شك أنها هي. أجاثته..

داهمته مشاعر الفخر بصديقته التي حققت حلمها وصارت كاتبة الآن، حتى وإن تكن هذه روايتها الأولى فإنها لن تعدم أن تكتب ثانية وثالثة.. بعنادها وإصرارها الذي عرفه عنها يوقن أنها لن تكون نهاية المطاف حتى قبل أن يقرأ الكتاب. ثم داهمه إدراك ثانٍ. استرجع كلمات السيدة الإنجليزية التي لا تزال بالخارج تحتسي الشراب البارد وتتجاذب أطراف الحديث مع سيدته. «إنها زوجة ضابط معروف في أوساط لندن». نعم كريستي. هذا ليس اسمها الذي عرفها به. لم تعد ميلرا! لقد تزوجت أجاثا إذا. لم يعرف بأي شيء يشعر تجاه ذلك. ولكنه عرف شيئًا واحدًا وبات متأكدًا منه الآن: أنها قد نسيتته.

أمضى كوش ليلتين متتاليتين في قراءة الرواية. لم يكن ينام سوى ساعتين أو حين تدمع عيناه دون توقف إثر القراءة في ضوء غرفته الضعيف. قلبه ينبض كلما قرأ سطرًا جديدًا، متخيلاً إياها

تكتبه فيشعر بحنين جارف تجاه صاحبة تلك الأسطر وكل ما تحكيه.
يضحك ويرتعب ويخمن هوية القاتل، محاولاً استباق ذلك المحقق
غريب الأطوار الذي ابتكرته أجاثا باسم بوارو البلجيكي.

كلما واصل كوش القراءة شعر بالقرب من أجاثا كذلك القرب الذي
شعر به حين جالسته في حديقة شبرد، ولكنه أدرك أيضًا أن تلك
الفتاة العنيدة قد صار لديها طوال تلك السنوات التي مضت منذ
لقائهما من الخبرات والمعرفة ما فاق كثيرًا استيعابه. حاول أن يعيد
تشكيل حياتها مرةً أخرى ويتخيل المسار الذي سلكته منذ أن قابلها.
لقد صارت إنسانةً أخرى في تلك السنوات الخمس عشرة. لا عجب
أنها نسيت. ولكن ماذا لو قُدر لهما اللقاء الآن؟ لقاء فعلي وليس ذلك
الذي يلتقيانه الآن عبر صفحات الكتاب الذي كتبت. ماذا لو حكى
لها هو الآخر عما مر به خلال ذلك العقد الفائت؟ كيف خدم رئيسًا
أمريكيًا سابقًا وحاكمًا إنجليزيًا وسيدة مصرية مستنيرة، وشارك
في ثورة، وعمل وسيطًا بين سجين محكوم بالإعدام وزوجته. كيف
صادق أشهر ممثلي مصر وكشف النقاب عن جريمة شنعاء. لن يحكي
لها بالطبع عن الجريمة البشعة التي تعرض لها أو تلك التي ارتكبها.
هناك الكثير الذي سيحكيه لها ولا شك أنه سيثير إعجابها، وسيجعلها
فخورةً به وبكل الدعم الذي قدمته له. لقد وقفت بجانبه، وكانت أول
من رأى فيه تلك الجذوة المشتعلة تحت رماد مكانته وأخرجتها إلى
النور، دافعةً إياها إلى التوهج وبدء التحقيق في طريق ينحوه الآن
وطوال سنوات حياته نحو الاكتمال.

كذلك على الصعيد الوطني لم يرد عام 21 العيد الانتهاء بهدوء.

ففي ديسمبر اعتقلت قوات الاحتلال سعد زغلول مرة ثانية، ونفته إلى جزيرة سيشل، آملة أن تنجح هذه المرة في تكرار نموذج عرابي الذي أبعدته إلى آسيا لمدة عشرين عامًا. قامت الدنيا ولم تقعد، وعادت أجواء الثورة تشتعل في القلوب من جديد، وإن لم يتبلور الغضب هذه المرة إلى ثورة فعلية كسابقتها، وظلت بشكل كبير في القلوب دون الانتقال للحناجر مثلما حدث من قبل، وهو ما أثار قلق كوش أن يكون شبح الاستكانة قد عاد ليسكن نفوس المصريين مرة أخرى.

ولكن كوش عاش في القلب النسوي لأحداث الفترة، وساعد بكل ما أوتي من قوة في خدمة السيدة هدى وكل من معها، وواصل مراجعة خطاباتها وتصحيحها سواء لعدلي يكن أو خطابها شديد اللهجة للمعتمد البريطاني اللبي، وإلى عبد الخالق ثروت الذي ألف الوزارة وضرب على المواطنين ببطش من حديد. تذهل شجاعته كوش وتدفع بالدموع إلى عينيه، لم تكن شجاعة يتخيل أبدًا أن تخرج من امرأة، وكأنها تكتب في آخر يوم من عمرها، وكأن ليس لديها شيء لتخسره أو أولاد يهددونهم بهم أو زوج قد ينتقمون منه. لا شيء أبدًا يمكن أن يعيد تلك المرأة إلى رشدها الذي فقدته في خضم حربها من أجل وطنها. أدى هذا الصراع المستميت في عام 22 إلى إعلان استقلال مصر عن بريطانيا والاعتراف بها دولة ذات سيادة. قبل أن يطير كوش فرحًا بذلك الخبر العظيم أفهمته السيدة هدى «تحفظات» الإنجليز على هذا الاستقلال.. تلك التحفظات التي لن تغير من الوضع شيئًا سوى تغيير صوريّ يحول السلطان إلى ملك. في أوقات الهدوء تتحدث معه سيدته من قلبها، وتحكي له عن

الدافع وراء كل ما تقوم به. ما قاسته في طفولتها من تفريق المعاملة بينها وبين أخيها الذي تكبره بعشر سنوات، وزواجها رغماً عنها وهي طفلة، والعزلة التي فرضت عليها لمجرد كونها أنثى بعد وفاة أبيها، رغم أنها تلقت تعليمًا رفيعًا وأبدت قدراتٍ ذهنية هائلة كانت تؤهلها لأن تخدم وطنها بأفضل صورةٍ ممكنة، ولكن كل تلك الطاقات أهدرت لمجرد أنها تنتمي إلى فئةٍ لم يكن مسموحًا لها بأن تكون أكبر مما يسمح لها المجتمع بأن تكونه. شعر كوش وكأنها تتكلم عنه هو.

«من العار علينا أن نترك امرأةً واحدةً تعاني ما عانىناه بعد اليوم، خاصةً بعد ما حققناه وأثبتناه في الثورة»

بعد عامين من الخدمة المخلصة، وتحديدًا في مارس من عام 23، منحته السيدة هدى شعراوي، التي يشعر بالفخر لمجرد حمل طرف ثوبها، الفرصة لأولى مغامراته الكبرى في هذا العالم.

انتدبت اللجنة المركزية السيدة هدى وصديقتها نبوية وسيزا للسفر إلى روما للمشاركة في مؤتمر الاتحاد الدولي النسائي والتحدث بلسان المصريات عن القضية المصرية في الخارج. استدعت السيدة هدى، التي زادت سنوات الكفاح الأخيرة تألقًا وجمالًا يكاد يتأخم حدود الأسطورية، كوش وأخبرته أن يساعد وصيفاتها في الاستعداد للسفر، وأنه سيسافر معها وعليه أن يتوجه مع السائق لإعداد جواز سفر خاص به، «ستسهر على راحتنا وتتولى حمايتنا في بلاد الأجانب يا ولدي» قالت له بابتسامتها الملائكية.

استدعى السفر جهودًا خارقة، حيث يجري التحضير له على قدم

وساق بالتوازي مع إنشاء الاتحاد النسائي المصري الذي سيضفي صبغة رسمية على الوفد المسافر. وفي أعقاب إعلان الجمعية أقيم حفل رائع اجتمعت به كافة النساء، وكان من المتوقع أن تحييه السيدة منيرة المهديّة، ولكنها اعتذرت لانشغالها بحفل آخر، فاقترحت إحدى النسوة استدعاء مطربة صاعدة لديها صوت ذهبي. وافقت السيدة هدى مترددة خيفة إفسادها الحفل.

وقف كوش في استقبال الأنسة الصغيرة، والتي راعه طولها وضخامة جسدها الذي قلما رآه في النساء. ترتدي ثوبًا بسيطًا وأتت برفقة والدها وأخيها الأصغر. طلبت من كوش فنجانًا من الينسون الذي هرع لإعداده. بعدها ارتكزت الفرقة الموسيقية، وحين بدأت الفتاة في الغناء تأوهت النسوة من فرط الجمال.

حملت الأجواء سحرًا عجيبًا، ففي ذات الشهر أعلنت الحكومة إقرار دستور مصري لأول مرة منذ الاحتلال، وهو الدستور الذي أثار حنق هدى هانم لما حمله من تطاولات على السيادة المصرية وخروقات تسمح للملك بانتهاكه حتى «لا يعود يستحق قيمة الورق المطبوع عليه»، ولكن كوش الذي لا يزال يتابع السياسة بخوف من أن تحظم قلبه كما فعلت من قبل، كان من داخله سعيدًا بتلك الخطوة التي قرأ كثيرًا ليفهم مدى أهميتها. الآن بات من حق مصر أن تتمتع ببرلمان كامل الهيئة، وحكومة وطنية حقيقية، حتى وإن ظل للملك الحق في حله متى شاء، ولكنه على الأقل يضمن تحقيق مطالب الثورة على الأرض.

مع صوت الأنسة أم كلثوم حلّقت الآمال في سماء باحة القصر الواسعة نحو غدٍ أفضل؛ غدٍ من الحرية وحق تقرير المصير وبناء

بعد الحفل بأيام انطلقت القافلة إلى الإسكندرية. صاحبة العصمة وصديقتها ووصيفاتهن، ومعهن الرجل الوحيد الذي سيعاني في حمل الحقائق وممارسة دوره الذكوري الخطير في حماية سرب الإناث: كوش كو.

انطلقت الباخرة الضخمة تشق عباب البحر، وما هي إلا أيام حتى وصلت إلى ميناء البندقية، ومنها استقلوا القطار إلى روما. شعر كوش بالرعب والانبهار. لم يَز في مثل بشرته كثيرين. ورغم أن السيدات كن قد كشفن عن وجوههن بعد معركة السفور الشهيرة التي خاضتها السيدة هدى وغيّرت عبرها من تاريخ مصر حين كشفت وجهها، إلا أنهن كن يغطين شعورهن ويرتدين الملابس الواسعة، ما أسمته الهانم الإزار الشرعي، وبالتالي لم يكن من بد أن تلفت هيئتهن الأنظار، وتقابل بالسخرية والاستهجان. لم يشعر كوش بالغربة بين الأوروبيين الذين تربى وسطهم بالفندق، حتى مركز المدينة بدا شبيهاً بوسط القاهرة، ولكنه شعر بالرغبة من سعة الشوارع، وضخامة المباني، واختلاف التصاميم، وكثرة البيض المحيطين بهم من كل جانب. تذكر ريكاردو حين وطئت قدماه أرض إيطاليا ودعا له في سره.

الوصيفات الثلاث المصاحبات لسيداتهن كن في غاية المشاغبة، ولكن كوش حافظ على مسافة واحدة منهن، فلم يفكر في مبادلتهن الحديث أو الإساءة بأي صورة إلى صاحبة العصمة رئيسته. انشغل

باستكشاف صنوف الطعام الإيطالي اللذيذ، والفرجة على المعابد الرومانية والكنائس المذهلة.

افتتح المؤتمر في الثاني عشر من مايو، وصل الوفد النسائي المصري إلى مركز المؤتمرات الدولية بصحبة عدد من الطلبة المصريين والمقيمين في روما الذين وقفوا بكل حماسهم مشجعين للنسوة المصريات. ارتدى كوش زيه المعتاد ولم يقترح أحد أن يغيره إلى زي غربي بأي شكل من الأشكال، قررت الهانم أن يصبحوا جميعًا ممثلين للمصريين وهويتهم الوطنية المميزة.

أذهلته القاعة الرئيسية بكل ما فيها. حوت ألف امرأة من ست وثلاثين دولة، شقت السيدات المصريات طريقهن وسطهن بصعوبة، وحاول كوش أن يستبقهن بخطوات مفسحاً لهن الطريق دون أن يعير أي جلبة. لم تكن النساء فقط حاضرات، بل كان الرجال أيضًا، لكنهم -في استثناء نادر- يقل عددهم عن نظرائهم من السيدات.

وصلن إلى المقاعد الموضوع عليها اسم مصر، وما إن جلسن وبجوارهن كوش حتى صرخت السيدة هدى في أسى: «يا إلهي. انظرن إلى الأعلام. لكل دولة علمها بينما لا علم للقطر المصري». ارتبكت النسوة. وبعد لحظات بدأت فعاليات الافتتاح. تراجع كوش إلى الخلفية متواريًا مع نظرائه من المساعدين والخدم وغيرهم من الرجال، وسلموا القاعة بصورة رمزية لتحتلها النساء فقط. على المنصة الرئيسية تحدثت رئيسة الاتحاد بالإنجليزية، وتبعتها مراسم تسليم الرئاسة إلى سيدة أخرى، والتي بدأت الجلسة بإعلان حضور رئيس الوزراء الجديد السنيور موسولينى. صعد الشاب ذو العينين الجاحظتين والشارب الحاد إلى المنصة وألقى كلمته بالإيطالية،

وبالتالي لم تفهمها معظم الحاضرات. بعدها توالى كلمات المشاركات، والتي انحصرت في أغلبها حول حق المرأة في التصويت، والحاجة الملحة لحصولها على نفس الحقوق السياسية والاجتماعية كما الرجل، وأن تلعب دورًا أكبر في رفعة أمتها وتحقيق نهضتها، وألا يُنظر لها ككائن من الدرجة الثانية، وألا يقتصر طموحها على رعاية الأسرة والأطفال ولكن المشاركة في الحياة العامة وتحقيق ذاتها وأحلامها الشخصية. بحلول نهاية اليوم أشارت السيدة إلى كوش الذي اقترب منها مهرولاً: «ما هو مدى درايتك بأصول الخياطة؟».

انضم كوش إلى عدد من الطلبة المصريين الذين كلفتهم السيدة بخياطة علم مصري ينتهون منه في هذه الليلة، إذ سألني خطابها في الغد ممثلةً عن الوفد المصري. «ومن العار ألا يكون العلم المصري مرفقًا بجانب إخوته من بقية الأمم». وعليه جلس كوش برفقة الوصيفات الثلاث وخليط من الطلاب وصديقاتهم الإيطاليات وعملوا على خياطة العلم. وكان للسيدة طلب خاص مالت على كوش وأوصته قبل أن يغادرها أن يتأكد من إتمامه على الوجه المطلوب. «إن غفلت عن هذا الأمر سأتركك هنا ولن تعود معنا إلى مصر». قالت في حزمها المرح.

ظل كوش متيقظًا طوال الليل، يحاول المساعدة قدر الإمكان، والتأكد من أن طلبات السيدة العظيمة تُجاب وتتم مراعاتها بالحرف الواحد. وفي الثامنة والنصف هرع إلى داخل القاعة الكبرى كالسكران من انعدام النوم ومن ثقل قطعة القماش الضخمة التي يحملها على كتفه. وصل إلى حيث تجلس النسوة الثلاث ووضع

أمامهن بعينييه المحمرتين.

ابتسمت السيدة هدى، وللمرة الوحيدة في حياتها سمحت لنفسها بأن تربت على كتف رجل أجنبي عنها. تضاعف هذا التقدير حين بسط العلم في استراحة منتصف النهار أمام رئيسة المؤتمر، فراعها أن حجمه أكبر من كافة الأعلام الموضوعة، كما أنه لم يكن العلم المصري الدقيق، بل احتوى غلطة مقصودة: هلالًا ضخمًا يحتضن صليبًا هائلًا. على الفور أمرت الرئيسة بنصب العلم يسار المتحدث مقابلًا للعلم الإيطالي جهة اليمين، وهكذا صار العلم المصري الأبرز مكانًا وحجمًا ومكانةً بين أعلام الدول الست والثلاثين، ولم يخف على أي واحدة من الألف امرأة اللاتي حضرن مؤتمر هذا العام أن تتحدث عن العلم المصري والنسوة الثلاث غاية التحضر والأناقة اللاتي أتين يحملنه.

أما كوش فلم يهتم بكل هذا بل ونسيه لحظة أن استمع للسيدة هدى شعراوي تلقي كلمة المرأة المصرية أمام الجمع الحاشد. صعدت الدرجات بتؤدة ملكية، عدلت من وضع حجابها، رتبت الأوراق أمامها، ثم أخذت نفسًا عميقًا، متناسيةً للحظات أنها أول سيدة مصرية في التاريخ الحديث تتحدث أمام حشد عالمي، ومتجاهلة الصحفيين الذين وقفوا بأقلامهم وعدسات مصوريهم يستعدون لالتقاط ما ستقوله هذه السيدة القادمة من بلاد لا يعرفون عنها شيئًا. «كيف تعلّمت الإنجليزية وخياطة مثل تلك الملابس في خيمتها؟» قال أحد الصحفيين هازئًا لزميله. وجه كوش نظرة نارية نحوهما فهما منها أن هذا الداكن يفهم الإيطالية.

تحدثت السيدة هدى بإنجليزية مبهرة في كلمتها حول فخرها

بتمثيل المرأة المصرية في هذا المحفل العالمي، ثم أخذت تشرح أوجه التشابه بين المرأة المصرية وقرينتها الأوروبية، وأن الوقت قد حان لخروج المرأة العربية والمسلمة من عزلتها وراء الحجاب، وأن تستعيد المرأة المصرية دورها التاريخي الذي بدأ منذ عهد الفراعنة. تحدثت أيضًا عن معاناة المرأة تحت الاحتلال الأجنبي، وعن الحقوق التي منحها لها الإسلام، والنهضة التي شهدتها منذ عهد محمد علي والمدارس التي خُصصت للنساء وأصر الاحتلال على إغلاقها. ذكرت مأساة حرمان الفتيات من أداء امتحانات البكالوريا وحصر دورهن في مهنة المدرّسة والقابلة فقط. تحدثت السيدة المتألقة بفخر عن الفتيات المصريات اللاتي تحايلن على كل تلك القيود وواصلن التعليم حتى بلغن أعلى المراتب وأكملن تعليمهن في الجامعات الأوروبية، وحاولت شرح مفهوم تعدد الزوجات وكيفية تحقيق العدالة خلاله باعتباره مفهومًا مغلوطنًا عند الغرب، ثم استعرضت العديد من القوانين التي تحفظ للمرأة حقوقها بدءًا من الميراث وصولًا إلى نفقات الزوجة بعد الانفصال. ثم عرجت على ذكر الدور البطولي للمرأة المصرية في الثورة المجيدة والتي سَطّرت تاريخًا جديدًا للمرأة المصرية الحديثة. تكلمت أيضًا عن الجمعية والقوانين التي تسعى إلى تغييرها، بدءًا من رفع سن الزواج إلى ستة عشر عامًا، وحرية الالتحاق بالمدارس العليا، وقوانين الزواج والطلاق، إلى جانب تحسين فرص مشاركتها في الحياة السياسية، وتحسين صحتها، ومحاربة الخرافات والريضة، وكل ما يجزّ المرأة المصرية للخلف ويجور على حقوقها وحريتها.

ضجت القاعة بالتصفيق. وبلغ الحماس من كوش أشده، وأدرك أنه

يشهد لحظة تاريخية عظيمة.

في اليوم الأخير انطلقت النسوة في مسيرة رمزية حتى القصر الجمهوري لمقابلة موسوليني والمطالبة بحصول المرأة الإيطالية على حقها في الانتخاب. سارت المسيرة النسوية الخالصة بجلال، أما الرجال فاستقلوا العربات. في طابور الانتظار وقف كوش على مبعدة من سيدته ورفيقاتها. حين وصل الدور على السيدة هدى، تردّد موسوليني في مد يده نحوها، ولكنها بادرت بمد يدها له بابتسامة واسعة. تحدثت السيدة بحماس شاكراً إياه على حسن الاستضافة. «لقد حظينا بوقت أكثر من رائع في بلادكم سيادة الرئيس، ونأمل أن نراك في مصر قريباً!». ابتسم رئيس الوزراء: «أنا متابع عن قرب لكفاحكم في سبيل نيل حريتكم. نحن نشارككم الدعم والتشجيع ونرجو لكم التوفيق». أجابته: «لن يكتمل كفاحنا إلا إذا كان للمرأة نصيبها من المشاركة». صافحها مرة أخرى ثم أشار ناحية كوش: «يجب أن تتخلوا عن العبودية أيضاً سيدة شعراوي، لقد باتت موضحة قديمة ولا يصح أن يمتلك البشر بشراً مثلهم». هم كوش أن يقول شيئاً، وشعر بالإهانة والتوتر. لم يقول الرجل هذا؟ نظرت السيدة هدى بهدوء لكوش متصنعة الاستغراب. «من تقصد؟ صديقي كوش هنا؟ إنه حامي الوفد المصري ويعمل معاوئاً لي في منزلي يا سيادة الرئيس، ليس في مصر عبودية، لا أدري من أين أتت هذه الفكرة، أما عن لونه الأسمر الجميل فذلك لأنه أحد أحفاد محاربي النوبة العظام وينحدر بلونه من لون طمي النيل». نظر موسوليني نظرة لم يفهم كوش معناها. «هذا أمر مطمئن، أتمنى لك

عودةً سالمة».

وهكذا انتهت المغامرة الإيطالية، وطفقت الوفود عائدة إلى السفن لتقلهن إلى بلادهن.

توالت الأخبار المفرحة، وتعاضمت مشاعر السرور فيما بين عضوات الوفد النسائي اللاتي يشعرن بالسعادة البالغة من نجاح مشاركتهن في المؤتمر، وجاء الخبر السعيد الذي لم تعرفه العضوات ومعهن كوش لابتعادهم عن الشأن المصري طوال الأيام السبعة الماضية بأن نفي سعد باشا الثاني قد تم إلغاؤه استجابةً للضغوط الشعبية بعد عام ونصف من الإبعاد، وأنه سيعود من جزر سيشل إلى مصر ماژا بإيطاليا التي يستقل منها ذات السفينة التي يصعدون إليها الآن.

بنهاية اليوم الأول من الرحلة، وبينما عزفت الفرقة الموسيقية اللطيفة ألحانها في خلفية العشاء، تم اللقاء بين صاحبة العصمة وأم المصريين وزوجها زعيم الأمة. وقف كوش على مبعدة، وكما فعل سعد يوم رآه مع كتشنر، أوماً له برأسه واختار بعظمته ألا يتجاهل الخادم البسيط. ولكنه لم يكن خادماً بسيطاً، كان كوش كو، الخادم الأكثر ثقافةً في بز مصر، وصاحب الدور الوطني الخفي، وقاتل الإنجليز، ومحب جوته وروايات أجاثا كريستي الجرائمية.

دار الحوار بين ثلاثتهم بالفرنسية في أغلبه، وبالتالي لم يفهم كوش منه الكثير. ما قيل بالعربية هو إطراء سعد زغلول على زي الهانم الجديد والجريء، وأخبرها -بعد أن قامت السيدة صفية إلى

مخدعها- أنه سيطلب من زوجته أن تتبنى هذا الذي الجديد الذي يكشف الوجه. بعدها تطرق الحديث لشؤون أخرى، بدا على وجهيهما الغضب والاحتقان، وحديثهما يروح ويجيء ما بين الودي والخلافي الحاد. تعجب كوش. إنه يعرف جيدًا من هي ويعرف حبها للوفد، والمجهود الذي تبذله من أجله. تلوم الرجل العجوز بجرأة لم ير مثلها قط على موقفه الداعم لأحد الوزراء الذي أيد انفصال السودان عن مصر. لم يكن الباشا مؤيدًا لذلك الموقف ولكنه كان مقدّرًا لتراجع الرجل عنه، سألتها السيدة هدى بحدة: «هل كنت تفعل هذا لو كنت محلّ نسيم باشا؟ تبيع البلد لأجل دموع الملك؟» وحين أجاب بالنفي أفحمتها: «لماذا إذن تحبذ ما لا تفعله؟». ولكن هذا الخلاف الحاد لم يخرج عن إطار التبجيل والاحترام من كليهما، ولم يمنع الباشا من أن يقوم لفوره ما إن وقفت السيدة هدى، وأن يتوجه بكلامه لكوش: «تأكد من وصول الهانم إلى كابينتتها بأمان يا بني».

وصلت الباخرة إلى الإسكندرية بعد أيام، وكانت مصر كلها في استقبالها.

وفي خضم الأحداث والسفر نسي كوش كل ما ألم به من شعور تجاه الماضي، والقلق من القبض عليه، وحين عاد من إيطاليا منحتة السيدة هدى إجازة أسبوعًا كاملًا، وشعر بأن الوقت قد حان لزيارة قد طال أمدها.

سار إلى السيدة زينب بخطى لا يعوزها الحنين والترقب. حين وصل إلى البيت ودق الباب ولم يسمع أي جلبة بالداخل، عرف

أن العالم قد تغير بالفعل خلال الأعوام الأربعة الماضية. فتح له الباب مبروك الذي قفز فرحًا حين شاهده أمامه، ولم يجد بالشقة الفسيحة سوى حنفي، الذي زاد وزنه وضعف نظره وازدادت عدسات نظارته ثخانةً، ولكنه لم يقل حماسًا وترحيبًا بكوش عن مبروك. بعد السلامة حكى لهما كوش عما ألم به منذ ذلك اليوم عام 19، وكيف ارتحل إلى الإسكندرية وعاد منها إلى بيت علي شعراوي الذي انشغل بازدهامه الدائم ولم يكن يغادره سوى نادرًا، وحكى لهم عن سفرته أيضًا، ثم لم يستطع صبرًا وسأل عن بقية أفراد العائلة. تركهما مبروك ليعد كوبًا من الشاي للضيف، بينما انجفع حنفي في كرسيه بعد أن خلع نظارته يمسحها وبانت في وسط تجاعيد وجهه عيناه المغمضتان:

«هيبه لقد تغير الكثير يا صديقي. خلا البيت علي أنا ومبروك. أما محسن فقد أرسله أبوه إلى فرنسا لدراسة الحقوق، ولكن الولد لا ينفك يرسل لنا خطابات لا تنقطع يحكي فيها عن مغامراته في مسارح باريز ولقاءاته بالشعراء والأدباء دون أن يذكر شيئًا عن دراسته، ولا أخفيك أن أباه حائق بشدة على استهتار الولد».

ابتسم كوش. إن محسن يحقق وعده لنفسه بأن يصبح يومًا لسان الأمة، ويريد أن يكون فنانًا بحق. لم يتخيل محسن محاميًا أبدًا.

«أما أخونا سليم فقد أكرمه الله وعاد إلى سلك البوليس مرة أخرى، والآن يخدم في جمارك السويس. وزنوبة عقبى لك تزوجت أخيرًا من موظف بالأوقاف وانتقلت معه إلى طنطا وتقوم على خدمة أمه القعيدة. وأخيرًا أنهى عبده دراسته في الهندسة وتوظف في الحكومة، وتزوج أيضًا».

«وماذا عن الدكتور حلمي؟»

«تزوجت ابنته سنية من جارنا الأستاذ مصطفى وانتقلت معه إلى المحلة، أما مدام الدكتور فقد توفاه الله العام الماضي، وإن نزلت الآن ستجده جالسًا بالصيدلية مع رفقته، إنه يقضي جل وقته هناك».

أطرق كوش وهو يستمع لأخبار أسرته الأثيرة، وتعجب مما تفعله الدنيا بالناس، وكيف تفرّقهم وتنقلهم من حال إلى حال. لام نفسه على اختفائه وعدم تواصله معهم، ولكنه خاف عليهم ربما، وكان منكسرًا، ربما لم يرد أن يتواصل مع أي شخص يذكره بذلك الحلم الذي مر سريعًا متحوّلًا إلى كابوس. ولكن حتى لو تواصل معهم، هل كان ذلك ليغير من سير الأمور شيئًا؟ كانت النهاية ستكون واحدة. من سافر كان سيسافر، من تزوّج كان من المؤكد سيتزوج، ومن ينسى كان حتمًا سينسى. ترى هل يذكرونه؟ وهل تجمعهم بهم الأيام مرة أخرى؟ ترخّم على أيام الدفء التي راحت.

قام بخطى متعاقلة بعد إدراكه أن الحياة أقسى مما تخيل. وأن العالم لن يكون رحيقًا به للدرجة التي سيحافظ له بها على العائلة التي اختارها لنفسه، والآن بعد أن سلب منه عائلة الفندق، يسلب منه عائلة السيدة زينب حتى لا تبقى له أي جذور يمسك بها ويطمئن لوجودها. كل من يحب يذهب أدراج الرياح. لا شيء يبقى. وهو وحده كريشة تتقاذفها حوادث الزمن دون أن تمنحه حضنًا دافئًا. الآن سيظل شريدًا، حتى وقد عاد للقاهرة وانتهت فترة الإسكندرية المظلمة، فإنه، مثل مصر، لا يزال تائها.

في ذات الأسبوع ذهب كوش لزيارة نجيب الذي انقطع عنه لأكثر من عام لانشغاله مع كفاح هدى التي لا تحبذ منح موظفيها إجازات طويلة. حين لقيه نجيب لأمه بشدة: «هل قاطعتني مقاطعة المصريين للجنة ملنر يا ناكر الجميل يا ملعون؟» واحتضنه بقلب يسع الكون.

كان لقاؤهما في قهوة بملتقى شارع عماد الدين وقنطرة الدكة.. فقد بات نجيب الآن بلا مسرح. بدا عليه الهم وارتدى ذلك الوجه الذي يخافه كوش.. الوجه الكئيب.

بعد الثورة لم تسر أحواله على ما يرام، ودب الخلاف بينه وبين سيد درويش وعزيز عيد -دون أن يذكر نجيب شيئاً تأكد كوش أن الخلاف كان مادياً- فسافر إلى الشام وفشل في تقديم عروضه هناك لأن هناك الكثير من المقلدين، ومنهم أحد الممثلين السوريين السابقين بفرقته، الذين سرقوا شخصيته الأشهر «كشكش بيك» وقدموها قبله في الشام، فنظر له الجمهور هناك على أنه كشكش تقليد. «أصبح هناك مليون كشكش بيه. الكل ينهش في لحمي. وأفراد الفرق ناكرو الجميل، وأصحاب المسارح طماعون، والصحفيون حقراء يريدون النيل مني، والحكومة لا تعترف بفضلي ولا بما فعلته في الثورة وقدمته للفن والشعب، ولا أحد يريد أن يحترم الكوميديان. إنهم يظنونني أراجوزاً يا كوش!«.

لحسن الطالع عاد من هناك باكتشاف بديعة مصابني.. ولسوئه وجد أمه قد ماتت واختفى أخوه دون أن يعرف أحد إلى أين ذهب.

كان عامًا أسودَ على نجيب، وشعر كوش بوخز قاتل في ضميره أنه لم يكن بجانب صديقه في تلك الأشهر الماضية. «هربت إلى لبنان مرةً أخرى لعلّي أصيب هذه المرة نجاحًا ولكنها لم تكن أفضل من سابقتها. طاردني الشعور بالفشل واليأس. كنت في حالة مثل حالتك منذ بضع سنوات حين قابلتك في الإسكندرية». شعر كوش بالحزن أن وجد صديقه في تلك الحال، وتذكّر طه، الذي يدرّس الآن في الجامعة، وتساءل إن كان سيقابله هو الآخر قريبًا؟ لو تقابل مع نجيب سيخفف عنه، فطه نموذج للصلابة التي لم ير كوش في حياته مثلها. ربما ورث عنه بعضًا من صبره على ما فقد. نظر كوش لنجيب المتبرم وشعر بأنه العائلة الوحيدة الباقية له. حكى له عن مسرحية ريا وسكينة وما شعر به من سعادة لتجسيد دور درامي يدرّ عليه الاحترام أخيرًا، ولكن أحدًا لم يلتفت لهذا رغم أن نجيب المتفرجين ارتفع كل يوم في الصالة. ثم اختتمت المآسي بقضية رفعها أحد أصحاب المسارح فأفلسته. وصار بلا مسرح ولا مال، واتجه الجميع لدراما يوسف وهبي وهجروا الكوميديا. لم يجد نجيب من سلوى سوى في زواجه من بديعة الذي تم على عجل في بداية العام. «منذ زمنٍ بعيد للغاية، حين كنت أعمل في شركة السكر، أخبرتني عزّافة أنني سأجوع كثيرًا، ثم سأغرق في المال والنجاح والشهرة، وبعدها سأعود مرةً أخرى للفقر، وها أنا أراني مقبلًا عليه بمداد من البؤس».

«كيف يمكنني أن أساعدك؟». قال له كوش بحنو بالغ.

«لا تساعدني ولا أساعدك. هناك شامي مجنون في البرازيل يقول لديه جمهور متعطش من الشوام لعروضنا هناك. سأجمع بعضًا من

الفرقة ونسافر، فقد أوهمت بديعة أنني سأصحابها إلى شهر عسل متأخر، أرض الله واسعة وربما يكون رزقنا هناك». أطرق كوش بينما يستمع إليه. أين تقع البرازيل هذه؟ أليست في آخر العالم؟ هل يمكن للمصريين الوصول إلى هناك بالأساس، إنهم ليسوا مثل الشوام، فهؤلاء سحرة يملكون أبسطة سحرية تنقلهم إلى أي مكان فيبرعون ويزدهرون فيه.

رفع نجيب رأسه فجأة وقد التمعت عيناه: «أتأتي معنا؟ لن يكون عددنا كبيرًا، ولا نعلم إن كانت ستصيب أم تخيب، ولكنني حتمًا سأحتاج إلى معاونٍ بذكائك وحسن تصرفك، وسأكون سعيدًا بوجود صديقٍ حميم في بلاد واق الواق هذه». ابتسم كوش ونظر للسماء مستفهمًا دون أن يرد. ثم تدارك وهو ينظر لكوب قهوته الذي لم يمسسه. «ولكن الست هدى، ماذا أقول لها؟». «ليس عليك الرد الآن» قال نجيب، «فنحن لن نسافر قبل عدة أشهر، ولا أدري كم من الوقت نمكث هناك، لن تكون رحلة سهلة، وبصراحة لا أدري كم سأنقذك من المال، فهي رحلة محفوفة بالمخاطر وقد نعود منها بخفي الأخ حنين. فكرر علي».

غادر كوش نجيب وقرر السير على غير هدى في شوارع القاهرة الخالية في ذلك الوقت المتأخر من الليل. بينما يطالع الأبنية الجديدة الشاهقة بطرازها الأوروبي أدرك كوش أنه اليوم، في سن الرابعة والثلاثين، لا يملك رفاهية التفكير بروح ابن السابعة عشرة. ما عاشه ورآه حتى الآن يخبره بهذا. منذ أيام الحرب، ثم الثورة، والآن ما بعدها لم يعد هناك شيء. ربما إن تزوج يصبح سعيدًا؟

نعم. هذا هو السؤال. كيف يمكن له أن يكون سعيدًا وهو لن ينجب أبدًا؟ من التي ستقبل بعاهته تلك؟ حاول التفكير في الأوقات التي شعر فيها بالسعادة الحقة. ذلك الشعور. كيف يمكن أن يعيده مرة أخرى؟ كان سعيدًا وهو يقرأ على أجاثا، وهو يقرأ على طه، كان سعيدًا يوم سهرة المسرح، وفي كل مرة حضر فيها عرضًا لنجيب، وربما بدرجة أقل حين تسلل من ورائه وحضر عروضًا لجورج أبيض ويوسف وهبي والكسار. كان سعيدًا وهو يستيقظ كل يوم غير عارف من سيلتقي اليوم في عالم الفندق الفسيح. كان سعيدًا وهو ينخرط في الحوار الوطني الدائر بالمطبخ. وهو يدخل القصور الملكية ويقابل كبار القوم، حتى لو لم يحبهم، حتى لو لم يشعر أنه قد اختار هذا الدور، ولكن كل ما منحه له كان يشعره بالسعادة. كان سعيدًا بسذاجته وانفتاحه على الحياة. كان سعيدًا بطفولته وشبابه. يا الله كم كان سعيدًا وهو يركض في أرجاء القاهرة الشرقية جاذبًا طه الصغير من كفه. كان سعيدًا في أوقات كثيرة. ولكنها كلها كانت أوقاتًا في زمن بعيد. في زمن الطفولة والبلوغ والشباب المبكر. أيكون الثقل الذي يشعر به في قلبه ثقل العمر؟ أهذا هو النضج الذي قرأ عنه ولم يفهم كنهه؟ أيقصدون به تلك الوحدة وذلك الشعور بالانفصال عن كل ما هو جميل ومبهج في الحياة؟ أكانت العورة وتيه البلاد بعدها هي التي قتلت تلك الروح بداخله، أم هي حوادث الزمن وضياع الخلان؟ عليه الاعتراف أن تلك الحياة التي عاشها قبل الثلاثين لم تعد موجودة. وأن تلك الليلة، ليلة المسرحية، خط فاصل عليه ألا يعود لينظر قبله أبدًا. فلتأت الحياة بما تشتهي، كل ما سيفعله أنه لن ينتظر أن يعود به شيء إلى ما كان. سيبحث عن المستقبل. أو لا. لن يبحث. سيفعل الشيء الوحيد الذي يحسن فعله

ويحقق به كينونته. سيكتشف ماذا يخبئ هذا العالم الواسع. سيفتح ذراعيه له. ويترك نفسه تنجرف وراء ما يريد أن يقدمه له القدر. سيكون هذا الاكتشاف هو المعنى. اكتشاف نفسه ومكانته ومكانه في تلك الدنيا التي أتى لها دون أن يختار. حتى الآن فاجأته الدنيا بالكثير من القبيح، والقليل من الجميل، ولكنه لن يحاسبها الآن، فليأت الحساب في وقت لاحق، أما الآن، اليوم، فإنه سيترك نفسه للرحلة، ويرى إلى أين تحمله.

بنهاية مسيره الطويل، وبينما كل تلك الأفكار تتقاذف في ذهنه، وجد نفسه واقفًا دون أن يدري في الجهة المقابلة لشرفة شبرد. طالعه للحظات بانذهال ثم نظر إلى قدميه اللتين قادتاها إلى هنا رغما عنه. دق قلبه بشدة. أراد أن يدخل. أوحشته الرائحة، والأصوات، وستيفنسون والعاملون والغسالات. أوحشته رائحة الشراشف وخشب الجدران وصليل الكؤوس في البار. أوحشته الفساتين والعطور والريدنجوت وأنغام الموسيقى الراقصة المفعمة بالحياة. أوحشه كل هذا بشدة. ولكنه، ووفاء لما توصل إليه في طريقه، لم يدخل، وغادر دون أن ينظر وراءه.

الفصل الخامس عشر

إلى أمريكا اللاتينية

(1924-1925)

قامت المركب من ميناء الإسكندرية في الرابع والعشرين من يناير عام 1924. تكوّن وفد مخابيل الفن من نجيب الريحاني، بديعة مصابني، ابنتها جوجو، الممثل محمود التوني، وكوش كو النوبي.

لم يتوقف الضحك والمزاح طوال الرحلة. بسرعة أدرك كوش أن التواجد في الوسط الفني، محاطًا بفنانين يعملون بالاستعراض والكوميديا مسألة غاية في الاختلاف عن أجواء السياسة الرسمية والخائفة التي تبعث على التوتر ويصاحبها شعور دائم بالخطورة وتحديد المصير. لم تكن المرة الأولى التي يخالطهم فيها منذ التقى نجيب في مسرحه منذ ستة أعوام، ولكنها كانت أطول مدة، كما أن السفر يعيد صقل العلاقات ويكشفها ويعزيها كما لا تفعل عشرات السنوات من الصداقة ذات النطاق الجغرافي المحلي.

وصل الركب إلى جنوا الإيطالية. قال نجيب وهو يتقافز على رصيف الميناء بينما يلحق به الجمع وفي آخرهم كوش المتعثر من الحقائق الضخمة التي يحملها: «الآن روح خريستوف كولومب تظالعنا يا حضرات. ننتقل من مدينته إلى أمريكا العظيمة!».

وصلوا إلى المركب التي بالغ نجيب في وصفها بأنها أعظم بواخر العالم وأسمائها الإيطاليون على اسم زعيمهم الشهير غريبالدي. ولكن الرفاق الخمسة أسقطوا حقائبهم وفتحوا أفواههم في ذهول حين

شاهدوا المركب التي من المفترض أن تعبر بهم المحيط الأطلنطي لمدة أسبوع كامل.

«هذه أعظم مراكب الطليان؟» قالت بديعة بنبرة لوم زوجة قادرة لزوجها الذي أسقط في يده.

هي أبعد ما تكون عن كونها باخرة. بل هي مجرد مركب خشبي صغير من دورين بلا نوافذ. يقف في مقدمتها ربانٌ مخمور بملابس رثة وعمال من جنسيات عدة لم يقو كوش حتى على التفكير في كنهها.

رسم نجيب الصليب على صدره: «اتكلنا على الله. كم ميتة سيموتها الإنسان؟» وقفز بكل جراته التي أثارت جنون من حوله إلى المركب دون أن يفكر للحظة. صعد إلى ظهرها وصرخ في المترددين: «من يريد أن يذهب إلى أعظم مغامرة في حياته؟ هيا يا بديعة، لقد وعدتك بشهر عسلٍ لن تنسيه، وها نحن نبدأ!».

بعد أن مرت المركب من مضيق جبل طارق ودخلت إلى المحيط لم يبقَ أحدٌ عليها إلا إما يتقيأ في البحر أو يفقد الوعي. الأمواج العالية والرياح الشديدة والطاقم المخمور كانت جميعها كفيلةً بأن تزيد كوش ورفاقه قناعةً بأن هذه ستكون آخر أيامهم. «لم أظن أبداً أنني سأموت طعاماً للأسماك. أنا حتى أكره السمك كُرة العمى». قال محمود التوني. صرخ فيه نجيب، الوحيد مع كوش الذي لم يصبه دوار البحر: «كفاك نواحا، كلها أيام ونصل إلى هناك». زمن الرحلة الذي وعدت به الشركة البحرية كان أسبوعاً، وكان ذلك تقديراً متفائلاً. «أظنها ستكون عشرة أيام قبل أن نصل لسانتوس». قال

نجيب. ولكن الحقيقة هي أن هذه الرحلة الجهنمية استمرت خمسة وعشرين يومًا بالتمام والكمال.

لن ينسى كوش طوال حياته الأفكار السوداء التي عصفت به حين كانت الرياح تقوم والأمطار والرعود والبرق الذي يكاد يحيل المركب إلى شعلة من نار. ولم يحدث أن رأى أحدًا يستخف بموقف خطر وبائس بقدر ما رأى نجيب. تلك الروح المشتعلة بالطاقة والإيجابية والإصرار على خوض غمار الحياة بكل ما تأتي به تذهله. فكّر كوش أن نجيب لا يختلف كثيرًا عن طه، وأن ثلاثتهم وُلدوا في نفس السنة، لذا فليس مستبعدًا أن يتمتع كوش بنفس مزاياهما دون أن يدري. نجيب يسافر كما فعل طه. نجيب يُسب في الصحف مثل طه. ونجيب أيضًا مؤمن بما يفعله وتريه إياه بصيرته ويرى ما لا يراه غيره تمامًا مثل طه. رغم ذلك لا يزال الفرق بينهما عظيمًا: جدية وهدوء صديقه الكفيف مقابل السخرية السوداء لنجيب واستهانته بالحياة، ولكن كليهما يريد أن يحدث فرقًا. فارق آخر ستوضحه الأيام: التقدير الذي لقيه طه كمفكر على مر السنوات لم يلق نجيب -الذي كان يحلم به ويتمناه- ربعه حتى مات بعد رحيل كوش بعام.

وصلت المركب أخيرًا. وكان منظر الخليج مبهرًا، حتى إن الفرقة الناجية من جنون البحر انهمرت دموعها لرؤية الغروب المشتعل فوق صفحة الماء الساحرة التي تطل عليها جبال خضراء لم ير إنسان في مثل بكارتها من قبل.

نزلوا منهكين وراكعين على سلامة الوصول. ومن ميناء مدينة سانتوس البرازيلية إلى قلب المدينة حيث قابلوا مرشدهم ومتعهدهم السوري في الفندق. لم يفكر أحد سوى في النوم لأيام،

ولكن نجيب، بالطبع، لم يقو على الجلوس هادئًا وقرر النزول لاستشكاف المدينة. قرر كوش أن يجاريه ويصحبه في جولته.

«هل هذه أمريكا؟ إذا ماذا تكون المغربلين يا كوش؟» صرخ نجيب بينما يتجولان في شوارع المدينة الفقيرة. بالفعل، هي أكثر ضيقًا من حوارى السيدة زينب، وأشد حرارة ورطوبة، والجميع ملقى على قارعة الطريق في كسل ووخم أول المساء.

فطن نجيب باندفاعه المعهود أن هذه المدينة لن يكون فيها أي شيء يمكنهم أن يصيبوه. حين عادا إلى الفندق وجدوا متعهدًا للحفلات يجلس في انتظار كشكش بيه. «سيد كشكش، سوف يسعدني أن أقيم حفلًا غنائيًا لجوقة حضرتك تلهمنا فيه بأغانيك الوطنية الحماسية». نظر له نجيب دون فهم. يغمز له محمود التوني أن يوافق. أوما نجيب برأسه. «الله يخرب بيتك ماذا فعلت؟» شرح له التوني: «الرجل أتاني وقال إنه سمع عن مطربين مصريين أتوا إلى هنا، وأن السوريين يتحرقون شوقًا إلى سماع أغاني من الوطن، فوافقته. عصفور في اليد». أسقط في يد نجيب. «هل هذه هيئة أو صوت مطرب يا حمار؟» وماذا عن بديعة، التي وعدها بتقديم أكبر العروض المسرحية الاستعراضية باعتبارها نجمة المسرح في الشرق الأوسط؟ أتجلس في خلفية تخت حزين بطله نجيب ذو الصوت القبيح؟ اقترح كوش على نجيب أن تغني بديعة ويقف الباكون خلفها كجوقة تردد الغناء. «والله فكرة». قال نجيب والتمعت عيناه. «وأنت ستنضم لنا، نحتاج أن يكون عددنا محترمًا حتى لا يقللوا من أجرتنا».

وهكذا غنى كوش في كورال بديعة مصابني بجوار نجيب

الريحاني والتوني في الليلة الثانية لوصولهم إلى أمريكا الجنوبية.

ظهيرة اليوم التالي استقلوا القطار إلى سان باولو، والتي قيل لهم إنها مدينة أكبر وأكثر تحضرًا وبها جالية سورية ضخمة. أضحت الجبال الخضراء والطبيعة الغناء مزار انبهار لهم جميعًا، وحين وصلوا وجدوا ازدحامًا في محطة القطار. صرخ نجيب في اندهاش: «هل سعد زغلول يزور البرازيل؟». «سعد البرازيلي ربما» قال كوش. ولكن الحشد لم يكن ينتظر مناضلاً سياسيًا، بل نجيب الريحاني وفرقته. كان الخبر قد انتقل للسوريين المقيمين بالمدينة من سانتوس، وبسرعة أنزلوهم في فندق محترم، واستبشر الجميع خيرًا. «سيد نجيب، نحن في أشد الشوق لرؤية عروضكم الجميلة، خاصة أن كشكش البرازيلي مشهور بيننا هنا كثيرًا». وهنا اربذ وجه نجيب، وأراد أن يشتم شتائمه المقذعة، ونظر نحو كوش نظرة معناها «ألم أقل لك؟» ولكنه ردّ بهدوء: «كشكش البرازيلي ماذا؟». وهنا أقبل شابٌ بشعر فاحم السواد غارق في الفازلين ومدّ يداً ناصعة البياض ومقلمة الأظافر. «خالي نجيب، ألا تذكرني؟» نظر له نجيب لبرهة. «يا ابن الكلب» صرخ بينما يحتضنه. هذا جورج ابن اخت زوجة أمين عطالله الذي سرق شخصية كشكش في سوريا ولبنان، وكان يعرف نجيب وهو ولد صغير. «لقد استعرت المسرحيات التي استعارها زوج خالتي منك وقممت بتمثيلها هنا. كشكش أصبح ماركة مسجلة في كل العالم!». ولفرط طبيته المعتادة، ولظمئه الأزلي للتقدير، شاهد كوش نظرة الغضب تتحول في عين نجيب إلى نظرة رضا وفخر، رغم أن الولد استخدم لفظ الاستعارة بدلًا من السرقة

الذي حتمًا سيفضله كشكش الأصلي. رفع الشاب كأسه: «والآن نخب كشكش الأصلي الذي سيضيء بقريحته سماء سان باولو الأمريكية!» شرب الجميع وهم في غاية السرور، وأثناء ذلك الحفل تم الاتفاق على تكوين فرقة من هواة التمثيل الشوام في المدينة، على أن يدرّبهم نجيب ويساعدهم على حفظ النصوص، وبالطبع ينفرد هو وبديعة والتوني بأدوار البطولة. وبينما يصعدون إلى غرفهم ذلك المساء، مال نجيب على كوش مستندًا إلى ذراعه، وقال بصوت مخمور بالشراب والسعادة: «أنت تميّمة حظي يا كوش. لديّ شعور جيد حيال تلك المغامرة التي تنتظرنا، أيامنا هنا لن تكون بالمعاناة التي كنا نظنها». ولكنّ نجيب، المجنون بالشؤم، كانت كلماته شؤمًا بذاتها. ولكن ليس هنا في البرازيل، فقد مثّلت تلك البلاد انتصارًا هائلًا بالفعل، بل في أحراش الأوروغواي العتيّدة.

نزل كوش للسوق، وهناك وجد مكتبةً تبّيع الكتب العربية. سأل البائع السوري عن الكتب المترجمة عن البرتغالية ليعرف عن تلك البلاد أكثر. وجد كتبًا في الجغرافيا والتاريخ، وقليلًا من الروايات، ففن الرواية في البرازيل مثل مصر كان لا يزال في بدايته، وإن سبق مصر بمائة عامٍ أو يزيد حسبما قال البائع لكوش، وكثير من السوريين عكفوا على ترجمته لتسلّيتهم. بدأ في القراءة على الفور بينما يجلس على ساحل المحيط، وسرعان ما شعر أنه بات يعرف هذه البلاد من الصفحات تمامًا كما يشاهدها رأي العين الآن: النسوة غاية في الجمال. سود يلمعن تحت الشمس. أصواتهن عالية ببرتغالية خشنة. الأولاد يلعبون الفوتبول في الشوارع وفي كل

مكان. وجد البرازيل بدلاً من التحرر من سلطة المحتل، تُقبل على الحياة، وتحتفي بالجمال، وتعمل على نهضة بدون إحن أو أحقاد. كانت البلاد ضخمة بحيث تسع الجميع، وإن لم يحبوا السوريين خوفاً من تواجدهم المتنامي داخل البلاد، وتحكمهم في التجارة والمواصلات، وذكائهم الاقتصادي المخيف. الألوان الزاهية التي يرتديها الناس مبهجة أكثر بكثير مما رأى في روما. كاد كوش ورفاقه يموتون تسمماً من فرط شربهم للقهوة التي أدمنوها واستعاضوا بها عن الماء.

جرت البروفات بأسرع ما يمكن. وقّر نجيب -الذي أحضر معه ثلاث مسودات لمسرحيات سابقة- أن يقدم المسرحيات الثلاث لجمهور سان باولو، وإن لم تظهر إشارة حتى الآن حول مدى إقبال الجمهور المتوقع.

المسرح الذي خصصوه لعرض المسرحيات مهيب، يشبه ذلك الخاص بالأوبرا الخديوية، شديد الاتساع بمقاعد القطيفة الحمراء وصوت الصمت الهادر الذي يضخم صداه حوار الممثلين. الإضاءة القوية والشرفات العريضة يطالعهها نجيب من مقاعد المتفرجين، مراقباً البروفة التي تجري على خشبة المسرح، محاولاً تخيله ممثلاً عن بكرة أبيه. في اليوم التالي قام فجأة من مكانه وتحدث إلى كوش: «قلبي ليس مطمئناً، انتظر هنا وسألقاك الليلة» وغادر البروفة وسط تساؤلات بديعة وبقيّة أعضاء الفرقة الذين كانوا حتى الآن يغرقون في فوضى تامة.

اختفى نجيب طوال اليوم ولم يظهر إلا في وقت متأخر من الليل. وقف كوش أمام الفندق قلقاً على صديقه ومتحاشياً البغايا

اللاتي عرضن أنفسهن عليه. أخيرًا ظهر نجيب ونزل من عربة تجرها الجياد وهو يلهث: «طيب، هذه البلد بنت الكلب تكره السوريين، لو لم يأتوا هم فقد هلكنا». كان نجيب قد قرر أن يدور طوال اليوم على الصحف السورية والبرازيلية كي يدعو الصحفيين لحضور المسرحية ويحاول إقناعهم بالكتابة عن العروض في صحفهم كنوع من الدعاية لفرقته وبناء شبكة علاقات اجتماعية في ذلك البلد الغريب. «نجيب. كيف توقعت أن تقوم في يوم واحد بالتعرف على الصحفيين والدعاية لمسرحك في البرازيل؟ وفي صحف برازيلية وليس في الصحف العربية فقط؟»، «يا أخي. الرزق يحب الخفية، من يدري ربما يحبنا الخواجات، ولكن لا أمل. كلما قابلت خواجة من عيال سان باولو ينظر لي من فوق لتحت ويحدث أخانا المترجم بتعالٍ ويتركنا ويمشي». كانت هذه حقيقة واقعة. التوترات بين البرازيليين والسوريين كبيرة، فهم يكرهون شطارتهم وحقهم في التجارة، والأموال الكثيرة التي يعرفون كيف يخرجونها من باطن جبال باندييرا، وبالتالي لن يرحبوا بأي عربي، فبالنسبة لهم كلهم سوريون. أما أرباب الصحف العربية فلم يحتاجوا، على قلتهم، لتوصية.

وما هو إلا يوم إضافي حتى هدأت وساوس نجيب. كاد يصرخ حين وجد شباك التذاكر خاليًا في الظهيرة. وحين عثر على عامل التذاكر جالسًا يدخن غليونه على الرصيف نهره بشدة. ولكن الرجل نظر له بتعجب: «لقد بيعت التذاكر بأكملها منذ أول ساعة». حين جاءت ليلة الافتتاح، كشف نجيب عن الستار من الكواليس والتفت

لكوش بوجه أغرقته الدموع. جذبه من ذراعه وأوقفه مكانه. ومن بين انفراجة الستار، ارتاع كوش: لم يكن هناك مقعد فارغ. مئات ومئات البشر يقفون ويجلسون في كل مكان. ومن لم يجدوا مقاعد وقفوا في الممرات وافترشوا الأرض والتصقوا بحوائط المسرح. السيدات في غاية أناقتهن، بأجمل الفساتين والجواهر الخلابه، والشوام والعرب من كل الجنسيات يرتدون ملابسهم الوطنية، وتنضح وجوههم بحماسة كبيرة لالتهام نسمة من الوطن تهب عليهم في البلاد البعيدة.

كل ما تبقى الآن أن تقوم الفرقة بعملها على أكمل وجه، وساعتها يكون نجيب قد وجد ضالته في النصف البعيد من العالم، النصف الذي عاش ملايين المصريين وماتوا دون أن يروه أو حتى يسمعوا عنه.

خرج كوش وراقب العرض من تحت خشبة المسرح واقفاً في المقدمة. خرجت الفرقة وبدأت في تقديم عرض «ريا وسكينة» الدرامي. وقف كوش يراقب أداء نجيب المبالغ فيه، وفهم لماذا لا يقتنع به النقاد الفنيون في التراجيديا. فقد كانت رغبته المحترمة في نيل الاعتراف كممثل جاد تجعله يبالغ في انفعالاته، وإطلاق الصرخات الملتاعة، وجحوظ عينيه، وتلوين صوته وتشنج جسده. يقلد يوسف وهبي بلا شك. أدائه معاكس تمامًا للمرات التي رآه فيها وهو يؤدي أدواره الكوميديّة، والتي تأتي مناسبةً كما الماء في مجرى النهر دونما مجهود أو تكلف، وتصيب عين الهدف فتطلق الضحكات الطيبة من المشاهدين.

تفرّج كوش بعين أخرى أيضًا، مستعيدًا المشهد البشع الذي شهد

منذ سنوات والذي يعيد نجيب تمثيله الآن مع بديعة. لم تغادر الفتاة الصغيرة مخيلته للحظة. ورغم عدم اقتناعه بما يراه أمامه من تمثيل، إلا أن الدموع قفزت إلى مقلتيه وهو ينظر حوله في وجوه المتفرجين الملتاعة فيرى الفتاة الصغيرة تجلس فيما بينهم.

انتهت مسرحية الفصل الواحد، ثم أتت «البرنسيس» و«حلاق بغداد»، باستعراضات مبهرة ومواقف ساخرة انفجرت على إثرها الضحكات والتصفيق الذي ألهب الأيدي. وحين خرج نجيب وبديعة وبقية الفرقة إلى المسرح لتحية الجماهير، انهار الممثل الطيب الساعي إلى التقدير من البكاء.

بعد أن انتهت العروض التي امتدت أسبوعًا بنجاح ساحق، دُعيت الفرقة لحضور مباراة كرة قدم بين فريق سوري وآخر برازيلي. رغم انتشار اللعبة في مصر في السنوات الأخيرة إلا أنه لم تتح لكوش فرصة مشاهدة مباراة من قبل. «يا إلهي، ما هذا الجمع؟ وما هذه العدائية؟» قال نجيب. امتلأ الاستاد عن آخره منقسماً إلى قسمين؛ قسم للسوريين وآخر للبرازيليين، تفرق بينهما قوات هائلة من الشرطة، وخيالة يجوبون أطراف الملعب على خيولهم منعاً لأي شغب. شعروا بالقلق، ولكن فجأة انطلقت صيحات من الجانب السوري رجت أنحاء الملعب. «فيفا ربحاني! فيفا ربحاني!». وقفوا، وكوش معهم دون أن يشعر، وقاموا بتحية الجماهير التي حضر معظمها المسرحيات أو سمع عنها. سارت المباراة كحلم طويل يعيشه الصديقان وبقية أعضاء الفرقة المغامرة، خاصة حين أتى وقت الاستراحة وتكرر الهتاف مرة أخرى واضطر نجيب للوقوف وتحية

الناس ثانيةً مرتبًا بيده فوق رأسه ودموعه الحاضرة تملأ مقلتيه.

ولكن الحلم سرعان ما تحوّل إلى كابوس حين فاز الفريق السوري ونزلت الجماهير إلى أرض الملعب الذي تحول إلى ساحة معركة دموية. «أخرجنا من هنا يا كوش بسرعة!» هتف نجيب. صرخت بديعة وهي متشعبة بابنتها جوجو التي كانت تبكي فزعًا. بسرعة جذبها كوش من يدها وبدأ يقود الجمع عكس تيار الجماهير النازلين بغضب إلى أرض الملعب. ما هي إلا لحظات حتى بدأت الزجاجات تتطاير وأعقبها قطع الحجارة. احتضن نجيب رأس بديعة محاولًا حمايتها، أما التوني فقد تعثر وسقط على وجهه وكادت تدوسه الأقدام، لولا أنّ كوش رفعه بسرعة. فجأة وجد أمامه رجلًا بدا مخمورًا يركض نحوهم وهو يصرخ بما لا بد أنها كانت شتائم برتغالية أصيلة. يحمل في يده زجاجة شراب فارغة، وقبل أن يتصرف أيّ منهم هوى بها على رأس كوش الذي يتقدم الجمع. تكسرت الزجاجة فوق رأسه وشعر بالدم الساخن ينزل على وجهه. «نيجرو نيجرو» صرخ المخمور. غامت الدنيا أمام عينيه، ولكن الدم غلى في عروقه. وحين رأى ابتسامة البرازيلي المخمور تتراقص أمام نظره المزدوج، أفلت يد جوجو وتملكته قوة شيطانية، وانطلق كالسهم خلفه وعاجله بضربة كراهية في وجهه. ارتعب البرازيلي السمين من ردة الفعل، وقبل أن يفعل شيئًا، كانت قبضة كوش تضيق حول رقبته. نزل الرجل إلى ركبتيه وهو يحشرج وكوش لا يتركه غير عابئ بالأجساد التي تخبطه من كل جانب ولا بصرخات الفتاة وأمها من خلفه. غاب عنه الإدراك للحظات، ولكن يد نجيب على كتفه أفاقته: «لن تفعلها ثانيةً. ليس هنا». التفت له كوش مذهولًا فوجده يبادله

النظر في حزم مطمئن. نظر مرة أخرى نحو البرازيلي محتقن الوجه والذي غلبته دموع الاختناق كأنه يراه في تلك اللحظة لأول مرة في حياته، ولا تزال كف نجيب تعتصر كتفه. أفلت يده من رقبة الرجل في ارتياح.

أخيرًا ظهر بعض السوريين الذين استلّوا الجمع من بين الجحافل وأخرجوهم من الاستاد بسلام.

انتقلوا بعد أيام إلى ريو دي جانيرو، العاصمة، وهناك قابلهم من حسن الطالع ما وجدوه في المدينة السابقة. زاد عدد الجمهور وزادت المكاسب، ولكن نجيب لم يغيّر من اتفاقه المادي مع الجميع، ومنهم كوش، سوى بقدر يسير للغاية. يمنحه مائة جنيه في الشهر، على أن يتكفل كوش بمصاريفه الشخصية وتذاكر سفره بالقطارات والبواخر كما يشاء. لم يكن المبلغ ضخماً بالنسبة لكوش فحسب، بل لم يتخيل ماذا سيفعل بكل هذا المال، وهنا ظهرت له رؤيا بينما يقرأ على بحيرة فريتاس: سيبنى بيتاً في النوبة يضع به كل كتبه ومجلاته ويتقاعد به يوماً ما.

استمر تنقلهم بين المدن البرازيلية عدة أشهر، حيث عادوا إلى سان باولو لمزيد من الحفلات الناجحة ثم إلى ريو مرة أخرى. بعد آخر حفل بالعاصمة نام كوش ليومين متتاليين، فقد استبدّ به الإرهاق من كثرة السفر المتتالي، والذي يعني حمل وترتيب ملابس الفرقة من بلدة إلى بلدة، وجمع حاجياتها من مسرح إلى مسرح ومن فندق إلى فندق، إلى جانب تولي شؤون نجيب والبقية من استئجار

العربات والقطارات وقطع التذاكر، ومرافقتهم في اللقاءات الصحفية، وإبعاد المعجبين عنهم إثر كل عرض.

من باب التوفير اختار كوش السفر دومًا على الدرجة الثانية حين لا تدعو الحاجة إلى تواجده مع البقية الذين استغلوا اللحظة فعاشوا حياة الملوك. «أصرف ما في الجيب يا جدع» يقول نجيب حين حاول كوش إثناؤه عن التبذير المخيف الذي يورّع به المال يمينًا ويسارًا وكأنه لن ينضب أبدًا، وكأنه لم يكن يبكي منذ شهور قريبة من رعب عودته للفقر مرة أخرى.

بعد آخر حفلة نام كوش دون أن يعرف هل يعودون إلى مصر غدًا أم أن حفلات جديدة سيتم الإعداد لها. في بوفيه الإفطار وجد نجيب جالسًا مع سوري آخر. جلس على مائدة منهما. بينما يتناول إفطاره انتهى نجيب من اجتماعه وأقبل نحوه بحماس: «أبسط يا عم. سننطلق غدا إلى الجمهورية الفضية». نثر خارطة عريضة على الطاولة غير عابئ بإفساد طبق كوش الذي لم يكن قد انتهى منه بعد. أشار بيده إلى نقاط بالحبر الأحمر: «سنأخذ المركب من هنا إلى مونتفيديو، ومنها نستقل مركبًا تدخلنا بلدًا صغيرًا على حدود الأرجنتين، وهناك سيقابلنا أحد الإخوة ويصحبنا بالقطار إلى بوينس آيرس. احزم الحقائب، سنتحرك الليلة».

غادره نجيب دون أن ينتظر منه ردًا أو يطوي خريطة.

استقلوا المركب إلى مونتفيديو بأرجواي، الدولة التي تتوسط البرازيل والأرجنتين. عدد أفراد الفرقة الآن ثمانية. سكن نجيب

وبديعة وجوجو الدرجة الأولى، بينما استقرّ كوش والتوني وبقية السوريين المنضمين من البرازيل في الدرجة الثانية. حين صعد كوش لسطح المركب وجد نجيب جالسًا هناك ووجهه ممتقع بالاصفرار. «مصيبه يا كوش. ربنا يسترها. إنهم يوقعون كشفًا طبيًا صارقًا على العيون. مرض اسمه التراخوما كل من يُصاب به لن يدخل الأرجنتين! يخافون من العدوى ويريدون احتواءها». ابتسم كوش. «وما المشكلة؟ لا أحد منا مريض!». عض نجيب على كفه في عصبية مفرطة. «هذه هي المشكلة، قد تكون مصابًا به دون أن تعلم. والطبيب سيصعد إلى المركب ما إن نرسو في الميناء، أخبروني أنه يوقع كشفًا صوريًا على ركاب الدرجة الأولى، أما الثانية فإنه لهم بالمرصاد!». عاد كوش إلى غرفته قلقًا. غسل وجهه بالكولونيا وتركها تدخل عينيه حتى احترقتا. في الصباح وصلت المركب. ونزل نجيب إلى الدرجة الثانية ملاصقًا للطبيب في قلقٍ بادٍ محاولًا التحدث معه بالعربية، بينما يجر خلفه أحد ممثلي الفرقة الشوام الذي يحسن البرتغالية ولكن لا يعرف سوى القليل من الإسبانية. ضاق الطبيب ذرعًا بالحاحه وهو يأخذ مجلسه في قاعة الطعام السفلية. توالى المرضى عليه الواحد تلو الآخر. ينطبع الختم الأخضر على جوازات سفرهم فيركضون فرحين. حين أتى الدور على كوش جلس أمامه وسلم وجهه للطبيب الضجر ذي الشارب الكث. سحب جفنه لأعلى وثناه إلى الداخل. وضع عدسته أمامه ثم قال شيئًا بإسبانية منزعة. ختم جواز كوش بختم أحمر مميز عن البقية.

«يا نهار إسود. وقعت الفأس في الرأس»، صرخ نجيب في هلع.

كل أعضاء الفرقة خالون من المرض سوى كوش سيئ الحظ.

«ما العمل الآن؟» سأل كوش شاعرًا بالذنب تجاه المحنة التي يعرض لها رفقاءه.

«لن يُسمح له بالنزول إلى البر، أما نحن جميعًا ففي أمان». قال الممثل السوري.

انتفض نجيب وسحبه من يده.

«تعال. لا بد من حل».

جلست بديعة تهوّن على كوش بلهجتها المحببة، بينما داعبته جوجو بأنها ستبقى معه ويبنيان كوخًا على سواحل أوروغواي الخلافة ويعيشان به للأبد.

بعد قليل عاد نجيب متقافزًا بلياقته الفريدة.

«ابسط يا عم. مخصوم منك 70 جنيها بالتام والكمال، ولكنك ستأتي معنا على الفور إلى الأرجنتين! بارك الله في الذمم الواسعة! أوروغواي أو لا أوروغواي، المرتشي لا يعرف دينًا ولا وطنًا!».

قبل الطبيب رشوة نجيب التي لا يعلم سوى الله كيف واثته الجرأة أو الوسيلة كي يعرضها عليه، بل ويثق في أنه سيقبلها. ولكن شرط الطبيب، وضابط الجوازات الذي أخذ نصيبه هو الآخر، هو أن يصعدوا مباشرة إلى المركب المتوجهة إلى الأرجنتين دون التجول على اليابسة.

ولكن قبل صعودهم المركب، وأثناء قطعهم للتذاكر، واجهتهم معضلة أخرى.

سيدفعون مائة جنيه عن كل فرد تأمنيًا ضد التراخوما اللعينة، فإن

وُجد أن أحدهم مصاب بها عند وصولهم إلى الأرجنتين، ضاع عليهم جميعًا المبلغ. لم يخبرهم الطبيب بتلك المعلومة. بدأ التذمر يسود فيما بينهم، وارتعب كوش من الانقلاب الذي سيحدث بسببه. «هل تقذفون بي في المياه لتخلصوا مني؟» قال ما بين الجد والمزاح.

لم يكن أحد على استعداد لأن يغامر بمبلغ تأمينه الذي سيدفعه من جيبه من أجل كوش، خاصةً نجيب الذي سيتحمل وحده ثلاثمائة جنيه نصيبه هو وبديعة وابنتها. «الرشوة هناك ليست مضمونة. يمكن على حظنا يكون الضمير الأرجنتيني أضيق من الأوروغوياني» قال مفكرًا.

في أثناء ذلك مر بهم تاجر سوري شديد البدانة. تبادل الحديث الضاحك مع نجيب وعبر له عن إعجابه وأنه حضر أحد عروض ريو. أرسله الله لهم ليفيدهم بكل حنكة التجار الشوام وانتهازيتهم التجارية التي مكنتهم من مفاصل الأمور في بلاد الأمازون: «الأمر بسيط. الأصحاء يسافرون على بركة الله إلى بوينس أيريس. أما المصاب فيدفع تأمينه ويتوكل على الله بالبر. وهناك سيصبح الأمر سهلًا بإذن الله. سأرسل معه ابني دليلاً يضمن عبوره عبر الحدود البرية. الرقابة هناك أسهل ومعارفنا كثر».

«لقاء أجر معتبر بالطبع» قال نجيب من تحت الضرس لكوش.

«ومن هناك يدخل بسلام إلى الأرجنتين، ثم يأخذ قطارًا إلى بوينس أيريس ويقابلكم هناك».

نظروا لبعضهم البعض. ونظر كوش بالأخص نحو الشاب متوجسًا. أيتركونه لمصيره عبر الحدود المجهولة مع هذا الطفل؟

أشعل نجيب سيجارةً وفكّر مليًا.

«حسنًا لا وقت لنضيّعه. بديعة، اصحبي الجماعة إلى المركب. أنتِ المسؤولة عنهم وسأتسلمهم منك خمسة كما تركتكم».

ثم جذب كوش من يده وأتم الاتفاق مع السوري. «مخصوصمين منك يا حلو». قال وانطلق خارجًا من الميناء دون أن يمنح كوش الذي غلبه التأثير فرصة ليشكره.

استغرقت رحلة القطار ثلاثة أيام قطعًا خلالها دولة الأوروغواي بالكامل. تجربة مروّعة بكل المقاييس رأيا فيها صنوفًا من الحيوانات واشتدّ روائح لم يكن يخطر على بالهما أنها موجودة. الحرارة شديدة والرطوبة خانقة ولسعات البعوض كفيلة بأن تقتل فيلًا. مع مرور الوقت لم يعودا يعلمان في أي بلاد هما.

طوال تلك الرحلة العصبية لم يكن نجيب يتوقف عن إلقاء النكات، والسخرية من كوش ومن نفسه وممن حولهم دون أن يُشعره للحظة بجميله عليه. كلاهما يبادلان الأغراب نظرات الاستغراب التي ينظرونها لهما. «فيم تبخلقين يا شمطاء، ألم تشاهدي أفنديًا محترمًا من باب الشعرية قبل اليوم؟» يسأل نجيب في استنكار بالعربية. أما الدليل السوري فبدا وكأنه قطع مثل تلك الرحلة مائة مرة، فقضى معظم وقته إما نائمًا أو مطارّدًا لفتاة جافة من الهنود الحمر بجداول سميكة وملابس زاهية محاولًا أن يعرض عليها المال بمناسبة وبدون مناسبة. ظل نجيب يراقبهما بقلق. «ستترك الفتاة هذا العبيط على الحميد المجيد ثم يعود باكيًا لأبيه ويقول إننا لم ندفع له شيئًا».

وحيث ظهرت المته التي اشتراها الولد السوري في حركة شهامة نادرة، علموا أنهم قد نجوا أخيراً. «هذه آخر محطة. سننزل ونستقل سيارة إلى حدود الغابة الكبرى. هناك نقابل بعض معارفنا الذين يتولون إيصالكم إلى بلدة الحدود». وصلا بعد مده إلى إحدى الغابات الشاسعة، وعلى مشارفها وجدوا مجموعة من اللاتينيين يدخنون ويشربون حول شعله من النار وسط الأحراش الموحشة، امتقع وجه كوش لمرآهم وعلم أن السوري يسلمهما إلى حتفهما. «هذه عصابة مهربين!» قال نجيب دون أن يكون هذا تساؤلاً. ابتسم السوري وأعطاه خطاباً. «تقدمه لابن عمتي الذي ينتظركما في سان خوسيه وسيأخذكما لكشك الحدود. مع السلامة كشكش بيك».

تولتهما العصابة ومنحتهما طعاماً غريباً وشراباً أغرب بعد مسيرة ساعات فوق ظهور الحمير والبغال عابرين أحراش غابات مرعبة. نظر كوش للإناء في يده بعد أن توقفوا لأخذ هدية بينما تشرب البغال من نهر الأوروجواي. «لن أشرب هذا». «اشرب يا ولد وإلا قتلونا». وكما توقع كوش كان شراباً مسكراً. انزلق جفناه فوق عينيه رغماً عنه، فار جسمه في حرارة شديدة، وأصابه دوار عنيف، وحيث استكملوا المسير تراءى له بغتة أن الحمار سيسقط في النهر فأصابه الفزع، ثم تقيأ أحشاءه من فوق الحيوان المسكين الذي أخذ ينهق في زعر. التفت أفراد العصابة نحوه وضحكوا بشدة. وضع نجيب يده على جيب سترته وصرخ في همس: «الله يكسفك يا كوش. الآن يستصغروننا ويبيعوننا بالرخيص. والله لا أدفع لهم مليقاً واحداً. تماسك» كان نجيب في حرصه المعتاد قد اقتسم إيراد

المسرح مع بديعة حتى لا يتركه كله معها. «قد تحدث في الأمور أمور». حاولت أن تقنعه أن سفرتها ميسرة بينما مغامرته مع صديقه محفوفة بالمخاطر ولكنه لم يستجب. والآن يرى كوش في عينيه الرعب الذي يملكه وهو يفكر في الألف وخمسمائة جنيه المختبأة في جيب صديريته السحري. «سيسرقوننا ولن يكفيني أن تعمل في خدمتي عشرين عامًا لتسد دينك». ولكن رغم كل هذا التقرير ظل كوش يشعر تجاه صديقه بامتنان يكفي العالم. سواء فعل نجيب هذا باعتباره محترفًا يتولى مسؤولية فرقته المسرحية بجدية بالغة، أم فعل ذلك لأنه إنسان وصديق حقيقي، فالنتيجة واحدة: أنه لم يتركه وحده.

حبسوا أنفاسهم امتثالاً لأمر قائد السرية بينما يمرون وسط قطع من الثعالب التي طالعتهم بفضول. كان كوش مأخوذاً بكل تلك المغامرات التي يحياها، غير مصدق أن الظروف قد رمت به فوق حمار في أحراش أمريكا الجنوبية. تذكر أحتاءه، وتساءل إن كان سيحيا حتى يكتب لأجاثا خطاباً يحكي لها فيه عن مغامراته، أم يموت ويقابل خاله وخولي ويحكي لهما في الجنة.

قبيل المغيب انطلقت أول رصاصة أردت البغل الذي يمتطيه نجيب قتيلاً. سقط تحت الحيوان النافق وهو يصرخ من الألم والفرع. أخرج أفراد العصابة بنادقهم وتبادلوا النيران مع المهاجمين المختبئين خلف الأحراش. نزل كوش عن حماره وجز نجيب خلف شجرة عملاقة. «يا أماه، تعالي شاهدي ابنك يموت على يد قطاع الطريق في الأمازون. لو كتبت لك الحياة، خذ الأموال وفرقها على روحي، وإياك أن يأخذها الممثلون ولاد الكلب منك». طمأنه كوش

أن لا شيء من هذا سيحدث، وأن يتوقف عن المبالغة، وأنهم أبعد ما يكونون عن الأمازون. حاول كوش مراقبة الموقف من خلف الشجرة. ظل الصراخ بالإسبانية يتطاير من كل اتجاه مثلما يتطاير الرصاص.

بعد قليل سكت كل شيء. انتظر كوش قرابة الساعة دون تحرك بينما نجيب يهذي في حُقى مستعرة. زحف من خلف الأحراش وكان الظلام قد بدأ يخيم على الغابة المخيفة. أمسك نجيب به. «لا تتركني وحدي يا ابن الهرمة». لم يجبه كوش وواصل تسلله. في الخارج وجد البعير تآكل ورق الشجر، وجميع أفراد العصابة جثًا مُلقاة في كل مكان. الحقائق والأسلحة نُهبت. لا صوت لإنسان. عاد كوش بعد أن خلع جلبابه واكتفى بسرّواله في الرطوبة القاتلة، وحمل نجيب الذي فقد الوعي ورماه على ظهر الحمار وركبه هو الآخر ثم لكزه برجله: «فلتأخذنا إلى بَرّ الأمان أيها الحمار الساذج.. أنت قائد المسيرة الآن» قال كوش محدثًا إياه، ومقننًا نفسه أنه يفهمه.

وسار الحمار وحده دون أن يحاول كوش توجيهه.

بعد ساعات لم يعلمها كوش، وحين أوشك على الموت ظمًا وجوعًا ورعبًا، وجد الركب نفسه على أعتاب مدينة ترابية صغيرة. تجول في أرجائها دون أن يعرف ماذا يفعل، مطالعًا جماعة من الأطفال والهنود الحمر الحفاة والذين ساروا وراء الركب في فضولٍ صامت دون أن يقولوا شيئًا، حتى وجد مبنى متهاكًا عليه يافطة فندق. دخل فوجد شبابًا متعرقين يلعبون الورق. ولأنه لم يجد شيئًا أفضل يقوله، فهو يعلم أن لا أمل في وجود متحدثٍ بالإنجليزية هنا، راهن على الإرث

العربي الذي يبدو كالحقى التي أصابت هذه القارة البعيدة: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

أنزل أحدهم الورق من يده. «لماذا تأخرتما كل هذا الوقت؟ أين شكشك؟».

اصطحبهم السوري بعد أن اطلع على الخطاب، وصعدوا بنجيب إلى غرفة الفندق المتهالك. أتى طبيب وعالج رجله المكسورة وطمأنه أنه بخير. ولكن نجيب أمسك بذراعه: «سرقنتي يا ابن العاهرة. أين أموالى؟ أعطيتها لبديعة؟». «الهذيان بفعل قرصات البعوض الملوّث. يحتاج إلى غذاء جيد فحسب». قال الطبيب وهو يخلص ياقته من يد نجيب.

قضى كوش الأيام التالية في رعاية صديقه، والتجول في قرية سان خوسيه الصغيرة التي تتألف من مائة بيت وحظيرة لمصارعة الديوك. تعلّم لعب الورق مع الأشقياء وبعضًا من الإسبانية. وحين جاء الموعد واستطاع نجيب السير على قدميه توجهها إلى كشك الحدود. لم يطل الوقت حتى اتفق الشاب مع الحارس على كل شيء. عبرا إلى الأرجنتين دون أن ينظر حتى في جوازيهما. «الآن تضعان إصبعكما في يد التخين حتى لو كانت التراخوما في دمائكما وليس أعينكما فقط».

ركبا القطار إلى بوينس أيريس غير مصدقين أنهما على قيد الحياة. نام كوش أخيرًا بعد أيام من السهر بينما تناول نجيب الشراب طوال الوقت. نام في حضنه هو الآخر. فجأة استيقظ كوش

على صراخ مذعور. «استيقظ يا منحوس. لقد متنا ودخلنا جحيمًا من ماء». نظر كوش بعينين زائغتين في الفجر. المياه تحوطهما من كل اتجاه. نظر حوله. الركاب نيام ولكن المستيقظين لا يذعرون. «اخرج واستطلع الأمر. هل يطفو القطار حقًا أم أن هذا تأثير المشروب اللعين!» حين خرج كوش فهم أنهم لا يزالون داخل القطار، ولكنه فوق سطح مركب تعبر بهم من برّ لآخر، وما هي إلا ساعة حتى استأنف مسيره على القضبان مرة أخرى.

«من يعيش يرى» قال نجيب متعجبًا قبل أن يسقط في النوم مرة أخرى.

بعد مغامرة أخرى مع مخبرين كانوا يبحثون عن البرازيليين الهاربين وسط توترات بين البلدين، وجوازات سفر ليست عليها تأشيرة الدخول إلى الأرجنتين، وهروب من عربة إلى عربة إلى سقف القطار ثم عربة البهائم في آخره، وصل الثنائي المنهك عاصمة الأرجنتين، وهناك وجدوا بديعة والبقية ينتظرونهما بفرقة موسيقية صاخبة وأخبار رائعة عن استئجارها لأكبر مسارح العاصمة والتذاكر التي نفدت بالكامل. وحين خرجوا إلى الشوارع انضموا إلى مسيرة الكرنفال السنوي العظيم، ليشاهد كوش بعينه أعظم استعراض ألوان سيراه في حياته.

كان النجاح هائلًا في الأرجنتين، والتي لم تقتصر عروضها على بوينس آيريس فحسب، ولكن تنقلوا في أرجاء آخر بلاد العالم طويلاً

وعرضًا، وشاهدوا في الأسبوع الواحد الأمطار الصيفية، وفراشات الربيع، والثلوج الكثيفة. في كل بلدة أغرقهم العمل المضني، والإرهاق، والنجاح والتقدير، والأموال من كل حذب وصوب.

واكتشف كوش في الأرجنتين أن نجيب لا يراجع الحوار، ولا يحفظ النص المسرحي. فهو من شارك في وضعه، وبالتالي فيكفيه أن يفهم الموقف ويتذكر جمل حوار الممثل المقابل له، أما الباقي فيعتمد فيه إما على ذاكرته أو سرعة بديهته، ولم ير كوش ليلة عرض تماثل سابقتها طوال بقائهم في أمريكا اللاتينية، فنجيب قادر على أن يملأ جنبات المسرح في كل مرة بفكاهة أو ظرفة مفاجئة لكل من حوله في كل ليلة، وكثيرًا ما كان يستلهم من روح الجمهور بعض تلك القفشات التي تخرجهم عن شعورهم وتحطم قدرتهم على التماسك والاحتفاظ بالوقار من فرط فجائيتها وغرابتها بل ووقاحتها في بعض الأحيان.

استمرت الرحلة في الأرجنتين، ثم أوروغواي، ثم البرازيل مرة أخرى، قرابة السبعة أشهر. ويوم أن جلسوا جميعًا ليحتفلوا في أفخم مطاعم ريو دي جانيرو بمرور عام كامل على مغامرتهم اللاتينية، سكر نجيب ووقف فوق الطاولة، وبشوق الدنيا كلها رفع كأسه نحو السقف: «لقد أوحشني نقاد مصر الأندال!».

كان نجيب هنا. وضع بصمته وقال كلمته وقدم فنه، ورحل دون أن يُنسى.

وهكذا بدأت رحلة العودة إلى مصر، والتي عرجوا خلالها على باريس، وهناك صرف نجيب كل ما كسبه من أموال في شراء ملابس

وإكسسوارات وديكورات لمسرحه من أكبر متجر متخصص في تجهيز العروض المسرحية بأوروبا، ثم وصلوا بعدها مُفلسين إلى ميناء الإسكندرية بسلام.

وفور عودته من أمريكا اللاتينية، اختار القدر الذي وضع كوش أمام أحد العظماء مرتين الوقت المناسب ليقول كلمته: تم تعيين كوش كو نادلاً من الدرجة الأولى في بيت الأمة في مارس من عام 1925.

الفصل السادس عشر

خريف بيت الأمة

(1925-1927)

طوال عمل كوش في المنزل المهيب لم يتغير نظامه - تبعًا لنظام سيده الثابت - ولا مرة.

يستيقظ في الخامسة فجراً. يستحم ويرتدي ملابس العمل - التي لا تزال بعد كل تلك السنوات نظيفةً بدرجة مذهلة - ثم يتوجه للمطبخ. يعد الطباخ الإفطار الذي يتناوله كوش مع بقية الخدم (ست خادمت والسائق وكبير السفرجية)، ثم يقدم بنفسه إفطار سيد المنزل وأسرته الصغيرة المكونة من زوجته وابنة أخته وولديها التوأمين. يبدأ كوش في إعداد القهوة، وفي هذه الأثناء يكون الباشا قد حلق ذقنه وشذب شاربه بنفسه وارتدى ملابسه - التي يرفض أن يساعده في ارتدائها أحد - ثم يتوجه إلى مكتبه. يقدم كوش القهوة - تعلم مع الوقت أن يكون جاهزاً لحظة دخول سعادته المكتب - ثم يتخذ مكانه الأثير خارج الباب منتظراً الإشارة إن احتاج سيده لشيء.

في فترة الصباح المبكر يباشر الزعيم بعض الأعمال ويملي رسائله لسكرتيه. بعدها يخرج للتنزه، وعادةً ما يصحب معه فتح الله بركات أو علي الشمسي، أو يتنزه وحده. مؤخراً تغير هذا النظام قليلاً، فإذا انشغل أي منهما أو أصابه مانع من الحضور، طلب الباشا من كوش مرافقته في السيارة. وإذا ما كان في مزاج رائق قرر الترحل بحديقة

الأزبكية أو حدائق القبة والتنزه قليلاً قبل الظهر. في تلك الأثناء يواصل الاستماع إلى حكايات كوش المبهرة، ويبادلها الحوار مستشفاً منه الكثير عما يريد معرفته عن حال الجيل التالي من المصريين، وفي حالاتٍ نادرة يزيح عن كاهله بعض الأعباء التي ينوء بها أمام خادمه قليل الكلام. بعدها يعودان إلى بيت الأمة ويباشر الباشا مقابلة زواره.

بحلول ذلك الوقت لم تكن صحة سعد زغلول تسمح باستقبال الأعداد الهائلة من المترددين على بيت الأمة طوال اليوم، ربما يزيدون عن الثلاثين أو الأربعين في اليوم الواحد. يطلب منه التوأم اليافع وطبيه ومدموزيل فريدا بإلحاح أن يتوقف قليلاً عن تلك الاستقبالات، ويقلل من العمل والاستذكار والرد على الخطابات، وألا يخرج للناس كل يوم، وأن يحدد لهم أياماً بعينها في الأسبوع لا تزيد عن اثنين خوفاً على صحته.. ولكنه بالطبع لا يستجيب.

الوحيدة التي تملك السيطرة الكاملة على سير أعمال الباشا هي مدموزيل فريدا الألمانية، المرأة الحديدية ذات السلطة المطلقة داخل المنزل، فهي تعطل اجتماعاته لتعطيه الدواء في مواعيده، وتجبره على النوم قبل الحادية عشرة كلما استطاعت، وترتب أوراقه، وتملك الحق الحصري في الاطلاع على كشوفه البنكية، وتنسيق خطابه العائلية والعملية ومذكراته الخاصة ومكتبه، كما تصحح له نطقه في الألمانية التي تعطيه دروساً فيها -ذهل كوش لرؤية من ينافس في حب المعرفة فيقرر تعلم لغة جديدة وهو في السابعة والستين، ماذا سيفعل بها؟- ويجيبها الباشا في عصبية بالفرنسية التي يتحدث بها ربما أكثر من العربية، ولكنه في النهاية

ينصاع ويردد خلفها الكلمات بصوته الرخيم حتى تتأكد من أن سيادته ينطقها النطق الصحيح.

لم يستطع كوش أن يحب أو يريد تعلم الفرنسية طوال حياته رغم أنها لغة دراسة نجيب في المدرسة، ودراسة طه في الجامعة، ولغة حديث هدى هانم ثم الباشا في البيت، ولكن كوش ظل رغم كل تلك الإشارات يشعر بحاجة غير مفهوم تجاهها، مكتفيًا بتمكنه التام الآن من الإنجليزية وبعض الإيطالية البسيطة، ثم الألمانية التي ألح على السيدة فريدا أن تعلمه مبادئها كلما سمح وقتها بذلك.

منذ وصوله تناثر الحديث حول كوش بأرجاء المنزل رويدًا رويدًا خاصةً عبر التوأمين اليافعين المهووسين بالقراءة اللذين لزمهما. طوال الوقت يحكي لهما عما قرأ، ويدخل معهما في مسابقات قراءة ليشجعهما، ويُعيرهما -قلًا وضاغظًا على نفسه- بعضًا من كتبه ليقرأها ويعيدها ثانيةً.

وحين عرف سعد أن كوش خدم كتشنر طلبه، ولما وقف الخادم النوبي بين يدي زعيم الأمة اكتشف الباشا أن لدى كوش الكثير ليقوله أكثر من مجرد نقل صورة فضولية عن الحياة داخل سكن المعتمد البريطاني السابق. ذكره كوش بلقائهما بالمحفل الماسوني، ثم مرةً أخرى على ظهر الباخرة العائدة من إيطاليا مع هدى شعراوي، وحكى له الكثير والكثير، ولكنه في معرض حديثه عن فترة كتشنر لم يطاوعه لسانه في حكي مأساته مع العالم الكريه.

قبل أن يستأذن في المغادرة نظر كوش للكتاب المستقر على حجر

الباشا، واعترف له في خجل جريء أنه لم يفهم شيئًا من «أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني، وعندها أشرق وجه الزعيم الكبير. ومنذ ذلك اليوم لم يتوقف سعد عن تقريب كوش إليه والالتجاء إلى حكاياته والائتناس بها، وإفهام خادمه الأسمر أنه بحق مميز عن كل أترابه. وهكذا، وخلال ما يزيد عن عامين قصيرين، توطد ذلك الرباط الأبوي الذي أثر في الخادم النوبي أيما تأثير.

ففي أوقات الهدوء يخلو الباشا إلى مكتبه، وإذا لم يكن سكرتيه متواجداً -وهو شاب مثقف درس الحقوق ويعزف البيانو والعود- أو ذهب إلى منزله، فإنه يستعين بكوش فيبقيه جالسًا بجواره. في بعض الأحيان يقرأ له بصوت عالٍ فقرة أو اثنتين، أو يطلب منه أن يفتح قاموس لسان العرب ويبحث له عن كلمة ويقرأ له معناها ومرادفاتها. كذلك قد يطلب منه أن يناوله كتابًا ليطلعه أو ينظر فيه ثم يعيده إلى الرف مرة أخرى. وكما يفعل الباشا في النزعات، قد يرجع إلى الوراق في كرسيه الأثير وينظر لكوش نظرة طويلة بعينه الضيقتين ويطلب منه أن يحكي له حكاية عن حياته الماضية.

بدأت هبة الحكي تتطور عند كوش منذ سفرته الأخيرة. تقديمه للباشا والذي أخذ وقتًا انتهى إلى المسار الطبيعي الذي تنتهي إليه عادة علاقة كوش بساته خاصة في السنوات الأخيرة: الإعجاب الشديد الممزوج بالفضول. تلك النظرة الأيقونية نحوه ككائن عجيب. شيء ما في ذهن كل من عمل لديهم كوش يخبرهم بأن هناك أمرًا لا يتفق في هذه الشخصية العجيبة.

كانت مهنته، وأصوله، وطبقته الاجتماعية، وبشرته، يحتمون عليه أن يتفق وجوذه في الحياة مع صورة معينة تم تكوينها على

مر القرون قياسًا على كل من هم على شاكلته. لم يكن معقولًا أن يكون قارئًا، ومثقفًا، ومغامرًا، وعضوًا ثوريًا في الحركة الوطنية، ومطلعًا على اللغات وأخبار العالم، وساعيًا وراء المعرفة ومهتمًا بالاستكشاف.

وسعد باشا زغلول نفسه لم يكن استثناءً من تلك القاعدة. حتى وإن وجد في كوش نموذجًا مصريًا يتمناه لكل أبناء شعبه، إلا أن شيئًا ما بداخله يدفعه إلى النظر نحوه بذات الإعجاب الاستشراقي الممزوج بالفضول. يراه نسمة هواء منعشة تهب حين يلتقيان أو يدخلان في حوار طويل يرفقه عن زعيم الأمة المصرية ويلهيه بعض الشيء عن شعوره بخيبة الأمل والإرهاق من رحلته الطويلة، وتطمئنه ربما، أن كل الصراعات التي دخلها، والتي أصاب في بعضها وأخطأ في كثير منها أو العكس، قد تؤول إلى شيء ذي قيمة.

كذلك كوش، الذي بوصوله إلى تلك المرحلة في حياته المهنية والعمرية، كان قد فقد الكثير من الإيمان إثر الثورة. رغم أنه تخطى كثيرًا من تلك الصدمة إلا أنها لا تزال تحوم بداخله. كان مجبرًا أن يكون على اتصال بهذا العالم حين عمل مع هدى شعراوي، ولكن مغامرته اللاتينية أنسته كل هذا، وعاد منها إنسانًا جديدًا بلا ذاكرة تقريبًا، وقد أحب ذلك، وشعر بأن العالم أوسع بكثير من نطاق السياسة الضيق، وأنه قد تحرر قليلًا من شعوره بالذنب والضياع والإحباط، والرغبة المستعرة بأن يكون جزءًا من الحركة الوطنية، وفي ذات الوقت لا يريد أن يدفع أثمانًا أكبر من تلك التي سددها بالفعل، وما يتلو ذلك الشعور من خوف أن يكون جبانًا، متقاعدًا، أو غير وطني، وفي ذات الوقت لا يريد من الثورة وتبعاتها على حياته

أن تحطمه.

كان فخورًا بثقافته، وما تبعها من رقي بات جزءًا لا يتجزأ من شخصيته. حين يقف وسط الضيوف الكبار وأهم الأسماء التي تشكل مصير البلد في بيت الأمة لا يشعر أنه أقل منهم بأي حال. لم يحدد أبدًا غايته في الحياة، ولم يسأل نفسه مثل تلك الأسئلة الوجودية التي تدهم كبار المفكرين والفلاسفة حول ماهية الحياة وتغيير العالم.

بحلول تلك المرحلة العمرية ومع اقترابه الوشيك من الأربعين، أدرك أن شغفه هو مُبتغى وجوده. حب المعرفة وسعيه الدائم للثقافة هو ما جعل له قيمة في هذا العالم انسحبت على كل شيء آخر. بالطبع هو يحمل شغفًا للخدمة، ولكنه أيضًا يحمل شعورًا لا يضاهاه بالفخر تجاه أصوله، والنقطة التي أتى منها والتي صار إليها الآن. ما حققه اليوم من قيمة يجعله ليس مثل أي خادم آخر، وربما ليس مثل مصريين كثر. الآن بات يعرف أنه أراد استكشاف العالم وقد فعل، وأراد أن يخدم وطنه ويحارب من أجله وقد فعل، وأراد أن يقرأ ويستنير ويعرف أكثر وأكثر ولا يزال يفعل، وأصبح مستعدًا لأن يتصالح مع قسوة الماضي ويستمتع بما يقدمه له الحاضر، طالما يواصل رحلته مقدمًا أفضل ما لديه لسادته الذين يحبهم. في السنوات الأخيرة خدم ثلاثة مصريين وكان ذلك مصدر فخره الأكبر، وعرف من يومها أنه لا يريد أن يخدم أجنبيًا مرة أخرى.

تابع كوش بحكم موقعه الحالي متأسفًا كل ما يدور على الساحة

الوطنية: صراعات الوزارات والأحزاب والهيئات التشريعية، وهي صراعات كانت تفوق في أحيان كثيرة الصراع الأهم مع العدو البريطاني. صراعات كان الباشا طرفًا في كثير منها، وأتت عليه بكثير من الانتقاد لا يزال كوش يذكره. بدءًا من مواقف هدى شعراوي المناهضة لكثير من قرارات الباشا وصولًا إلى خصومه السياسيين والصحف التي تهاجمه وتهاجم الوفد في جرأة ديموقراطية لم يكن أحد يتخيلها ممكنة مع الرجل الذي اختاره الشعب المصري منذ أقل من سبعة أعوام رمزًا يستحق الموت فداءً لحريته.

رويدًا رويدًا، نسي كوش من هو سعد الذي سمع به، وأحب ذلك الجدّ العجوز الذي لم ينجب ويذكره بالخال كثيرًا، في هيئته الطويلة السمراء، وكلامه القليل، وصبره الطويل، واستيعابه لكل من حوله، وتدخله النادر ولكن الحاسم في الحوار، وروحه المتقدة التي لم تطفئها السنوات. أحب أيضًا طموحه، وذكاءه، ومداهنته في أوقات كثيرة.

أما الباشا، والذي لم يلحظ كوش في البداية نظرًا لكثرة عدد الخدم وانشغاله بأمور أهم، فإنه وجد في كوش ما وصفه بإيجاز جامع في مذكراته، والتي لن يقرأها كوش لأنها ستنشر بعد وفاة كليهما بسنوات عديدة.

أصابت كوش نوبة فساء عنيفة لمرة واحدة فقط في بيت الأمة. كان السكرتير في إجازة في ذلك اليوم، وحين خُبط الباب وفتحته كوش طالعه وجه شاب يصغره قليلًا. بشعر بني وعينين زجاجيتين

وشفاه رفيدة مزمومة كأنها لم تفتح أبدًا. كان أوروبيًا ولكنه تحدث إلى كوش بعربية طليقة. «لدي موعد مع الباشا». أرشده كوش إلى المكتب، وسلم عليه الزعيم بهدوء، كان واضحًا أنها المرة الأولى التي يراه فيها. الشاب -واسمه رودولف هس- أتى للباشا ليطلب منه التوسط لدى الإدارة المحلية بمحافظة الغربية ليُفرجوا عن ممتلكات والده التي صادروها منذ سنوات طويلة إثر الحرب. «لقد وُلدت وترعرعت في مصر، ووالدي السيد والتر هس من أهم الوجوه المعروفة في زفتى وميت غمر، وقد بنى مصنعين للماكينات الزراعية، وامتلك أراضي عدة، قام فيها بتشغيل مئات المصريين، كما أننا نفخر بالدور الذي لعبته عائلتنا في استقلال زفتى خلال الثورة. إن مصر بلدي كما هي ألمانيا، وليس لأبي الذي يعشق تراب هذا البلد رغبة سوى أن يعيش ويموت في قصره هنا ويواصل عمله البناء وسط المجتمع، والآن تريد الحكومة سلب كل ذلك منا!».

تحدث الشاب باستجداء واستعطاف، ولكن كوش، وبينما يضع له القهوة على المكتب، لم تتمالك أمتعاه نفسها وبدأت في تقلصات التي كادت تذيبه من على وجه الأرض، وحين بدأ التراجع تصاعدت منه الريح الطيبة التي لا تخرج إلا حين يواجه الشر متجسدًا. أثناء استماعه إليه ظل الباشا يهز رأسه في هدوء، ثم طلب منه أن يدون ما قاله في عريضة وسوف ينظر بشأنها. ولم يتخل الباشا عن وعده، وعلى الرغم من أن رودولف كان قد غادر إلى ألمانيا ليستكمل دراسته وعمله بالجيش، إلا أن والده هرع من الإسكندرية فرحًا باستلام أملاكه بعد أكثر من عشر سنوات من المصادرة.

سارا بحديقة الأزبكية في تودة. عينا سعد الضيقتان تراقبان الأشجار والمتنزهين الذين يطالعونه ويشيرون نحوه في صمت يحترم خصوصية الرمز العتيد. بجانبه يسير كوش مطرق الرأس متذكرًا نزهاته البعيدة مع طه ومتحاشيًا النظر تجاه شبرد. بعد برهة يسأله الباشا عن موعد درس الرياضيات القادم، فيخبره كوش أنه لا يذكر بالتحديد إن كان في صباح الجمعة أم بعد الصلاة.

«هل لي أن أسأل حضرتك سؤالاً؟»

«أعلم سؤالك قبل أن تسأله».

ينظر له كوش بعينين متسائلتين.

«تريد أن تعرف لماذا أواظب على التعليم وأنا في تلك السن الطاعنة؟»

هز كوش رأسه في خجل.

وصلا إلى دكة قد تكون هي ذاتها التي رأى نجيب راقداً عليها في العراء منذ عشرين عامًا. تكلم الباشا ببطء وهو يطالع الطيور تغرد من حوله.

«هل تعلم يا كوش ما هي آفة الإنسان الكبرى؟»

يسأله بعينييه.

«إنه الكبرياء النابع عن الجهل وخداع الحياة بما تقدمه من مكاسب».

اتسعت عينا كوش في فضول.

«اسمح لي أن أستفهم من سيادتك أكثر؟»

«لقد منحني الحياة أكثر مما أستحق وقدمت لي أكثر مما طمحت إليه. وضعني الناس على رذائلي من المنازل ما لا أرى نفسي أهلاً له. ولكني بشر. وفي زمن الثورة حين ضخوا بأرواحهم من أجل رجوعي وحملوني على الأعناق، يومها شعرت بأني إله يسير على الأرض. لا تسئ بي الظن. لم يتوقف إيماني بقضيتنا الوطنية مع كل نفس أتنفسه، ولكني يومها بت معتدًا برأيي، أرى تأثيري على كل من حولي. أرى في أعينهم الرهبة والجلال الذي يحملونه لي. شعرت بحلاوة السلطة والمكانة وأن تأمر فطاع وتصير كل كلمة تخرج من فمك إلهامًا لمن حولك. كانت مكانة لم أستحقها. لا يوجد إنسان يستحق أن يُطاع دون نقاش أو أن يموت آخر من أجله، في لحظة ما، اتفق المصريون جميعًا على أن أكون أنا الوطن ويصبح الوطن أنا. لقد اختزلوا كفاح الأمة للاستقلال كله في شخصي. رغم أنني كنت في الستين من عمري إلا أنني كنت لم أزل مراهقًا أمام ذلك التآليه الذي غشيني من كل حذب وصوب، وتملكني الكبر والغرور والاعتداد. لم أقبل في كثير من الأحيان أن يراجعني أحد فيما أقرر، ولا أن أراجع عما تبين لي أنه كان خطأ. مع مرور الوقت أيضًا صرث دون أن أدري أسعى وراء الحفاظ على ذلك التقديس الذي حظيت به. أعجبني ذكائي الذي حافظت عليه طوال حياتي ومكنني من أن أصعد من ابن شيخ فقير إلى أعلى المراتب. ذلك الذكاء الذي جعلني أبقي الوطنيين والخديوي والإنجليز على مسافة واحدة مني. لقد كان لي من الحظ الكثير يا بني. وظننت أن كل هذا بفضلنا أنا وحدي. لقد صدقت أنا الآخر أنني الوطن متجسد..»

«أليست هذه هي الحقيقة؟ كل أمة تحتاج إلى ملهم يتحدث بلسانها ويتقدم عنها ويصبح صوتها، ومن أحق بذلك منك!»

«هذه هي الآفة التي سأموت كمداً أنني لم أعالجها. هذه كذبة يا كوش. هل تعرف لماذا أدرس؟ لأنني كلما وجدت نفسي عاجزاً عن إدراك ما يدرسه صبيان المكاتب الآن، كلما ذهشت أنني كنت وزيراً للمعارف في هذه البلاد! وكلما تضاءلت أمام نفسي وتملكني الحياء! ولذلك جدير بي الآن أن أتواري عن الأنظار، وألا أنف من مباشرة كل ما يفيدني علماً بمقداري من التأخر، ومبليغي من الجهل، فإن هذا يكسر من أنفي، ويخفف من غلواء كبريائي، ويحملني على أن أغض النظر عمن يستخف بشأني، وأن أنصف من نفسي كل من احتقرني بسبب ما أنا فيه من الجهل! ولو كنت في بلد راقٍ لتقطعت بي الأسباب، وغلقت في وجهي الأبواب. لا أحد كشف جهلي هذا أو لاحظته. لقد كنت سعيداً بأنني استطعت خداع كل هؤلاء وإخفاء ضعف نفسي عنهم، بل واستغللت جهلهم هم وعدم إيمانهم بأنفسهم، فوليت نفسي عنهم، وأنا بي من الرذائل ما لا يعلمه سوى الله ومن سيقروون مذكراتي من بعدي، وويل لهم مما سيقروون!»

فجأة يدرك كوش أن سعداً يتحدث الآن عن قيمة المعرفة وهو بعد في الستين، بينما كوش على النقيض، آمن بالمعرفة وفطن لها وسعى إليها وحصلها منذ نعومة أظافره. رغم ذلك لم يلق كوش أيًا من المزايا التي لقيها سعد طوال حياته، وظل في مرتبة دنيا من البشر. يا للمفارقة العجيبة! فكر كوش وهو يسأل:

«وكيف تبصرت حضرتك بذلك الأمر؟»

«كان لي من النصيب أن أحاطني الله بأصدقاء وأحاباء ذكروني دائماً بكلمة الحق ولم يخافوها. بركات وهدى وزوجها وصفية وغيرهم الكثيرون من خصومي. هؤلاء كانوا يعاندون كل العناد أمام ما يرونه خطأ، ولم أملك إلا أن أراجع نفسي، وكلما اقتربث من الموت أدركت أن ذلك الفخر الذي انتابني إنما هو وبأل على أمتنا كلها. ولا سبيل إلى ذلك سوى أن أسعى خلف المعرفة لعلّي أجبر ما انكسر بداخلي من شرخ الكبرياء والرياء».

تعجب كوش للغاية.

«ولكن هذا علّمني الدرس الأكبر الذي أدركه الآن في آخر عمري بعد أن فات الأوان أو يكاد».

«وما هو إن سمحت حضرتك لي بالسؤال؟»

«إننا لن نتحرر عن حق، ونصبح أمة عظيمة عن حق، إلا حين يؤمن كل واحد منا أنه يحمل صولجان أمته بداخله. أن المصري لا يحتاج إلى المخلص. بل هو في ذاته المخلص. بعمله وعلمه وإيمانه بوطنه. أنت تظن أن الإنجليز هم الشرّ الأكبر يا كوش، وهذه ليست الحقيقة. لقد أتوا ببساطة ليكملوا سلسلة مدارها آلاف السنوات من خنوع المصريين، فالمصري يثكل ولا يتكلم، وينتظر من ينوب عنه، ولا يأتي من ينوب عنه، بل يأتي من يستعبده ويستغله، وينتظر مئات الأعوام الأخرى حتى يعود المخلص. حين اختار المصريون ألبانيا ليخلصهم من الأتراك، هذا التصرف الدالّ يخبرك بشيء واحد، أن أحداً لم يكن يعق بقدرة مصري على التحكم في مصيره. حين يردد العثمانيون والإنجليز هذا ينتابنا الحنق، ولكننا من سلّمنا مفتاح

قيدنا لهم طوال تلك القرون».

يطرق كوش برأسه مفكرا ومهتزًا بداخله.

«لذلك أحبك يا ولدي. أنت تمثل كثيرًا مما أريده وأتمناه لهذا البلد. لمثلك أنت وغيرك قامت الثورة وليس لي. لقد ضحى خالك وصديقه ومئات الآخرين بحياتهم لأنهم استيقظوا، غيرهم الملايين صدقوا أنني سأخلصهم من القيد بينما مفتاح الخلاص في أيديهم هم. أنا الآن على أعتاب القبر ولم يزل الإنجليز والحكام يجتمعون على صدور المصريين وليس الحكم في أيديهم من شيء. لقد خذلثكم. وخذلث نفسي. وكل ما يسعني الآن هو أن أحاول بث تلك الروح في كل مصري ليصدق أنه يستطيع التحكم بمصيره. لو مات سعد فهناك مليون سعد. هل تفهم؟ سعد ليس سوى شخص، ولكن مصر هي آلاف السنوات من العظمة. أنت يا كوش سبعة آلاف عام من العظمة. أحلم بالمستقبل الذي يصدق فيه كل مصري هذا فلا يقبل قيدًا ولا احتلالًا ولا يحتاج إلى سعد آخر أبدًا..»

غرق كلاهما في صمت طويل لا يقطعه سوى تغريد الطيور فوق الأشجار وصرخات الأطفال يلهون في أرجاء الحديقة الواسعة. بعد قليل وقف الباشا بقامته الطويلة التي رفضت الانحناء، رغم عبء السنوات التي ثقل كاهلها.. وغادرا.

في يونيو دخل عبد الله بركات إلى المكتب، وهو من القلائل المسموح لهم بالدخول دون استئذان، وكان عائدًا لتوه من أطفح وفي مزاج جيد لمقال قرأه في إحدى الجرائد يتحدث عنه بصفته

وزيرًا فلاحًا للفلاحين. حافظ على لبس جلبابه ولم يغير من مظهره الريفي حتى بعد حصوله على الباشوية، ولذلك أحبه كوش محبة خاصة. جلس معه بعض الوقت، ولكن الباشا لم يخرج إلى نزهته ذلك اليوم، وحين دخل كوش وجد بركات باشا يلح عليه في النزول والتريض قليلاً، ولكن الباشا أصر أنه لا يقدر. انقبض قلب كوش.

قرب نهاية العام كان المرض الأخير قد تمكن من زعيم الأمة. واصل البقاء في المنزل أكثر مما يخرج. ثم أصبح طريح الفراش. بات صوته ضعيفاً وقلّ كلامه، والأطباء يزورونه أكثر مما يزوره محبوه وطالبو المشورة. لم يتوقف الباشا عن إملاء الخطابات والتحقق من إجابة السائلين، ولم يبذ عليه السأم تجاه الصراعات السياسية الدائرة التي باتت تجري في دمه. وفي ليلة تعارك مع الطبيب وصفية بعناد حين سمعاه يخبر كوش أن يجهز رداءه لأنه سيخرج لحضور الاحتفال بعيد الجهاد الوطني.

طمأن الحاضرين، وبينهم التوأم الصغير، أنه لن يبذل أي مجهود زائد، ولكنه يريد التواجد بين الناس الذين يهتفون بالخارج طالبين حضوره. حين أخلوا الغرفة ووقف سعد ليخلع كوش عنه جلبابه رأى كم المجهود الذي بذله ليرفع ذراعيه، فأيقن أن النهاية باتت قريبة. قرأها سعد في عيني خادمه الأثير. «لا تظن أن هذه هي الحال. كل ما في الأمر أن الطريق كان طويلاً. تعال نتراهن أنه لم ينته بعد. وأحذرك! أنا مقامز قديم وأكره الخسارة!» لقه كوش بدثار ثقيل وفوقه معطفه الأثير الذي قدم به من فرنسا. وضع عصاه في يده وسار بجانبه.. لا يقبل الباشا أن يتكئ على أحد.

الحفل مُقامٌ في سرادق بساحة البيت التي سيُدفن فيها بعد

سنوات، وبالتالي لم تكن مسافة بعيدة، بالكاد بضع خطوات، إلا أن المسير نحوها استغرق نحو ثلث الساعة. صرخ الجمع بحماس منقطع حين رأوه وطالبوه بخطبة. لم يستطع أي من مرافقيه أن يقول لا، وكان العجوز الواهن بالفعل قد وثب في لحظات إلى المنبر، وتحول صوته الضعيف إلى مارد جبار، ورآه كوش يطول قامته فوق طوله وهو يزأر أمام الجماهير الصاخبة: «أرى منبر الخطابة مرفوعًا ولا أستطيع له رقيًا، وأجد مجال القوة متسعة ولا أجد لي صوتًا فتيًا...» وشرع في الحديث قرابة الساعة بخطبة أدمت قلوب الجماهير.

بعد أن أنهى خطابه كانت دموع كوش تنهمر بينما الحشود قد جن جنونها وهم يستقبلون نزوله. هرع إليه بالعصا ولكن الباشا الذي استنار وجهه بطاقة مهولة أشاح له بيده: «وما حاجتي لها الآن؟ لقد وجدت العلاج وفزت بالرهان!».

مات سعد بعد أشهرٍ من تلك الليلة. وترك ليس فقط كوش يتيما، ولكن الأمة بأسرها، وكان موته نهاية عهد كوش بالقضية الوطنية، وانطلاقه نحو مرحلة جديدة من حياته لن تكون أقل جنونا ولا فوضى من تلك التي عاشتها بلاده الأثيرة والمتألمة دوماً.

الفصل السابع عشر

بين السينما والسماء والأدب والكرة

(1929-1935)

في عام 29 أتم كوش عامه الأربعين وقرر الانفتاح بكل ما أوتي من قوة على جنون الحياة. وهكذا بدأ مرحلة جديدة في حياته بالعمل لدى مخرج سينمائي شاب. وجده بيتًا متواضعًا وهادئًا وهو ما يحتاجه في تلك الفترة. قَبِلَ المرتب الضئيل ليعمل على نطاق أقل إرهاقًا وبعيدًا عن السياسة. قبل سنوات سافر محمد كريم إلى ألمانيا لدراسة الفن الجديد الذي لم يحمل كوش تجاهه شغفًا خاصًا. عاد إلى مصر بصحبة زوجة أتى بها من هناك وأطلق عليها اسمًا لا يتماشى ووجهها الأبيض وحاجبيها الأشقرين -نعمة الله- وقرر إخراج قصة زينب إلى السينما. نُشرت الرواية منذ أكثر من عشرة أعوام تحت اسم مستعار ولم يُكشَف النقاب عن كاتبها. تذكرها كوش حين حدّثه كريم عنها، وأمسك لسانه عن إخباره أنها لم تعجبه لما بها من سذاجة إذا ما قورنت بالتجارب الأوروبية الناضجة.

استمرّ عمل المخرج الثلاثيني لشهور على إعداد السيناريو رغم عدم عثوره على مؤلف الرواية بعد. عاد كريم يومًا وهو مفرط الحماس وسلّم على كوش بكل حرارة. «لقد اعترف لي أخيرًا أنه هو. قلت لك يا كوش لن يخرج المؤلف عن أحد اثنين إما لطفي السيد أو هو، وكنت محقًا!». بدأت الجلسات تنعقد في بيت كريم تارةً وفي بيت هيكل باشا تارةً أخرى. وجده كوش إنسانًا رزينًا دمث الخلق ومتعاونًا مع سيده لأقصى درجة. لم يفت كريم تقديم كوش للبasha

بكل اعتزاز ساردًا تاريخه الطويل في الخدمة. «في بعض الأحيان أشعر أنني خادم هذا الرجل وليس العكس» قال مازحًا.

زوجة كريم شابة جادة وحيوية تدعم زوجها بإخلاص في مسعاه نحو تأصيل فنه الجديد لدى الشعب المصري، وأفادت كوش كثيرًا، حيث لم يفوت فرصة تواجهه في منزل يتحدث الألمانية طوال الوقت ليطلب منها مواصلة تعلم لغتها الخشنة تلك. في البداية شككت في قدرته على التعلم والاستيعاب، ولكنه فاجأها بمعرفته مبادئ اللغة التي تعلمها من مدموزيل فريدا في بيت الأمة وواصل مراجعتها طوال العامين الماضيين، بعد بضعة دروس فقط أذهلها كوش بقدرته الجنونية على الاستذكار واسترجاع المعلومات والكلمات. بحلول نهاية خدمته لأسرة آل كريم بعد عام كامل لم يكن كوش -بإصرار عنيد- يتحدث مع كليهما سوى بالألمانية.

يصطبغ كريم بجنون الفنانين الذي يبدو من شروده وشعره المشعث طوال الوقت، وتحرره في الكلام والتصرفات، وحبه الدائم للمرح، وفي نفس الوقت رزائته وجديته حين يتحدث عن عمله وطموحه للفن الناشئ الذي أيقن كوش أنه لن يستمر طويلاً، وسيغادره الناس ليعودوا إلى المسرح الذي يتمتع بالألوان والصخب والموسيقى والتفاعل اللحظي، وكلها أشياء لن تحققها السينما توغراف بصورها الصامتة، وحركات ممثليها المتسارعة المضحكة، وبلونيتها القاتمين المحدودين اللذين لا يعكسان ثراء ألوان الحياة.

تنازل المؤلف عن طيب خاطر عن حقوق روايته للمخرج متقد الحماس، ووافق على كافة تعديلاته على القصة، والتي اجتهد كريم

في شرح ضرورتها لكوش بينما يسهران في حجرة مكتبه الصغيرة. في تلك السهرات لم يتوقف كريم عن الحديث عن الرجل الذي عمل له مساعدًا للإخراج في ألمانيا، مخرج اسمه فريتز لانج، يراه كريم أعظم من أنجب ذلك الفن الوليد. «لقد أخرج تحفًا فنية لن يجود الزمان بمثلها مرة أخرى». ولكن كوش أيضًا لم يهتم، فيما عدا بضعة أفلام لشارلي شابلن الذي باتت شهرته تجوب الآفاق، لم يذهب كوش للسينما كثيرًا.

صحب كوش المخرج المتحمس بينما يبحث عن ممول لفيلمه. اتجها لسينما أولمبيا وبينما ينظر صاحبها الخواجة باستغراب للرجل النوبي الواقف في أدب وهو يوجه حديثه لكريم قال بكل وضوح: «فكرة جيدة. ولكن لا أحد سيقطع تذكرة للفرجة على فلاحين على الشاشة. انقل الأحداث إلى القاهرة بأجواء مودرن وأنتجه لك في الحال». قام المخرج وسحب كوش من ذراعه. وبينما يعبران الطريق فكر كوش: «لدي صديق قد يساعدك!». اتجها إلى بيت نجيب، الذي ما إن رآه حتى احتضنه بقوة وصب عليه لعناته المعتادة. «لا تذكرني يا ابن الحرام، يخونك العيش والفيخوادا». جلس معهما واستمع لعرض المخرج. «سأقوم بدور البطولة بالطبع؟ هل واثقك فرصة لرؤيتي أجسد التراجيديا على المسرح؟ أخبرك بكل ثقة وبدون غرور أنني قدمت بعضًا من أهم أدوار الدراما التي شهدتها المسرح المصري، ولكن خسارة، الكل يركض وراء الزعيق والشخط والنظر». نظر كريم لكوش متحرجًا، من ذا الذي يريد كشكش بيه بطلًا لتراجيديا زينب القروية؟ حتى الرجل لا يبدو عليه سمث الفلاحين بأي شكل بكلماته الفرنسية وشعره المدهون بالفازلين. «بالطبع

سيشرفنا وجود فنان كبير مثل حضرتك، ولكن التمويل هو شاغلنا الأكبر الآن». «تمويل؟» اربد وجه نجيب. «أي تمويل؟ هل تظنون أنني أرقد على تل فلوس؟ الداخل كالخارج ونصرف على المسرح من جيوبنا بحق المسيح. ثم السينما هذه لا معنى لها ولا طعم. بالله عليك لماذا أقضي ساعة من وقتي أشاهد صورًا صامتة لا تنفع أحدًا سوى الخرس؟» لم يزل نجيب على عادته القديمة. خرجا من عنده يودعهما الكلب الأسود الهائل الذي أتى به نجيب من الأرجنتين: «لا يزال العجوز يقاوم سوء الحظ ونكبات بلادنا الحارة» أخبر كوش مودعًا. اعتذر كوش لكريم الذي بدا ممتنًا لتلك المحاولة الفاشلة التي ألهمته اللجوء إلى ممثل مسرحي آخر شديد الغنى والنجاح. وافق يوسف بك وهبي على تمويل الفيلم على الفور.

تحركت الأحداث بسرعة، ولأول مرة، بعد اكتمال مرحلة اختيار الممثلين وطاقم العمل وتجهيز الأزياء والديكور، يزور كوش الريف المصري وقد تخطى الأربعين من عمره، وفوجئ بالمساحات الخضراء الشاسعة التي تتبدل على ذهنه العامر بصخب المدينة بعد أن تناسى المساحات الجبلية التي وُلد بها. راعته عشوائية الفلاحين وقذارتهم وجهلهم المدقع، ورأى الارتياح على وجه المخرج الذي أصرَّ على تنظيف الشوارع، وهندمة المجاميع، وقتل الذباب، وتغطية الطعام قبل تصوير أي مشهد. أصابت كوش نكرة لحظية شعر فيها بالنفور من مصريين كان من المنطقي أن يكون في مثل درجتهم أو أدنى، ولحسن طالعه وحصافة ذهنه وترتيبات قدره العجيبة حظي بحياة غير حياتهم، ولكنه أيضًا شعر بأن الدماء التي بذلها والأحلام التي حلم بها سعد كانت لأجل هؤلاء. فرط سذاجتهم كارثي، وجهلهم

العدمي يؤلمه. حين بدؤوا في إعداد مشهد لجاموستين (أصر كريم على تحميمهما بدلاء من المياه والصابون) ركض صاحبهما بجنون وهو يصرخ في طاقم التصوير مطالبًا إياهم بالتوقف. «ماذا هناك؟ ألم تقبض أجرك؟» صرخ المخرج فيه بعصبية الحر والبعوض. «وماذا لو صعقتهما الكهرباء من التصوير؟ بماذا تنفعني ساعتها؟ هؤلاء أغلى عندي من أولادي». صرخ الرجل بجرأة جهله وهو يحتضن الجاموسة ويبيكي وكأنما يشهد القذف بأعز ما لديه في الحياة إلى نيران الكهرباء القاتلة. مضت ساعات من محاولات إقناعه بخرافة ما يقوله وتطمينه أن لا أساس له في المنطق، ولكنهم فشلوا جميعًا وضاع اليوم دونما تصوير.

بينما يشاهد الممثلة المدللة تصرخ من تسلخات أصابتها بسبب ركوبها الحمار تذكر كوش فجأة أنه زار محمد خليل الذي أراد اغتيال السلطان في غيطان كتلك بالمنصورة منذ سنوات بعيدة، وأنها ليست المرة الأولى التي تطأ أرضه فيها أرض مصر الزراعية. كيف نسي؟ هل عاش إلى هذا الحد الذي تخونه فيه الذاكرة؟

افئثن بمعدات التصوير ولم يكن يتخيل مدى صعوبة العملية. رغم أنه عاش مع فرقة نجيب بروفات المسرحيات المرهقة، إلا أنه لم يتخيل أن مقدار عمل يوم كامل من الإرهاق ومجابهة الطين والساخرين ينتج عنه لقطة تستمر لعوانٍ على الشاشة. لماذا يفعل الإنسان هذا لمجرد تصوير حوادث لم تحصل في الحقيقة؟ لم ينجح كوش في فهم ذلك أبدًا.

في تلك السنوات واصل كوش قراءة المجلات، والتي ظهر منها الكثير مما لم يكن موجودًا من قبل، وواصل متابعتها أولًا بأول دون تأخير: «الرسالة» التي كان يكتب فيها طه، و«الكشكول» الساخرة الانتقادية التي كانت دائمًا ما تريبه جانبًا آخر من السياسة لا تقوله الجرائد الأخرى، وعرف منها شيئًا عن العالم وكباره وفنانيه مثل فيردي الذي قرأ عنه ولم يسمع موسيقاه أبدًا. كثير من المجلات الجديدة تهتم بأخبار العالم ووضع الصور، وتحرص على أن تكون حلقة وصل بين مصر وما يحدث حولها من حوادث فلا تنقطع صلثها بالدنيا، مثل «كل شيء والعالم» و«الدنيا المصورة» اللتين شكلتا نافذة مصورة لكوش. أما «الكواكب» فقد عززت اهتمامه بالفن ومشاهيره وإن لم يكن يلقي إليهم بالًا كثيرًا، وجد أفكارهم ساذجة ولا تتوافق مع منازعه الفكرية الواسعة، ولكنه كان يسعد بأن يرى حوارًا لنجيب أو لأحد منافسيه الذين يثيرون غيرته ويقلقون منامه بين حين وآخر. أما «مصر الحديثة المصورة» فقد أصبحت الأقرب لقلبه والأكثر تسليةً، يفضل قراءتها حين ينام كل من في البيت وتنتهي خدمته فيقضي معها آخر ساعات يومه، فهي مليئة بالصور والرسومات والأخبار الطريفة والشخصيات العجيبة التي قد لا تتيح له الحياة مقابلتها.

في هذه السنوات أيضًا تتبع التطور الشديد لتقليعة الإعلانات المدفوعة في مختلف المجلات؛ يتابعها بشغف وفي كثير الأحيان يجزّب أحد المنتجات المعلن عنها عندما تدعو لها الحاجة في بيت أحد سادته. فاشترى المرهم السحري عندما اشتكت هدى هانم من آلام المفاصل، أو منظفًا خصوصيًا من صيدلية كوستريال، أو لبن

هورليك الذي كان يشبعه بشدة دون أن يصيبه بعسر الهضم. كذلك كان ينبهر حين يطالع سيارة سيتروين في «المصور» وبعدها يجد إحداها أمامه تسير في الشارع. عكف على استخدام بوردرة تلك الأبهة ياردلي ولم يكن ينام بعد الاستحمام دون أن يرطب جسمه بها رغم أنه لم يفهم حقًا فائدتها سوى رائحة اللافندر التي تفوح منه حتى في أقصى درجات الحرقى. حين شاهد دعاية أم كلثوم للصابون النابلسي قرر ألا يغيره عند الاستحمام طوال حياته. وقد ابتعد كوش منذ زمن بعيد عن كل ما يمكن أن يؤذي جسده أو ينجس روحه، والفضل في ذلك كان يعود لنصائح الخال، التي ناقضت نصائح خولي المفسدة، ومقالات المجلات. فقد قرأ في مجلة «المفتاح» عن أضرار الأفيون، وفي «المصور» عن المخدرات، وتكلمت «النبراس» عن البيرة والكحول، أما الجنس فكان فكرة مخيفة تكفل لكوش أن ينغلق جسده على نفسه شهوًا - كانت متعة العقل والمعرفة تغنيه عن كل تلك المكيفات وكأنها صارت مخدره الوحيد- ولكنه رغم ذلك في بعض الأحيان يشتري الأشياء دون أن يعرف متى ستفيده هو أو أي من سادته، كدهان بريزرفاتول الواقى الذي اشتراه من صيدلية دلمار بميدان الأوبرا فقط لأنه كان يعذ الشباب بصيانتهم من عدوى أمراض السيلاان والزهري، وهو ما احتاجه بعد ذلك صديق له في إحدى الأسفار البعيدة، ولم يصدق أن كوش كان يحمله من بين حاجياته. «كلّفتني 15 قرشًا، وها قد أتى وقت استعماله». حين قام بتجريب معجون أسنان ببسودان وجد أن أسنانه التي كانت كمالًا في بياضها تزداد نضاعة وقوة وبالتالي أوصى به جميع سادته. تلك إحدى مميزاته كخادم من الدرجة الأولى، فهو لم يكن متجمدًا من هؤلاء الذين يتبعون الوصفات

التقليدية التي يعرفها عن ظهر قلب بالطبع، ولكنه يجرب الجديد ويطلع عليه، ويقوم بتحديث خزانة المنظفات والأدوية بكل ما هو جديد، فاكسب سمعة طيبة كمنقذ لجميع أفراد الأسرة.

وفي الوقت الذي كان طلاب المدارس والجامعة المصرية يحاولون عبور أحد الجسور فضربهم البوليس وسقط منهم الجرحى، مما استنفر بقية زملائهم الذين خرجوا عن بكرة أبيهم في اليوم التالي وأغلقت على إثرها الجامعة، كان كوش بعيدًا عن تلك الأحداث التي حين قرأ عنها بفخر في الجرائد، أدرك أنها ثورة شباب لا يمت لهم بصلة الآن، وأنها ليست ثورته، فقد مضى الزمن الذي أدى فيه دوره ودفع ثمنه منذ وقت بعيد.

قادته تلك السنوات الجامحة أيضًا إلى أن يصبح واحدًا من أوائل المصريين الذين يطيرون؛ حين تم اختياره لخدمة ركاب المنطاد زيبلن. كان قد تابع تقارير مندوب صحيفة الأهرام الذي أوفدته إلى ألمانيا ليرافق المنطاد في رحلته إلى الشرق، كما تابع اللفظ الدائر حول رفض الحكومة الإنجليزية التافهة لنزول المنطاد إلى أرض مصر لمجرد أنه ألماني ويهدد الأمن القومي لإنجلترا في القاهرة. تأثر كوش حين نقل المندوب كلمات قائد المنطاد عند عبوره فوق قناة السويس وكيف أنه يقدر مصر كثيرًا، كما كتب المندوب عن تمني الضيوف، الذين يتناولون العشاء أثناء مرور المنطاد فوق المحروسة، النزول إليها وزيارة أهلها. على الأرض، أقسم كثيرون أنهم رأوا المنطاد يطير في هزيع الليل وفوقه يرفرف العلم المصري. ولكن بعد عامين تغير الوضع، ولسبب غير مفهوم منح الآلهة

المتحكمون في مصير المصريين الموافقة على نزول المنطاد. أبحر كوش برفقة مندوب الأهرام محمود أبو الفتح -شاب جاد كثير الكلام قليل الابتسام- ليعاونه ويقدم خدماته على المنطاد حين يسافر إلى القاهرة، وقد منحته إجادته للألمانية مزيةً ضمنت تكليفه بتلك المهمة. زار المنطاد معه، وتذكر حضوره مهرجان الطيران في هليوبوليس في بدايات السنة التي رافق فيها روزفلت وهو يتفحص الكائن الطائر العملاق في ورش الألمان بينما يتم المهندسون إجراءات الميكانيكا والسلامة قبل انطلاقه حاملاً عشرات الضيوف من الأغنياء الذين كانوا في غاية الحماس لزيارة مصر وأهراماتها.

طمأن المهندسون الصحفي ورفيقه النوبي حول إجراءات السلامة المتبعة للمنطاد، إذ رأوا في أعينهما الرعب المطلق حين وقعت أنظارهما عليه وبدؤوا في تخيل شعور التحليق في السماء دون وجود أمان الأرض تحتهما. حين امتلأ بالون المنطاد بالهواء الساخن وانطلقت قذائف اللهب المعبأة بغاز الهيليوم شعر كوش أن هذه ستكون آخر أيامه على وجه الأرض، أو في السماء بالأحرى. «خفت أن أموت في غابات الأوروجواي ولكن الموت ينتظرني فوق ألمانيا» قال كوش لرفيقه الصحفي الذي بات وجهه أبيض من الحليب وهو ممسك بحافة كرسيه بينما يطالع في رعب الجحيم المستعر فوق رؤوس المسافرين. وضع كوش العلم المصري الذي يحمله بين حاجياته على حامل الأعلام بالمنطاد الذي انطلق في رحلته صوب مصر، ولكن الدكتور أكثر قائد المركبة لم ينجح في المرور فوق مدن أوروبية عديدة بسبب سوء الأحوال الجوية التي زادت من رعب كوش كلما ارتج المنطاد من هبات الهواء أو الأمطار التي تلاحقه أينما

واصل كوش عمله بدقة واحتراف غير عابئ بالمصير المعلق الذي ينتظره بين اللحظة والأخرى، وحين وصل المنطاد إلى الأراضي المصرية سابقًا مواعده المحدد بساعات عديدة أقنع محمود وكوش الدكتور إكتر بأن يطوف بمختلف المحافظات حتى يتمكن المصريون من رؤية الاختراع الحديث، فمعظمهم لم ير طائرة حتى الآن. عرف كوش أن هذه الحركة الدعائية ستثير حنق الإنجليز لأنها تمثل دعايةً للألمان وما استطاعوا تحقيقه في سنوات قليلة من إعجاز هندسي بعد هزيمتهم الماحقة في الحرب الكبرى. بدأ المنطاد طوافه فوق الإسكندرية. نظر كوش إلى أسفل بجوار ضيوف المنطاد نحو المئات الذين أخذوا يلوحون له في فرحة عارمة وحماس لهذا الحدث التاريخي. مرت على كوش سحابة كآبة حين تذكر وقته في الإسكندرية منذ أكثر من عشر سنوات، ولم يستطع طرد الفتاة الصغيرة من مخيلته. أخرجته من أفكاره نداء محمود له: «تعال لتساعدني في صياغة برقية الدكتور إكتر لجلالة الملك». عكفا على كتابة البرقية، ثم أملاها كوش بصوته الرخيم إلى فني التلغراف على سطح المركبة: «إن ضباط جراف زبلين ورجاله يبادرون عند دخول المنطاد جوّ البلاد المصرية إلى رفع عواطف الإجلال والاحترام إلى مقام جلالتك السامي». بعدها طاف المنطاد فوق بلاد بحري والصعيد طوال الليل، وفي كل مكان قابلته صرخات الإعجاب والرعب من النظارة الساهرين أو الذين استيقظوا على مرأى الطير الحديدي العملاق يطير في سماء قراهم الغارقة في سبات عميق. «الآن يعرف المصريون أن ركب العلم لا يتوقف وعليهم اللحاق به»

قال محمود لكوش وهم فوق سمنود.

وكان هناك سبب آخر لهوس الناس برؤية المنطاد: ففي العام السابق قطع شاب مصري مجنون المسافة من أوروبا إلى مصر في طائرة صغيرة، ذلك الاختراع الذي بدأ يعبر سماوات العالم منذ عدة سنوات، وكانت النتيجة أنه -بعد تأجيل رحلته عدة مرات بسبب العواصف الثلجية فوق جبال الألب- حظ بطائرته في سلام فوق أرض الإسكندرية ثم هيلوبوليس، وخرج مئات الآلاف لاستقباله بكلتا المحافظتين في مظاهرات لم يشهد كوش مثلها منذ أيام الثورة، ومكافأة له على ذلك الإنجاز استقبله مندوب الملك ومحافظ الإسكندرية في سيسيل، ثم النحاس والملك المصري في القاهرة. رأى كوش في الطيار محمد صدقي نموذجًا رائعًا يمثل كل ما تمناه سعد قبل وفاته: ظموح ومتعلم ومجتهد محب للمخاطرة ومنافس للأوروبيين في ميدانهم ولا يعرف عقبات اللاممكن. تعلم صدقي الطيران في ألمانيا لثلاث سنوات على حسابه الخاص وعاد بطائرة مكشوفة دون زجاج مارًا بأسوأ الظروف الجوية، فقط ليقول إنه يقدر. من يومها بات المصريون يتطلعون نحو السماء ينتظرون رؤية طائر جديد بها، وهو ما استغرق عامين آخرين حتى باتت لمصر شركة طيرانها الخاصة، وعام آخر على طيران أول فتاة مصرية، والتي تيقن كوش أنها ستكون مصدر فخر خاص لسيدته القديمة هدى هانم.

بعد ساعات وصلوا إلى القاهرة، طاف المنطاد فوق الأهرامات وتكرر المشهد مرة أخرى ولكن أكبر بأضعاف: الآلاف خرجوا إلى الشوارع يلوحون بالأعلام المصرية. في المنطاد صرخ الجميع تعجبًا

أيضًا ولكن بسبب ما يروونه أسفلهم: الأهرامات العظيمة.

بدؤوا في تقليل اندفاع الغاز فوق مطار ألماظة ليبدأ المنطاد هبوطه تدريجيًا إلى ساحة المطار وفي انتظاره ما يقارب أربعمئة ضابط وجندي إنجليزي تدربوا طوال الأيام الماضية على كيفية الهجوم فوق حبال المنطاد وإثقاله بنسب هندسية دقيقة.

فور هبوطه هرع الأغنياء الذين قطعوا تذاكر لرؤية المنطاد عن قرب، وحاول الجنود دون جدوى ضبط حركتهم الفوضوية، بينما سجد كوش غير مصدق أنه عاد إلى الأرض مرة أخرى. «لم يُخلق الإنسان للتحليق في السماء» قال لأحد الصحفيين الذي هرع إليه ليستطلع رأيه. توفرت لديه تلك القناعة في هذا اليوم عازمًا على ألا يطير أبدًا مرة أخرى.

حملت تلك السنوات أيضًا مفاجآت بين طيات الكتب ككف تحتضن وتعتصر قلب كوش الذي اتجه نحو الكهولة بخطى ثابتة.

ففي نهاية عام 29، وبينما كان يعكف على قراءة الأدب العربي الحديث من روايات جرجي زيدان ونيقولا حداد وأمين الريحاني، صدر كتاب جديد لصديقه طه، رواية بعنوان «الأيام»، عرف كوش من الصحف أنها السيرة الذاتية لمؤلفها، وحين قرأها متلهفًا وجدها تضم حوادث طفولة طه في بلدته النائية وتنتهي عند استعداده للقدوم إلى القاهرة. سأله كوش على الفور -حيث يزوره من حين إلى آخر حين يسمح وقت كليهما بعد عودة التواصل بينهما في عزاء سعد باشا منذ عامين- إن كان ينوي استكمال القصة وما إن كان

سيظهر فيها، ابتسم طه له ولم يحر جوابًا واضحًا، ولكن كوش ظل على حماسه.

في منتصف عام 33 ظهرت إلى النور رواية بقلم صديقه القديم محسن يسرد فيها أحداث سنة 18 الأثيرة إلى قلبه بأدق ما يمكن من التفاصيل. شعر بسعادة غامرة حين قرأ فصولها وإن اعتصرت قلبه غصة حين لم يجد له ذكرًا في الرواية، على الرغم من أنها ذكرت جميع أفراد العائلة وجيرانهم، وذكرت في خاتمتها وقائع خاطفة من الثورة (عرف كوش من الرواية لأول مرة أن عائلة محسن ألقى القبض عليها لمدة قصيرة حين كان في الإسكندرية، لم يخبره حنفي بذلك حين زارهم بعد عودته).

فكر كوش أن محسن ربما لم يذكره لأن الضرورة الدرامية فرضت عليه الاكتفاء بذكر خادم واحد هو مبروك. ولكن هل حقًا يستوي كوش ومبروك؟ مرة أخرى عاودته النعرة الطبقية التي شعر من خلالها أنه لا يصح مقارنته بخادم يجهل القراءة والكتابة، ولكن ربما حثمت الضرورة أيضًا تقديم الصورة النمطية الساذجة للخدم ليصبحوا معادلًا كوميديًا يكمل الطرافة التي اتسمت بها روح الرواية.

أذهلت «عودة الروح» كوش وآلمته أيما إيلام في وصفها لروح تلك السنة. هي بالفعل تلك الروح التي عاشها كوش، وتلك الأجواء التي سادت وهيمنت على قلوب الناس وعصّدتهم نحو حلم مشترك سرعان ما وصل إلى ذروته، ثم تحطم على صخور قسوة السياسة ومطامع رجالها.

أرسل كوش رسالةً لمحسن يخبره فيها بفخره أنه حقق حلمه وصار لسان الأمة كما تمنى، وأخبره أنه ينتظر الكثير منه، وربما يومًا ما يذكره في أعماله. أخبره أيضًا أنه وعلى الرغم من استغراق الأمر عشرين عامًا منذ صدور زينب، إلا أن الرواية المصرية قد بلغت الكمال على يده.

نموذج آخر من الكمال الأدبي الأقرب لكوش أكثر من أي إنسان، جاء بنهاية عام 34 حين وقعت في يد كوش نسخة من رواية أجاثا الأخيرة: «جريمة في قطار الشرق السريع» التي التهمها كعادته في ليلتين. حين أغلق آخر صفحاتها وطالع صورتها على الغلاف الخلفي عرف أن أجاثا هي السيدة الأعظم التي خطت بيدها روايةً، وأنها ستعاني حتى تكتب عملاً بهذا الكمال مرةً أخرى، وأنها باتت الآن في مكانة أدبية لا تقل عن تلك التي بلغتها أم كلثوم في الغناء. مرةً أخرى، وعلى الرغم من أحداث القصة التي يدور بعضها في الشرق، لم تأت على ذكر كوش أو تستوحي منه شخصيةً قد تشبهه. تأكد بلا شك أنها قد نسيت.

بعدها بسنوات حين صدر الجزء الثاني من رواية «الأيام» في العام الذي أتم فيه هو وطه الخمسين، ولم يذكره طه، رغم أن الرواية تحكي وقائع فترة مراهقته في القاهرة التي عاصره فيها كوش قرابة ثلاث سنوات، عاد كوش وتذكر كتابي محسن وأجاثا، وفكر إن كانت هذه مصادفة أم ترتيبًا عجيبًا من القدر. لماذا تفشل كل تلك الصفحات بكلا اللغتين في إدراك وجوده؟ لماذا يختفي من إبداع أصدقائه بينما يؤكدون له دائمًا مدى قربهم وتأثيره عليهم؟ لأنه خادم لم يرفعوه أبدًا إلى مرتبة الصديق كما كان يظن؟

أم أن وجوده كصديق حقيقي وقريب منهم جعلهم لا يرونه في صورة الخادم فلا يرسمونه بتلك الصورة؟ أم أن كوش نفسه لم يكن حقيقيًا بالنسبة لهم، بل طيفًا حلو المذاق يذكرونه فقط حين يرونه ولا يلبث يتلاشى من داخلهم مع انشغالات الحياة والمكانة، فلا يتجسد لهم كيانًا مكتملًا يستحق لنفسه مكانًا بين سطور حكاياتهم؟ أين هو؟ أين الذاكرة التي ستحفظه؟ هل لو كتب كتشنر مذكراته، أو روزفلت، أو نجيب، أو هدى هانم، هل يذكرونه؟ وماذا عن سعد الذي يعلم كوش أنه كان يدقن يومياته بانتظام طقسى لا يحيد، هل ذكره فيها؟

عاد كوش لأحضان السينما المجنونة مرةً أخرى حين تم اختياره ضمن الوفد المرافق لتشارلي شابلن في زيارته الأولى لمصر- والذي سعد كوش بمعرفة أنه وُلد معه هو الآخر في ذات العام مثل طه ونجيب وهتلر الذي سيكره كوش وحشيته فيما بعد مثلما كرهها تشارلي. لم تستمر الزيارة كثيرًا، وحين أتى اصطحابه للأهرامات مع أخيه وسكرتيه ياباني الأصل. ارتدى تشارلي الطربوش وبدأ في كامل أناقته ويطلق النكات هنا وهناك. انبهر الجميع به وبسرعة بديهته ولم يكن يتكلف أبدًا. بسرعة أصبح تشارلي من الإنجليز القلائل الذين دخلوا قلب كوش، وطمأنه أن حكمه على البشر لا يجب أن يخضع أبدًا للمطلق. حين رأى صورته مع تشارلي في اليوم التالي تصدر صفحة الأهرام الأولى، اتصل نجيب بكوش ولامه بأقذع الشتائم أنه لم يتوسط له كي يقابل غريمه «كشكش الإنجليزي».

شيء ما يخبر كوش أنه سيعود لأوروبا يومًا ما، وأن زيارته لروما مع هدى شعراوي ثم التوقف القصير في باريس وألمانيا لن تكون الأخيرة، وقد صدق حدسه عام 34 حين تمكن فريق كرة القدم المصري من الوصول إلى كأس العالم. وتوافقت الظروف لأن يصبح كوش لأول مرة في حياته خادماً لجيش من الشبان الغوغاء الذين يتفجرون صحةً وزعيقًا، مسؤولًا عن إعداد ملابسهم الرياضية، راعه كم الطين والعرق الذي وجب عليه إزالته إثر كل مباراة. وجد أكثرهم رقيًا مشرف المنتخب حسين حجازي الذي لعب لنادٍ إنجليزي فترة من الزمن، ولذلك فقد وجد كوش الكثير ليحدثه عنه.

لم يحب كوش الكرة تمامًا كما لم يحب السينما، وذكره منظر الاستاد بالبرازيلي القبيح الذي كاد يقتله في سان باولو، ومن يومها ترتبط الكرة بشيء مريع في حلقه، ولكن المصريين انتابهم فخر خاص بفريقهم الوطني الذي يمثل المملكة المصرية في المسابقة التي تُعقد بروما.

ما إن وصلوا حتى شعر كوش بفخر خاص بينما يرشدهم عبر أزقة العاصمة الإيطالية محاولًا التأكيد في كل فرصة تتاح له على أنه زار هذا البلد من قبل، رغم أنه كثيرًا ما يخطئ في الاتجاهات أو المعلومات التي يقولها، أكثر من عشر سنوات مرت على تلك المرة التي أتى فيها مصاحبًا للوفد النسائي في المؤتمر العالمي.

لم يعقر الفريق المصري كثيرًا في البطولة، فقد خسروا مباراتهم الوحيدة أمام المجر، وودعت مصر البطولة بسرعة، وعادوا كما

جاؤوا. حين مَرّوا بالقصر الرئاسي في طريق عودتهم إلى الميناء
تذكّر كوش رئيس الوزراء الإيطالي الجلف الذي ظنه عبدًا يومًا ما.

في تلك الأيام أيضًا رمت الدنيا بكوش في منزل الشخص الأكثر
جنونًا الذي قابله في حياته كلها، والذي هرب منه بعد شهرٍ واحدٍ
فقط من الخدمة لأنه لم يستطع تحمل ذلك الشطط الرهيب والخبل
المستعر الذي يصدر عن كل حركة وهنة من العجوز الخرف.

الدكتور محجوب ثابت -وهو يصر على أن يلقَّب بالدكتور وليس
الدكتور- عاد لتوه من زيارة طويلة في النمسا والمجر، وطلب خدماً
سودانيين، فأخبره معاونوه بتعذر هذا، ولكنه يصر على أن تتحقق
الوحدة الضائعة بين البلدين تحت سقف بيته، فتواصل أحد معارف
كوش معه ورجاه أن يمثل أنه سوداني كي يقنع الرجل ويساعده في
خدمته. حين دخل كوش المنزل لأول مرة راعته الجماجم الملقاة
على الأرض كقطع الأثاث المهملة، والملابس الممزقة التي رفض
الدكتور التخلي عنها. فور أن رآه بدأ الدكتور محجوب الذي لم
يكن ينقطع عن استقبال الصحفيين بسبب شهرته الكبيرة -والتي لا
يعرف كوش من أين أتت ولأي سبب هو مشهور- في الحديث فورًا
عن حمامات بوذا التي رآها في المجر، والأحصنة التي تبيض ذهبًا،
والملابس التي تملك قدراتٍ سحرية، واللوحات التي يتكلم أصحابها
في الليل، والحجر الذي يحكي تواريخ الأمم الذي تسيطر عليه
كنيسة أوروبا حتى لا يعرف أحد سره، ويريدون قتل الدكتور قبل
إفشاء السر. الدكتور المجنون لا يأكل سوى العدس، ويلعن الفئران
التي غاب حسها الوطني فتقرض أوراق وملابس رجل عظيم مثله،

ويمنع أي أحد من تناول أكثر من مكعب سكر واحد في كوب الشاي وإلا طرده على الفور. وأثناء حديته في قمة المرح يسكت فجأة ثم يتحول بكاؤه إلى نحيب وهو يذكر حصانه الراحل مكسويني الذي أقسم أنه كان يعرف دروب القاهرة وحده، وأن الخديوي صارعه على امتلاكه. الدكتور موقن أنهم سيقتلونه يومًا ما بالسّم لأنه رأى ما لو افترض أمره لدمر الأسرة العلوية بأكملها ونزل بها إلى أسفل السافلين. يسير معظم يومه داخل الشقة برداء الاستحمام ولا يرتدي ملابسه إلا لمامًا، وحين ألقى على كوش محاضرة مدتها 4 ساعات عن فوائد البيض بالعجوة استأذنه كوش في إحضار إبريق قمر الدين من محل العصائر بآخر الشارع، وخرج واضعًا ذيله في أسنانه ولم يعد إليه أبدًا.

بدءًا من تلك الأيام، وكلما اقترب من الخمسين، أدرك كوش بسرعة أنه يطعن في السن. ويوم خلع ضرسه الأول شعر أن هذه بداية النهاية. كانت مصفوفة أسنانه ضربًا من الكمال، ولذلك أصابه رعب مذهول حين أخبره الطبيب الألماني الذي انضم لتوه للحزب النازي الجديد أن الضرس قد انشق وانكسر لأن العصب الذي يغذيه قد مات منذ مدة، وخلعه دون أن يمنحه وقتًا للتفكير. يومها شعر كوش أن جزءًا منه قد بُتر ولن يعود مرةً أخرى. كيف يصبح نفس الشخص وهو الآن بضرس ناقص؟ قطعة منه شرقت ولن تعود مرةً أخرى، ولن تكون الأخيرة. شعر بأي قدر الحياة غادرة، وأن لوح شوكولا أو عود خروب قد يكون سببًا في ألم يستمر لشهور وعاهة تبقى مدى الحياة. بحلول خلع ضرسه الثالث عرف كوش من طبيبه أن هذه

أعراض إصابته بمرض السكر، ولأول مرة فهم لماذا يزداد نحافةً وشحوبًا كلما تقدمت به السن. آلام ظهره وركبتيه وانحلال قدرته على الوقوف في الخدمة لساعات بات نذيرًا آخر احتاج معه إلى الاعتراف بأنه يكبر في السن. أصابته البواسير جراء حبه للشطة، وبدأت تظهر بمور ورؤوس بنية تحت ثديه وحول أجنابه وفي رقبته. بات يستيقظ في منتصف الليل أكثر من مرة، وينخر برؤ الشتاء عظمه كما لم يشعر به من قبل، وصار يخاف النوم، ويزدري الاستيقاظ، بل يستيقظ كثيرًا بعد شروق الشمس غير مصدق أنه يفتح عينيه في ضوء النهار.

رحى الزمان تدور ولا ترحم، وكوش بين طياتها يتألق نورًا في أيام ويقترّب بخطى ثابتة من الموت والأفول أيامًا أخرى.

كان يموت.. كما هو مصير كل شيء..

ولكن حكايته لم تكن لتنتهي بعد..

الفصل الثامن عشر

من الجزيرة بالاس إلى برلين

(1936)

في حقبة الجنون تلك، كان كل شيء يسير على ما يرام حتى جاء خريف عام 36، حين كان كوش يأخذ هدنةً من خدمة بيوت الكبراء، فعاد إلى أصوله في الخدمة الفندقية، ولكن هذه المرة في فندق الجزيرة بالاس، الذي وإن كان يزيد فخامةً عن شبرد، يفتقد لتأثيره الفارق في حياة كوش وتكوينه.

يحمل الجزيرة بالاس صك عراقة الخاص. بدأ الفندق المقام على جزيرة قصراً بناه الخديوي إسماعيل المجنون بالبذخ وبضيفته المتألثة، ليستضيف الإمبراطورة أوجيني زوجة نابليون الثالث وقريبة دليسيبس عند زيارتها لافتتاح القناة. قام القصر على ثلاثة أجنحة أقيمت حول ساحة مفتوحة على ضفة النيل جهة الشرق. تميز بأقواسه المتكررة المنقوشة على الطراز الإسلامي والقائمة على عمدانٍ اتخذت هيئة مضفرة.. اختراع معماري جاهز القوالب استقدمه مهندس ألماني من دريسدن. استلهم المعمارى تصميم القصر من قصر الحمراء بغرناطة الذي أقام به ستة أشهر يتدارسه.

الأثاث القادم من باريس وبرلين اضطلعت به شركة بارفيس التي لاحقاً سيكون لها متجر بفندق شبرد، أما الحليات والهيكل الخشبية فقد أتت من فيينا والرخام من توسكاني الإيطالية. الدور الثاني المكوّن من الغرف تم إعداده ليصبح نسخة طبق الأصل من غرف

قصر تيولريه في باريس محل إقامة يوجيني حتى لا تشعر بالغبرة. جناح الحريم السابق الذي بناه محمد علي فوق الجزيرة تم إدماجه في حرم القصر بعد توسعته وتجديده.

يستفيد الفندق من متاخمته للنادي الخديوي بملاعب الجولف والتنس.. والكريكت والبولو. بعض غرف الفندق يطل على النادي، بينما بعضها الآخر يطل على الحدائق أو النيل (على عكس شبرد، يستمتع الجالسون في شرفة الفندق بمراقبة الذهبيات وهي تروح وتجيء على صفحة النهر الأزرق). يزيد عدد غرف الجزيرة بالاس عن أربعمئة، بمسرح وقاعة رقص وإضاءة كهربائية، وحدائق ضخمة ضمت أكثر من ألف فصيل نباتي، صالون حلاقة رجالي وآخر للنساء، ومصعدين أحدهما هيدروليكي والآخر كهربائي، ملعب تنس، إسطنبول، وصيدلية. في سنة الثورة، وبعمر الثالثة والتسعين، اشترى الفندق حبيب لطف الله، السوري المولود ببيروت، بقيمة مائة وخمسين ألف جنيه مصري من مالكة السابق بهار.

طوال سنوات خدمته في شبرد كان كوش يتردد على الفندق باستمرار في مهام دائمة ما يتم تبادلها بين الفندقين، لكنه يتذكر على الأخص زيارته له مع كتشنر في أحد الأيام. طلب السيد بهار بعد اصطحاب المعتمد البريطاني في جولة حول حدائق الفندق الغناء التقاط صورة في المدخل، ولكن كتشنر رفض استخدامهم في الدعاية لهذا الصرح الذي يعدّ واحدًا من أفخم الأبنية المعمارية في الشرق. بعد أيام أرسل كتشنر كوش بخطاب لبهار. سيوافق على التقاط الصورة لو أهداه أسدين من الرخام الإيطالي رأهما في حديقة الفندق ولا ينساها. «إنهما بريطانيان بامتياز ومكانهما

الصحيح في الدوبارة». وهو ما كان.

يلقى كوش احترامًا كبيرًا في الجزيرة بالاس، ويتبوا باعتزاز موقعه الجديد كرئيس طاقم الخدمة بالفندق، والذي لا يحتاج فيه إلى التعامل بشكل مباشر مع الضيوف، بل يشرف على طاقم الخدمة الضخم ويتولى إدارته وضمان قيامهم بمهامهم على أكمل وجه. في وقفته أصبح خالّه بالتمام والكمال من الناحيتين الشكلية والمهنية. أما من الناحية الشرفية فكان يقف بملابسه البراقة وسترته الرمادية وأسفلها صديري أحمر شديد النظافة الذي بات الآن موطرًا بحزام عريض موشى بنقوش ذهبية اختار كوش أن تكون على هيئة أسد يشبه أسد العلم البريطاني، ولكنه يعبر عن معنى اسمه النوبي. كل ما يحتاجه هو أن يقف بتلك الهيئة، فيستقبل الضيوف على باب الفندق أو قاعات الحفلات والمؤتمرات الهامة بجوار المدير، ويقدم لهم التحية بإنجليزيتة الفائقة أو بالألمانية أو بالإيطالية، فيضمن لهم بذلك زيارة ممتعة، ويدخل فيهم شعورًا بالأمان والرقى، وأن من يقوم على خدمتهم هو طاقم متمكن ومحترف سيقبل من شعورهم بالغربة في هذه البلاد الحارة، والتي وإن بالغ محتلوها في جعلها أوروبية المظهر، فإنها شرقية متخلفة لا تزال.

بينما يقف كوش ليشرف على مراسم شاي الظهيرة، دخل حسين باشا صبري بصحبة رجل في ذات فخامته. اقترب كوش من الباشا وحياه بحرارة. «أيها الماكر ماذا تفعل هنا؟» سأله رئيس الاتحاد المصري لكرة القدم، ثم قدم رفيقه: «الأمير محمد عبد المنعم رئيس اللجنة الأولمبية». ثم أثنى الباشا على كوش وما قدمه من خدمة

مميزة لبعثة المنتخب الوطني في كأس العالم منذ عامين. انخرط معها كوش في حديث مطول بينما يشير إشارات خفية لطاقم الخدمة الذي قدم المشروبات للضيفين. كان كوش في وقفته تلك يتعامل وكأنه واحد من أصحاب المكان أو أركانه الرئيسية التي تضيف عليه مزيدًا من العراقة والأصالة. في معرض الحديث عرف كوش أن الأمير الشاب هو أحد أبناء الخديوي عباس. «لقد كان لي شرف مقابلة والد سعادتك وشهدت وطنيته في مناسبة عظيمة». وطفق يحكي له عن لقاء روزفلت. «أعاده الله لنا بالسلامة» ختم كلامه. بدا التأثير على الشاب الذي أمّن على حديث كوش الساحر بالنسبة له في إعجاب. ثم عرف كوش منهما أن اللجنة الأولمبية تعمل الآن على إعداد بعثتها الرياضية للمشاركة في أولمبياد برلين هذا الصيف.

انتشرت في مختلف الصحف أخبار استعدادات الرياضيين المصريين للمنافسة في أولمبياد برلين الوشيكة. تتطلع الأنظار نحو هذه البطولة، والتي قامت ألمانيا بعمل دعاية ضخمة لها تحت قيادة مرشدها الجديد هتلر -الذي تأسّى كوش بعد ذلك لمعرفة أنه ولد معه في ذات العام- والذي دعا العالم كله للقدوم إلى برلين لمشاهدة ألمانيا الجديدة والقوية، والمُحبة للسلام والتسامح والمنافسة الشريفة بين شباب الأمم، وذلك في محاولة منه لتقديم ألمانيا مختلفة يحتضنها العالم من جديد، وينهي فترة المقاطعة والخوف ويمحو ذكرى بلاده الذليلة بعد الحرب الكبرى. ذكرت الأخبار أيضًا أن الوفد المصري سيتألف من 53 رياضيًا، وتعد اللجنة الأولمبية

المصرية آمالاً كبرى على أبنائها في هذه السنة، على الرغم من أن الوعود الألمانية تقول بأن رياضييهم أبناء الجنس الآري لا يُقهرون. كل هذا وأكثر ذكرته الأخبار واستعرضه أمامهما كوش، ولم ينس أن يرمي لهم بأنه زار ألمانيا من قبل ويتحدث الألمانية بطلاقة. لم يكن صادقاً للغاية، فهو يتحدث الألمانية نعم، ولكن بطلاقة؟ ربما فاته بعض الممارسة والمراجعة في الأعوام الماضية، ولكنه يستطيع العودة لدفاتره وقاموسه على الفور.

لم يكن القرار التالي صعباً.

زيارته هذه المرة مختلفة عن زيارتيه السابقتين لإيطاليا وسفرته القصيرة لألمانيا ليستقل المنطاد مع مندوب الأهرام منذ بضع سنوات. كل شيء بدا أكبر وأكثر إثارة للرغبة. ما رآه كوش من نظام والتزام كان مبهزاً. لم يتمن كوش أن يرى مصر مثل بلد كما تمنى أن يراها مثل الإمبراطورية الألمانية العالمة. قبل مجيئه كان قد قرأ في الصحف كلاماً غير مريح عن هتلر وأفكاره، ولكنه لم يهتم كثيراً، فالرجل يبني بلده ويعمل على رفعة وطنه بعدما قادت إنجلترا خططها المعتادة لتحطيم شعبه. ولكنه أيضاً تذكر ريكاردو، ولم يكن هذا أمراً سهلاً نسيانه، ولو كان الألمان من فعلوا به ذلك، فإن الكراهية بين الأوروبيين والألمان مبررة لا شك. ولكن كل شيء تغير الآن، وباتت هذه بلداً أخرى، وشعباً ودوداً، يقابلونهم جميعاً بقمة اللطف. روح الإخاء بين جميع شعوب العالم تنضح من الشوارع التي امتلأت بآلاف الرياضيين والمشجعين من كافة أنحاء العالم، وتعززها المعاملة الراقية والحميمة من هؤلاء الألمان الأشداء.. حتى

إنه لم يجد أي علامة على اضطهاد لليهود كما كانت تشيع الصحف الأمريكية.. ولكن هل تتبدل أمة هكذا بين يومٍ وليلة؟ ربما يكون الألمان قوماً أطف من الإنجليز وأكثر تحضرًا ولذلك اصطدموا بالعالم الغربي المحتل! يكفيهم فخراً أنهم لم يحتلوا بلادًا في قارته على حد علم كوش، ولم يعاملوه أو يعاملوا وطنه بأي قدرٍ من الاستغلال. هل يتحقق حلم الإنسان الأوروبي الكامل في تلك البلاد؟ هل كل ما يقوله الإنجليز عنهم كذب؟ ولكن ماذا عن ريكاردو؟ ولكنه كان يحارب ألمانيًا غير النازيين.. وماذا عن الشابين اليهوديين اللذين فضلت اللجنة الأولمبية عدم ضمهما للبعثة احترامًا لحساسيات حكومة الرايخ؟ بدا الأمر أكثر تعقيدًا من أن يستوعبه كوش في رأسه، لذلك قرر ألا يفكر كثيرًا ويركز على عمله في رعاية هذا العدد الهائل من الرياضيين الأشداء. كانوا جميعًا كعادة الرياضيين كما عرفهم كوش صغارًا مفعمين بالصحة والحياة، مرحين، بسيطين التفكير، ومليئين بمشاعر مختلطة من الطموح والثقة والخوف.

ولكن لا شيء مما قابله كوش في حياته أعده لاستيعاب ما رآه حين دخل استاد الكبير يوم الافتتاح.. امتلأ بمئات الآلاف من الجماهير الهادرة.. عزفت الموسيقى الصاخبة بأوركسترا ضخمة يقودها مؤلف ألماني شهير عند دخول هتلر.. تحرك الرياضيون الألمان والوفود المشاركة في تشكيلات مبهرة، ثم دخلت الشعلة الأولمبية التي حملها آخر الراكضين وحده إلى داخل الاستاد (أبهرت الفكرة كوش، أكثر من ثلاثة آلاف شخص حملوا الشعلة من جبال أولمبيا اليونانية؛ ركض كل واحدٍ منهم كيلومترًا ثم سلمها للذي يليه.. تقليد لم يشهد العالم مثله من قبل) وتم وضع الشعلة فوق عمود

طويل لتصبح رمزًا للضياء الذي سيحمله الآريون إلى العالم.

في اليوم الخامس رافق كوش شابًا كانت تُعقد عليه آمال كثيرة. وقف منتظرًا إياه بالفوطة بينما كان يترب يديه ببودة تلك. دخل ورفع أثقالاً رهيبة. ذهل الجمهور الغفير وانطلق من بين أيديهم التصفيق الهادر. ثَوَّج الشاب المصري بأول ذهبية في البطولة، واستدعوه ليصعد إلى المنصة ويسلم على المستشار الألماني الذي يجلس بين الحاضرين وأرسل في طلبه. جذب خضر كوش من يده في حركة مفاجئة. بدا مذعورًا بسنوات عمره التسعة عشر وفي حاجة لأب يحميه في ذلك الموقف الجلل. «تعال معي لترجم». صعد كوش وراءه حتى وصلا أمام القائد الذي قام وغليونه في فمه وسلم على خضر بحماس شديد. لحسن الحظ كان هناك مترجم كزّر كلام الزعيم لخضر بالإنجليزية: «لك أن تفخر بما حققته أيها الشاب. كنت أتمنى أن تكون ألمانيًا، ورجاءً اعتبر ألمانيا وطنك في أي وقت». وبعد أن الثقتت الصورة، بدأ خضر وكوش بالمغادرة، وبينما ينظر كوش نحو هتلر بفضول وهو يمر من أمامه، بادله الأخير النظر باشمئزاز شديد، وقال لمجاوره وعيناه مبيتان عليه: «Was macht dieser hässliche Affe hier?». توقف كوش بغتةً، انفجرت آلاف الأصوات الصاخبة بداخله. عاد خطوتين للوراء ونظر للزعيم ذي الشارب المضحك الذي يبدو وكأنه استعاره من شخصية شابلن الشهيرة، وتكلم بعينين جاحظتين وصوت هادر فاق هدير الجمهور الغفير الذي يحيط بهما: «Ich bin kein Affe! Ich besitze siebentausend Jahre an Bedeutung!». ذهل

هتلر، وقبل أن يقول شيئًا كان غريمه قد نزل بتؤدة في إثر الشاب الصغير الفرّح بميداليته الذهبية، أما النوبي الكهل الذي استوعب عقله آلاف الصفحات، وبينما ينزل تلك الدرجات ويجول بناظره في آلاف المشجعين، فقد عرف أن ذلك الوهم الساذج الذي داهمه بأن هذه أمة متسامحة ومتحضرة قد تحطم إلى الأبد، وبات كذبة لا تقل مرارة وسخرية عن كذبة الإنجليز الكريهين.

قبل مغادرة البعثة، أقام لهم السفير المصري مأدبة عشاء كبيرة. عرض كوش معاونة خدم السفارة وعكف في نشاط مذهل مقارنة بسنه على تقديم خدمات السفارة للوفد الضخم. يعرف تمامًا ما يحتاجون إلى أكله، ويضع لهم الطعام بالمقدار الذي درّبه عليه القائمون على البعثة الرياضية، ويتفاهم مع الطباخ بسلاسة تامة.

فجأة قطع الحفل الصاحب الذي لم يستطع الرياضيون أن يسيطروا على أنفسهم فيه وصول وفد من الرجال بالأردية العسكرية القاتمة. حل الصمت فجأة بينما يسيطر عسكريون بوجوه صارمة على القاعة في لحظات. قام السفير دون أن تغادره ابتسامته ليستقبل الضيف الذي أرسل جنوده وضباطه ليؤمنوا له دخولًا مسرحيًا إلى القاعة. حين رآه كوش عرفه على الفور، ولم تفلح البذلة المشدودة ولا الهالة الكاذبة من حوله أن تنسي كوش هاتين العينين الزجاجيتين والشفاه المزمومة، وحتى وإن نسي فإن معدته لم تنس.. وانطلقت نوبة الفساء عبر طريقها الذي تعرفه جيدًا.

دخل رودولف هس إلى القاعة وسلم على السفير بحميمية، ثم جلس إلى الطاولة ووجه كلامه إلى كافة الحاضرين بلهجته المصرية التي لا تشوبها شائبة أوروبية: «مرحبًا بكم في وطنكم الثاني. راثحتكم تذكركم بمزارع ميت غمر، وصياحكم يعيدني إلى أسعد أيام حياتي. وقريبًا سأحقق حلمي ونطرد معًا المحتلين ونصير جميعًا إخوة!».

صَفَّق الجميع مؤمنين على كلامه وهم ينظرون نحو السفير في ارتباك، والذي كان يدعو في سره ألا يخرج أي من هذا الكلام عن القاعة ويصل إلى مسامع الإنجليز. برفقة هس كانت فتاة شقراء صارخة الجمال والإثارة أذابت قلوب الشباب الرياضي وأشعلت الدماء في عروقهم. وكأنها تعرف هدفها جيدًا، توجهت فور دخولها نحو خضر التوني وجلست بجواره.

وأبى كوش، الذي كان لا يزال منتشيًا من رده المفحم على هتلر، والذي رأى فيه انتقامًا مزدوجًا من ذلك المتفطرس وصديقه موسولينى الذي ظنه عبدًا منذ عقد مضى، أن يودّع هس دون أن يترك له شيئًا يذكره، فدخل مسرعًا إلى المطبخ وطلب من الطباخ إعداد طبق مصري للضيف الجديد على وجه السرعة. استلّ زجاجتي زيت الخروع والشربة الإنجليزي من فوق الرف وخلطهما جيدًا بالطعام وهو في الرواق، ثم وضعه أمام الضابط الذي لم يُعَنَّ بالنظر نحوه، وبدأ في التهام أكله بحماس.

بعد العشاء، وبينما يحتسي كأسًا من النبيذ وسيجارة ويتبادل الحديث المغلف بالنفاق مع خضر التوني الذي التصقت به الفتاة، محاولًا إقناعه أن ينضم إلى المنتخب الألماني والتمتع بالجنسية

الأوروبية وكل ما يصحبها من مميزات، شعر هس بما لم يستطع أن يخفيه وجهه.. راقبه كوش بينما يهرع نحو الحمام فتبعه ووقف على الباب ممسكًا بفوطة نظيفة عطرها بالكولونيا وهو يستمع إلى تقيؤ الرجل الرهيب الذي يصل صوٹ معاناته من الداخل. حين خرج متعرقًا وعلى وجهه أمارات الموت الوشيك ابتسم له كوش ابتسامة واسعة وحذثه بألمانية تدرب عليها جيدًا: «يبدو أن طعامنا الشعبي لم يعد يناسب معدة حضرتك».

حين عاد كوش مع البعثة واستأنف مهامه في الجزيرة بالاس، كانت مصر قد اتخذت خطوة جديدة نحو استقلالها البطيء، وجد البلد في حالة من الغليان والصراع المغلف بالفرحة لتوقيع النحاس على معاهدة جديدة مع الإنجليز تقلص وجودهم في مصر وتحصره بشكل رئيسي في قناة السويس، وتكفل لها سياسة خارجية مستقلة، وتحفظ تواجدها في السودان، وترفع بعضًا من الوصاية الإنجليزية عنها.

على الرغم من أنها قد شقيت معاهدة الاستقلال، إلا أن كخيرين لم يروها كذلك. تساءل كوش وهو يرقد في غرفته بعد سفره طويـلة؛ ماذا كان سعد ليقول في تلك المعاهدة؟

شهد هذا العام الحافل أيضًا رحيل ملك مكروه ومجيء آخر. مات الملك الذي كان سلطانًا يومًا ما ولم يحظ باحترامه أبدًا، لتقع البلاد في حسبة معقدة لأن الأمير كان تحت السن المطلوبة، وتفتق ذهن أحدهم أن يتم احتساب ميلاده بالأشهر الهجرية، فأصبح انتظاره

لتولي الفلك قصيرًا، وباتت مصر الأضحوكة تحت إمرة شاب في السابعة عشرة، وهو ما أشعر كوش بمزيد من عدم الأمان والضبابية نحو المستقبل، وخاف أن يموت مثل سعد وخاله وخولي قبل أن يرى مصر مستقلة..

قام بخطى متعاقلة وارتدى رداء المناسبات الخاصة. توجه إلى بيت الأمة في زيارة أخيرة يستعيد بها الأيام الخوالي، ووقف في خشوع كبير وسط الجموع التي حضرت احتفال نقل رفات الزعيم من مقابر الإمام الشافعي إلى مستقرها الأخير بضريح بيت الأمة الجديد.

الفصل التاسع عشر

القلب يتفجر من جديد

(1937)

بعد مرور عام على عودته من ألمانيا، جاء يوم استقبال أحد الوفود الجديدة بالفندق، فكان هو الزلزال الجديد الذي أصاب كوش بغتة دون هوادة.

ما إن نزلت من السيارة حتى عرفها على الفور. باتت أكبر سنًا بالطبع، وامتلاً جسدها فاتخذ هيئة الأمومة المحببة. تهدلت بشرتها حتى استطال وجهها واتسع ففها عما يذكره. شعرها في هيجانه المجنون كما هو ولكنه أقل كثافة عما كان، ورغم أنه مغطى بقبعة من القطيفة تماثل لون إزارها الوردي الفاتح، فإنه كان يعرف كل شعرة منه تمامًا. كانت، ولا تزال بالطبع، تصغره بعام، وها قد كبرا معًا ودخلا الكهولة سويًا. هو في القاهرة وهي في لندن وبغداد، والله يعلم أي بلاد أخرى طافت بها. يداها البيضاوان باتت أظافرها مقصوصة وأصابعهما أكثر امتلاءً وأكثر استدارة. تلك الأصابع التي كتبت حروفًا أمام ناظريه تحولت إلى طاقة من نور المعرفة، ثم كتبت المزيد فتحولت إلى صفحات نُسخَت في مئات الآلاف من الأيدي حول العالم. كانت أجاثا. وكانت اليوم الكاتبة الكبيرة والشهيرة، وكان هو لا يزال كوش كو الذي أحبها وهما بعدُ يافعان.

اتسعت ابتسامته المقابلة لابتسامتها الشقية الشهيرة، والتي كان الأول في مصر الذي عرفها قبل أن يتبعها العالم عبر صفحات

الجرائد، ولكنّ ابتسامته اختلفت عن تلك المجاملة التي ارتسمت على وجهها. في لحظات كانت الثلاثين عامًا الماضية وكأنها تلاشت في سواد ليل البارحة، ودقّ قلبه كما دق يوم كانت تعلمه أشعار تشوسر ويحدّثها هو عن إخوان الصفا. تخلص كوش بحلول ذلك الحين من كثير من سذاجته، فلم ينتظر باندفاعه القديم أن تعرفه فور أن تقع عينها عليه، بل وسعد بمراقبتها وهي تتصرف معه بطاقتها التي لم تتغير وتطلق فكاهاتها المعتادة مع مدير الفندق من بني جنسها بينما تحني رأسها لكوش باحترام.

أشار مدير الفندق بفخر نحو كوش الذي كان يشير في صرامة لحامل الحقائب أن يفرغ السيارة التي حملت السيدة أجاثا كريستي وزوجها الأثري، وقال بفخر: «سيقوم على خدمتكم طاقم فندقنا الذي يقوده السيد كوش كو الخادم الأكبر والأشهر في مصر، والذي خدم في أهم البيوت المصرية والإنجليزية خلال العشرين عامًا الأخيرة، أرجوكم لا تترددا في طلب أي مساعدة منه شخصيًا، فهو يجيد الإنجليزية نفس إجادته للعربية، وسيكون سعيدًا بخدمة ملكة الجريمة لاشك، فهو من أكبر قرائك!».

فتحت أجاثا فمها في زهول، وقرأ كوش في عينيها أنها تعرفه الآن وتستكشف كل تفصيلة فيه لتتأكد من أن ذاكرتها لا تخونها. ولكنها لم تفصح عن شيء بذكائها الشقي المعهود: «هل حقًا تجيد الإنجليزية؟ لا بد أنك حظيت بمعلم جيد!». اتسعت ابتسامته أكثر فأكثر: «لن تتخيل سيدتي، كنث محظوظًا بتلقي المعرفة على يد الأفضل على الإطلاق». ثم فاجأته أجاثا، وفاجأت زوجها الذي تعمد كوش أن يتناسى وجوده حتى اللحظة، بل وصدمت مدير الفندق

البدین نفسه، واحتضنت كوش بحرارة صادقة أصابت كافة الواقفین بالذهول من تلك السيدة الإنجلیزیه التي تحتضن كبر خدّم فندق الجزیره بالاس، والذي عرفته فی حیاة أخرى وهو مساعد سفرجی یافع كان مقبلاً على الحیاة بانطلاقة طائر یتعلّم الطیران ولا یسعه الانتظار حتی یحلّق فی سماء الدنیا. «الآن أشعر بأنی عجون والغیره تأكل قلبی، وكأنی أنا وحدی التي كبرت!» قالت له وهي تبعد عنه وتطالعه بإعجاب بینما لا تزال ممسكةً بكتفیه، ثم التفتت لزوجها: «ماكس، هذا هو الشاب النابه الذي حكيث لك عنه.. الذي التقيته يوم أن أتیت إلى هنا فی حفل خروجی. هل تصدّق كم هو عالم صغیر!» مذ الزوج بالغ التهذیب والتواضع -والذي لاحظ كوش أنه شاب یصغر أجاثا بكثیر- یده بحماس وسلّم على كوش بقبضة حديدية صادقة: «تشرفت بلقائك مستر كوشكو، حكّت عنك أجاثا من قبل، ولكنی متشوق لمعرفة الكثير!» بینما التفت مدیر الفندق لمدیر خدمه ونظر له بإعجاب: «إنك لملیء بالمفاجآت یا كوش.. لم تأت سمعك من فراغ!».

راقب كافة العاملين تحت إمرة كوش المشهد من داخل الفندق بإعجاب مذهول، وحين رافق الزوجین إلى الداخل تعلقت بهم الأعین وهو یشرح لهم مختلف خدمات الفندق. تبادل الشبان الصغار النظر فیما بینهم بانبهار شدید: أصبح مدیرهم فی ذلك الیوم قدوة لهم، ونموذجاً لما یمكن أن یصبحوا علیه إن هم أخلصوا للخدمة بذات الالتزام. القصص التي ثحکى عنه مع كبار الحکام والباشوات باتت أسطورية وتسبقه إلى كل مكان، وتناولها بعضهم بتهكم. «فی النهاية نحن خدّم، ولن نكون أبداً أكثر من ذلك» قال شاب صعیدي

متمرد حين سمع زملاءه يتحدثون عن رئيس الخدم. «مهما كان فقد عاش خادماً وسيموت كذلك، مثلنا كلنا، لا أكثر ولا أقل». ولكن في تلك اللحظة التي شاهدوا فيها كيف يتعامل السادة معه بتلك الحميمية، والأخطر: المساواة، عرفوا جميعاً أن زميلهم الحائق كان مخطئاً. حتى في سترته الزرقاء المطرزة بخيوط الذهب وطربوشه النبيذي وحزامه الكحلي المؤطر وبشرته السمراء وأسنانه الناصعة، كان كوش لا يزال أكثر من مجرد خادم للبيض، كان تاريخاً يسير على قدمين.

توالت الأيام بسرعة. يسرد برنامج الرحلة أن تقضي أجاتا وزوجها ثلاثة أيام فقط في الفندق، ثم يستقلان الباخرة «سودان» التي ستنقلهما عبر النيل إلى الأقصر وأسوان. في أيامها القليلة بالقاهرة زارت الأهرامات والثققت لها صورة باتت شهيرة بعد ذلك. ثم تجولت في أحياء مصر القديمة. رافقها كوش في كل خطوة. وعلى الرغم من أن فرص الحديث المنفرد لم تثج لهما كثيراً، إلا أنه استطاع أن يخبرها عن رأيه في كل رواية قرأها لها حتى الآن، كما استرجعا ذكرياتهما معاً، وحكى لها في خجل عن الثورة وما فعله بها، لم يحك بالطبع عن قتله للجندي الإنجليزي، ولكنه خاف أن يجرح كلامه عن ثورته ضد أهل بلدها شعورَها، فمرّ سريعاً على ذلك الموضوع، ثم حكى لها بانبهار عن هدى شعراوي ورحلته لروما ولقائه موسولينى -الذي بات سيئ السمعة الآن كما تنبأ كوش بعد هجومه على أثيوبيا- وهتلر الكريه، كما حكى لها عن أصدقائه محسن وطه ونجيب. أخبرها بعض محطات حياته، ولكن الأهم أنه أخبرها بكل الكتب العظيمة التي قرأها والتي يعود إليها الفضل

في قدرته على الاطلاع عليها. في كل مرة كان يتكلم كان يفاجئ نفسه قبل أن يفاجئها بسعة اطلاعه، وتنوع خبراته، وتعدد معارفه. حكى لها في إجلال جلب الدموع إلى عينيه عن سعد باشا وكيف ألهمه لمواصلة مسيرته في الحياة، كما حكى لها أنه عاش قصة قد ثلهم إحدى رواياتها، وهي قصة لم تصدق أجاتا أنها حدثت على أرض مصر المسالمة: «حتى أنتم لديكم قتلة بهذه القساوة! وامرأتان أيضًا!» قالت بينما عيناها تزدادان اتساعًا وانبهارًا. ستعود أجاتا إلى بلدها وفي جعبتها نتاج إلهام قصص كوش والوقت الذي قضته في مصر، ولكنها لن تكتب عن أختين تقتلان السيدات لسرقة ذهبهن، بل عن شيء أكثر إجلالًا وإعزازًا للبلاد التي هزت كيائها: مسرحيتها التاريخية الوحيدة التي تدور حول الملك الموحد أختاتون، إلى جانب رواية تدور أحداثها فوق باخرة نيلية، وأخرى -روايتها التاريخية الوحيدة أيضًا- ستصدر بعد سنوات عن جريمة قتل تقع منذ ألفي عام قبل الميلاد.

الغرض الرئيسي من الزيارة هو أن يلتقي ماكس مالوان الذي قضى حياته المهنية حتى الآن منقَّبًا ومتخصصًا في الآثار الأشرورية بالمغامر والمستكشف كارتر الذي بات ملكًا متوجًا على علم الآثار في بلاد العالم قاطبةً باكتشافه لمقبرة الملك الصغير توت منذ عدة سنوات. يقضي كارتر شتاءه في أسوان، وبعد مراسلات عديدة وافق أن يمنح من وقته الذي بات مشغولًا بلقاءات الصحفيين بضع ساعات يجلس فيها مع ماكس الفضولي ليحكي له عن تجربته في اكتشاف أعظم مقبرة في التاريخ.

انخلع قلب كوش حين شعر بقرب مغادرتها بهذه السرعة. في

يومها الأخير عرض عليها أن تزور الشقة التي اشتراها في البيت الذي سكنته يومًا عائلة محسن بالسيدة زينب كي يريها مجموعة كتبه ومجلاته. رافقته عن طيب خاطر ولم تنفك تبدي إعجابها بالشوارع والحواري المصرية الأصيلة، وأصرت على شراء رداء للرأس تغطي به شعرها لتدخل مسجد السيدة زينب وتراقب الصلاة من بعيد. «إنها تشبه كثيرًا تلك التي يصلونها في العراق» همست لكوش الذي كان يشعر بالخجل لعدم انضمامه للصلاة ووقوفه رفقة سيدة أجنبية تجبر طاقتها المتفجرة العيون على أن تتعلق بها، حتى بعد أن قاربت الخمسين وذهب عنها كل جمال الطفولة، ولكنها في عينيه كانت أجمل نساء العالم. أثناء وقوفهما هناك في صمت الصلاة أدرك كوش وهو يطالعها في تبلي صامت أنهما قد كبرا معًا، وعبرا أتون الحياة الواسع سويًا حتى لو افترقا، وأنها وإن ابتعدت بجسدها فإنها لم تفارقه يومًا.

أرادت الدموع أن تقفز إلى مقلتيه ولكنه كتمها في حلقه. بقدر ما كان قريبًا منها الآن بقدر ما كانا بعيدين. وكأن اللقاء بعد كل تلك السنوات البعيدة لم يأخذ شيئًا من الهالة التي خلقها حولها وعظمها كل تلك السنوات، والتي اتسعت كل يوم وفي كل مرة يقرأ فيها كتبها. لقد خلقت الكتب تواصلًا بينهما لم ينقطع أبدًا؛ تواصلًا بدأ من الكتب التي علمته قراءتها في شرفة شبرد وانتهت بالكتب التي تكتبها هي. ازدادت الكتب قداسةً في نظره في ذلك حين، وأدرك كم كان دورها عظيمًا في حياته ربما أكبر مما أدرك يومًا.

عندما عادا إلى الفندق توجه من فوره إلى مكتب المدير، وبسلطة سنوات خدمته الطويلة في القطر المصري أخبره دونما استئذان

بأنه سيرافق الكاتبة الشهيرة وزوجها إلى أسوان فيما يمكنه اعتباره مهمته الخاصة التي لا تخص الفندق في شيء، ولم يكن للمدير المسكين الخيار في أن يقبل أو يرفض.

في صبيحة اليوم التالي استقلوا الباخرة الملكية العريقة التي تبلغ من العمر اثنين وخمسين عامًا. بكبائها التي تربو على العشرين وأجنحة الإقامة الفاخرة المصممة على طراز البيل إيبوك بزخارفه المبالغ، بدت الباخرة سودان تحفة فنية من الفخامة تسير على صفحة النيل الهادئ. تواضع كوش وقرر خدمتهما طوال الرحلة، ولكن كونهما من أرقى البيض الذين قابلهم في حياته، فقد أصرا على اعتباره صديقًا يصطحبانه معهما في رحلتهما النيلية. استمتعوا ثلاثتهم بالطعام الفاخر والحديث من القلب. أعجب كوش بعذوبة مالوان الصغير، رغم أنه زوج المرأة التي أحبها، ولكنه منذ زمن بعيد تصالح مع فكرة أن أجاثا قد باتت مرضًا لا يريد الشفاء منه، وبالتالي لم يشعر بالنفور تجاهه، خاصة أن ثلاثتهم قد زال عنهم عنفوان الشباب وباتت الرفقة الطيبة هي سر ختام الحياة، واطمأن كوش إلى أن السيد مالوان هو خير رفيق يرعى سيدته الجميلة ويمنحها السعادة بعد زوج كرهه تسبب في هروبها واختفائها لأيام في حادثة شهيرة تناقلتها الصحف وقتها -رفضت أجاثا أن تحدثه عنها حين سألها. أذهله ماكس بقصصه عن العراق وحضارتها التي لم يكن كوش يعرف عنها شيئًا، وأذهله أكثر بمعرفته الواسعة بحضارة كوش القديمة، وبمكانة النوبيين في عصور الفراعنة المتأخرة، حتى إنهم حكموا مصر كلها وكوّنوا الأسرة الخامسة والعشرين من حكام وادي

النيل، وصمود ثقافتهم التي ربطت عن حق مصر بالسودان وكانت حلقة الوصل بينهما والرقعة المشتركة التي على حد قوله «مدت ذراعًا هنا وذراعًا هناك وأبقت على كلا البلدين مترابطين». بالطبع لم يدرك كوش دلالة ما قاله المنقب الأثري الذي ربما أصابته غيرة صبيانية (عرف كوش بعد ذلك سئمه.. اثنين وثلاثين عامًا فقط!): «شيء مؤسف أن يلخص المصريون أبناء عموماتهم من النوبة في قطاعات الخدمة والحراسة معتمدين على وفائهم وسهولة انقيادهم، مبقيين إياهم في دائرة من الجهل وقلة الطموح». لترد عليه أجاثا في قناعة بريئة: «ربما كان ذلك بسبب انعزالهم البعيد في أعالي النيل ولون بشرتهم الداكن ولغتهم المختلفة عن بقية المصريين. أيًا يكن الأمر يا ماكس فما أنا موقنة منه أنه إذا كان الحاضر ملكًا لنا فالماضي لا شك يملكه هؤلاء العظماء في الشرق». تابع كوش حديثهما بصمت وكأنهما يتكلمان عن فصيل آخر من البشر لا يمت له بصلة.

قبل الوصول إلى أسوان توقفت الباخرة على شاطئ قنا لتقل المسافرين الذين يزورون معبد دندرة، وعند تمتعهم بشاي الساعة الخامسة فوق ظهر الباخرة مطالعين انعكاس أشعة الشمس الآفلة على صفحة النيل، وبينما سقطت أجاثا في إحدى نوبات صمتها الطويلة التي تدهمها بين الحين والآخر، والتي شرح ماكس لكوش أنها تعني أنها تفكر في إحدى حبات رواياتها ولا تجدر مقاطعتها تحت أي ظرف، قطع جلستهم الهادئة صوت ثقيل: «ماكس، أهذا أنت؟» التفت ثلاثتهم ليروا سيدًا طويلًا بشارب قصير وعينين

خضراوين ثاقبتين يقلب نظره بين ماكس وكوش في اشمئزاز. لأول وهلة شعر كوش بعدم ارتياح رهيب تجاه الرجل الذي قام ماكس لتحيته بحمايس شديد: «يا إلهي.. كولونيل برادفورد، كيف حالك! ما هذه المصادفة الحسنة؟». سلم عليه بحرارة ودعاه للجلوس. قبل الكولونيل يد أجاثا قبل أن يجلس. «الكولونيل برادفورد عسكري مشهود له بالنشاط تعرفت عليه في البصرة منذ بضعة أعوام». جلس الرجل الذي بدا أن الابتسامة لم تعرف وجهه يومًا وعيناه معلقتان بكوش في تساؤل. تطوعت أجاثا وأطفأت فضوله الحارق: «هذا هو كوش كو، صديق قديم لي ومرافق لنا في رحلتنا». أحنى كوش رأسه قليلًا للكولونيل في حذر، بينما لم يبدِ الكولونيل أي حركة، ولكنه تمتع من بين أسنانه «عجيب» وهو ينظر نحو صفحة النيل. بسرعة بدأ الحوار ينتقل بين ثلاثتهم دون أن يشارك فيه كوش. «ألا تحكي لنا بعضًا من مسيرتك الغنية يا سيادة الكولونيل؟» سأل ماكس. أسهب الرجل المتجهم في الحديث عن سنوات شبابه ودراسته ثم الخدمة في أرجاء الإمبراطورية. «بعد الحرب خدمت في مصر لفترة قصيرة، وفي إثر عصيان عام 19 الذي اضطررنا فيه إلى سحقهم كالجراد اللعين انتقلت إلى السودان، والتي لا تقل همجيةً وتخلّفًا عن هذه البلاد إن كنت لا تعلم، ومنها عدت للهند موطن خدمتي الأصلي، وبعد أن أرهقتني خدمة التاج وسط الهمج الوحشيين طوال تلك السنوات قررت التقاعد وأنا لا أزال أتمتع ببعض صحتي، وأمتع نظري بأرجاء الإمبراطورية قبل أن أعود لأستقر في منزل العائلة في ساري». يتكلم الكولونيل بأريحية تامة غير مراعية تمامًا لوجود كوش الذي لا شك يقع في زمرة الهمج الوحشيين الذين كانوا جزءًا مما سماه بالعصيان. واصل كوش

شعوره بعدم الارتياح الذي سرعان ما انتقل إلى معدته في إشارة مخيفة إلى أن إحدى نوبات الفساء على وشك أن تزوره، وهذه المرة في أعنف صورها، وهو ما لم يكن كوش ليسمح به في وجود سيده الجميلة وهذا الرجل العدواني الذي لاشك سيجد متعة خالصة في انتقاد همجية معدته.

استأذن كوش وقام بسرعة مبتعدًا ليطلق العنان لريحه يختلط بهواء النيل العليل بعيدًا عن الطاولة. ما إن قام حتى مال الكولونيل إلى الأمام وتكلم بحدّة: «ماذا تفعلان بحق الجحيم بتناولكما الشاي مع خادم زنجي؟ هذه البلاد لا تزال تحت إمرتنا إن كنتما قد نسيتما». قطب ماكس حاجبيه ثم نظر إلى أجاثا التي بدت مستعدة لإطلاق لسانها الحراق. «نحن لا نفكر بهذه الطريقة أبدًا. دراستي للآثار علّمتني احترام أصحاب الحضارات القديمة وأظن أجاثا تشاطرنى الرأي». اختتم كلامه بابتسامة هادئة في وجه الكولونيل الذي لم يرفع عينيه عن كوش حتى وهو يقف مبتعدًا يطالع النيل. في ذات الوقت يختلس كوش النظر ناحيته في توتر. يشعر أنه مراقب بشكل لا يبعث على الارتياح.

استجمع شجاعته محتميًا بشعوره الفطري بالكرامة وحماية صديقيه وجلس إلى الطاولة مرة أخرى. «أخبرني، ألم نلتقي من قبل؟» قال الكولونيل لكوش الذي لم يحد بنظره عنه. «لا أظن كان لي الشرف» قال كوش باقتضاب. رفع الكولونيل حاجبيه وهو يتلقى حروف كوش الإنجليزية السليمة وكأنه يتلقى طلقات رصاص إلى صدره. «لدينا همجي حسن التربية هنا!» قال بابتسامة صفراء. وهنا وقفت أجاثا في حزم: «حسنًا يا سيادة الكولونيل، أظن أننا يجب

أن نستأذن لنتراح قليلاً، فالجو بات معبأً بالرطوبة الثقيلة فجأة، ولا أخفيك سرّاً، الهمجية مفهوم واسع يحتاج منك إلى بعض المراجعة إن كنت تقبل نصيحتي». وغادرت قبل أن يرد الكولونيل الذي وإن كان جلده ثخيناً فقد بدا مشغولاً بتفحص كوش وملاحقته ككلب مسعور. «ألم تخدم في الجيش تحت إمرتي؟ هنا أو في السودان؟» وقف كوش بدوره واعتذر للسيد مالوان وابتعد بينما تلاحقه كلمة هزت كيانه وأرعشت مفاصل ركبتيه وأسقطت قلبه في قاع النهر الطيب: «سألتقيك مرةً أخرى يا ولد». وبقدرة إلهية لم يلتفت كوش أو يعطي ردة فعلٍ لما سمعه. لقد عرف الآن لماذا يشبه عليه الكولونيل، ولماذا لم يرتح هو لمرآه لأول وهلة. عرف كوش من هو الكولونيل، والسؤال الآن الذي يحرق فؤاده: كم من الوقت يمر قبل أن يعرف الكولونيل من هو كوش؟

مضت الأيام التالية على الباخرة في سلام نسبي، ولكن كوش صار كمن أصابته الحمى. بدا مختلفاً وقليل الكلام، وحاولت أجاثا أن تواسيه ظناً منها أنه يعاني بسبب إهانات الكولونيل المستفزة، ولكنه لم يجرؤ على إخبارها بالحقيقة. فوق المركب في عرض النيل شعر بأنه محبوس في مصيدة لا يمكنه الفكك منها. لحسن حظه أن السيد ماكس قد نفر من الرجل ولم يدعّه للجلوس معهم أبداً مرةً أخرى، مكتفياً بابتسامة متكلفة كلما التقيا بصالة الطعام أو في أروقة الباخرة أو أثناء التدخين على السطح. انشغل كوش قليلاً بالاستماع إلى أجاثا وهي تحدثه عن الروابط التي وجدتتها بين التنقيب عن الآثار وكتابة روايات الجريمة: «كلاهما يحملان شغفاً بالأحجيات

وعشق جنائزية الموت»، كما شاركها الاستعداد للرواية الجديدة التي بدأت فكرتها تداعبها خلال هذه الرحلة عبر ممارسة لعبتها المفضلة في مراقبة المسافرين واختلاق القصص حولهم. «أترى تلك السيدة هناك وهي تطعم زوجها؟ إنَّ ضحكتها فيها شيء كبير من الخبث ونظراتها تحمل عدم رضا عن حياتها معه، لا تستبعد أن تقتله يومًا بسم الزرنيخ». أو «هذا الولد الصغير لا يشبه الأم أو الأب، أنظر أنفه المعقوف، إنه مُتبئى لا شك في ذلك. ترى ما السر وراءه؟ أ يكون ابنًا غير شرعي من علاقة سرية لأحدهما؟». وهكذا ظلت تكرر عشرات الملاحظات التي حاول كوش مجاراتها فيها ولكنه فشل، بينما واصلت هي إبداء التعليقات الشريرة والسيناريوهات الخبيثة حول كل من على المركب تمامًا كما يفعل محققها بوارو ومثيلته العجوز السيدة ماربل التي لم يحبذها كوش كثيرًا.

رغم كل ذلك الوقت الساحر الذي قضاه معها، شيء ما يقلق راحته. شعوره بأنه ملاحق ومطارد. الماضي، كما تجسد في صورة أجاثا ليجبر بخاطره، عاد أيضًا ليقلق راحته في نفس اللحظة، وكأنه استكرر عليه تلك السعادة المؤقتة في جوارها، وأراد أن يسلب منه تلك اللحظات القليلة التي سرقها لنفسه من الزمن بعد أن قضى عمراً في خدمة وطنه وإسعاد سادته. الآن يعود الماضي ليخيفه، ويجبره على أن يواجه نفسه التي تركها على أعتاب الثورة مخضبةً بدماء خاله وصديقه والجوني الحزين. أ طال النظر نحو أجاثا وهي تتكلم بحماس بعينين حزينتين، وهو يعلم أن الوقت المتبقي لهما مقابلات أقصر مما كان يتوقع.

ليلة وصول الباخرة إلى أسوان، وقبل أن ترسو على ضفتها، كان كوش يجفف يديه في دورة مياه مطعم الباخرة حينما شعر بفوهة مسدس باردة تخترق رقبتة من الخلف، أعقبته رائحة كحول كريهة مخلوطة بأنفاس السيجار: «كنت متأكدًا أنني رأيت هذا الوجه القبيح من قبل، أتظن أن حقيزًا مملوك قد يخدع سيدًا مثلي؟ ألم أخبرك يومها في الحسين أنني سأجذك يا ولد؟ هل تذكرني الآن؟». جذبته من ياقته ورمى به في عنف إلى باب إحدى كبائن المراحيض. اصطدم كوش النحيل ذو الثمانية والأربعين عامًا بالباب وسقط على الأرض، رفع رأسه ليجد عينيّن من الجحيم تطالعانه في كراهية قوامها مئات السنوات ترافقها تكة صمام الأمان: «هذه من أجل الجندي الذي حطمت وجهه يوم العصيان اللعين». أغلق كوش عينيه بعنف وقد انقطع نفّسه.

أتت صرخة مذعورة: «ماذا بحق الجحيم». فتح كوش عينيه فوجد رجلًا عجوزًا بباب الحمام ينظر في هلع ويتجه بسرعة نحو الكولونيل. دفعه كوش وركض إلى الخارج بكل قوته. ما إن عبر الباب حتى عاجلته رصاصة مرت بجانب أذنه وحطمت حلقة الباب. ركض في الرواق وبسرعة أعقبته الخطوات المحمومة لمطارده الذي كان يطلق اللعنات بنفس سرعة الرصاصات الطائشة. صعد السلم قفزًا قبل أن تصيبه رصاصة أخرى. «إلى أين ستهرب! نحن على سفينة وسط الماء أيها البربري!».

على السطح احتفى كوش وسط مئات الأجانب الذين تجمعوا لمشاهدة رسو السفينة إلى الشاطئ، اخترقهم بسرعة محمومة بينما انطلقت الصرخات لمراى الكولونيل المخمور مشهزًا مسدسه

ويشق الجمع الواقف. وبينما يركض الكولونيل اعترضته قدمٌ نسائية بصلاصة فوق على وجهه على الفور. رفع رأسه فوجد زوجة مالوان تنظر له بعينين يطق منهما الشرر. التفت أجاثا نحو كوش ثم هرعت وراءه بينما انقض ضباط السفينة على الكولونيل وجردوه من مسدسه. صرخ في هياج مخمور: «صديقكما اللعين قتل جنديًا إنجليزيًا يوم العصيان. أنا لا أنسى وجه أحد المتوحشين أبدًا». ثم أفلت من ممسكيه وهرع إلى حافة السطح وصرخ مناديًا مراكبية فندق كتاراكت الواقفين على الشاطئ: «أمسكوا به ما إن ينزل!». احتضنت أجاثا كوش بقوة وسارت به بعيدًا إلى الطرف الآخر من السطح. الطرف المواجه للماء. كان مقطوع النفس ولا يدري ماذا يقول لها أو ماذا ستفعل به. أما هي فواصلت احتضانه والتربت على رأسه في حنو بالغ.

فجأة اختل توازن الجميع بينما تقترب السفينة من الشاطئ استعدادًا للرسو. نظر لها بعينين دامعتين وفتح فمه دون أن يقول شيئًا، بادلته النظر وهزت رأسها مشجعةً وهي تعتصر كفه. نظر لها كأنه يودعها لآخر مرة في حياته.. وفي لمح البصر قفز من الباخرة إلى المياه المظلمة..

الفصل العشرون

العودة

(1938-1948)

في لحظات، استعاد جسده ذاكرة المياه منذ سنوات الطفولة. سبح بكل قوته في مياه النيل الباردة والعقيلة. لم يمهله الرعب مهلةً للتفكير في أن سنوات عمره العمانية والأربعين قد تخونه. سبح بينما تتناهى إلى سمعه أصوات الشهقات المرتعبة من سطح السفينة. تذكر خوفه القديم من تماسيح النيل الكسولة. دفع بذراعيه بينما تلاحقت أنفاسه حتى وصل إلى ضفة جزيرة أخرى. ارتقى على الأرض الصخرية وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه. رقد على الأرض وفوقه افترشت صفحة السماء نجومها المتناثرة فمنحته شعورًا أنيًا بالطمأنينة. نام على فوره.

مع أول شعاعٍ للشمس فتح عينيه فوجد مركبًا بمراكبي وحيد تتباطأ بينما ينظر نحوه بفضول. قام لفوره ونزل إليه ولم يقل سوى كلمة واحدة. «أبريم». أجابه المراكبي بالكنزية فابتسم كوش في خجل وإرهاق وأجاب بالعربية. نظر له المراكبي باستهجانٍ ممزوجٍ بالتعجب وأشاح بوجهه عنه دافعًا المجداف عبر الماء.

مرا ببوابة كلابشة بمجراها شديد التعرج، وقرأ الفاتحة بينما يمران بحجر السلامة، ثم طفق ينظر لجبال شاترمة والسنجاري التي غادرها منذ قرابة الأربعين عامًا مع خاله. قرب الوصول طالع الربوة

الرملية العالية وقلعة أغا إبريم، فوجدها لا تزال كما هي تطل في شموخها على النيل، ترقد في سفحها المقابر الفرعونية المخيفة التي أرعبته صغيرًا. حين وصل إلى الضفة داهمته مشاعر عدة وهو يطالع أشجار السنط المتناثرة فوقها. لم يدر هل وصل إلى النجع الصحيح أم لا. ثلاثون عامًا مرت منذ أتى إلى هنا آخر مرة.

ازدحمت الضفة بالمراكبية والأطفال والنسوة المعزيات في أرديتهن الجنائزية الذين طالعوه بفضول. قلما يرون وجهًا غريبًا لا يعرفونه، خاصة حين يكون وجهًا بهيئة تشبههم. صعد وهو يقلب عينيه في البيوت المتجاورة بطوبها اللبن وأسقفها المغطاة بالجريد. بضع نسوة يسرن ملتحفات بعباءاتهن السوداء. يتناهى إلى سمعه نداء الباعة والمارة وحديثهم الهادئ -مقارنةً بصخب القاهرة- بلغتهم التي بدأ كوش يستعيد بعضها بينما يسير. استوقف راكبًا لحمارٍ يحمل لفائف البصل وسأله عن بيوت عائلته.

أمام البيوت المتلاحمة خالقةً فيما بينها ساحةً مفرغة وقف كوش يطالع المارة. إنه هو. لا شك لديه. وجد دكةً جلس عليها رجل طاعن في السن يكاد يكون في عمر أبيه. ألقى عليه السلام فاعتدل العجوز ودعاه لتناول الطعام ثم سأله بالفديجية من يريد. تردد كوش للحظة ثم نطق اسم أكبر أخواته ومن تذكره من بقيتهن، تلاه باسم أبيه وأمه. نادى الرجل بصوتٍ عالٍ فأتى عدد من الرجال يستفهمون منه لماذا يسأل عن نسوة الدار. قبل أن يسوء الوضع وتحت وطأة الأعين الفضولية أخبرهم من هو، وأدركه لحظتها ندمٌ مباغت أنه قطع صلته بهنَّ طوال تلك السنوات. ليس صلة الأخوة والدم فقط، ولكن صلة

الوطن والمكان. تبادل الجمع الواقف النظرات في تشكك، وركض طفل صغير نحو الدار ليخبر جدته أن هناك كهلاً بالخارج يقول إنه أخوها.

جرى استقبال كوش في أجواء جمعت ما بين الشوق والاستغراب والاشتباه والتردد. لم يدر أحد كيف يبدي مشاعره تجاه هذا الرجل الغريب. عرفتة أخته على الفور على الرغم من ضياع نظرها. أجلسوه بحوش البيت الكبير محاطًا بعشرات الرجال والفتيات والأطفال. ثلاث من إخوته وأولادهن وأحفادهن وأزواجهن. وأولاد وأحفاد وأزواج الثلاث الأخريات اللاتي رحلن. صارت عائلته قبيلة صغيرة احتلت البيوت الثلاثة وما حولها. كلهم يسكنون سويًا في تعاضد أذهل كوش الذي حتى اللحظة ينظر لهم نظرة سائح غريب. وكأنه نسي الزمن وفعله وظن أنه سيعود ليجد أخواته كما تركهن، فتيات صغيرات وأكبرهن لا تزال عروسة تنتظر وليدها الأول. صرن جدات. عرف بعد التسليمات والتحيات، وهو يجاهد كي يفهم الكلام الذي تاه عنه معظمه، أن نصف أخواته رحلن تاركات جيوشًا صغيرة من الذرية وأقارب الأقارب ناحية الزوج. حكى لهم في خليط من العربية والفديجية التي بدأ يستعيدها بعضًا من حكاية سنوات الغياب، وعن الخال الذي لم تذكره سوى أخواته الثلاث: فاطمة وكوكة وهوشه، ومن بقي من أولاده الذين تزوج أحدهم إحدى أخوات كوش اللاتي رحلن.

ذبخوا الطيور وبدؤوا في إعداد وليمة تليق بالضيف القادم من بعيد. بينما تعد الحفيدات الأثر والسخنية والدشيش ويستقبل

الرجال غيرهم من الرجال الذين أتوا مهنيين بسلامة وصول الأخ الشارد. كانت الأخوات يربتن على وجه كوش وأكتافه في حنو بالغ. سامحته على غيابه واحتضنه في شوقٍ انتظر طويلاً. أخبرته بالخطابات التي ظللن يرسلنها لشبرد ويثسن من عدم وصول الرد حتى ظنوا أن مكروهاً أصابه، وبعد الثورة حين وصل أول المعارف من القاهرة أخبرهم بما حدث. ظللن يدعين له ويذكرن أنه واصل إرسال المال حتى بعد زواجهن وموت الخال، ولكنهن تمنين لو أنه قال شيئاً يطمئنهن أنه لا يزال يذكرهن. سكت كوش ولم يجب. أراد التحجج بحياته غير المستقرة وتنقله الدائم ولكنه شعر بالخجل فلم يحاول التبرير. لم يزل رحمهن حياً ينبض ولم يمت بالمغادرة كما تنبأ الخال.

أدرك كوش بعد بعض الوقت ومن أصوات الزغاريد والوجوه الفرحة به أن الجميع يتعامل معه على أنه عاد للإقامة والموت وسط أهله وليس في زيارة مؤقتة. لم يخبر أيًا منهم أنه أتى هاربًا من ضابط مجنون يريد قتله، ولا أنه ترك حب حياته مكروهاً ليرتمي في أحضانهم، وأن لا نية لديه -على الأقل نية واعية- بالبقاء هنا طويلاً.

لم يفكر كوش حين قفز إلى الماء أين سيذهب. فقط أراد الهروب. وظن حين نام على ضفة الجزيرة أنه سيعود أدراجه إلى القاهرة على الفور ويختبئ في زحامها. ولكنه أدرك في نومه، ربما بحلمٍ بأمه لا يذكر، أنه قريب من منشئه وأصله، وأن عودته لأسوان بعد كل تلك السنوات تعني أنه الآن بات في الجوار وليس لديه من خيار سوى أن يزور أهله. لا يدري حتى هذه اللحظة ما الذي أعاده إلى

هنا وهو الذي لم يفكر منذ أن دفن أمه وهو بعد في الخامسة عشرة أن يعود أو يواصل الاتصال بأهله سوى عبر خاله الذي ظل يرسل لهم الهدايا والمؤمن. وكأن الإلهة سأت قد طلبت رجوعه فلبى النداء دونما تفكير. لطالما ساقه القدر وقادته الدنيا إلى أبعد أركانها، وترك لها نفسه صاغراً لأنه أراد أن يستكشف العالم ويفهم مكانه فيه، وربما تكون هذه إحدى اللحظات التي يستجيب فيها لنداءات الدنيا ليستكشف مكاناً أقرب بكثير مما يدرك أو يظن.

داهمه التعب فجأة. أراد أن ينام وينسى كل شيء ولا يفكر. فقط ينام. ولكن وفود المهنئين بنظراتهم الفضولية ظلت تتزايد حتى بدا أنها لن تتوقف أبداً. فقط حين بدأت الشمس في الأفول بدا الجمع مستعداً للذهاب وترك الليل يخيم بهدوئه. دخل إلى البيت وتحمم وارتدى جلباب زوج هوشه وافترش أرض الغرفة التي أعدها له.

مرت الأيام سريعاً. قضاها كوش في التجول بأرجاء القرية، والتفكير فيما تحمله له الأيام والخطوة القادمة، والإجابة عن السؤال الوحيد الذي واصل إلحاحه من الجميع دونما خجل أو انقطاع: لماذا لم يتزوج حتى الآن؟ استقرّ على أن الاختباء بين أهله وذويه هو أفضل حماية له لأنه لا يعلم بالضبط ماذا ينتوي الكولونيل الكريه فعله. مع مرور الوقت ألف المكان، واللغة، والحرارة والابتسامات والروائح. ألف كل شيء. بنهاية أسبوعه الأول بدأ ينسى أنه غاب عن ذلك العالم طوال تلك العقود، ووجد نفسه يتصرف بأريحية كاملة. يسير بين الطرقات ويتبادل الحديث مع المراكبية والزراع والتجار وسقافي المنازل. زال عنه شعور الوحدة الذي يملكه، وشعر

أنه أقرب لخولي وخاله أكثر من أي وقت مضى، وأنه وجد شيئًا ظل يبحث عنه طوال حياته: العائلة. نسي عائلة محسن وأصدقاءه الذين تعلق بهم أكثر من مرة وخذلوه بغياهم. بالطبع يخرج المثقف الراقى بداخله بين حين وآخر، فيتعجب من فقر حياتهم والأطفال الحفاة ويشكو البعوض والطعام البسيط. تلك الخشونة كانت شيئًا لم يتعود عليه كوش كو ربيب الفنادق الفخمة، ولكنه مع مرور الوقت تخلص من نمط العيش ذاك عن طيب خاطر لأنه لأول مرة في حياته البالغة لم يعد وحده. دفء العائلة الضخمة التي وجدها وكأن الزمن توقف بها في انتظاره غمر كيانه كله، وظلت الثروة التي لا تنقطع من الرجال والنساء على السواء تريحه وتسعده بقدر ما أزعجته. لم يكن متعودًا على الحديث بكل هذه الاستمرارية والتدفق لكل ذلك الوقت، وفي موضوعات أبعد ما تكون عن اهتماماته المتقكرة. بالنسبة لشخص منطوي وقليل الكلام مثله بات ذلك كابوسًا سرعان ما تعود عليه. سمع مئات القصص عن أشخاص يظن الحكاؤون أنهم ذوو حيوية بالنسبة له. من تزوج ومن مات ومن سافر ابنها إلى ما وراء الخزان ومن يعمل الآن بالتجارة بالإسكندرية وفتح الله عليه. حكوا له عن معاناتهم بعدما أقامت الحكومة الخزان ثم قاموا بتعليته والأراضي التي غمرتها المياه والمحاصيل التي فسدت والذين رحلوا. سأله عن عشرات النوبيين الذين يعملون في الخدمة بالقاهرة أو يسكنون بولاق أبو العلا والذين لم يعرف كوش معظمهم. أدرك أن الحياة اليومية، بتواترات الميلاد وكسب الرزق والزواج والموت، هي جل ما يشغل هؤلاء دون أي تفكير في عالم أوسع من جزرهم المسالمة. ولذلك حين بدأ يحكي لهم عمّن هو، وأين راح وماذا رأى، أصاب أهل القرية جميعًا ما يشبه اللوثة، وبسرعة تناقلت

الألسنة قصص ابن العم الذي عاد بعد أن خدم رؤساء أمريكا وألمانيا وإيطاليا، ولعب الكرة في كأس العالم ونشر الإسلام في البرازيل وقتل السلطان حسين كامل وأنقذ جنديًا في الحرب العظمى ويتكلم عشر لغات وقيل عشرين. تحوّل كوش، رغمًا عنه ودونما إرادته، إلى أسطورة نوبية حية.

بحلول يومه العاشر في منفى الوطن استدعى كوش، الذي أطلقوا عليه تندرًا الخواجة، حفيد فاطمة ليطلب منه طلبًا مهمًا. يوم استقبله كان كوش مطرق الرأس معظم الوقت ولكنه رفع رأسه في انتباه حينما أشارت أخته للولد المليح الذي يقبل يده وأخبرته أنه يعمل صبيًا لحمل الحقائب في الكتاراكت. دخل عليه قرتي وقبل يده، وكلمه كوش بلهجة خشنة توافق تلك التي يتعامل بها الكبارات مع الصغار هنا: «اسمع يا ولد، ستفعل لي شيئًا دون أن تخبر به أي أحد».

وقف بكامل بهائه في جلبابه الجديد الذي فضله له الترزي على عجل. الجلباب النوبي المقلّم بأكمامه الواسعة، لاقًا رأسه بعمامة منحته الهيئة الخالدة لخاله. وقف على الضفة ينتظر قدوم المركب الصغير من فندق كتاراكت. حين بدأ المركب يرسو نزل إلى الضفة وساعد أجاثا على النزول ممسكًا يدها برقعة. نظرت له بإعجاب وكأنه شخص جديد. «ظننت أنني لن أراك أبدًا مرةً أخرى يا كوشكوا!» قالت له بلهجتها المحببة. أرادت أن تحتضنه ولكنّه ابتعد عنها ونظر حوله

في خجل. ضحكت وألقت إحدى مزحاتها الذكية وسارا معًا عبر القرية. أنهت جولتها ثم جلس معها على ضفة النهر وهو يفرغ لها البلح من أنويته. بعد برهة من الهدوء والنظرات المتسائلة حكى لها عن كل شيء.

«وما الذي تنوي فعله الآن؟»

«لا أدري. لهذا أرسلت في طلبك. أنا حقيقة متعجب وقلق وتائه».

«ما أعلمه هو أن لا سبب لديك للخوف. ما إن وصلنا حتى أخذ الكولونيل يتوعدنا لأننا ساعدناك على الهروب. وقف له ماكس بحزم. وما هي إلا أيام حتى غادرنا إلى وادي حلفا ولم نسمع عنه مرة أخرى».

«ألا تكرهيني على ما فعلت؟»

«أنا؟ وما دخلي؟ مرت سنوات كثيرة على تلك الحادثة. كنتم في حرب. ولا تنس أنني أقيم بالمستعمرات منذ أمد بعيد فلا تظنّ يا كوش أنني لا أفهم شعوركم حيالنا. إنه أمر مؤسف ويشعرنى بالخجل. هل تعرف كم شخصًا قتل زوجي السابق في الحرب؟ لا أظن أن من يرفع السلاح لديه الحق في محاسبتك على دفاعك عن وطنك».

يطرق كوش ساكنًا، مُطلقًا بصره نحو الضفة الأخرى.. يزداد شعوره بالامتنان نحوها.. تستطيع بكلمات بسيطة أن تمحو كل قلق بداخله..

«ما أجده مذهلًا هو أنك لم تجد في قلبك الكراهية نحوي طوال تلك السنوات».

ينظر لها بارتياح. كراهية؟ هي؟

«الصعب أن أكره. حتى لو كان ذلك ممكنا فلن أحاسبك لأنك تنتمين لذات العرق. لو أن أحدًا رعاني ومنحني الكثير طوال حياتي فهو أنتِ».

«أنا؟» عادت لتكرر. «لا أظن أنني قد فعلت لك أي شيء أستحق عليه التقدير!»

«فعلت الكثير. أنتِ فقط لا تعلمين».

صب لها بعضًا من الكركديه الذي تركه يغلي فوق الحطب.

«أريدك أن تأتي معي لزيارة المعابد. أخيرًا أحقق حلم أُمي الراحلة الذي عصيئه وعاندت تنفيذه يوم قابلتك، وها أنا آتي للمعابد في الوقت المناسب كي أقدرها حق قدرها. أتعلم أنني انتويت البقاء هنا لعلاثة أشهر على الأقل؟ تملكني شيطانُ الكتابة وأظن أن أفضل ما أقدمه لمصر أن أكتب روايتي عنها وأنا ما زلت هنا».

«أتكتبين عني في الرواية الجديدة؟» سألها بفضول مازحًا.

«صدقني، لن تريد الظهور في ذلك الكتاب بالذات.. كلهم أشرار!»

ضحك ونظر أمامه مرةً أخرى. يتمنى لو يخبرها كم يحبها. أم تراها تعلم؟

«هل ستعود إلى القاهرة؟»

«حقًا لا أدري. كل يوم أقضيه هنا أشعر أنني قد وجدت العائلة التي أبحث عنها طوال حياتي. أشعر وسط صخبهم وجهلهم بالعالم

الواسع الذي خبرته جيدًا أنني سأجد إجابات لأسئلة تراودني منذ زمن بعيد.. إجابات فشل العالم أن يجيبني عنها».

«لم لا تعمل في كتاراكت؟ تبقى هنا وتعيد اتصالك مع جذورك وفي ذات الوقت تمارس الخدمة التي تحبها».

أطال النظر إلى وجهها. تفحص أناملها وشعيراتها المتناثرة. تذكر أنها أمٌ وزوجة. تمنى لو يخبرها أنه رجلٌ تمّ تعقيمه..

«أظن أن سنوات خدمتي قد انتهت إلى غير رجعة. العام القادم أكمل الخمسين. لا أجد بداخلي القدرة على فعل هذا بعد الآن. ربما آن الأوان أن أستريح.. لقد تعبت وللرحلة أن تنتهي في مرحلة ما. ليس السؤال الذي يشغلني الآن هو ماذا سأفعل.. السؤال هو ماذا أريد أن أفعل.. ما هو غرض حياتي.. شيء ما بداخلي يقول إن ذلك الغرض ليس الخدمة فقط.. وشيء ما يخبرني أنني سأجد الإجابة هنا».

«أيًا يكون ما تختاره. عدني أن تبقى معي تلك الأشهر كلما استطعت».

بعد برهة قام وعاد بها إلى المركب التي تنتظر. هذه المرة لم يشعر بالخجل. قبل يدها بكل حبه لها. ودّعها بينما يداري الدموع في مقلتيه.

ربما يقرر ماذا يفعل استجاب كوش لدعوة أجاثا. شعر بالقلق في البداية من النزول إلى المدينة، ولكن ما إن بدأت جولات المعابد

ولم يتعرض له أي شخص حتى اطمأن قليلاً. بعد أيام قضاها رفقة أجاثا وماكس في ربوع أسوان بدأ شيء ما يتبدل داخل كوش. نسي كل شيء في خضم انبهاره بزيارة المعابد المصرية القديمة لأول مرة في حياته. طوال مسيرته يسمع من الأجانب مدى انبهارهم بتلك الحضارة ولكنه لم يستوعب أبدًا ذلك السحر. داهمته مشاعر وُلدت في تلك الأيام البعيدة بمتجر بائع الآثار بشبرد. حين جلس على مقربة من مالوان وكارتر وسمع حديثهما العلمي المفتون بأدق تفاصيل الحضارة المصرية لم يطق الانتظار لإتمام بقية جولات الزيارة. حين زاروا جميعهم معابد فيلة وكوم أمبو وإدفو ووادي الملوك تراقص قلبه بين ضلوعه ولم يتمالك دموعه التي طففت تتفجر من عينيه بينما يقشعر بدنه وهو محاط بالنقوش والحجارة المقدسة. خرج إلى صفحة النيل ووقف أمامها ونظر نحو الضفة الأخرى، وأدرك لوهلة إدراكًا هزّ كيانه بأكمله: أن العودة كانت حلماً راوده طوال حياته دون أن يدري. في الأقصر، وبين تمثالي ممنون، وبينما يستمع إلى صراخ الرياح المخيف ويراقب أجاثا ممسكة بيد ماكس، عرف كوش ما سيفعله.

عاد إلى القاهرة وباع شقة السيدة زينب بعد أن أفرغها من مئات الكتب والمجلات التي تملأ أرجاءها المترامية. ربطها في حزمات عديدة احتاجت إلى نقلها عدة مرات إلى ميناء روض الفرج. صعق المراكبي حينما رأى الكتب، ولكن كوش نفحه أجراً جيداً. عرج على الجزيرة بالاس وقدم استقالته وتوصياته لمن يخلفه، ثم توجه إلى مكتب البريد وسئل كل ما امتلكه -أذهله أنها ثروة صغيرة لم

يدرك أنه جمعها على مَرَّ السنوات- ثم مَرَّ على طه ونجيب وأعلمهما بتقاعده. عاد وكل الشوق والحنين يسابقه إلى بلاده الحبيبة.

اكتسب كوش بحق أخويته للفتيات حق السكن في البيت الكبير. البيت الذي سكنته أمه وأبوه وإخوته. لم يكن كبيرًا بالمعنى المفهوم ولكنهم استقروا على تسميته كذلك لتفرقة عن بيوت الأخوات الملاصقة له، ولأنه يزيد عنهم بمضيضة وصحنٍ هو ملتقى جميع أفراد العائلة أبدية التكاثر. أخلوا له البيت ريمًا أنهى شؤونه في القاهرة، وحين عاد وجد النجار الأقصري قد أوشك على إنهاء المكتبة الكبيرة التي طلبها. لأول مرة في حياته يرى كوش كتبه ومجلاته وصحفه وقد تراصت أمامه في ارتفاعٍ مهيب بديوان الدار الفسيح الذي غطت المكتبة كافة حوائطه. بدا منظرها مذهلاً بطولها الهائل من الأرض للسقف وعرضها الذي لم تشهد النوبة مثله من قبل. ستصبح هذه المكتبة مزارًا لا يفوته أي قريب أو زائر من النجوع الأخرى حتى لو كان يجهل القراءة، أعجوبة لا تقل إبهازًا عن معابد أسوان: البيت الذي يحوي أكبر كم من الكتب في النوبة جميعها. على مر السنوات سيكتسب بيت كوش كو أيضًا اسمًا يُعرَف به ليس فقط بفضل مكتبته الغناء ولكن بفضل ما جرى بداخله.

مَرَّ معظم عام 38 بسلام لم يعرف كوش مثله طوال حياته. على الرغم من أن الشعور بالوحدة لم يكن واردًا مع إحاطة العائلة الدائمة به، إلا أن كوش يعاني كثيرًا من الفراغ. استثمر جزءًا من أمواله في

شراء قطعة أرض تطرح اللوبيا والشعير والبصل والبطيخ -حرص على متابعة الدواجة بنفسه عند حصاد كل محصول- وأسطول صغير من المراكب الشراعية التي عمل بعضها في نقل وخدمة سكان كتاراكت والآخر لنقل البضائع والأهالي بين القرى. تولى قرتي حفيد أخته الإشراف عليها وترك الخدمة في الفندق، وهو ما أكسب كوش محبة الشاب الصغير وجذته التي رأت في عودة الأخ خير نصير لهن جميعًا.

قضى وقته في قراءة الكتب والتمشية في مختلف أرجاء القرية. تعرّف على كبارها وعجائزها وجلس على الدك وأمام البيوت يحكي حكاياته التي لا تنتهي.. والتي لم يكن أحد من أبناء قريته يكتفي منها. يزداد الانبهار ويتكرر في كل مرة ولا يفتر أبدًا. الشعور بالفخر والحسد يملك كل مستمعيه حتى هؤلاء الذين شككوا في مصداقية ما يقوله. ولكن معرفته الناضجة وحديثه الذكي وحواره مع السائحين بلسانهم يؤكد أن هذا العجوز ليس نصابًا بأي حال.

الشيء الوحيد الذي يعكر عليه صفوه هو السؤال المتلاحق سواء بالألسن أو في الأعين أو الهمهمات التي تزحف كالأفاعي من وراء ظهره عن سر عدم زواجه حتى الآن. لم يشغل باله بالأمر كثيرًا حين سافر ودار في أرجاء العالم وقابل أناسًا جدًّا باستمرار، ولكن الآن لم يعد الأمر كذلك، وبات له مسكنه الخاص الذي يشعر كل يوم أنه يكبر ويزداد اتساعًا ووحشة. وفي يوم بدا من مطلع شمس أنه غير بقية الأيام دخلت أخواته الثلاث عليه في هجوم مفاجئ عرف بعده أن لا شيء سيكون كما كان. «أتينا لك بعرويس» قالت الأخت الكبرى

بلهجة عرف معها أنه ليس لديه خيار. نفيسة؛ ابنة عم في أواخر الثلاثين ولم تصب الزواج. «أبوها ابن عم أبيك؛ صياد مات منذ أعوام وإخوتها تزوجوا ويحملونها عبثًا. ستكسب ثوابًا وتخفف عنك الليالي الطوال». دون أن يراها كوش وافق شريطة أن تعرف أنه لن ينجب الأولاد. «فات السن الذي آتي فيه بأبناء إلى هذا العالم». ذهبن من كلمته. زوج أخته الصغرى هوشه -العجوز الذي قابله راقداً على الدكة يوم أن وصل إلى هنا- يكبرها بعشرين عامًا ولا يزال يأتي بالأولاد وقد تخطى الستين. «العمر الطويل لك، ولا أحد يدري بأي زمن يموت». ولكن كوش أصرّ على قراره. ذهبت الأخوات متعجبات من تعليمه الفاسد الذي خرب مخه وشوه أفكاره وحاولن المشاورة مع أهل العروس. مَرّت شهور ولم يتلق كوش الطيور والذبائح التي تشي بقبولهم طلب إخوته لنفيسة. ماتت الفكرة في مهدها لشهور ولم يسأل.. حمد الله وأعدّ ذلك قولة القدر الأخيرة في مسألة زواجه.

في الثاني من سبتمبر عام 39، وبينما تجتاح حشود الجيش الألماني بولندا، استيقظ كوش على زغاريد عالية وصخب طيور تحوط بيته من كل جانب. يوم الرباط توجه إلى دار أخيها الأكبر مع أخواته وأبنائهن بالشيلة التي ناءت بحملها الدواب وقَدَموا الطحين والحبوب والسكر والملح فاستقبلوهم بالزغاريد والأغاني. سريعًا أتى يوم السّما ودعوا جميع أهل القرية وأسقوهم الشاي. نُظِّفَت الغلال وُظِحَّت وأعدت النسوة الخبز والشعرية بينما توافد الرجال مهنيّين. قام الشباب بطلاء جميع غرف البيت ورسم حوائطه الخارجية بنقوش مبهجة فأعادوه جديدًا ينبض بالحياة. كذلك قام كوش

باستبدال خوص السقف بألواح خشبية، وعاونه الأبناء والأحفاد في فرش الغرف بالدكك الخشبية والعنقريب الجديدة وتزيين الديوان بأطباق الخوص الملونة والبرش للصلاة.

اختار كوش قرتي حفيد أخته وزيرًا له وأسلمهم جسده ليلة الحناء الذي خضبوه ودهنوه بالزيوت بعدما أنهى زيارة الأضرحة والدعاء للأولياء، وصدحت قصائد الصوفية الاحتفالية بينما دار الأطفال بالأجولة المملوءة بعطور الصندل والمحلب على البيوت بيتًا بيتًا ليعلموهم بقرب الزفاف. يوم العرس عرف الجميع أنه الأكبر في تاريخ قرية كوش فهزت احتفالاتهم أرجاء الجبل. استمر حفل الزفاف لأيام دُبحت فيها الذبائح وأقيمت الولائم وتصالح فيها المتخاصمون. في اليوم الأول ألبسوه ثوبًا سماويًا مزخرفًا وعراجي من القماش الأبيض ولفوا رأسه بكاسر أبيض طوله أربعة أمتار وأمسكوه سيقًا. شارك كوش في تلك الطقوس الشعائرية بسعادة السائحين. في اليوم الثاني ارتدى جلبابًا من السكروتة وفوقه قفطان من الحرير ووضع على كتفه شالًا أبيض واعتمر عمامته البيضاء العظيمة. قامت النسوة بعمل المجد للعروس بعد أن دهن جسدها بالصندل وحفرن الحفرة وأوقدن النار وجلست بجانبها المسكينة حتى تعرق جسدها وتشرب الزيت. ارتدت أخواته الكومين وارتدت العروس الجرجار الأزرق ملفوفًا بشجة وتحلت من رأسها إلى أخمص قدميها بحلي البييه والجادك الذهبية وقص الرحمن والسافا الخرزية. زينت جبهتها بالزّسن والدينار وأذنيها بالبلتاوي وباجول على أنفها.. جميعها هدايا من خطيبها المري. توافد المغنون من الرجال والنساء وتعالّت أصوات الجميع بغناء

جماعي وبدأت رقصات كومباك ونجريشاد وسوكيو والكف على
إيقاع الطار والنقارة والطنبور، اصطف فيها الرجال والنساء في
مواجهة بعضهم البعض بينما وقف خفير القرية يفصل ما بينهم.
أطلقت مباريات الرماية ورقص الرجال بالسيف وضربوا الأعيرة
النارية وهتفوا بأسماء الفرسان. فرشوا له «عجري» جديدًا واستقبل
القبلة وجلس في مواجهة الأخت الكبرى فاطمة التي تغنت بنسب
وأمجاد أخيها وعائلات القرية، ثم غمست إصبعها في صحنى الجوير
واللاجول وعطرته بالماء والصندل وخضبت يديه ورجليه وهي
تغني جتن كيريه. راقب كوش الكهل كل هذا بعين حالمة وتمنى لو
أنه دعا نجيب وطه وأجاثا التي سافرت ليشهدوا معه ليلته تلك. ما
أطرب قلبه حقًا هو شعور السكينة الذي اكتنفه وسط أهليه بعاداتهم
واحتفالياتهم المبهرة بالحياة. حين ركب الجمل وتوجه لبيت العروس
ليصحبها إلى داره أيقن أنه قد وصل أخيرًا إلى حيث يجب أن يكون.
في نهاية اليوم الثالث، بيده المحناة وجسده الذي يعبق بروائح
الزيوت، رفع كوش الحجاب عن وجه نفيسة فوجدها بدرا مستنيرًا.
دعا من كل قلبه أن يكون العالم الكريه قد صدق في كلمته الأخيرة
له..

وقد كان..

ظل يتابع أخبار الحرب عبر الجرائد والمجلات المصرية والأجنبية
التي يأتيه بها قرتي من كتاراكت. تأكد من صدق حدسه تجاه هتلر
يوم أن رآه وعرف أن هذا المخلوق الشيطاني ينتوي شرًا. وما هي

إلا شهور حتى بدأ نذير الحرب، وعاد كل شيء ليعيد نفسه.. تحركت الدبابات في أوروبا وبدأ الإنجليز على الفور في ممارسة لعبتهم المرتعة بالسيطرة على مصر، وفرض الأحكام العرفية، والدخول في صراع مع الملك للسيطرة على مصر وإجبارها على المشاركة في الحرب. وكان 20 عامًا لم تمر منذ آخر مرة نزلت غمامة الحرب الرمادية على البلاد. عادت الفنادق لنفس تجمعاتها المتوترة.. وتقلصت الحفلات.. وأغلقت المقاهي وبدأت صفارات الإنذار تدوي. عاد اضطهاد الألمان والطلّيان وظهرت البذلات العسكرية البريطانية البغيضة لتتصدر الصورة. كل شيء كان كما هو وكان سعدًا لم يأت، ومن ورثوه خذلوه، وكان طه لم يقض كل تلك السنوات في محاولة تنوير شعبه، ولا نجيب قدّم لهم فئًا أو هدى قادت نساء تلك الأمة نحو مزيد من الحرية. كل ما تحقق في ذلك البلد كان ينتهي مُرًا بفضل الاحتلال العتيد الذي لم يتحرك قيد أنملة نحو احترام رعايا المملكة المصرية التي لم تطلب شيئًا سوى عدم الانخراط في حرب كراهية وتطهير عرقي لا تعرف عنها ولا تبغي منها شيئًا.

العالم يشتعل ولكن مصر بعيدة عن كل هذا، وكذلك النوبة وبداخلها كوش أبعد ما تكون عن ذلك الصخب الأممي البشع. لم يملك كوش أن يستذكر كل شيء مرّ به في الحرب العظمى، وأدرك مبكرًا أن هذه ستكون حربًا أكثر بشاعةً ودمويةً.

لم تكن نفيسة قد أصابت أي قدرٍ من التعليم. لذلك اقتصر الحديث بينهما على الشؤون اليومية، وكانت هي كنسمة رقيقة لا تريد شيئًا سوى أن تجعل زوجها سعيدًا. اجتهد ألا يشعرها بفارق السن والتعليم بينهما، وحاول مساعدتها في شؤون المنزل والخبيز

والعجيين، وترك بيته مفتوحًا لكافة النسوة اللاتي يزرنها في أي وقت من النهار مصطحبات أولادهن الصغار الذين يملؤون البيت ضجةً وصخبًا وكوارث لا تنتهي. يتعامل كوش معهم بحنو بالغ ويحاول استغلال كل فرصة ليعلمهم شيئًا. ظلت نفيسة تشكر الله في سرّها على كل يوم تقضيه مع هذا الرجل الكريم حسن المعشر فائق اللطف. لم تكن لديه أي تحكّيمات أو أفكار من تلك التي نشأت عليها. بدا لها أجنبيًا في ثوب بشرة نوبية. نظافته الدائمة، رفته واستئذانه قبل الدخول عليها، حديته الهادئ المتزن، وأسطورته التي تجوب أرجاء القرى والتي تزيدها فخرا أنها تعيش في كنف أغنى رجالات القرية وأكثرهم إنسانية. تمتّ لو لها ولد تنزل به إلى النهر في يومه السابع، ولكن حتى هذا رضيت به وعوّضتها عنه ملائكيته المستفيضة.. فقط كرهت منه شيئًا واحدًا: إصراره العنيد على تعليمها.

وجد كوش أن ما رآه طوال حياته إن علمه شيئًا واحدًا فهو أنه لن يترك شخصًا جاهلًا إن استطاع أن يمد له يد العون تمامًا كما مدها له طه وأجاثا وستفنز، ولن يقبل بأي حالٍ من الأحوال أن تكون زوجته من الجهلاء. جعل من تعليم نفيسة مهمته الكبرى. كل يوم يقضي معها ساعتين في تعلم القراءة والكتابة، ويحدثها عن الكتب والتاريخ والتراث والأدب. ويخبرها بالمكافآت التي يعدها لها إن كتبت جملتها الأولى. أصابه الإحباط في البداية لأنها لم تكن في مثل بدايته حين بدأ تعليمه صغيرًا، ولكنه تحلى بالصبر. «لدينا العمر حتى آخره. لن ننتظر شيئًا».

ورويّدًا رويّدًا، بدأت نفيسة الدخول في نفق الاستنارة المجيد.

مع حلول الليل، وبينما تستقر الدنيا ويتراجع الصخب وتنغلق البيوت على بعضها، يحافظ كوش على عاداته الأبدية بالتمشية في أرجاء القرية تحت جناح الظلام. وحين يصبح القمر بدرًا، خاصة في ذلك الوقت من رمضان بعد أن يتم سحوره المبكر ويشرب ما استطاع من الأبريه، يخرج ليقضي ليله على ضفة النهر في ذات البقعة التي اعتاد اللعب فيها صغيرًا. يجلس هناك كل ليلة حتى مطلع الشمس.. يفكر.. ويتذكر..

أدرك كوش كو خلال كل تلك السنوات الماضية من عمره أن العالم أكبر بكثير من سبيله الغريب، أنه دائم الحركة في عالم واسع يتحرك هو الآخر بنفس الحيوية. طوال حياته ظل كوش ملفنًا ومعار تفكّه زملائه وسادته بفضل دأبه الدائم وبحته المستمر. سذاجته وروحه المرحّة والخفة التي يواجه بها الحياة كانت وقوده الدائم.. كذلك سعيه المستعر للحركة والبحث. حركته التي لم تكن لتتوقف أبدًا. لم يكن ليكنّ أبدًا. لم يكن ليسكن في اللاشيء أبدًا. طبول تدق بداخله. ولكنها طبول في قلبه وليست تلك التي تطن في الأذن والمخ فتقوده للجنون أو الكفر بالحياة، على العكس، كانت دقات إيمان بأن في الحياة ما يستحق أن يُعاش.. هناك ما هو مفقود ومنسي، وما لم يُر، وما يستحق أن يُروى، وأن كل ذلك ينتظره لا محالة ليكشف عنه لنام العدم.. دائمًا ما يهرب من اللاشيء ليقينه أنه سيجد المعنى حتمًا، ولن يتوقف حتى يتنفسه في أي مكان يجده.. حتى لو كان هذا المكان هو النوبة التي بدأت منها حكايته.

لطالما اعتراه السأم فجأة وقرر التغيير دون إنذار.. كم من مرة حاولوا مراجعته قبل أن يغادر فندقًا أو بيتًا؟ ولكنه لم يكن ليهنأ

بالمرة. لم يكن ليسكت أو يسكن. دائم البحث عن شيء. يتذكر مقولة اليافع طه له التي ظل يكررها على مسامعه: «كلما ازداد بحبك ازددت جهلاً». هذه المقولة التي تبدو له بديهية اليوم كان وقعها على مسامعه كوقع آلاف النجوم الساقطة شهتاً من السماء. كانت لحظة استنارة لم يشهد مثلها: إنه جاهل. وكل من يقابلهم في طريقه هم سبل المعرفة التي شُخّرت له بتسخيره لخدمتها. لم يكن يفهم معنى السخرة بمنطقة البشري المعتاد. حتى حياته المحظوظة في أولها لم تضعه في موضع يضطر معه إلى التساؤل عن حقيقة مكانته؛ الأرض التي أتى منها، لونه، هيئته أو منطوق حروفه، لم يضطر إلى التساؤل وقتها لأنه كان محظوظاً، اللهم إلا من روزفلت وكتشنر والكريه وموسولينى وهتلر ومن شابههم، بالنسبة له كانوا سادة يؤدي تجاههم وظيفة كما تعلمها من الماستر، يقوم بها بكل إخلاص، أمانة، وشجاعة. ولكنهم كانوا نموذجاً بشرياً قميئاً وضعه أمام المرأة مرات ومرات. ما رآه في مرآة نفسه أنه كان محارباً في ميادين كثيرة. لولا طه ما فهم، لولا أجاثا ما تعلم، لولا نجيب ما عرف الفن وأحب الحياة، ولولا زعيم الأمة ما أدرك أن ماهيته أمر جلال عن حق.. وكل ذلك من المؤكد حدث لغرض ما..

منذ تلك اللحظة، حين أتنه لحظة الاستنارة تلك متأخرة ثلاثين عامًا أو أكثر أدرك كوش، وقلما كان يدرك، أن المعرفة هي جشعه الأكثر نهقاً، وأنه لن يفتأ يبحث عن المزيد، ولكنه اليوم لا ينشغل بتلك المعرفة التي يريد تحصيلها، فقد قضى في ذلك عقود الأربعة الأخيرة، ولكن تلك التي حصلها بالفعل وبات واجباً عليه أن ينقلها لغيره. أما آن الأوان أن يدرك مكانه في هذا العالم ويصير محارباً في

معركة النور التي وعده بها طه بعد أن أنهى دوره كمحارب في خدمة
السادة؟

مكانه في هذا العالم.. ذلك السؤال الذي طارده بين الحين والآخر
عن مكانته الحقيقية في الحياة. سؤاله حول ما إذا قد نجح في
خلق مكانة لنفسه أكبر من مجرد خادم لأسياد مختلفي اللون
والرائحة والأعراق. هل كسر القالب الذي فُرض عليه منذ مولده،
وتحدى ما هو منتظر منه وممن يشبهونه، أم أنه في النهاية عاش
وسيموت نسخة مكررة لكل نوبي محتقر من الإنجليز والأتراك وربما
من بعض المصريين أيضًا؟ بات الآن في الخمسين يكره إحساس أنه
سيطويه النسيان قبل مشاركته عن حق في معركة النور التي حثه
عليها طه منذ صغرهما. طوال حياته يشاهد من بعيد طه وهو يكبر
وينمو ويخوض معركته بكل ما تثيره من حفيظة وحقد وهجوم
واتهامات بالكفر. ولكنه الإنسان الأكثر إصرارًا وعنادًا الذي عرفه
في حياته، يواصل طريقه دونما تراجع. لقد أوفى طه بوعده، وبات
الضرير الذي رأى النور وبقه لكل أمته التي لا تزال تأبى أن تخرج
من نفق الجهل المظلم. وماذا عنه هو؟ هل رضي بدوره كما قسمته
له الحياة؟ أو ليس هذا الدور هو بالضبط ما تحداه بمجرد وجوده
وسعيه الدائم للمزيد؟ أم تراه انكسر يوم أجريت له الجراحة؟ هل
استكان؟ بعد كل ما منحوه من فرص؟ لقد أنار الطريق لنفسه، ولكن
هل حمل الشعلة لمن هو أبعد منه؟ هل ألهم غيره؟ هل أفاد وطنه
حقًا؟ أم أنه لن يخلع أبدًا ذلك الجلباب وسيظل مؤطرًا بذلك الحزام
الأحمر الذي يلف وسطه ويمنعه من أن يحمله الهواء بعيدًا؟

تذكر ذلك اليوم البعيد حين خدم روزفلت -أول من واجهه بقبح نظرة الرجل الأبيض لمن هم مثله- حين طالع دفاتره وسمع لأول مرة كلمة ستغير نظرتة للأمور كلها.

ليلتها، حين عاد كوش إلى غرفته، قلب كفه وسرح فيها طويلاً. الزنوج. من هم؟ هو؟ تطلع نحو يده بفضول وأدام النظر لها وكأنه يراها لأول مرة. ولأول مرة شعر أنه يدرك ماهية جسده. أو بالأحرى يدرك معنى جديدًا لم يكن يعرف أنه موجود. إنه ينظر للونه لأول مرة، باعتباره شيئًا فارقًا قد يكون سببًا في تحديد مكانته في هذا العالم الواسع. لم يكن ليدرك ذلك الإدراك -الكريه أو الجميل لا يدري- لولا تضاده مع ما أظهره روزفلت الذي يبدو أنه يدرك تمام الإدراك دلالة ذلك اللون. شعر كوش بالحيرة: هل احتاج السيد كي يعتز ببياضه أن يقول لكوش ما قاله عن لونه هو؟ أم أن لون كوش هو فعلًا أدنى؟ أهو بذات دنو أبناء تلك القبائل الذين خاطبوه من فوق صفحات الدفاتر؟ هل هو لون قبيح في ذاته أم مجرد لون مسيء للأبيض؟ شعر كوش أن وجوده يعزز السعادة والرضا عند سيده. أنه يساعده على أن يقبل نفسه ويشعر بحسن نواياه وتفوق نفسه وفداحة المهمة الملقاة على عاتقه. يومها شعر كوش الصغير بارتياح خاطف كونه يستطيع بمجرد وجوده أن يكون سببًا لسعادة شخص آخر.

ولكنه عاد وائزعج.. شيء ما مما قيل له من ذلك الرجل العجيب يزعجه... لا، لا يزعجه... ليست هذه هي الكلمة المناسبة -فكر كوش- وهو يحاول فاشلاً أن يتبصر بنفسه.. إنها مرارة.. هناك طعم مر في فمه لا يغادره منذ تلك المحادثة، ولكنه لا يفهمه. كان كوش من

الجهالة الطيبة بمكان أنه لم يدرك مفهوم الإهانة.. ربما ليس بعد.

شعر بذلك الدوار الذي يصيبه بعد طول التفكير. وكأنه دوار مفروض عليه من قوة خارجة عنه وقهرية. وقرر أن يغمض عينيه قليلاً لعله يستريح. وفجأة أتاه خاطر. في حين كان يتحدث روزفلت إليه قال كلمة غريبة. عرق. ما دلالتها في الإنجليزية؟ قام في منتصف الليل وكأنه مسير في نومه متجهاً نحو القاموس. جذبه بيده بعد أن أزاح من عليه أجزاء ألفية ابن مالك ونقض عنه التراب بلطف. خرج إلى النافذة المفتوحة. لفحته نسمة باردة. وفي ضوء البدر الساطع استطاع أن يميز الصفحات. قفز إلى حرف الآر، ونزل بعينه بسرعة ولهات يبحث عن الكلمة المقصودة. في البداية لم يصدق أن كلمة «ريس» يمكن أن تعني «العرق». ولأن كوش لا يعرف إلى اليوم معاناة أن يتعرق إنساناً لأنه ولد محظوظاً بتلك الرائحة الزكية التي تخرج منه كلما تفضد الماء عن جسده، إلا أنه عاد وقرأ الكلمة مرة أخرى فلاحظ الكسرة -للسخرية- وفهم أنها تحتم نطقاً جديداً للكلمة. كسرة تحت العين وسكون على الراء. رفع كوش رأسه وعبر بنظره الشارد عبر النافذة إلى الطريق النائم من تحته وهو يتذوق الكلمة على لسانه: ع ز ق. ريس.. عِزق. أعراق. ظل يرددها وهو شاخص ببصره إلى الطريق الذي لا تعبره سوى قطط تطارد كلاباً شاردة. وفجأة شعر أن كل شيء يتغير. وأن العالم الواسع -مرة أخرى - يتبدل ويتغير أمام ناظره. وعرف بوجل يدرك كنهه جيداً أنه لمرة أخرى لن يرى العالم كما رآه من قبل. الآن بعد أن عرف تلك الكلمة. والآن بعد فهم دلالتها -التي لم يفهمها بعد ولكنه قد كَوّن فكرة بائسة عما تعنيه حين وضعها في سياق الكلام الذي سمعه -

فإنه لن يعود كما كان، ولن يعود العالم كما كان، وسيبكي براءته التي ستذهب.. ستفادته خطوة أخرى.. تبتعد عن ناظره وتبدو مشوشة بعد أن كانت شديدة القرب تدفئ وجوده، ستفاد البراءة وتبعد خطوة تمامًا كما القطة التي تعود بظهرها للوراء ملاصقةً للحائط. نظر ليده مرة أخرى.. أتجعله هذه اليد وفقًا لتلك الكلمة غير مصري؟ أتضعه في نصاب آخر يجعله غير مقبول من البيض والمصريين معًا؟ ولكن هؤلاء الذين استخدموا تلك الكلمة معه لم يألوا جهدًا في كشف نواياهم.. هذا بالضبط ما أرادوا له أن يصدق. صار أكثر إظلامًا أم استنارةً بالمعرفة لا يدري. المعرفة تؤلم أحيانًا. كثيرًا ربما. هكذا فهم كوش أيضًا ليلتها. تحوّل كلام السيد الذي كان غريبًا ويترك مرارةً في فمه إلى شيء شديد القسوة والسوداوية حين فهمه. حين صار له معنى وصياغة ومنطق. ولكنه وقتها بفطرته لم يشعر بالإهانة أيضًا.. ولكن بشيء أسوأ.. ليست المرارة التي غادرتة الآن وكان يتمنى لو ظلت على حالها واكتفى بها.. ولكنه شيء آخر.. الضالة.

تلك الضالة التي طاردته طوال سنوات حياته بعد تلك الجراحة المتهكة كلما أراد أن يرتقي. تلك الضالة التي أراد الانتقام ممن أشعروه بها حين انساق وراء الدور الوطني الذي لم يكن قد أدرك خطورته بعد. يعرف جيدًا الحمل الثقيل الذي وضعته عليه دموغ خاله في كنف عرابي. ذلك الخذلان بات لزامًا عليه أن يمحوه. كان مكرهاً بدرجة ما حين حاول أن يوجج بداخله كراهية الإنجليز. ما قاله له خاله فيه شيء من الكذب. ليسوا كلهم أعداء. ليست القومية كما فهمها منه مجرد قومية لون وعرق. لم يكن يريد أن يقسم

ولاءاته كيفما تقسم الدنيا البشر لألوان: الأسمر أعلى والأبيض أدنى وما بينهما درجات. نعم إنه يبغض ذلك الاحتقار، الذي لم يكن كوش يدرك أنه يُسمى احتقارًا، لم يعرف له تسمية، ولكنه شعور بأن روحًا عطنة تجوب الغرفة، سحابة تثقل جفنيه وقلبه، كلما شعر أنه لابد أن يكره.

ولكن الثورة أتت وغيّرت كل شيء. لحظة التوحد تلك التي اعترت كيانه هي التي أفهمته أن هناك شيئًا اسمه الوطن وأنه يستحق الموت من أجله. ولكن حين رأى الموت يتجسد أمام عينيه في لحظة بموت خولي، وفي الأخرى بموت الجوني الذي حطم وجهه، عرف أن الثمن من روحه غالٍ. أراد الانتقام من العالم الكريه في الوجه الذي حطّمه. يدرك الآن بعد كل تلك السنوات أن قتله للجوني لم يكن وليد لحظة الصدمة من دماغ خولي المتفجرة بقدر ما كان انفجارًا لغليان يفور بداخله منذ أجرى الجراحة. شيء ما، شيء كوني، ربما ذرة غبار قادمة من آلاف السنوات من الاضطهاد، استقرت فوق أنف كوش وداخل رئتيه لتخبره بأن هذه الكلمة، العزق، لا يمكن أن تحمل في طيات حروفها أيًا من الفضائل الإنسانية التي سعى لها وسط صفحات الكتب والمجلات، ولا يمكن أن تعبّر هذه الكلمة عن ذرة من الغضب النبيل الذي شعر به ينتفض من سواعد غوغاء الترام عام 19، ولا من رائحة الخزامى من قم أجاثا. لم تكن كنية «يا ولد» تمثل له أي شيء سوى البغضاء. البغضاء التي تجسدت يوم أن عرف أن هناك أناسًا هدفهم في الحياة ألا يستمر نسله.. والآن وهو يسكن بين بني جنسه يفهم جيدًا ما كانوا يقصدونه. لم يكن الطبيب الكريه فقط هو من يسعى لذلك، كلهم تمنوه، ولكنهم أدركوا أنهم لن يتمكنوا

أبدًا من وقف النسل والتكاثر، ولكن ما استطاعوه بالفعل هو العمل على ألا يخرج من هذا النسل عرابي آخر، سعدًا آخر، كوش آخر... وهنا كان دوره في معركة النور الأبدية..

في أول أيام بشنس عام 40 ذهلت نفيسة من أعداد الأطفال المهولة التي بدأت تتوافد على دارهم الرحيبة. فجأة ودونما مقدمات فتح كوش الباب ودخل إلى الديوان خلفه أطفال القرية بنجوعها المتجاورة في طابور طويل وعبروا الديوان خارجين إلى الحوش.

في الأيام الماضية كان زوجها يخرج من أول النهار لآخره، يجوب النجوع والبيوت التي اعتاد دخولها مرحبًا به دونما استئذان، يتحدث مع أهلها أحاديث طوالة، وفجأة بدأ في بناء مكتبة غير التي تحتل الديوان بالحوش المزين بالخوص الملون، ملأها بالكتب ثم نقل الدكة التي ترقد بجانب باب الدار إلى الحوش. استجلب من أسوان سبورة وطباشير، واشترى أعدادًا لا نهائية من الألواح والكراسات والأقلام، وأخذ يشقونها في غرفة الخزين.

توسط الأطفال من كل عمر بدءًا من الثالثة وحتى السادسة عشرة حوش الدار. تربو أعدادهم على الخمسين. ترع كوش فوق الدكة وفي خلفيته المكتبة الخارجية المهيبة وأسكتهم جميعًا بلهجته الأمرة.

استعاز بالله من الشيطان الرجيم.. وبدأ درسه الأول في تعليم الحروف العربية.

توالت الشهور وتوالت معها دروشه والأطفال المتوافدون. يوم كتب أولهم أولى كلماته على لوحه كانت «دار النور». طار كوش فرحا وأخبر نفيسة دون أن يدري: «الآن لن تنقطع سلاتي مهما تكالب العلماء الكريهون». علّقوا اللوح على باب الدار وطار معه خبر المدرسة -التي لم يسمّها أحدٌ أبداً مدرسة- إلى كافة القرى المجاورة ونجوعها وطفق الأهالي يرسلون أولادهم من كل حدب وصوب لينخرطوا بها.

بعد أن انتهت الدفعة الأولى من تعلم القراءة والكتابة، اضطر كوش إلى تقسيم الطلاب إلى قسمين ثم ثلاثة. عاد ليبدأ في تعليم الأطفال الجدد أسس القراءة والكتابة بينما خصّص فصول العصر والمساء للأقدم فعلمهم الآداب والفلسفة. بعد جهدٍ مضى أضاف فصلاً رابعاً حين تمكن من إقناع الأهالي بتعليم فتياتهم، وبعد مرور عامٍ آخر، وبينما كان هتلر يدك ستالينجراد، كان قد أقنع الأهالي بتعليم الأطفال دون سن البلوغ من الفتية والفتيات معاً.

لم يلتزم كوش بمنهج بعينه، ولم يكن أحد ممن يرسلون أولادهم له يرجو من أولاده أن يدخلوا مدرسة أو جامعة. حين أخبرهم أنه سيعلم أولادهم لينشؤوا ويصبحوا مثله لم يرفض بيث واحد. سيعلمهم ما تعلمه. سيخبرهم بكل ما يعرفه. ما احتاج إلى تعلمه في أربعين عاماً سيعطيه إياهم في أقل وقتٍ ممكن. «لن نكون خدماً بعد اليوم. ستخرجون من هنا متنورين تضيئون العالم» يقول لطلبته كل يوم. حين عرف أن طه ينزل في الكتاراكت عام 43 لقضاء

الشتاء دعاه لزيارته، وانبهر طه بما وجدته في «دار النور»، وأخبره أنه سيعود للتحديث مع وزارة المعارف كي يعدّوا اختبارات خاصة لهؤلاء الأطفال ويحصل بيثه على رخصة الكتاتيب ويصبحوا مؤهلين للدراسة النظامية فور تخرجهم من عنده. نظر له كوش باستهجان: «كتاتيب؟ الأولاد عندي يقرؤون فترتر وهم في العاشرة!». ولكنها خطوة رائعة لا تزال، وأخبر كوش الأهالي بملء فمه أن أولادهم الآن صاروا يملكون فرصة ليصبحوا أساتذة ومهندسين وباحثي علوم إذا ما التحقوا بداره.

قرأ باهتمام المجلة الأدبية التي أصدرها طه حسين بعد حصوله على البكوية «الكاتب المصري» والتي صدرت عقب سكون الحرب الثانية. يكتب فيها محسن باسمه المستعار وسهير القلماوي -أولى خريجات الجامعة وتلميذة طه التي منحها شهادتها مع زميلاتها خلسة في غفلة من وزارة المعارف- وغيرهم من الأسماء التي لم يكن كوش قد سمع بها من قبل.. شباب سيقودون حركة الفكر ومعركة النور بعد أن يموت. قرأ فيها عن شعراء الجاهلية، ومفهوم الخلق في الفن، والنهضة السياسية في إندونيسيا، وفلسفة القانون، وسوفوكليس، وتطور الدبلوماسية الأمريكية، والوثنية عند إخوان الصفا (مرة أخرى كانوا يظهرون أمامه بتأثيرهم البالغ والممتد) ورسائل سيسرون، وغوركي الروسي، والداينمارك أثناء الاحتلال الألماني وبعده. كذلك يقرأ مجلة مشابهة باسم «الأدب والفن» تصدر بالعربية من لندن، والتي عزّفته قبل موته على الموسيقى في إنجلترا، والشعر العربي والإنكليزي المعاصر، والدراسات الشرقية،

والأطرزة في صناعة النسيج المصرية، وجلال الدين الرومي، وهنتر
الرائد البيولوجي، ومتحف كلية الجراحين الملكية، وكتاب المصباح
المضيء في خلافة المستضيء للجوزي، وأول قصة يقرأها لأوسكار
وايلد. وكعاداته طوال حياته.. كلما قرأ عرف أن هناك مزيدًا، هناك
الذي لا يعرفه ويريد أن يعرفه، ويجب أن يعرفه، حتى يتمسك ولو
ليوم آخر بالحياة. ولكن شبح القلق يستكين بداخله حين ينقل شيئًا
من ذلك الضوء الذي اقتبسه من تلك الصفحات إلى تلاميذه الذين
يستمعون له بانبهار شديد. فقد خصص دروس المساء للنابهين،
وكان يقرأ عليهم في كل ليلة واحدة من تلك المقالات ويشرح لهم ما
جاء بها. قرر كوش منذ البداية أن يكون منهجه مزيجًا من معارف
الكتب والمجلات. في كثير من الأحيان يلحون عليه، بأعين مفتوحة
عن آخرها وأصوات تختلج بالإثارة، كي يحكي لهم مرة أخرى
حكايته مع هتلر أو الخديوي، ولكنه يبتسم ويرجئ حكاياته المسلية
-عامل الجذب الرئيسي لهؤلاء الصغار وذويهم- إلى أن ينهي دروسه
ويختبر استيعابهم لها.

وضعت الحرب أوزارها حين ظهر روزفلت آخر، هذه المرة باسم
فرانكلين، وأصر على دخول أمريكا العظيمة إلى أرض المعركة،
ومن بعده أنهى ترومان الحرب بمذبحة في بلاد الساموراي التي
قرأ كوش عنها في أحد أعداد الهلال. كان حتى انتهاء الحرب قد
قضى خمس سنوات في «دار النور» يواصل دوره الذي اختاره
لنفسه، ويواصل حكي حكاياته الملهمة لكل من يسمعها، ويدونها في
مذكرات لن ينسى أن يذكر اسمه فيها عكس أصدقائه. توالى سنوات

ما بعد الحرب وكوش يتحول في كل يوم إلى أسطورة تجابه أسطورة بعنخي.

تسع سنوات مرت منذ حظ رحاله في النوبة وتزوج وازداد نحافة واشتعلت ذقنه بهاءً أبيض لا شعرة سوداء واحدة فيه. ظل يواصل متابعة أخبار العالم من منفاه المحبب في تلك الجزيرة بنيل أسوان خلف الجندل الثاني بينما يتخرج من بين يديه عشرات وعشرات النوبيين الصغار الذين يحفظون شعر الفرزدق وبليك ويعرفون مبادئ فلسفة جلوك وجوته والمعري وبعضًا من فكر ابن رشد وابن عربي. لم يأل جهدا في تعريفهم بكل ما قرأ وعرف في حياته. وضع سجلًا لميول كل ولد وفتاة وبدأ في تلقين بعضهم دروسًا فردية تخاطب وجدانهم وفضولهم. مرت السنوات سريعًا وأصبح مشهد الشباب الذين يقرؤون المجالات الأجنبية فوق ظهور الحمير أو بين النخيل مألوفًا في النجوع والقرى المجاورة. كانت توصية كوش لكل ابن من أبنائه أن ينقل ما يعرفه لأهل بيته، ومن ينجح في تعليم أحد من أهله ينفحه مبلغًا محترمًا من المال. أخذ يفكر ويعمل دون كلل واصلًا الليل بالنهار حتى يتم رسالته ويحقق انتصارًا ولو صغيرًا في المعركة الخالدة.

في إحدى ليالي طوبة عام 48 قارس البرودة، سمع كوش جلبة وهو يعيد ترتيب صحن الدار مع نفيسة بعد أن أنهى آخر دروسه. خرج فوجد رجلًا في ثياب نظامية يحمل دلوًا وفرشاة يقطر منها الدهان الأبيض ويترك علامة على باب داره. تجمهر حوله مجموعة من الرجال والأطفال يحملون المشاعل ينظرون له بفضول مشوب

بالغضب. «وصلت الكوليرا أسوان ولا بد من اتخاذ الحذر. لا يخرج أحد من بيته إلا للضرورة. لا يسلم أحد باليد، وممنوع منعًا باتًا البصق على الأرض. وعليكم بغلي الأواني ومداومة غسيل الأيدي ووقف صلاة المسجد. وفي حال أصيب أحد بلغوا عن مرضاكم فورًا».

كانت الكوليرا قد ظهرت في سبتمبر من العام السابق بمستشفى حقيات العباسية، ولم يلق أحد بالآ فانتشرت وانتقلت من محافظة إلى أخرى بسرعة. في أسوان والنوبة وصلت الأخبار عن الحكومة الكافرة التي تغلق المساجد وتمنع الحج، وتصدرت أعداد الوفيات الجرائد، وأطلقت الحكومة حظرًا للتجوال وتدخلت الشرطة بمعاونة الجيش للسيطرة على الوضع، ومع ذلك ظلت الأعداد في تزايد لأن المصريين الشجعان رفضوا التبليغ عن ذويهم من المرضى. حافظ أهل الجنوب البعيد على يقينهم بأن المرض اللعين لن يصل لهم أبدًا في تلك البقعة النائية الطاهرة.. ولكن حين أطلت الحكومة بذراعها الطويلة داخل نجعهم ارتعب البشر.

استهان كوش بتعليمات الحكومة المركزية ورآها وسيلة جديدة من وسائل الإنجليز لترويع المواطنين، وقابل اختفاء الأولاد من مدرسته بغضب شديد، فأخذ يدور على البيوت التي تغيب أولادها عن دروسهم، ولكنهم لم يفتحوا له الباب. «حين تزول الغمة نرسل العيال إن أحيانا الله» يرددون من خلف النوافذ الموصدة. عاد من جولته أكثر حنقًا وشكوى لنفيسة. نام ومع أذان الفجر استيقظ وجسده يشتعل بالحرق.

ارتعبت نفيسة ونادت كل الأقرباء الذين هرعوا في نسيان لكل

المحاذير وأتى قرتي بطبيب كتاراكت. مرّ الفرنسي مرتعبًا بين المئات الذين اصطفوا خارج الدار وألقى نظرةً واحدةً على كوش. دون أن يوقع عليه كشفًا استدار ليعود أدراجه: «إنها هي».

لم يترك أحد عتبة الدار طوال أسبوعٍ كامل. باتت القرية كلها صباحها ومساءها يتساقط الواحد منهم تلو الآخر بالوباء اللعين، ولكن أحدًا لم يكن مستعدًا لمغادرة باب دار النور إلا حين تخرج عليهم نفيسة وتخبرهم أن حمى كوش قد تراجعت. بكوا ودعوا وذبحوا. الأطفال كانوا الأكثر عنادًا فلم يستمع أحد منهم لأهله وتسللوا إلى داخل المنزل من السطح وعبر النوافذ والفناء الخلفي. جلسوا في الصحن ورفضوا المغادرة بالرغم من عويل ذويهم. الكل يريد أن يلقي نظرةً عليه، ولكن نفيسة وقفت في صلابةٍ ومنعت أي أحد من أن يراه. سقطت كوكة وماتت بعد مرض كوش بأيام.. تلاها أحد أبناء فاطمة وزوج هوشه العجوز.

بحلول اليوم العاشر تواصلت هجمات الحمى تعزز لديه خيالات الخرف حتى بات كوش العجوز يصدّق ما يراه ماثلاً أمام عينيه ويسمعه بأذنيه. عيناه غائمتان. كلامه غير مفهوم. غير مترابط. تأكله الأوهام ويرى أشباحًا في الغرفة لا يراها سواه. مرت بغرفته خيالات الباشا وطه وريكاردو. سمع صوت أم كلثوم وضحك حين تذكر نكات نجيب. بيد مرتعشة أخرج رسائله القادمة من غابات الأمازون وحاول قراءتها ولكن رؤيته المشوشة خذلته. هل هذا هو الموت إذًا؟ في هذيانه رأى خاله يرتمي في حجره ويبكي. ورأى الورداني في سكرة موتٍ كسكرته. سمع روزفلت وكتشنر وشاهد عباس يقطع

عشاءه ويقوم غاضبًا. ألمته ضربات مسطرة ستيفنز، سمع صوت أخي مصطفى كامل يهدر في عابدين، وضحكات الجمهور في مسرح الإجيبسيانة. اشتتم رائحة ورك ديك زنوبة ورأى حنفي يمسح نظارته المقعرة. أعادته نفيسة قسرًا إلى سريريه فصحبته أمه تدعوه إلى الانضمام إليها هي والخال وخولي الذي لا تزال دماؤه كما هي تبلل أصابعه. رآهم جميعًا يجلسون فوق الجبل يقرؤون كتابه الذي لم ينهه بعد ويضحكون على سذاجته. خاله يناديه بأن الرحم قد مات والمغادرة قد حانت. فقط أجاتا لم تزره -هكذا ظن- احترامًا لنفيسة أو لأنها ستعيش بعده أعوامًا طويلة، ولكن بوارو يجلس هناك يقتل شاربته العظيم. كذلك طه الذي سيعقر. أتاه نجيب وأخبره أنه يلحقه بعد عام وطلب منه ثمن رشوة التراخوما. سمع صرخات سليم ومحسن وعبدو وسبابهم للإنجليز يوم الثورة. صرخت ريا من وسط عقدة المشنقة بصوت متحشرج تخبره أنها تنتظره للانتقام في الجحيم. وسلم عليه هتلر واعدًا إياه بإبادة المصريين جميعًا خاصة السود منهم، ولكن هدى الملائكية شرفت الإيطالي السمين بالبصق عليه وكتابة خطاب مستعر على أضلع كوش تطالب فيه بالاستقلال لجنسها ووطنها. أما أجاتا فكشفت له كيف يموت بوارو، ومنحته تمثالًا آشوريًا وجدته مع زوجها في العراق.

في الليلة الأخيرة حملته نفيسة رغما عنه لتضعه تحت الماء البارد كما اعتادت عدة مرات في اليوم. تحول جلده كما رآه بعين الهذيان في مرآة الحمام المشروخة وهو يرتعش من الحمى إلى صفحات صفراء مزينة بمداد أبيض قوامه عمر من القراءة. رأى على ذراعيه حكايات شهرزاد تدون حتى تتدفق من أصابعه مع جريان الماء

البارد الذي تسقطه زوجته على رأسه. رأى روايات أجاثا تنزل فوق كتفه تدور أسطرها حول جانبيه متماهيةً مع فترت ومسرحيات راسين وفولتير. رأى صدره وقد أضاءت فوقه حروف الغزالي وهو جو ومقالات المؤيد والهلال والكشكول. في جوفه كتابات طه ومحسن. على لسانه جرى حديث ماجدولين وروكامبول وكارنينا ويطامى ديكنز. خرجت من فمه أشعار السهروردي وابن الفارض. بين فلقة إيليتيه تقطرت كتابة بأحرف سود لم يقرأها، ولكنه عرف من مكانها أنها تلك التي كتبها أمثال الكريه. في لحم ظهره المنسحق من سنوات حمل الحقائق ومؤن المطابخ وجثة يوم الثورة شعر بأسطر تنحفر. ترجى زوجته لتخلع المرأة عن دولاب الملابس وتقف بها وراءه ليقرأ ابن الطفيل وهوميروس وكتاب الموتى وابن رشد وميلتون الذي لا يزال يسمعه بصوت أجاثا.

خرجت نفيسة من الحمام لتأتي بغطاء تدثر به جسده المشتعل فخرج خلفها. هرعت من الغرفة حين سمعت صوت ارتطام آتيا من صحن الدار.. وجدته راكعًا على ركبتيه أمام المكتبة متشبهاً برفوفها تتساقط من حوله الكتب.

****تمت****